

2010-06-20

www.tafsir.net

www.almosahm.blogspot.com

التفسير الموضوعي

للسورة القرآنية الكريمة

إعداد

بمختار من علماء التفسير وعلماء القرآن

بإشراف

أ.د. يحيى عيسى

جامعة الشارقة

المجلد السادس
الروح - قافرا

٢٠١٠ هـ - ٥١٤٣١

كلية الدراسات العليا والبحوث العلمية - جامعة الشارقة





الإصدار رقم

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (+971-6-5050550)، فاكس: (+971-6-5050555)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

مَحْفُوظٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (+971-6-5585000)، فاكس: (+971-6-5585099)

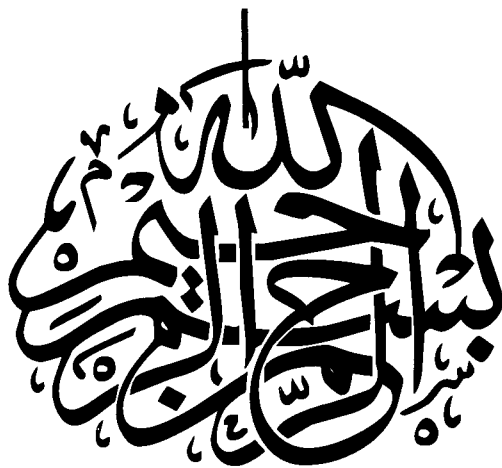
Web site: <http://www.sharjah.ac.ae>

إِلَهِيَّةُ الرَّسْفِيذِيِّ وَالْمَشْرُوقِ

- | | |
|-----------------------------------|--------------|
| أ. د. بَهْطَلِي مَسْلَمِي | ب. أَسِيْنَا |
| أ. د. عِيَادَةُ الْكَبِيْسِي | ب. عَضُوْلَا |
| أ. د. أَحْمَدُ الْبَدَوِي | ب. عَضُوْلَا |
| أ. د. عَبْدُ اللَّهِ الْخَطِيْبَا | ب. عَضُوْلَا |
| د. مُحَمَّدُ عَصَا الْقِضَاة | ب. عَضُوْلَا |
| د. قَاسِمُ مَسْعُوْدَا | ب. عَضُوْلَا |
| د. عَوَادُ الْخَلْفَا | ب. عَضُوْلَا |

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

- د. عبد الرحيم الزقفة
- د. عبد الله محمد سلقيني
- د. عدنان عبد الرزاق الحموي
- د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
- د. عطية محمد عطية
- د. عناف عبد الغفور حميد
- د. محمد السيد محمد يوسف
- د. محمد عبد اللطيف مرجب عبد العاطي
- د. محمد عبد الرحمن الشايع
- د. محمد عصام القضاة
- د. محمد عيادة الكيسي
- د. نايل ممدوح أبو زيد
- د. نشأت محمود الكوجك
- د. هارون نوح علي سليمان
- د. يوسف الشامسي
- د. مصطفى مسلم محمد
- د. عيادة أيوب الكيسي
- د. أحمد محمد الشراقي
- د. ناص سليمان العم
- د. أحمد عباس البدوي
- د. محمد أحمد عيد الكندي
- د. مساعد مسلم آل جعفر
- د. شحادة حميدي العمري
- د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
- د. أبو بكر علي الصديق
- د. أحمد شحروري
- د. أحمد محمد نور إبراهيم
- د. أحمد محمد مفلح القضاة
- د. جمال أبو حسان
- د. طه ياسين ناص الخطيب
- د. عبد الحق عبد الدائم القاضي



سورة الروم^(١)

بين يدي السورة:

تسميتها: تسمى سورة «الروم» وسميت بهذا الاسم عند السلف والخلف، ويدل على هذه التسمية ما روي من حديث عن الأعز المزني من أصحاب رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ: «أنه صلى الصبح فقرأ سورة الروم والتبس عليه، فلما صلى قال: ما بال أقوام لا يحسنون الطهور فإنها يلبس علينا القرآن أولئك»^(٢) واتفقت المصاحف على كتابتها بهذا الاسم، وهكذا ورد في حديث ابن عباس: فيما نزل بمكة حيث سماها «سورة الروم» وذكر السخاوي اسماً آخر هو: ﴿الْمَرَّ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝﴾ [الروم: ١]، وهذا الاسم على ما يبدو من باب تسمية السورة بأول جملة منها^(٣).

عدد آياتها:

ستون آية^(٤).

مناسبتها لما قبلها:

تشابه سورة الروم مع السورة التي قبلها (سورة العنكبوت) أن كلا منهما افتتح بـ ﴿الْمَرَّ﴾ الحروف المقطعة غير مقرون بذكر التنزيل والكتاب والقرآن، على خلاف القاعدة الخاصة في المفتتح بالحروف المقطعة، فإنها كلها قرنت بذلك، وقد ذكر في أول هذه السورة أخبار عن

(١) أسماء سور القرآن الكريم: عبدالله الهنائي: ٢٠٢.

(٢) سنن النسائي (المجتبى) أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ط، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦: ج٢: ص ١٥٦، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ولم يسمه، أسماء السور القرآنية: ٤٢، ٢٠٢.

(٣) السخاوي: جمال القراء: ١/٢٠٠.

(٤) البقاعي: نظم الدرر: ١/١٥.

الغيب^(١)، كما ذكر في السورة السابقة لتنبية السامع والإقبال على الاستماع لما هو معجزة. وسورة العنكبوت «اختتمت بـ (الجهاد) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وبدئت هذه السورة بوعد المجاهدين في سبيل الله بالنصر على الكافرين.

قال البقاعي: ختم سورة العنكبوت بمدح المجاهدين فيه، وأنه سبحانه لا يزال مع المحسنين، وكانت قد افتتحت بأمر المفتونين، فكان كأنه قيل: لنفتننكم ولنعمين المفتنين، ولنهدين المجاهدين، وكان أهل فارس قد انتصروا على الروم، ففرح المشركون وقالوا للمسلمين: قد انتصر إخواننا الأميون على إخوانكم أهل الكتاب، فلتنصرون عليكم، فأخبر الله تعالى بأن الأمر يكون على خلاف ما زعموا، فصدق مصدق، وكذب مكذب، فكان في كل من ذلك من نصر أهل فارس، وإخبار الله تعالى بإدالة الروم فتنة، يعرف بها الثابت من المنزلزل، وكان من له كتاب أحسن حالاً في الجملة ممن لا كتاب له، افتتحت هذه السورة بتفصيل ذلك تصریحاً بعد أن أشار إليه بالأحرف المقطعة تلويحاً غيبياً، وشهادة دلالة على وحدانيته وإبطال الشرك، فأثبت سبحانه أن له جميع الأمور، وأنه يسر المؤمنين بنصره من له دين صحيح الأصل وخذلان أهل العرافة في الباطل والجهل، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين^(٢).

كما أن التوحيد في هذه السورة جاء مفصلاً للمجمل في السورة السابقة مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: ١٩] وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وفي هذه السورة جاء التفصيل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [٢٠] وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ﴾ [٢١] وَمِنَ آيَاتِهِ.

(١) د. محمد وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٤٢/٢١.

(٢) البقاعي: نظم الدرر: ٢/١٥.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ النَّسِيكَمُ وَالْوَنِيكَمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَنِينُونَ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٨﴾ [الروم: ١٩-٢٧].

محورها:

إن محور سورة الروم هو زرع القيم الإيمانية، وربط المسلمين بما يدور حولهم، في الكون كله، وليصل ما بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها، ثم ينتقل بها إلى العالم الآخر، وتحدث السورة عن أصول العقيدة الإسلامية في إظهارها العام، وميدانها الفسيح، وهي التوحيد وصفات الله، والإيمان بالرسالة النبوية والقرآن والبعث والجزاء في الآخرة، وتربط السورة بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة، أنه دين الفطرة، الإيمان بالله وعدم الشرك والاستقامة على ذلك، وتزرع السورة القيم الإيمانية والأخلاق القرآنية كالصبر، وتعرض أهوال يوم القيامة للبطشة والإنذار. ويقول سيد قطب: «وجو السورة وسياقها معاً يتعاونان في تصوير موضوعها الرئيسي: وهو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها وسنن الكون ونواميس الوجود، وفي ظلال هذه الارتباطات يبدد أن كل حركة وكل نامة، وكل حادث وكل حالة، وكل نشأة وكل عاقبة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة برباط وثيق محكمة بقانون دقيق وأن مرد الأمر فيها كله لله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وهذه الحقيقة بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير»^(١).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/٢٧٥٦.

أسباب النزول:

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة، حين غلبت فارس الروم، وكان الروم دينهم النصرانية، والفارس مجوس يعبدون النار، وسيطرون على الجزيرة العربية، ووجد المشركون من أهل مكة في هذا الحادث فرصة للاستعلاء على المؤمنين، وأنهم سيتصرون على المؤمنين، كما انتصر الفرس على الروم وهم أهل كتاب. فنزلت هذه الآيات تبشر بأن أهل الكتاب من الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين، وبهذه الغلبة يفرح المؤمنون، الذي يحبون انتصار ملة الإيوان من كل دين^(١).

مقاطعها:

وقد قسمتُ السورة إلى عشرة مقاطع:

المقطع الأول: الإخبار عن غياب المستقبل

﴿المد ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَلْعَمُونَ ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ١-٧]

هذه الآيات الكريمة من المعجزات الغيبية التي تدل على أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل، وتدل على صدق نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير ووقع كما أخبر^(٢)، وهزم الروم الفرس، وفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس لأن

(١) السابق: ٥/ ٢٧٥٤. البقاعي: نظم الدرر: ٢/ ١٥.

(٢) الحافظ بن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٠٤. النسفي عبدالله بن أحمد، تفسير النسفي، مدارك

التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٩٠.

الروم أهل كتاب والفرس مجوس يعبدون النار، وليس لهم كتاب وصادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر، قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران، ينصر من يشاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه الرحيم بأوليائه وأحبائه، فوعده بالنصر حق وكلامه صدق ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم عمي عن أمر الآخرة، وعلمهم محصور في أمور الدنيا، وفي هذا يقول الرازي: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» أي أن علمهم منحصر في الدنيا كما هي، يعلمون ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها، فهم عن الآخرة غافلون^(١)، وفي هذا إشارة إلى أنهم عرفوا القشور ولم يعرفوا اللباب، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم. أي أنهم غافلون عن البعث والنشور وسائر أوضاع الآخرة ولقاء الله تعالى^(٢).

دروس وعبر:

- * في هذا المقطع من السورة إعلام بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، لأنه أخبر عن مغيبات في المستقبل ستقع، ووقعت كما أخبر سبحانه وتعالى، وفي هذا دليل على صدق نبوة محمد ﷺ، فانتصر المؤمنون من الروم وهم أهل كتاب على الفرس المجوس وفرح المؤمنون.
- * إن أكثر الناس يعملون للدنيا من اكتساب الأموال ومعرفة شؤون الحياة الدنيوية لكي يتمتعوا بزخارف الحياة والتنعم بملاذها، وينسون أمور الآخرة الباقية فما الحياة الدنيا في الحقيقة الا طريق يتزود المرء منها إلى الآخرة بالطاعة والأعمال الصالحة.
- * كل ما في العالم بإرادة الله وقدرته، فلا يتم شيء إلا بعلمه، وهو القوي العزيز في نعمته والرحيم لأهل طاعته.

(١) الرازي: مفاتيح الغيب: ج٢٧ / ٨١ مجلد / ٧.

(٢) المدرس الشيخ عبدالكريم: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٢٨٤.

المقطع الثاني: التفكير بمخلوقات الله يدل على وجوده

وهو الذي يعيد خلق الإنسان يوم القيامة

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السَّوَاءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِي الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الروم: ٨-١٦]

وفي هذا المقطع خطاب للمشركين ليتفكروا بقولهم ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض عبثاً، فهم وإن ملكوا الدنيا فإنها فانية لا تبقى لهم.

قال الشيخ البرسوي: أجل معين، قدره الله تعالى لبقائها لا بد من أن تنتهي إليه، وهو وقت قيام الساعة^(١)، وان لكل مخلوق فيها أجل سيأتي إذا جاء أجله. ثم يحاسب على عمله فيثاب المحسن ويعاقب المسيء.

هؤلاء المشركون الجاحدون ألم ينظروا مصير من كان قبلهم من الأمم كيف أهلكهم الله سبحانه بتكذيبهم رسالهم، وتلك الأمم كانت أشد منهم قوة كما أشار سبحانه وتعالى في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْعَالَمِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ

(١) البرسوي: إسمايل حقي البرسوي: تنوير الأذهان في تفسير روح البيان: ٣/ ١٧٨.

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤] فأهلكهم الله بجرمهم ودمر بنيانهم وعمرانهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ومصيرهم إلى نار جهنم وهي عاقبة المسيئين الذين استهزؤوا بآيات الله ورسله. وأنكروا البعث والنشور، فقل لهم: الله الذي خلق الخلق ثم يعيده يوم القيامة ويوم القيامة يفتضح أمرهم حيث يحشرون للحساب، ولا يتكلمون، وتنقطع حججهم، قال الزجاج: «أعلم الله عز وجل أنهم في القيامة ينقطعون في الحجة انقطاع يتسين من رحمة الله، والمبلس الساكت المتقطع في حجته اليأس من أن يهتدي إليها»^(١)، ولا تشفع لهم أصنامهم التي عبدوها، بل يتبرؤون منها وتبرأ منهم. وكرر لفظ قيام الساعة، لأن قيامها أمر عظيم وبعد الحساب يتفرون فريق المؤمنين في الجنة وفريق الكافرين في النار فالمؤمنون المتقون الذين صدقوا بالله ورسوله، وأدوا الفرائض والسنن يفرحون وينعمون ويسرون، وأما الذين كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن (ولقاء الله) يعني البعث بعد الموت فأولئك في عذاب جهنم مقيمون^(٢).

دروس وعبر^(٣):

- * الحث على التفكير والنظر في المخلوقات الدالة على وجوده سبحانه وتعالى، ووحدانيته بانفراده بخلقها، وخاصة المشركين تتضمن الآيات تهديداً لهم لانكارهم الإله واليوم الآخر، وهذا نقص كبير في التفكير، والعامل من يعمل لما بعد الموت.
- * النظر إلى الأمم الماضية المكذبة كيف كانت عاقبتها لأنها كذبت رسلها، وفي ذلك دروس وعبر، فمن عرف ذلك يجب أن يبادر إلى الإيمان بالله، والتصديق برسله وطاعته فلا بد من أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح.
- * إن المال والقوة لا تنفعان صاحبها يوم القيامة وقد أقام الأدلة على قدرته بأن من بدأ الخلق قادر

(١) الزجاج أبي اسحق إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه: ٤: ١٧٩.

(٢) أبو الليث السمرقندي: تفسير بحر العلوم: ٧/٣.

(٣) د. وهبة الزحيلي: ٥٦/٢١.

على إعادته يوم القيامة ويكون الناس فريقين، فريق في الجنة وفريق في النار، فالمؤمنون في جنات الخلد ينعمون ويكرمون ويقيمون، والكافرون في عذاب جهنم يقيمون ويهانون ويعذبون.

المقطع الثالث: تنزيه الله وحده، وأدلة وجوده وربوبيته سبحانه وتعالى

﴿ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السَّيِّئَاتِ وَالْوَنُكْرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَا نُكِّرُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْبِئَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتٌ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ١٧ - ٢٧].

وفي هذا المقطع أولاً: أمر من الله تعالى بتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص في كل الأوقات، مساءً وصباحاً وعشياً وظهراً، وهو المحمود في السموات والأرض، يحمد أهل السموات والأرض ويصلون له.

فهو الله تعالى الذي يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبات من الحب والحب من النبات، والحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، ويحيي الأرض بالنبات بعد أن تكون يابسة، وكذلك يحيي الإنسان بعد موته، فكما يخرج النبات من الأرض، كذلك يخرجكم من قبوركم يوم القيامة للبعث والحساب، قال القرطبي: بين تعالى كمال قدرته، فكما يحيي

الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث^(١).

وثانياً: ذكر الله بعض آياته الظاهرة التي تدل على ألوهيته وربوبيته وهي:

١ - خلق البشر من تراب، فهم مخلوقون من آدم وادم مخلوق من تراب، وهذا دال على عظمته وكمال قدرته ثم تطور الخلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة.

٢ - وخلق الزوجة من نفس الرجل لتسكن نفسه، وزرع بينهما المودة والرحمة والألفة والشفقة وفي ذلك عبر عظيمة لإدراك حكمة الله سبحانه، والتفكر في قدرته وعظمته.

٣ - ومن آياته خلق السماوات والأرض الدالة على كمال القدرة.

٤ - واختلاف ألسنتكم وألوانكم باختلاف لغاتكم من عربية وأعجمية، وألوانكم من أبيض وأسود وأحمر، ومنامكم بالليل راحة لأبدانكم، وسعيكم في طلب الرزق في النهار إن في ذلك دلالة على كمال قدرته.

٥ - ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفاً من الصواعق وطمعا في المطر الذي ينزل من السماء فينبت الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع، كل ذلك عظات وعبر لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله.

٦ - ومن آياته العظيمة أن تستمسك السماوات بأمره وقدرته بغير عمد، وأن تثبت الأرض بحكمته وتدبيره فلا تنكفي ولا تنقلب بمن فيها، ثم إذا دعاكم الله إلى الخروج من قبوركم إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب، ولا يتأخر أحد عن ذلك. فله عز وجل كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن خلقهم، ويتصرف بهم كما يشاء وكلهم له منقادون خاضعون لأمره تعالى. فهو سبحانه الذي أنشأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء. والإعادة أهون عليه من البراءة وهي هينة، قال المفسرون: خاطب عباده بما يعقلون حسب منطقتهم وأصولهم، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي الوصف

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١٤، المجلد ٧.

الذي ليس لغيره، وله العظمة والسلطان في السماوات والأرض ليس كمثلته شيء وهو القاهر لكل شيء الحكيم في كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة^(١).

دروس وعبر:

* أمر الله سبحانه بتزويجه عن كل سوء، وعن جميع صفات النقص، ووصفه بكل صفات الكمال، والتسبيح والتحميد على نعمه وآلائه: ﴿ فَسُبِّحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧].

* أمر الله تعالى بإقامة الصلوات الخمس المفروضة، ووجوب أدائها بأوقاتها المفروضة، حتى ينال رضوان الله.

أدلة الربوبية والألوهية والوحدانية:

* فقد خلق أصل الإنسان من تراب والفرع كالأصل، ﴿ إِذَا أَنْتَ بَشَرٌ نَنْشَرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] إشارة إلى الحركة والقوة.

* وبقاء النوع الإنساني بالتوالد، واحاط رباط الزوجية بأن جعل بين الزوجين المودة والرحمة والشفقة.

* خلق السماوات والأرض، والأنفس، واختلاف الألوان والأصوات، وما يتعرض له الإنسان، من الحركة في النهار والنوم في الليل، وخلق البرق والرعد، وأنزل المطر من السحاب لإحياء الزرع، وإنبات النبات، وإمساك السماوات والأرض بقدرته وتديره وحكمته كل ذلك دليل على كمال القدرة الإلهية على الحشر: وأن ما في السماوات وما في الأرض وما بينها خلقا وملكا وعبيدا وتصرفات كل له طائعون متقادون لا إله إلا هو الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ما أَرَادَهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَرِدْ لَمْ يَكُنْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/٢١٨، الرازي: التفسير الكبير، المجلد ٩/٩٦. والزحيلي: التفسير المنير: ٢١/٦٩.

(٢) أ.د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/٦٤.

المقطع الرابع: إثبات الوحدانية وبطلان الشرك

والأمر باتباع الإسلام الدين الحق

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنزَلْنَا فِيهِ سَوَاءً تَحَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِينَ الْكَفَرُوكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿ مِّنْ مَّبِينٍ إِلَيْهِ وَاَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَتَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا سِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٢٨-٣٢].

وفي هذا المقطع أثبت الله وحدانيته وأبطل عبادة المشركين للأوثان فضرب لهم مثلا واضحا واقعيا من أنفسهم فحاطبهم: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده المملوك له شريكا له في ماله الذي يملكه؟ فإذا لم يرض لنفسه الشريك فكيف يرضاه الله الخالق؟.

ثم يقول: لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، كما أنكم لا تحافون عبيدكم كما تحافون الأحرار أمثالكم، وهذا التوضيح للذين يستعملون عقولهم في تدبر هذا المثل والأمثال عموما، وليس هناك حجة ولا معذرة بعد هذا للمشركين لأن اشراكهم يكون باتباع أهوائهم، وتقليد أسلافهم ولا يستطيع أحد أن يهدي من أضل الله، وليس لهم منقذ من عذابه. ثم حثهم على اخلاص الدين لله، والإقبال على التمسك بالإسلام، الدين الحق، دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فطرة التوحيد، كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه...»، وهذه الفطرة لا تتبدل ولا تتغير منه سبحانه، ولكن أكثر الناس لا يفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا خلقهم.

فأقيموا وجوهكم على الدين الحق، وارجعوا إلى ربكم بالتوبة، وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم وأقيموا الصلاة كما أمركم، ولا تكونوا من المشركين بالله، الذين اختلفوا في دينهم

وغيروه وبدلوه فأصبحوا شيعة وأحزابا يتعصب كل لهواه الذي استحدثه، وفرح بباطله الذي ظنه حقا وفي هذا يقول ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء^(١) أي هم الذين على الحق وغيرهم على الباطل.

دروس وعبر:

- * الشركة بين المتفاوتين في الدرجة مرفوضة، كالشركة بين السيد والعبد، ولما كان الخلق كلهم عبيدا لله فلا يمكن أن يكون العبد شريكا لله في العبودية.
- * الإسلام دين الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة التوحيد، الإيثار بوجود إله واحد لا شريك له. فيجب على الإنسان اتباع هذا الدين وعدم تغييره.
- * أمر الله بإخلاص العبودية له، والرجوع إليه بالتوبة من الذنوب، والإخلاص في العمل والطاعة له سبحانه، والخوف منه بامتثال أوامره، واجتباب نواهيه وطلباً لرضاه.

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير: ٦/٣٢٣.

المقطع الخامس: لجوء الناس إلى الله عند الشدائد وإعراضهم عند زوالها

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَكْتُمُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٧].

وفي هذا المقطع يشنع الله على المشركين، الذين يدعون الله في وقت الشدة فقط، ثم إذا أزال الله عنهم تلك الشدة عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك، أي أن المشركين إذا أصابهم الفقر أو المرض، أو أي نوع من أنواع البلاء فإنهم يلجأون إلى الله، ولا يلجأون إلى ما يعبدون من الأصنام لأنهم يعلمون أنه لا يكشف عنهم الضر إلا الله فيخضعون وينيبون إلى الله، فإذا كشف عنهم وأعطاهم الرخاء والصحة، وخلصهم من الضر والبلى، يعودون إلى عبادة الأصنام على خلاف المؤمنين فالؤمنين إذا أصابه الضر صبر، وإذا أصابه الخير شكر.

ثم يقول تعالى ليكفروا بنعم الله عليهم وليتمتعوا في هذه الدنيا، فسوف يعلمون عاقبة هذا النعيم الفاني يوم القيامة إن لم يطيعوا الله، قال القرطبي: وهذا تهديد ووعد^(١) لهم، فمتاع الدنيا ونعيمها زائل وقصير، وعذابه وعقابه في الآخرة شديد. قال النسفي: «فسوف تعلمون وبال تمتعكم^(٢)». ثم أنكر الله سبحانه على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة الأوثان التي عبدوها بدون دليل، وإنما هي من ضلالاتهم وشركهم الظاهر.

ثم بين الله سبحانه أنه إذا أنعم على بعض الناس نعمة فرح بها واقتخر على غيره، وإذا أصابته شدة سخط ويئس من رحمة الله، ولم يعملوا أو يشاهدوا أن الله واسع ويوسع الرزق لمن يشاء من

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٢٦/١٤ المجلد ٧.

(٢) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٧٧/٢.

عباده امتحاناً لهم، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء، فهو المتصرف بحكمته وعدله، فالمؤمن يرضى بكل ما يصيبه فيها ولا ييأس، والكافر ييأس لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

دروس وعبر:

- * إن المشركين يلجأون إلى الله في وقت الشدة فقط فإذا مسهم المرض أو الضر لجأوا إلى الله وإذا أزال عنهم عادوا إلى شركهم وكفرهم، فهؤلاء مصيرهم إلى النار.
- * إن الكافرين لا حجة عندهم على كفرهم، فلم ينزل عليهم في شأن إقرار كفرهم كتاباً، ولا جاءهم رسولاً، فاتبعوا أهواءهم.
- * الله سبحانه الذي يرزق العباد فيوسع الرزق على من يشاء من عباده المؤمنين والكافر، على وفق الحكمة والعدل فالمؤمن يفوض الأمر لله إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، أما الكافر فيقنط من رحمة الله.

المقطع السادس: الحث على الإنفاق لذوي الأرحام والتحذير من المال الحرام

﴿ فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوَةٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن ذَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٨-٤٠].

في هذا المقطع يخاطب الله نبيه ﷺ، والمراد هو وأمته^(١)، فيأمر الله سبحانه بإعطاء القريب المحتاج من البر والصلة، والمسكين والمسافر الذي انقطع في سفره، أعطه من الصدقة والإحسان

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٢٧/١٤، المجلد/٧.

وذلك الإحسان خير لمن ابتغى وجه الله بعمله ونوال ثوابه وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية عند الله.

أما إذا أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى^(١) لهم فلا ثواب له في هذه العطية عند الله، وإنما الذي يربو عند الله الزكاة التي يراد بها وجه الله، فهي التي يضاعفها الله لمعطيتها ويشبهه عليها، قال ابن كثير: وإن كان لا ثواب فيه إلا أنه مباح^(٢)، وقال ابن عباس: الربا ربوان ربا لا يصح، وهو ربا البيع وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل للرجل يريد فضلها وإضعافها ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ لِيَرْبُؤَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم أكد الله تعالى في هذا المقطع أيضاً أنه هو الرازق الذي خلق الإنسان، ثم يميتة، ثم يحييه يوم القيامة للحساب ليجازي كل إنسان على عمله، فهل يستطيع أحد من الأصنام التي تعبد من دون الله أن يفعل ذلك تعالى الله وتنزه وحده وتقدس عن الشبيه والمثيل والشريك.

دروس وعبر:

- * من مظاهر البر والإحسان النفقة على المحارم والمحتاجين من المساكين وأبناء السبيل.
- * إذا أعطى الإنسان عطاء لأجل الحصول على زيادة فهو جائز وإن كان لا ثواب فيه، وهو ربا حلال، أو هبة الثواب أما ربا البيع، وربا القرض فهو حرام، أما إذا كان العطاء من أجل ثناء الناس عليه، وليحمدوه على ذلك، فلا ثواب فيه في الدنيا، ولا أجر له في الآخرة.
- * الله سبحانه هو القادر على إحياء الناس يوم القيامة وبعثهم من قبورهم، لا إله إلا هو الخالق الرازق المحيي المميت المنزه عن الشريك.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣٢٤/٦.

(٢) السابق نفسه، الدر المنثور: ١٥٦/٥.

المقطع السابع: جزاء المفسدين والمؤمنين

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ [الروم: ٤١-٤٥].

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه أن ما أصاب الناس وما يصيبهم بسبب فسادهم وبما كسبت أيديهم من المعاصي والذنوب. قال ابن كثير: أي النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة^(١)، فليذيقنهم الله وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم في الآخرة، لعلهم يتوبون ويتركون المعاصي والآثام.

وقل يا محمد لهؤلاء المشركين سيروا في البلاد، وانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف خرب الله ديارهم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر من بعدهم، لأنهم كفروا بالله فأهلكم.

﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ [الروم: ٤٣] قال الزجاج، ونقل عنه القرطبي: أي قصد له، واجعل جهتك اتباع الدين القيم من قبل أن تأتي الساعة وتقوم القيامة، فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، فيومئذ يتفرقون فيصرون فريق في الجنة وفريق في السعير^(٢)، فمن كفر بالله فعليه أوزار كفره والخلود في النار ومن عمل صالحا وأطاع الله فلأنفسهم يقدمون الخير، ويلقون ما أعد الله لهم في دار النعيم، فيجازيهم الله من فضله الذي وعدهم به ويعاقب الكافرين بعدله.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣٢٦/٦.

(٢) الزجاج: معاني القرآن وعرابه: ١٨٨/٤، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٣١/١٤.

دروس وعبر:

- * الشرك أعظم الفساد، وهو الذي يؤدي إلى ارتكاب جميع المعاصي والذنوب والانحراف، ويسبب القحط، ويذهب البركة.
- * ظهور الفساد في البلاد يؤدي إلى هلاك الحرث والنسل ويوجب العقاب في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا كثرة الحروب، وقلة المطر، والغلاء.
- * الاعتبار بالأمم السابقة التي كذبت رسلها كيف كان مصيرها.
- * الناس مدعوون إلى اتباع تعاليم الإسلام والتمسك به والعمل بما فيه.
- * ينقسم الناس في الآخرة إلى فريقين بحسب أعمالهم فالذي يعمل بأوامر الله ويجتنب نواهيه ففي الجنة، والذي يخالف تعاليم الله والرسل فيلج النار، فمقتضى العدل أن يجازى الكافرون ويعاقبوا على كفرهم، وأن يكافأ العاملون المؤمنون بالجنة^(١).

(١) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٩٩/٢١.

المقطع الثامن: الرياح والأمطار دالة على قدرة الله، وتشبيه الكفار بالموتى

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُمِلِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْفَ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَرَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمِيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

[الروم: ٤٦-٥٣].

وفي هذا المقطع يذكر الله سبحانه نعمه وفضله على خلقه بإرسال الرياح والأمطار الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، فيرسل الرياح مبشرة بالخير والبركة ونزول المطر الذي يجيي الأرض بعد يبسها، وينبت الزرع، ويخرج الثمر، وليذيق الناس من رحمته بالمطر الذي يجيي به البلاد والعباد وتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته، وليتمكن الناس من التنقل في البلاد والأقطار طلبا للرزق بالتجارة في النقل البحري، وبشكر الله تعالى على هذه النعم الظاهرة والنعم الباطنة التي لا تعد ولا تحصى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تسليية للنبي ﷺ بأنه وان كذبه كثير من قومه فقد كذبت الرسل من قبله الذين أرسلهم الله تعالى مع ما جاءوا به من الدلائل الواضحات، وانتقم الله منهم أي من الذين كذبوا رسلهم، ونجى المؤمنين.

ثم أبان تعالى كيفية خلقه للسحاب الذي ينزل منه المطر فقال الله الذي يرسل الرياح أي يبعثها فتتحرك السحاب وتسوقه أمامها فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفا أو كثيفا فيجعل من القليل كثيرا: ثم يجعله قطعاً متفرقة، وتارة يأتي مشعباً بالرطوبة، فينزل المطر من وسط ذلك

السحاب، فإذا أصاب بعض البلاد والعباد فرحوا بنزوله عليهم ووصوله إليهم، وإن كانوا من قبل نزوله عليهم يائسين من نزوله، فكانت الفرحة كبيرة في نفوسهم لهذا الضيف الذي كادوا أن ييأسوا من نزوله.

فانظر يا محمد إلى آثار رحمة الله بهذا المطر كيف أحيا الأرض بعد موتها، قال ابن كثير: ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتِ﴾ [الروم: ٥٠]، أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات^(١) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] قال البرسوي: أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياء الإنسان بعد موته في الحشر، ثم قال: واعلم أن الله سبحانه زين الأرض بآثار قدرته، وأنوار فعله وحكمته، فأنبت الخضرة، وأضياء الزهر^(٢).

ثم بين حال الكافرين وتكبرهم للمعروف، وعدم ثباتهم على منهج واحد، فنراهم يفرحون بالخير، ثم ييأسون وينقطع رجاؤهم من الخير إن تعرضوا لسوء فقال تعالى: ولئن بعثنا عليهم ريحا ضارة أو سامة على نبات أو زرع أو ثمر، فأرأوا ذلك الزرع قد اصفر، ومال إلى الفساد بعد خضرته^(٣)، لظلوا ييحدون، أي فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا نعمة الله عليهم.

ثم نبه سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصيح ولا تذكير فقال: فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع من كان في أذنيه صم تلك المواعظ، وهذا مثل ضربه الله للكفار فشبهم بالموتى وبالصم والعمي، وما أنت يا محمد بهاد ومرشد من أعماه الله عن الهدى، وما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون وينقادون لطاعة الله.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٢٩.

(٢) البرسوي: تنوير الأذهان: ٣/ ١٩١.

(٣) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٠٧.

دروس وعبر:

* أفام الله سبحانه الأدلة القاطعة على وحدانيته بإرسال الرياح والأمطار، فالرياح مبشرات بالمطر والخصوبة وعند هبوبها تسيير السفر وتنتقل البضائع والركاب من مكان إلى آخر، وفي ذلك دليل على قدرته بإحياء الأرض بعد موتها، وكذلك دليل على البعث والنشور.

* النبوة والرسالة من نعم الله كذلك، فقد أرسل الله الرسل والأنبياء بالمعجزات والأدلة على نبوتهم فكذبوهم وسخروا منهم، وأذوهم فانتقم الله منهم ونصر المؤمنين، ونجاهم، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين في كل زمان ومكان أن الله معهم وسينجيهم وينصرهم على القوم الكافرين والعاقبة للمتقين.

المقطع التاسع: أطوار حياة الإنسان، وقسم المجربين في الآخرة

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: ٥٤-٥٧].

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي خلق الإنسان من أصل ضعيف وهو النطفة، ثم إنه هو تعالى الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالا بعد حال، فجعل النطفة علقة، ثم مضغة، ثم كون عظاما، ثم كسا العظام لحما، ونفخ فيه من الروح، ثم أخرجها من بطن أمه ضعيفا واهن القوى، ثم يشب قليلا قليلا فيكون صغيرا ثم جعل من بعد هذا الضعف قوة الشباب وهو دور القوة، وبعد ذلك يأتي دور ضعف آخر وهو ضعف الهرم

والشيخوخة فتضعف القوة والحركة، وهذا كله دليل على قدرة الله الخالق يخلق ما يشاء، من ضعف وقوة وشباب وشيب، وهو العليم بخلق ما يشاء، من ضعف وقوة وشباب وشيب، وهو العليم بتدبير الخلق القدير على ما يشاء، قال الشيخ المدرس: وهو العليم بكيفية الخلق القدير على تنفيذ ما بعلمه، ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس للحساب والميزان يقسم المجرمون أنهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة أي زمانا قليلا وذلك لقله زمانهم في الحياة الدنيا بالنسبة إلى بقائهم في البرزخ أو موقفهم الطويل في الحشر^(١)، ومثل ذلك العزوف عن تقدير الحقيقة والواقع في مدة اللبث، كانوا يعزفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب^(٢) فهم كاذبون في قسمهم وحلفهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كما كانوا يكذبون في الدنيا.

ثم ذكر جواب المؤمنين لهم في موقف يوم القيامة، وهم المؤمنون بالآخرة، لقد لبثتم في علم الله وقضائه مدة طويلة من أيام الدنيا، ولكنكم كنتم منكرين للبعث، فهذا هو اليوم الذي كنتم تنكرونه، وفي ذلك اليوم لا ينفع الكافرين والظالمين اعتذارهم ولا يقال لهم ارضوا بركم بتوبة أو بطاعة، فما تنفعهم التوبة لأن وقتها في الدنيا، وهي دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء لا عمل فيها.

دروس وعبر:

* إن أطوار خلق الإنسان الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذه الآيات وهو الانتقال والتحول من حال إلى حال ومن مرحلة إلى أخرى دليل على قدرة الله الخالق سبحانه وتعالى الخالق المبدع، ولا يستطيع ذلك أحد غير الله سبحانه فهو وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف، وهو العليم بتدبيره، القدير على إرادته، المتصرف في مخلوقاته والفعال لما يريد كيف يشاء.

(١) الشيخ عبدالكريم المدرس: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٩٩.

(٢) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١١٧.

- * إن الحياة الدنيا هي دار العمل، ويقبل الله توبة عبده فيها، فإذا قامت القيامة، أو جاء الموت لا تنفع التوبة وينال الإنسان جزاءه على ما قدم، فيثاب المحسن، ويعاقب المسيء وفي ذلك اليوم يقول المؤمنون للكافرين: هذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه واقعا مشاهدا.
- * إن عمر الدنيا قصير جدا إذا ما قورن بالآخرة، والكفار يكذبون في الآخرة كما كانوا يكذبون في الدنيا، ويصرفون عن الحق فيقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة.

المقطع العاشر: ضرب الأمثال للعبرة والموعظة، وأمر النبي ﷺ

بالصبر على الأذى والدعوة

﴿ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِئْتَهُمْ بِتَايَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: ٥٨-٦٠].

في هذا المقطع يبين الله سبحانه أنه بين للناس في هذا القرآن الدلالة على وحدانيته، وعلى صدق رسوله ﷺ، وعلى اليوم الآخر، بما يحتاجون إليه من الأمثال والمواعظ، والأخبار والعبر التي توضح الحق وتزيل اللبس، ولكن الكفار لو جئتهم يا محمد بكل المعجزات المادية المحسوسة، كفلق البحر والعصا التي جاء بها موسى ﷺ لقومه، وإبراء الأكمه والأبرص التي جاء بها عيسى ﷺ وغير ذلك من المعجزات التي يطلبونها كانشقاق القمر ونحوه، لقال الكفار: ما أنتم إلا قوم مبطلون، أي تتبعون الباطل والسحر، فهم معرضون عن الإيثار، وترتب على إعراضهم عن الإيثار عنادا واستكبارا أن ختم الله على قلوبهم، والله يختم على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن الكريم لإصرارهم على الكفر واتباع الخرافات، وما وجدوا عليه آباءهم^(١).

(١) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٢٢.

ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ومخالفتهم، واستمر على ما أنت عليه في تبليغ رسالتك، فإن وعد الله الذي وعدك بالنصر عليهم لحق لا شك فيه، وإن النصر لله ولأتباعك من المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقول الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فإنهم ضالون.

دروس وعبر:

* إن القرآن الكريم وأمثله التوضيحية، وبيانه الواضح ينبه على التوحيد، وصدق نبوة محمد ﷺ فهو المعجزة الكبرى، والاستمرار على الدعوة إلى الله، والصبر على الأذى من قبل المعاندين.

* الثبات على الدين الحق دين الإسلام، وعدم التأثر بسفاهات الكفار والمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

* إن الذين كفروا قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا يتفكرون بالدلائل القرآنية، والمعجزة القرآنية، والمعجزات الحسية، فهم عديمي الفائدة، بسبب عنادهم، وسوء استعدادهم.

الخاتمة:

القرآن الكريم المعجزة العقلية الكبرى الباقية، تحدى العرب قديماً على أن يأتوا بمثل سورة منه، وما زال هذا التحدي، وقد افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة للتنبيه على هذا الإعجاز، وهذا التحدي، وتنبيه السامع على الاستماع بقلبه لما يلقي بعدها، وما جاء بعدها إعجاز آخر من نوع آخر، إنه الإعجاز الغيبي، حيث أنبأت السورة عن انتصار الروم على الفرس في بضع سنين بعد أن انتصرت الفرس على الروم، قبل وقوعه، وقد وقع هذا الخبر كما أخبر القرآن فانتصرت الروم، وفرح المؤمنون من المسلمين بهذا الانتصار، لأن الروم كانوا من أهل الكتاب دينهم النصرانية، والفرس دينهم المجوسية، وهذا الإعجاز الغيبي يثبت نبوة محمد ﷺ، لأنه أمر خارق

للعادة أتى على لسان رجل أُمي، لا علم له بالغيب إلا من علام الغيوب وبهذا الإعجاز الغيبي الذي يعزز صدق ما جاء به النبي ﷺ يجب على الناس جميعاً اتباع ما جاء به.

وتناولت السورة حقيقة المعركة بين المؤمنين والكافرين، فهي معركة قديمة مستمرة لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل، وخير وشر، فالشيطان يحشد أنصاره لإطفاء نور الله، بغواية الناس وإضلالهم وإبعادهم عن الحق فمن تبعه كان شيطاناً، ومن عصاه كان من عباد الله المخلصين، وقد جاء في السورة شواهد ودلائل على انتصار الحق على الباطل في كل العصور وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ثم تنتقل السورة إلى العالم الآخر بعد عالم الأرض، إلى المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الدالة على مقدرة الله سبحانه وتعالى، ووحدانيته وعظمته، ليرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد، ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم، ويتطلع إلى السماء والآخرة ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار... ويعرف قيمته هو، وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله، فيؤدي دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام^(١). فلعظمة الله تخضع رقاب العباد، وتعنوا له الوجوه.

وتحدثت السورة عن مصير أهل الكفر والضلال في يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب حيث يكون أهل الكفر في العذاب، وأهل الإيمان في النعيم وتلك نهاية المطاف لأهل الكفر وأهل الإيمان.

وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش الذين لم تنفعهم الآيات والنذر ولم يعتبروا، وشبههم الله بالموتى الذين لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك تسلياً للنبي ﷺ عما كان يلقاه من أذى المشركين للصبر على أذاهم حتى يأتي النصر المؤكد من الله تعالى.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٢٧٥٥/٥.

سورة لقمان

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسمها:

تسمى: سورة لقمان. وهو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير، وعرفت به من لدن الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا الظهر، فنسمع منه الآية بعد الآيات من سورة لقمان، والذاريات ^(١).

وجه التسمية:

ذكر قصة لقمان عليه السلام وحكمته، ووصاياه لابنه، حيث لم يرد له ذكر في غيرها من السور ^(٢).

ب - فضلها:

ما ورد من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم لها في صلاته، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم.

ج - السورة مكية:

فقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزلت سورة لقمان في مكة ^(٣).

- (١) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها. باب الجهر بالآية أحياناً في صلاة الظهر والعصر. حديث رقم (٨٣٠)، (١/٢٧١). والنسائي في سننه: كتاب الافتتاح، باب القراءة في الظهر حديث رقم (٩٧٢)، ١٦٣/٢ وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه ص: ٦٤.
- (٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٧/٢١).
- (٣) انظر: دلائل النبوة (١٤٢/٧) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٣/٦) وزاد نسبه لابن مردويه.

د - عدد آياتها :

آياتها أربع وثلاثون آية في عد أهل الشام، والبصرة، والكوفة^(١).

هـ - محور السورة :

بيان الآيات والنعم، والدعوة إلى الإيمان والشكر.

و - المناسبات :**١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها :**

إن لقمان عليه السلام جمع بين التمتع بنعمة الحكمة التي وهبها الله تعالى له، وشكر تلك النعمة بالدعوة إلى الله، وإخلاص النصح لعباد الله.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :

الاستمرار بالتذكير بالنعم، وتأكيد التحذير من الاغترار بلهو الحياة وزخرفها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها :

في خاتمة سورة الروم حديث عن المجرمين المكذبين بالبعث، وبآيات الله، وفي فاتحة سورة لقمان حديث عن المحسنين بذكر أوصافهم وجزائهم فكان في ذلك تقابل أدى إلى التكامل في الكلام على أصناف البشر من مؤمن وكافر.

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها :

مقاطع السورة الكريمة تدور كلها في فلك تعداد النعم بأنواعها الحسية والمعنوية والإيمانية، وما يوجبه ذلك من إيمان بالمنعم، وشكر للنعم.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٨/٢١) والبيان في عد آي القرآن للداني (٢٠٦).

٥ - المناسبة بين مضمون السورة، ومضمون ما قبلها:

تتلخص هذه المناسبة بالتكامل، والتقابل.

فالتقابل في حديث سورة الروم عن صراع ملوك الروم والفرس. وفي سورة لقمان عن حكمة الفرد المؤمن.

والتكامل في تنوع الآيات، وتفصيل المواقف والعظات في باقي السورتين^(١).

ثانياً: التفسير:**المقطع الأول: (المحسنون: تعريف وجزاء)**

﴿الر ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

التفسير الإجمالي:

أرشد الله عباده إلى أن كتابه الذي أنزله إليهم كتاباً حكيماً. يدعو لكل حق، وخير، وخلق كريم. وينهى عن كل شر وباطل وخلق لئيم.

وأن في الإيمان به هداية من الضلال، ونعمة ورحمة من الشقاء.

وقد عرف الله المحسنين من عباده بأعمالهم التي هي دلائل ظاهرة على صحة الإيمان وصدق الأقوال. وأنهم الذين يقيمون الصلاة على صفتها الشرعية، فتكون عوناً ودليلاً على صفاء النفس، واستقامة السلوك. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي (١٤٨-)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٩/٢١)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٤٣٠٥/٨).

وَالْمُنْكَرِ ﴿ العنكبوت: ٤٥﴾.

وهم من يؤتون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، فتتحقق بها طهارة النفوس، وإلفة القلوب، وتراحم المجتمع.

وهم من يؤمن بالآخرة بيقين لا يشوبه شك، يؤمن بالآخرة وجوداً وجزاءً. وهو إيمان يوقظ القلب، ويجعله حياً ويحاسب صاحبه على ما يأتي ويذر من الأقوال والأفعال في هذه الحياة. ومن كانت هذه سيرته، وسيرته فهو محسن. والإحسان أعلى مراتب الإيمان فهو في دنياه على هدى، وفي آخرته في فلاح، وهذا غاية النجاح^(١).

ويرتبط هذا المطلع والمقطع بمحور السورة من حيث أن من أجل النعم على الناس إنزال الكتاب عليهم، وإرسال الرسول إليهم. لما في ذلك من رحمة بهم وهدى لهم. وأن الذين عرفوا هذه النعمة وشكروها هم المحسنون المتصفون بتلك الصفات الكريمة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان الصادق بالآخرة.

من هدايات الآيات:

* أن الله أنزل هذا القرآن محكماً لا اختلاف فيه ولا خلل. وأنه نعمة على الناس بما فيه من هدى ورحمة.

* أن الإيمان بالقرآن والعمل به فيه صلاح الدنيا، وفلاح الآخرة.

* عظم فضل الصلاة والزكاة، وأن فيهما صلاح النفس والمجتمع.

* اليقين بالآخرة يوقظ القلوب، فتصدق الأقوال، وتصلح الأعمال^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠)، وتفسير السعدي (٥٩٤).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٠٥).

المقطع الثاني: (فريق اللهو من الناس)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا لَمْ يَسْمَعُهَا كَانُوا فِي أُذُنَيْهِ وَقَرَأُوا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد ذكر صنف الهداة السعداء من المحسنين.. ذكر الله في هذا المطلع صنف اللهواة المستكبرين. فهناك صنف من الناس يشتري بعزير ماله، أو يبذل غالي حياته ووقته في (لهو الحديث) وهو كل ما يلهي القلوب، ويصد عن أجل مطلوب، وأكمل مرغوب مما فيه سعادة الدنيا والآخرة، سواء كان ذلك مزامير شيطان، أو محرم القول وباطل الكلام. وتكون غايته إضلال الناس عن الهدى والحق بعد أن ضل بنفسه عن سبيل الله وهداه. يفعل ذلك عن كبير جهل، وفقدان علم وإن تعاضم في نفسه، وبدا أنه غير ذلك. وهو مع جهله سيئ الأدب مع ربه يسخر بآياته، ورسله، والمؤمنين من عباده.

فيلبس بذلك على الناس.. بدم الحق، ومدح الباطل، وتزيين اللهو؛ فيضل الناس عن سبيل الله، فإضلاله ناتج عن ضلاله.

هذا الصنف من الناس متوعد بعذاب شديد؛ يلقي فيه ألم العذاب، ومهانة المكانة لاستهزائه بمنهج الله، وإضلاله عباد الله؛ فناسب جزاؤه عمله.

وتكمل الآيات وصف هذا الصنف من الناس بأنه حين تتلى عليه آيات الله ليسمعها ويتبعها مؤمناً بها، يتلقى هذه الدعوة بالاستكبار والإدبار كأنه لم يسمعها، بل كأن في أذنيه صمماً فلا تصله الأصوات، ولا تبلغه الآيات. فسماح الآيات وعدمه في حقه سواء! وهذا صنف لا حيلة في هدايته؛ فإعراضه عن كبر وإصرار على الغواية فحقه أن يبشر بها لا يسره من

عذاب يؤلم بدنه، ويحزن قلبه يكافئ استهزاءه وكبره^(١).

وصلة هذا المقطع بمحور السورة أنه بيان لصنف من الناس كفر نعمة إنزال القرآن وإرسال الرسول بدل شكرها ومعرفة فضلها، والإيمان بها.

من هدايات الآيات:

- * من الناس صنف ضال في نفسه، مضل لغيره، يزين اللهو وينشر الرذيلة.
- * الجهل والكبر داء يمنع من سماع الحق وقبوله.
- * الوعيد الشديد لدعاة الضلالة والفساد المسهزين بالخلق، والمستكبرين على الحق^(٢).

المقطع الثالث: (آية الحكمة والقدرة)

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ نَّعِيمٌ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ فِي أَرْبَعِ رُءُوسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾

التفسير الإجمالي:

تستكمل الآيات الحديث عن جزاء الإيمان المقترن بالعمل الصالح؛ وفق شرع الله وأمره. فأعمال القلوب لا بد لها من شواهد أعمال الجوارح. ولذا يقترن الإيمان بالعمل، فيبشر هؤلاء بما أعد الله لهم في الآخرة من جنات متنوعة فيها نعيم البدن والروح، نعيم مقيم دائم لا ينقطع. وهذا وعد متحقق من الله لا يتخلف، ولا يتبدل، ولا يتغير؛ لأن الله لا يخلف الميعاد. فضل من

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٨٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٨٥).

الله من ثمار عزته في ملكه، وحكمته في خلقه جل وعلا.

ومن آية الحكمة، ظاهرة القدرة لله جل وعلا، وكريم النعمة في خلق هذا الكون الكبير الهائل في دقة نظامه وتناسق أجزائه، وتكامل أنواعه:

سماوات عظيمة، رفعها الله وأمسكها كما ترونها بأبصاركم بغير عمد، فإذا أعاد الناظر بصره من السماء إلى الأرض وجد على ظهرها جبلاً عالية الارتفاع، ثابتة القرار، يحفظ الله بها توازن الأرض فلا تتمد بأهلها، ولا تضطرب. فباستقرارها يطيب العيش لأهلها.

ومن دلائل الحكمة، وظواهر القدرة: ما خلق الله ونشر على ظهر الأرض من أنواع الدواب عجيبة الخلق، متنوعة النفع، مختلفة الشكل.

ولحاجة هذه المخلوقات للرزق: ذكر الله عباده بنعمه عليهم في إنزال المطر، وإنبات أصناف الزرع والنبات في منظر جميل، وتزواج كريم.

هذا الكون العظيم بأرضه وسماه، وما فيه من أصناف الحياة الذي تروونه وتمرون على آياته هو خلق الله وحده. فما الذي خلقته آلهتكم؟ هاتوه، اذكروه!

إنه تحدٍ قاهر، يظهر عجز آلهتهم عن الخلق، وجهلهم حين عبدوها من غير بصيرة ولا علم. وهذا عين الظلم للنفس، والضلال في الاعتقاد حين يعبد الإنسان عاجزاً جاهلاً لا يقدر على الخلق، ولا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويترك عبادة الخالق القادر^(١).

وصلة المقطع بمحور السورة أنه لفت نظر لعظمة الخلق لهذا الكون، وحكمة الخالق وقدرته، وما يوجبه ذلك من الإيمان به، وشكر نعمته سبحانه وتعالى.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٣٢)، وفي ظلال القرآن (٥/٢٧٨٥)، والأساس سعيد حوى (٨/٤٣١٢).

من هدايات الآيات:

- * الإيمان والعمل الصالح عنصران متكاملان، فالإيمان مبعث العمل. والعمل شاهد الإيمان. فلا عمل صالح مقبل لمن لا إيمان له. ولا إيمان صادق لمن لا عمل له.
- * وعد الله صادق متحقق فهو الحكيم في شرعه. والعزير في حكمه.
- * هذا الكون العظيم بأرضه وسماه وما بينهما وعليها، آيات ظاهرة معجزة دالة في عظمتها ودقتها وبديع صنعها على وجود الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده للعبادة دون شريك. ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد فهذا الكون كما يستفاد منه، ويستمتع به يجب أن يستدل به على الله جل في علاه في عظيم قدرته، وكمال حكمته، ووحدانيته^(١).

المقطع الرابع: (بيان نعمة الحكمة والدعوة إلى شكر النعمة)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَتْهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يُبَيِّنُ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يُبَيِّنُ أَقْبَرِ الصَّلَاةِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٠٨)، وتفسير السعدي (٥٩٦).

اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله جل وعلا عن ذاته بعض صفاته من العزة والحكمة:

﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ووصف كتابه وآياته بالحكمة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، ذكر سبحانه مثلاً لنعمته على عبده لقمان بالحكمة. وهي الإصابة بالقول، والإجادة في العمل، فهي العلم النافع والعمل الصالح. وأمر لقمان بشكره عليها. فالنعم تدوم وتزيد بالشكر. وتنقص وتزول بالكفر. وشكر الإنسان للنعم يعود نفعه لنفسه. فالله غني عن العالمين سواء كانوا شاكرين أو جاحدين. ومن شُكر لقمان لنعمة ربه عليه بالحكمة: أن أوصى بها ابنه، ومن بعده. ووصية الأب خير محض لا مطمع فيها ولا غرض.

وقد بدأ لقمان وصيته ببيان أعظم الحقوق، وهو حق الله جل وعلا في وحدانيته وعدم الشرك به؛ لأن الشرك ظلم للنفس بصرف العبادة أو بعضها لمن لا حق له فيها، ووضعها في غير موضعها. وذلك هو الظلم بعينه بل أعظم الظلم وأبشعه وأشنعه.

وتمضي الآيات في عرض العلاقة الواجبة، والصورة الواضحة بين الوالدين والأولاد؛ بأسلوب رقيق رقيق، فهي وصية الله للإنسان - وما أعظمها من وصية - بأن يحسن إلى والديه، ويشكر فضلها عليه.. فيذكره ربه بضعفه، وأصل خلقه حين كان حملاً في بطن أمه وما لاقته من تعب شاق؛ لا يكاد يطاق في: حملة، ووضعها، وإرضاعه، وطاقمه. وما لاقاه والده من كد في لقمة العيش، وتعب في التربية حيث قدم الوالدان له ذلك وغيره بلا تأفف ولا شكوى، بل بنشاط وفرح وسرور وحبور.

فوجب على الإنسان أن يذكر جميل والديه، ويشكر إحسانها إليه، وإنعامها عليه. فإن المصير في نهاية رحلة الحياة إلى الله، وهناك يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

فشكر الوالدين حق وواجب.. ولكنه مسبوق، وهو تابع.

فحق الله سابق، فشكر الله أولاً، فالحق الأول والأخير لله جل وعلا: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وهذه الحقيقة مقدمة على كل علاقة وثيقة.

فإن اختلفت العقيدة، أو أخطأ الوالدان أو أحدهما المسيرة؛ سقط حق الطاعة لهما. فحق
العقيدة مقدم على كل وشيجة وعلاقة وثيقة، ويبقى للوالدين حق الصحبة الكريمة، والمعاملة
الحسنة، فاختلاف الدين لا يعني سوء المعاملة للآخرين.

ويقدم على الوالدين في الطاعة والمتابعة من تاب وأتاب إلى الله واتبع سبيله، فإن المراد إلى
الله. وحينئذ يعلم كل إنسان ما عمل من خير أو شر؛ فيلقى ثوابه وجزاءه.

ثم يمضي لقمان ينادي ابنه بوصف البنوة الشفيق الرقيق؛ يذكره بعظمة قدرة الله في خلقه
وإحاطة علمه بكل شيء، فإذا كان مقدار حبة من خردل سابحة في الكون العلوي، أو مخفية في
الكون الأرضي السفلي يأتي بها الله جل وعلا حيث أحاط بها علمه، وطالته قدرته.

وما هذا إلا برهان على دقة الحساب، وعدالة الثواب والعقاب يوم القيامة؛ فليتنبه الإنسان
لنفسه، وليحرص على عمله صغيره وكبيره.

وليحافظ على صلواته فيقيمها على الوجه الشرعي؛ تصله بربه، وتزكي نفسه، ولينطلق
للآخرين يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر. يدعوهم إلى صلاح حالهم ومآلهم، وليصبر على ما
يصبه من الأذى منهم؛ تتناول به الألسنة، أو تمتد به الأيدي، فإن الصبر على الأذى، والبلاء
يحتاج إلى عزم؛ وهو مما أوجبه الله وحث عليه، ودعا الناس إليه.

ويستطرد القرآن الكريم في حكاية وصية لقمان العظيمة لابنه، ولغيره ممن يسمع القول
فيتبع أحسنه، فيوصيه بجملة آداب عليه أن يتصف بها، وجملة أخلاق عليه أن يتعامل بها مع
الناس، فيحذره من الكبر والإعراض عن الناس تعاضماً وتكبراً عند تكليمهم له، بل عليه أن
يقبل على الناس بوجهه هاشاً باشاً.

حتى المشي في الأرض له صفة مذمومة، فمشية الخيلاء والإعجاب بالنفس، وقلة المبالاة بالناس مشية تدل على مرض نفسي لا يحبها الله، ولا يحبها الناس.

وأما المشية الممدوحة فمشية القصد والاعتدال، مشية التواضع والسكينة. لا مشي الخيلاء، ولا مشي التماوت.

وكما أن للمشي آدابه؛ فللصوت والحديث أدبه؛ المتمثل بخفض الصوت، وعدم رفعه حيث يكفي منه ما يسمع المخاطب ولا يؤذيه.

فليس لرفع الصوت مزية. وغايته أن يكون شبيهاً بصوت الحمار؛ الذي هو أبعث الأصوات وأنكرها. وتلك صورة معبرة، ومنفرة لرفع الصوت في الحديث.

فالقصد والاعتدال في الحركة، والصوت أدب جميل دعت إليه الآيات، ونهت عن ضده.

فهذه الوصايا العظيمة التي وصى بها لقمان ابنه، وحكاها الله عنه وأقره عليها؛ جاءت متنوعة الموضوعات، جميلة العرض، متحدة الأسلوب.. ذكرها الله لبيان حكمة لقمان، وليكون للمؤمنين بها أسوة حسنة^(١).

وهذا المقطع من السورة هو المحور الرئيس فيها بما فيه من بيان نعمة الحكمة على لقمان. وما تضمنته تلك الحكمة - من وصايا عظيمة نافعة لابنه، وكل من ألقى السمع وهو شهيد من بعده مع التوجيه بشكر النعمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، فكان بياناً صريحاً بنعمة الحكمة، وأمرأ واضحاً بشكر تلك النعمة.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٥)، وفي ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٧٨٧)، وتفسير السعدي (٥٩٧).

من هدايات الآيات:

- * تقرير التوحيد، وأنه أعظم الحقوق.
- * التنديد بالشرك، والتحذير منه، وأنه أعظم الظلم وأشنع.
- * حق الله مقدم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإن كان ملكاً أو والداً.
- * تقرير حق الوالدين، ووجوب طاعتها وشكر فضلها.
- * الدين المعاملة، فحسن التعامل مع الآخرين من تعاليم الدين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.
- * استشعار عظمة الله في إحاطة علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، مهما قلَّ عدده، أو صغر حجمه.
- * وجوب الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر عن الأذى والبلاء.
- * حرمة التكبر في القول والفعل، ولزوم القصد في حركة المشي والصوت^(١).

المقطع الخامس: (إسباغ النعم)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنُهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لَشَيْطَانٍ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ سَعِيرٍ ﴿٢١﴾﴾

التفسير الإجمالي:

في هذا المقطع تذكير بنعم الله الكاملة الظاهرة والباطنة: نعم الدين ونعم الدنيا. مما يظهر

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٧)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١١، ٥١٣).

للناس وما يخفى عليهم. فإن نعم الله كثيرة: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ومن تلك النعم تسخير ما في السموات وما في الأرض لمصلحة الناس ومنافعهم. وحق النعم شكر المنعم ومحبته، وطاعته، وعدم استعمالها في معصيته. لكن من الناس من بدل نعمة الله كفرأ، وجادل في الله فأنكر وجوده، وأنكر حقه وفضله، وجحد نعمه، وهو مع ذلك جاهل لا علم له، ضال لا هدى معه، لا يتبع في لجاجه وجداله كتاباً منزلاً ينير له الطريق. ولا يتابع نبياً مرسلأ يهديه السبيل.

والحجة العجيبة لهذا الصنف من الناس: تقليد الآباء، والتعصب لهم وما هم عليه من ضلال، واتباع للشيطان، والشيطان لا يدعوا أتباعه إلا إلى عذاب السعير وبئس المصير^(١). وهذا المقطع ظاهر الصلة بمحور السورة فهو صريح بفضل الله على عباده حين أسبغ عليهم نعمه ظاهرة يرونها، وباطنة يجهلون أو يغفلون عنها. وهي من الكثرة والتنوع بحيث لا يحصرها عد، ولا يحدها حد، وكل واحدة منها تستوجب الشكر وعدم الكفر.

من هدايات الآيات:

- * الدعوة إلى الاستدلال بالخلق على الخالق، وبالنعم على المنعم.
- * أن النعم أنواع منها: الظاهر الواضح. ومنها: الباطن الخفي.
- * وجوب ذكر النعم وشكرها، والاستعانة بها على الطاعة.
- * أن الجدال بالجهل ودون العلم يؤدي إلى الضلال.
- * تقليد الآباء والتعصب لهم يمنع من معرفة الحق وقبوله^(٢).

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٧)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٢).

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٥).

المقطع السادس: (الإنسان بين الكفر والإيمان)

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ ۗ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

تستكمل الآيات هنا الصنف الآخر من البشر، وتقرر الحقيقة في هذا الشأن حيث ينقسم الناس إلى مسلم يعيش نعمة الإسلام، وكافر يتيه بنقمة الكفر.

فمن أسلم وجهه لله، وانقاد له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأحسن في طاعته لربه فكانت عبادته وفق شرعه وأمره. وأحسن إلى عباد الله طاعة لله، فقد هدي إلى الحق، واستمسك بالعروة الوثقى التي لا تنقطع بصاحبها فلا يهلك، ولا يضل. فإن في دروب الحياة ضلالات وظلمات، وفي مسارب الحياة مزالق، ومهالك. فصار الإنسان محتاج إلى نور يهتدي به، وعرى يستمسك بها. فعروة الله هي الوثقى التي لا تهين ولا تلين. وشرع الله هو النور المبين.

والأمور محكومة بعواقبها وخواتيمها. والعبرة بفلاح النهايات لا بفرح البدايات.

والفريق الآخر من الناس من اختار لنفسه، أو اختار له الشيطان خيار الكفر! فجحده بالله، وكفر بأنعمه، فلا يحزنك كفره، ولا يضر كضلاله، فإن مرجعه ومصيره إلى الله العليم بما ينطوي عليه قلبه، ويخفيه صدره فيجازيه على عمله بعدله وبما هو أهله.

فهذا الكافر يستمتع بحياته قليلاً من الوقت ثم يصير ولا بد... إلى عذاب شديد يستحقه بكفره وكبره.

ومن عجائب الأمور، وغرائب الأحوال: أن هؤلاء الكفار لو سئلوا عن خلق السموات

التي يرونها بأبصارهم، والأرض التي يمشون عليها بأقدامهم؟ لقالوا معترفين: إنه الله! فالحمد لله الذي أنطقهم بما هو حجة عليهم؛ فإن المتفرد بالخلق هو المستحق للإفراد بالعبادة.

ولكن أكثرهم لا يعلمون! بل يجهلون ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق! ولكن الحق أبلغ. وحجة الله أبلغ. فإن الله خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وهو المتصرف بكونه في خلقه وأمره سواء أقرؤا بذلك أو أنكروه، فإنه الغني عن غيره. المستحق وحده لكمال الحمد والشكر^(١).

ويتصل هذا المقطع بمحور السورة بكشفه لأصناف الناس ومواقفهم من آيات الله في خلقه ونعمه على عباده فمن استدل بآيات الله في خلقه وشكر نعمه فهو المسلم، ومن أعرض عن آيات الله، وأغفل نعمه فهو الكافر، ولكل جزاؤه.

من هدايات الآيات:

- * انقسام الناس إلى مسلم وكافر.
- * الإحسان مرتبة أعلى في الإسلام.
- * حاجة الإنسان إلى نور يهتدي به، وعرى يستمسك بها في هذه الحياة. وذلك هو دين الله.
- * أن الكافر لا يضر بكفره غير نفسه، وأن الله محاسبه على عمله، ومجازيه عليه.
- * أن المشركين من العرب موحدون في الربوبية، ومشركون في العبادة.
- * أن الله غني عن خلقه محمود بذاته، مالك لكونه، متصرف فيه بشره وأمره^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٤٧/٦)، وفي ظلال القرآن سيد قطب (٥/٢٧٩٣)، وتفسير السعدي (٥٩٦).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/٥١٧).

المقطع السابع: (كلمات الله التي لا تنفد)

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ، سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَجَدِيَّةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

عظمة متناهية في الخلق والقدرة لا تحد، وعلم محيط لا ينفد، يجسده ويجسمه هذا المقطع من السورة المباركة، فلو تحولت أغصان أشجار الأرض إلى أقلام، وصارت مياه البحر مداً وأحباراً يمدّها ويرفدها سبعة أبحر مثلها إلى أمثال ذلك من الشجر والبحر فإنها لا تحصى كلمات الله لخلقه. وعلمه بكونه في امتداد الزمان، واتساع المكان.

إن عظمة الصفات من عظمة الذات، فله - جل في علاه - الكمال المطلق في ذاته وصفاته. وإنما هذا تقريب للبشر فيما يعرفون من أقلام ومداد يقرب لهم ما لا يحيطون به علماً من صفات الله وعظمته في كمال عزته في ملكه، وتمام حكمته في خلقه.

وتعبر الآية عن كمال القدرة في الخلق - بعد تقرير وتصوير تمام إحاطة العلم - بأن خلق الناس ابتداء، مع كثرتهم واختلاف أجناسهم وأحوالهم واختلاف أقطارهم وديارهم وأزمانهم. وبعثهم بعد موتهم وفنائهم ما هو إلا كخلق وبعث نفس واحدة؛ لأن الأمر مرتبط بمشيئة الخلق والبعث وإرادته من قبل الخالق جل وعلا. ولا تعلق له بالقلة والكثرة أو الجهد، فاستوى بذلك خلق الواحد وخلق البلايين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يونس: ٨٢].

ويتصل هذا المقطع بمحور السورة في أن إعلام الله لخلقه بكمال قدرته في الخلق، وتمام إحاطته في العلم نعمة تستوجب الشكر. وحكمة تدعو إلى الإيثار، والخضوع له جل وعلا.. فإنه سبحانه سميع لعباده، بصير بأحوالهم، مجازيهم على أعمالهم^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٤٨)، وفي ظلال القرآن (٥/٢٧٩٥).

من هدايات الآيات:

- * سعة علم الله، وأن كلماته لا تنفذ بحال.
- * ضرب الأمثال في التعليم، وتقريب الحقائق للناس.
- * بيان أن قدرة الله لا تحدد، وأن الله لا يعجزه شيء لتعلق ذلك بالأمر التكويني.
- * دلالة الآيات على جملة من الصفات لله تعالى: كالعزة والحكمة، والسمع والبصر^(١).

المقطع الثامن: (نعمة التسخير)

﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ بِالنَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْعَلُهُ فِي أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ مِنَ الْمَوْتِ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير الإجمالي:

يتوالى تذكير البشر بالنعم التي يسرها الله جل وعلا وسخرها لهم حيث يزخر هذا الكون بآيات القدرة، الموحية بعظمة الخلق، والدالة على وجود الخالق وعظيم قدرته، ووجوب شكره وطاعته، ولكن إلف الناس لهذه الآيات الكونية، وطول معاشتهم لها؛ أفقدهم عظيم دلالتها.. فكانت الآيات القرآنية منبهة لهذه الآيات الكونية.

فمن ذلك: إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وزيادة أحدهما ونقص الآخر عند اختلاف فصول السنة في دورة كونية دائبة دائمة، دقيقة منتظمة.

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٨).

ومن ذلك تسخير الشمس والقمر بعد وجودهما، كل منهما يجري في فلكه إلى أجل مسمى؛ بانتظام تام.

هذه الآيات العظيمة دالة على أن الله جل وعلا هو الحق، وجوداً، وخلقاً وقولاً، وأنه العلي على خلقه، الكبير في ملكه، وأن ما يدعى ويعبد من دونه هو الباطل؛ كل الباطل في ضعفه وعجزه، وعدم استحقاقه للعبادة والدعاء.

ثم تذكر الآيات بنعم الله الأخرى على الناس، فقد أنعم الله على الناس بالدواب على الأرض، تحمل أثقالهم.

وأنعم عليهم في البحر بالسفن، تطفو على الماء فلا تغرق. وتجري في البحر بأمان فلا تقف، تنقل ذواتهم وتجاراتهم فتربط بين أجزاء الأرض، فيتعارف الناس ويتبادلون المصالح.

كل ذلك بنعمة الله وفضله، فإذا ما أراهم الله بعض آياته المنذرة حين تهبج البحار وتعلوهم الأمواج، ويستشعرون ضعفهم وقلة حيلتهم، فيتذكرون ربهم ويدعونه بإخلاص أن ينجيهم مما يرونه وينتظرونه من هلاك؛ فإذا استجاب الله دعوتهم ورحم ضعفهم وأنجاهم من شدتهم فوصلوا إلى بر الأمان، ووطئت أقدامهم الأرض؛ نسوا ما كانوا فيه، وما عاهدوا الله عليه، فمنهم مقصر لم يقيم بحق الشكر لنعم الله عليه حين هداه وأنجاه.

وآخرون كانوا أكثر غدراً وكفراً، فغدر بعهدته، ونكث وعده فكفر بنعمة ربه عليه؛ فنسيها وجحد شكرها. وهذه أخلاق كل كفار بالنعم، غدار بالوعد، لا يشكر نعمة، ولا يفي بعهد ووعد.

فسبحان الرحيم الخليم الذي يذكر آياته، ويذكر بها عباده ليعرفوا نعمه عليهم، وإحسانه إليهم فيشكروه ويعبدوه^(١).

وصلة هذا المقطع بمحور السورة شديد الوضوح بما فيه من تعداد النعم التي يسرها الله وسخرها لهم فعظم انتفاعهم بها، فوجب عليهم شكرها وصرف العبادة لموجدها ومسخرها.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٠)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٦).

من هدايات الآيات:

- * التذكير بما في هذا الكون من آيات القدرة على الخلق، والإحاطة بالعلم.
- * تسخير الآيات الكونية لمصلحة الإنسان وراحته، وأن هذا التسخير من نعم الله المستوجبة للشكر.
- * دلالة الآيات الكونية على أن الله هو الإله الحق، العلي على خلقه، الكبير في ملكه، فيكون هو المستحق وحده للعبادة والطاعة.
- * أن عبادة غير الله ودعوته هي الباطل الذي لا حق معه.
- * الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والشكر على النعمة؛ أوصاف متكاملة.
- * التوحيد في الشدة، والشرك في الرخاء، من أعمال المشركين^(١).

المقطع التاسع: (المغيبات وغرور الحياة)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله جل وعلا نعمه على عبده لقمان، وعلى الناس أجمعين؛ بما خلقه ويسره وسخره، وما يستوجبه ذلك من الشكر؛ دعاهم إلى تقواه بامثال طاعته، واجتناب معصيته، وخوفهم يوم القيامة حين يجازي الناس فرادى كل بحسب عمله، فلا ينفع أحد أحداً؛ لا والد

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٠).

ولا ولد. وهم أقرب الناس إليك، وأعزهم عليك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَنْبُوئِيهِ وَيَبِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

إن يوماً هذه حاله لعظيم، وإنه وعد حق، وقول صدق.

فلا ينبغي لمؤمن أن يغتر بزخرف الحياة وزينتها، وما فيها من شهوات ومغريات. فما هي إلا متاع الغرور. أياماً معدودة، وسنين محدودة، تمضي سريعاً وتنقضي عاجلاً، فإذا الإنسان صائر إلى ما قدم من عمل، وهو تحت الأرض حبيساً بعد أن كان فوقها طليقاً.

وليحذر المؤمن من الشيطان حين يخادعه، ويغرر به، فيوظف حلم الله وإمهاله لعباده على أنه دليل السلامة فيزين لهم المعاصي ويهونها عليهم، ويجسّهم عليها، ويحول بينهم وبين التوبة بالتسويق.

فإن غرور الشيطان، وشهوات الحياة المحرمة مصيدة للإنسان.

ثم يحتتم الله السورة التي ذكر فيها شواهد القدرة، وأنواع النعم، ودلائل الإحاطة بالعلم بما خصّ الله به ذاته من مفاتيح الغيب الخمسة؛ التي استأثر بعلمها مما يحسه الإنسان في حياته، ويراه أمام ناظره، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر»^(١).

فعلم الساعة متى تقوم؟ لا يعلمه أحد إلا الله، وعلم وقت نزول المطر، في أي ساعة من ليل أو نهار، وأحوال ما في الأرحام من المواليد.

وكذلك الإنسان في أخص أحواله، وأهم احتياجاته حيث لا يعلم المرء ماذا يكسب في غده من غنى أو فقر، ومن خير أو شر، كما أنه لا يعلم أين ومتى يموت؟

وهذه أمور جليلة لا ينازع فيها الإنسان ويراها في ذاته وحياته. وبها يعرف الإنسان حدود

(١) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء، باب ٢٩ (٢/٢٣).

علمه، ومقدار عجزه، وضعفه، وأن الأمر كله لله، فعليه أن يجيب داعي ربه، وينيب إلى خالقه ويوظف حياته بما فيه خير دينه ودنياه وسعادة دنياه وأخراه^(١).

وصلة هذا المقطع الخاتم للسورة بمحورها أنه بيان لحال الشاكر للنعم، والكافر بها والذاكر للآيات المعتر بها، والمعرض عنها، وذلك بتذكير الإنسان وحثه بالمسارعة بتقوى ربه وطاعته وشكر نعمته لينجو في آخرته.

وتحذيره من الإعراض عن آيات الله وكفر نعمه والاعتزاز بشهوات الحياة وزيتها فيخسر آخرته وذلك هو الخسران المبين.

من هدايات الآيات:

- * وجوب تقوى الله.
- * تقرير عقيدة البعث.
- * أن يوم القيامة يوم عصيب لا ينفع فيه والد ولا ولد.
- * التحذير من الاعتزاز بمتاع الحياة الدنيا وشهواتها.
- * التحذير من الشيطان في تزيينه المعاصي للإنسان.
- * اختصاص الله تعالى في معرفة مفاتيح الغيب الخمسة.
- * أن معرفة نوع الجنين من كونه ذكراً أو أنثى بواسطة الأشعة ونحوها غير داخلة في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾؛ لأنها بمنزلة فتح البطن، ومع معرفة كون الجنين ذكراً أو أنثى فلا أحد يستطيع معرفة شكله الحقيقي ولا كونه شقيماً أو سعيداً.
- * ادعاء معرفة الغيب كذب وضلال^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٥١)، وفي ظلال القرآن (٥/٢٧٩٨)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/٤٣٤٠).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/٥٢٢)، وتفسير السعدي (٦٠١).

سورة السجدة

أولاً: بين يدي السورة:

أ - أسماء السورة:

(١) سورة السجدة: وهو أشهر أسماء السورة، وأخصرها. وبه سميت في المصاحف وكتب التفسير، وترجم لها به الترمذي في جامعه^(١).

سميت بذلك لشهرة سجدتها حيث كان النبي ﷺ كثيراً ما يقرأها في صلاة فجر يوم الجمعة، ومضى المسلمون على ذلك إلى اليوم.

(٢) سورة ﴿الرَّ ١﴾ تَنْزِيلُ ﴿:

سميت بذلك تسمية لها بمطلعها.. فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الرَّ ١﴾ تَنْزِيلُ ﴿ و﴿تَبَّرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢).

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ: كان يقرأ في الصباح يوم الجمعة بـ ﴿الرَّ ١﴾ تَنْزِيلُ ﴿ في الركعة الأولى، وفي الثانية: ﴿هَذَا آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الْدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾^(٣).

وقد جاءت تسميتها بـ ﴿الرَّ ١﴾ تَنْزِيلُ ﴿ في بعض الآثار عن ابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر^(٤).

وعنون لها البخاري في صحيحه بسورة (تنزيل السجدة)^(٥).

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير (٣٦٦/٥).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب فضائل القرآن ١٦٥ / ٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة (٥٩٩/٢) حديث رقم (٨٨٠).

(٤) انظر: أسماء السور، د. منيرة الدوسري (٣١٠).

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٣١٩/٦).

وجاءت تسميتها في بعض المصاحف المخطوطة بـ (سورة التنزيل) ^(١).

وكل ذلك تسمية لها بمفتحتها على سبيل الاختصار أو التفصيل.

(٣) سورة المضاجع:

سميت بذلك أخذاً من قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ نَتَجَّافِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾

وجاءت تسميتها كذلك في بعض كتب التفسير كتفسير: ابن الجوزي، والرازي، والآلوسي.

(٤) سورة سجدة لقمان:

سميت بذلك لوقوعها بعد سورة لقمان، وتمييزاً لها عن سورة (حم السجدة) حيث تسمى

هناك: سورة سجدة (المؤمن) لوقوعها بعد سورة (المؤمن) ^(٢).

(٥) سورة المنجية:

وردت هذه التسمية في خبر مرسل عن خالد بن معدان أنه قال: (اقرأوا المنجية وهي:

﴿ اَلرَّ ۝١ تَنْزِيلُ ﴾)

ب - فضائلها:

ورد في فضلها أحاديث متنوعة مختلفة الدرجة، منها:

(١) عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿ اَلرَّ ۝١ ﴾

﴿ تَنْزِيلُ ﴾ و﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ ^(٣).

(١) مخطوطات جامعة الإمام بالرياض رقم (٨٠٥٨). وانظر: أسماء السور، د. منيرة الدوسري (٣١١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٣/٢١).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، وأحمد في المسند، وأبو عبيد في فضائل القرآن، والدارمي والترمذي، والبخاري، والبغوي

في شرح السنة، والبغوي في شعب الإيثار، والطبراني في المعجم الصغير والأوسط، والحاكم وصححه ووافقه

الذهبي. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٢٩ رقم ٥٨٥. وقال: حديث صحيح. وانظر:

الأحاديث الواردة في فضائل القرآن دراسة نقدية، د. إبراهيم علي السيد علي عيسى ص ٢٨٤.

٢) وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ ^(١).

٣) ومن فضائلها أنها تسمى المنجية. فعن خالد بن معدان، قال: (اقروا المنجية، وهي ألم * تنزيل فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرأها ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه، وقالت: رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتي، فشفعها الرب فيه، وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة، وارفعوا له درجة) ^(٢).

وعن المسيب بن رافع قال: قال رسول الله ﷺ: (تحيء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها، تقول: لا سبيل عليك، لا سبيل عليك) ^(٣).

ج - السورة مكية ^(٤).

د - عدد آياتها ثلاثون آية ^(٥).

هـ - محور السورة:

بيان عظمة الله تعالى في صفاته، وكمال قدرته في الخلق والأمر، والبعث والجزاء.

و - المناسبات:

١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

أن السجود دليل الإيثار بعظمة الله، وعنوان الخضوع لقدرته، والطمع في ثوابه وحسن جزائه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة. رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة رقم (٨٨٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٥٤٦/٢) رقم (٣٤٠٨) وفيه انقطاع ويتقوى بما بعده.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص (٢٥١)، وابن الضريس ص (١٠٠) وهو مرسل إسناده حسن.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٨/٦)، والمكي والمدني في القرآن الكريم د. محمد الشايع (٧١).

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/٢٠٤)، والبيان في عدة آي القرآن لأبي عمرو الداني

(٢١٧).

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

تقرير الحق في شأن القرآن بأنه تنزيل رب العالمين في افتتاح السورة، وتقرير الحق في شأن البعث بأنه واقع وأنه ممكن في خاتمة السورة من خلال المثال في إحياء الأرض بعد موتها.

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال السيوطي في وجه اتصالها بخاتمة السورة التي قبلها.. سورة لقمان:

(إنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان. فقله هنا: ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٥] شرح لقله هناك: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

ولذلك عقب هنا بقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [٦].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [٢٧] شرح لقله: ﴿وَيُنزَلُ الْغَيْثُ﴾ [٣٤].

وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [٧] شرح لقله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ و﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [١٣] شرح لقله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [٣٤].

وقوله: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [١١] شرح لقله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [٣٢]. فله الحمد على ما ألهم^(١).

وجعل الألوسي المناسبة بين السورتين: (اشتغال الكل على دلائل التوحيد)^(٢).

(٥) المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة كلها تأكيد على عظمة الله تعالى في كمال صفاته، وكمال قدرته في خلقه

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي. تحقيق عبد القادر عطا ص (١١١).

(٢) تفسير الألوسي (٢٢ / ١١٥).

وكونه ابتداء، وانتهاء.. إماتة وبعثاً، أمراً وشرعاً. وكمال عدله بين خلقه، وكمال الصفات والقدرة هو محور السورة^(١).

ثانياً: التفسير:

المقطع الأول: (القرآن حق منزل)

﴿الر ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

التفسير الإجمالي:

بينت الآيات الكريهات مصدر القرآن الكريم، ووصفه، وغرضه، فهو كلام الله المنزل دون شك أو ارتياب، فالله مصدره، والحق صفته، وهداية الناس غرضه وغايته. لم يأت به محمد ﷺ من عند نفسه، ولا يستطيع، ولو استطاع لاستطعم مثله. وإنما أنزله الله على محمد ﷺ لينذر به قومه والناس من بعدهم حيث لم يأتهم نذير قبله، فمن آمن به كان له حسن الحال والمآل. ومن أعرض عنه وكفر به كانت له النار. وقامت على الخلق الحجة، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل وليس بعد الإنذار إلا الإعذار^(٢).

وافتحية السورة بهذا المطلع والمقطع شديد الارتباط بمحور السورة من حيث إنه بيان لمصدر الخبر عن الله تعالى في عظيم صفاته وكمال قدرته في خلقه ووجوب طاعته في شرعه وأمره وأن مصدر ذلك وحي إلهي لا افتراء بشري.

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي (١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٨/٦)، وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٦٠١).

من هدايات الآيات:

- * بيان مصدر القرآن، وأنه كلام إلهي، لا افتراء بشري.
- * أنه كله حق، وكلام صدق.
- * أن غرض القرآن الكريم هداية الخلق للحق.

المقطع الثاني: (الإخلق مدة وحسنا)

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

تعرض الآيات الكريمة لصفات القدرة والعظمة لرب العالمين؛ الذي أنزل القرآن الكريم. فهو الله الذي لا رب سواه؛ الذي خلق هذا الكون العظيم بأرضه وسماه وما بينهما، وفيها من خلائق متنوعة متعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والألوان، والخواص والأغراض.

خلق تعالى ذلك كله في مدة محددة تبلغ ستة أيام من أيام الله ثم استوى على عرشه استواء يليق بكماله وعظمته يدبر كونه ويحكم أمره. فالكون ملكه، والناس خلقه، ليس من شيء أو أحد خارج عن ذلك، فلا نصير لأحد من دونه ولا شفيع إلا من بعد إذنه. فوجب على الناس التفكير في ذلك والتذكر، ومن ثم الإجابة والإنابة لله الخالق المدبر.

فالله في سواه وعلاه يدبر أمر خلقه وكونه، ويتصرف فيه كما يشاء وجوداً وفناءً، وأمرأً ونهياً. ثم يوم القيامة في يوم كان مقداره من أيام الناس في الدنيا ألف سنة في ذلك اليوم يصعد

إليه الأمر، ويصير له - جل وعلا - الحكم.

ذلكم المدبر لهذه الأمور والمصرف لها هو العالم بكل شيء مما غاب أو حضر، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. العزيز في رحمته فلا ذل. والرحيم في عزته فلا ضعف الذي أبدع خلقه وأحكمه، فأحسن كل شيء خلقه، فأتمه وأكمله، فلا نقص ولا عيب، فجاء كل شيء على ما أراه واقتضته حكمته.

ومن خلقه تعالى.. هذا الإنسان الذي بدأ خلقه بخلق أبيه آدم من طين، وجعل ذريته تتوالد من بعده، مخلوقة من ماء وهو مني الرجل حين يقذفه في رحم المرأة فيتخلق هناك بأعضائه وحواسه من سمع وبصر وعقل. وينفخ الله فيه الروح فتدب فيه الحياة، خلق عظيم يستوجب الذكر والشكر، ولكن كثيراً من الناس قليل الذكر للنعم، قيل الشكر للنعم^(١).

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة بكونه تفصيل، وتأكيد لبعض صفات الخالق جل وعلا، وتعريف للإنسان بضعفه ببيان أصل خلقه وأنه من طين ثم من ماء مهين، وكيف صار إنساناً سوياً في أكمل خلق وأحسن تقويم.

وأن ذلك دليل على قدرة الخالق توجب كمال الشكر لله رب العالمين.

من هدايات الآيات:

- * بيان قدرة الخالق، ومدة الخلق.
- * إثبات صفة الاستواء على العرش لله تعالى؛ على الوجه اللائق بكماله وجلاله.
- * أن الخلق والأمر كله لله، في الكون كله: علويه وسفليه.
- * بيان مادة خلق الإنسان وكيفيته.
- * وجوب ذكر النعم، وشكر المنعم^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٥٩)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٢٨٠٦).

(٢) انظر: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٣/٥٢٦).

المقطع الثالث: (إثبات البعث)

﴿ وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوفَّئِكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بداية خلق الإنسان وسلالته، ذكر هنا نهايته حيث يموت الإنسان ويعود للأرض التي بدأ منها خلقه، فيفنى ويصير تراباً. وهذه النهاية المشاهدة والمحسوسة جعلت المشركين ينكرون البعث وعودة الحياة من جديد مرة أخرى.

وهذا الإنكار عنوان الكفر بالله، والجهل وضعف العقل.

فإن بداية الخلق دليل على نهايته، فالذي أوجد الإنسان وأحياه ابتداءً، وأماته قادر على بعثه بعد موته، وهذا نص الخبر، وحجة العقل. ولكن الكفر يعمي ويطنى. فإنكار الكافر للبعث وما بعده، لا يلغي ثبوته وأنه لا بد من الموت، والبعث، والرجوع إلى الله، فليس الإنكار حجة.

وصلة هذا المقطع بمحور السورة ظاهر من حيث إثبات القدرة على البعث والرجوع إلى الله للثواب والعقاب.

من هدايات الآيات:

- * إثبات البعث والجزاء بعد الموت.
- * إنكار البعث كفر وجهل.
- * بيان أن للموت ملكاً موكلًا بكل نفس^(١).

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٠٢)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/٥٢٧).

المقطع الرابع: (ذل المجرمين يوم الدين)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

حينما قررت الآيات السابقة حقيقة البعث والمصير إلى الله، صورت هذه الآيات مشهد وقوف المجرمين أمام رب العالمين؛ بأنهم يقفون ذليلين أمام ربهم، قد خفضوا رؤوسهم ذلاً مقرين بالسمع والطاعة بعد أن أبصروا وشاهدوا الحقيقة؛ طالبين الرجعى إلى الدنيا لإعلان الإيمان واليقين، والقيام بالعمل الصالح.

ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً فهم خلقه، وفي ملكه وأمرهم جميعاً بيده، لكن حكمته جل وعلا في الكون، وحكمه في الخلق أن يمتحنهم في الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب فمن آمن فله الجنة، ومن كفر فله النار، وأن كلاً من الجنة والنار ستملاً بأهلها.

هذا جزاء الله بمن كفر به، ونسي لقاءه؛ بأنه سوف يعذب جزاء كفره وسوء عمله. يتصل هذا المقطع بمحور السورة من حيث التأكيد على البعث والجزاء وما يدل عليه وأن ذلك من كمال القدرة لله تعالى، وكمال الملك والتصرف له سبحانه في خلقه وأمره.

من هدايات الآيات:

- * ذل المجرمين الكافرين يوم القيامة.
- * أن الإيمان بالغيب لا يكون بعد المعاينة له.
- * حكم الله بامتلاء جهنم من مجرمي الإنس والجن.
- * أن الأعمال سبب في الجزاء: إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً^(١).

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٠٢-٦٠٧)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٨٢٥).

المقطع الخامس: (علامات الإيمان)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَسَجَافٍ جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما ذكر الله تعالى جزاء المجرمين، وهم المكذبون بآيات الله.. ذكر هنا المؤمنين بصفاتهم وجزائهم، فتكامل بذلك الحديث عن أصناف الناس.

فبينت الآيات هنا علامات الإيمان، وصفات المؤمنين بأنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن سارعوا للإجابة والإجابة. فإن أمروا فيها بالسجود تهاووا إلى الأرض ساجدين غير متكبرين يسبحون بحمد ربهم وينزهونه عن النقائص والعيوب. ومن صفاتهم في سائر حياتهم مقاومتهم لإغراء الراحة والنوم حين ينزعون أجسادهم من وثير الفراش. لينصبوا أقدامهم في صلاة الليل يدعون ربهم، طمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه. وكما سارعوا إلى نوافل الصلوات، هم كذلك يسارعون إلى الصدقات بعد الزكاة، فينفقون من فضول أموالهم ما يقرهم إلى الله زلفى.

وهنا تجمل الآية الكريمة بإيجاز وإعجاز: أصناف النعيم والتكريم؛ الذي أعده الله لهم جزاء إنابتهم وطاعتهم بقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ نعيم لا يبلغه وصف، ولا يحيط به بشر. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر). قال أبو هريرة: فاقروا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ^(١).

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة أن ما قررته الآيات السابقة من كمال قدرة الله تعالى

(١) صحيح البخاري رقم (٤٧٧٩). ومسلم برقم (٢٨٢٤).

في خلقه وعظيم صفاته في ذاته دعت فئة من الناس إلى المسارعة إلى الإيمان بالله، والمبادرة في طاعته خضوعاً له سبحانه ورجاء ثوابه وخوف عقابه، فذكر سبحانه هنا صفاتهم وجزاءهم.

من هدايات الآيات:

- * فضيلة التسبيح في الصلاة وغيرها.
- * ذم الاستكبار وأهله، ومدح التواضع لله وأهله.
- * فضيلة نوافل الطاعات من صلاة ليل، وزكاة مال، وغير ذلك.
- * بشارة المؤمنين بعظيم النعيم والتكريم^(١).

المقطع السادس: الجزاء العادل

واختلاف الجزاء باختلاف العمل

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّ هُنَّ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد عرض أوصاف المؤمنين والمجرمين في الآيات السابقة؛ تقرر الآيات الكريمة هنا مبدأ الجزاء العادل، واختلاف الجزاء باختلاف العمل، وأنه لا يستوي مؤمن وكافر، مطيع

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٦٣)، في ظلال القرآن سيد قطب (٥/٢٨١٢)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/٥٣٠).

وعاص.

فالذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وعملوا بما أمروا به من الصالحات، وسائر الطاعات، واجتنبوا المحرمات؛ فلهم الجنة.. إليها يأوون، وبها ينزلون. فهي دارهم ومستقرهم.

وأما الذين فسقوا، فخرجوا عن طاعة الله، فلم يؤمنوا بالله رباً، ولا بالإسلام ديناً، ولا بمحمد ﷺ رسولاً! فعاشوا في العقيدة مشركين، وفي العمل عاصين؛ فمأواهم ومثواهم النار، يعذبون بها جزاء سوء عملهم.

وإذا ما حاولوا الخلاص من هذا العذاب، والخروج من النار؛ أعيدها فيها، ودفعتهم زبانية العذاب إليها. وقيل لهم إذلالاً وإهانة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾.

ولأن من الناس من لا يستقيم إلا بالتأديب والتعذيب؛ توعدهم الله - جل وعلا - بصنوف من العذاب والأذى والابتلاء الدنيوي؛ لعلهم يرجعون إلى ربهم فيردهم العذاب إلى الصواب، فيؤمنوا بربهم. وبذلك تكون نجاتهم من العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

وهذه مواعظ الله تترى، وآياته تتلى، وليس هناك أحد أظلم لنفسه ممن أعرض عن هذه العظات والآيات. ومن فعل فهو مجرم يستحق العذاب والانتقام.

وهذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة لأنه تفصيل للجزاء على الأعمال الذي يكون بعد البعث وإحياء الموتى يوم القيامة، هذا البعث الذي أكدته السورة كأحد دلائل القدرة وأمور الغيب الذي جاء به الخبر، ونصب عليه الدليل. وأن الجزاء في ذلك اليوم يكون من جنس العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك الجزاء العدل.

من هدايات الآيات،

- * اختلاف الجزاء باختلاف العمل.
- * بيان خطأ من يسوي بين المؤمن والكافر، والبارّ والفاجر، والمطيع والعاصي.
- * بيان جزاء كل من المؤمنين والفاسقين.
- * أن التأديب قد يكون بنوع من التعذيب.
- * الإعراض عن آيات الله القرآنية والكونية ظلم للنفس البشرية^(١).

المقطع السابع: (الإمامة في الدين)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِٗ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا مَرْغَبُ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما بين الله تعالى في المقطع السابق عدله بين الناس مؤمنهم وفاسقهم وأنهم لا يستون، أكد هذا المعنى في بني إسرائيل وأن منهم هداة دعاة كانوا مؤمنين موقنين، وأنه سبحانه سوف يفصل بين المختلفين منهم ومن غيرهم بالعدل يوم القيامة، فالعدل مع كل أحد، وفي كل زمن، وفي كل شيء.

ولقد أعطى الله نبيه موسى بن عمران عليه السلام التوراة، كما أعطى رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم القرآن. فهذه سنته تعالى في إرسال رسله، وإنزال كتبه.

فلا تكن يا محمد في شك من لقاءك بموسى ليلة الإسراء والمعراج، أو من لقاء موسى

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٣٦٩)، وفي ظلال القرآن (٥/٢٨١٣)، وأيسر التفاسير (٣/٥٣٢).

الكتاب^(١) وتلقيه له.

ولقد كان كتاب موسى التوراة؛ هادياً لبني إسرائيل إلى الصراط المستقيم والدين القويم. ولذا جعل الله من المؤمنين من بني إسرائيل قادة وهداة ودعاة؛ يدعون الناس في زمنهم إلى ربهم متصفين بالصبر واليقين، وبها تنال الإمامة في الدين. وما يقع من خلاف بين الناس في الأعمال والاعتقادات فإن الفصل فيه يوم القيامة لله رب العالمين.

وصلة هذا المقطع بمحور السورة تظهر من خلال كمال عدل الله جل وعلا في السابقين كما في اللاحقين، ويبان نعمه على الناس أجمعين بإنزال كتبه وإرسال رسله.

من هدايات الآيات:

- * من نعم الله على الناس إنزال الكتب، وإرسال الرسل.
- * بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.
- * كل خلاف في هذه الحياة سيتهيء بحكم الله فيه يوم القيامة^(٢).

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٧/ ٨٠)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٦٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، تفسير السعدي (٦٠٤)، أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٣/ ٥٣٥).

المقطع الثامن: (آيات وعظات)

﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزَ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَاَنْظَرْنَا لَهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

ذكر الله تعالى في المقطع السابق من الأمم السابقة بني إسرائيل على وجه الخصوص، ثم عمم هنا للتذكير بمصير المكذبين من عموم السابقين وما فيه من عظة للآخرين.

من سنن الله في خلقه إهلاك المكذبين، وقد مضت أمم وأجيال. وقرى وأقوام من عاد وتمدود قوم صالح، وقوم لوط، وغيرهم. أهلكتهم الله لما كذبوا الرسل. فهلاكهم وآثارهم التي تمشي فيها الأجيال اللاحقة، يجب أن تكون مواضع عبرة وعظة، تهز القلوب، وتدمع العيون وتجيئس بها النفوس.

فينبوا إلى ربهم ويسلموا له. ويسارعوا إلى ذلك حتى لا يكون مصيرهم كسابقهم الذين يرون آثارهم وديارهم رأي العين، وكيف أهلكتهم الله، فإنهم ليسوا بخير منهم. ﴿ أَكْفَارًا كَرِيمًا مِّنْ أَوْلِيائِكُمْ أَمَّا لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر: ١٦]، فليسوا بخير وليست لهم براءة.

إنها آيات مؤثرة معبرة؛ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ثم تعرض الآيات نوعاً من الأدلة المحسوسة على البعث، فهذا الماء النازل من السماء حين يسوقه الله إلى أرض جرداء يابسة لا نبات فيها، فتتغير صورتها. فإذا هي خضراء ممرعة تخرج بالزرع مما يأكله الناس والأنعام.

وهذا المشهد ملء البصر، ومثال حي على الحياة بعد الموت.. فالذي أحيا الأرض وهي

ميتة؛ قادر على إحياء الإنسان وبعثه بعد موته. ولكن الكافرين شديدي العناد، لا يلتفتون إلى الآيات. ولا يتأثرون بالعبر والعظات، فيستعجلون يوم الحكم والفصل حين تتبين الحقائق. وتتكشف الدقائق وحينئذ لا ينفع الكافرين الإيمان والتصديق عند رؤية العذاب وحصول الحساب. ثم تُختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المكذبين المعاندين بعد أن لم تنفع معهم الآيات والعظات. وأن ينتظر تحقق وعيد الله فيهم في الدنيا والآخرة، كما أنهم ينتظرون موته أو قتله.

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة بالتذكير والتأكيد على البعث الذي أنكره المشركون واستبعدوا وقوعه، ولكن السورة الكريمة أكدته خبراً ومثالاً، حين مثلت ذلك بالأرض الميتة التي تحيا بنزول المطر ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] فكان استدلالاً بالمثال بعد الاستدلال بالمقال ولكن الأمر كما قال جل وعلا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

من هدايات الآيات:

- * من سنن الله إهلاك المتكبرين، وفي ذلك عظة للآخرين.
- * تقرير عقيدة البعث، وتقريبها بالمثال.
- * استعجال الكافرين للعذاب دليل جهل وكبر.
- * بيان أن التوبة لا تقبل عند معاينة العذاب^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٢)، في ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٨١٤)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٣٥).

سورة الأحزاب

بين يدي السورة:

١- اسم السورة:

اسمها التوقيفي هو سورة الأحزاب ولا يعرف لها اسم آخر غير هذا، وقد ورد هذا الاسم في حديث أبي بن كعب، فعن زرّ قال: قال لي أبي بن كعب رضي الله عنه كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، قال: فوالذي يحلف به أبي بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم).^(١) وجه تسميتها بذلك: هو ما ذكر فيها عن أحزاب المشركين من قريش غطفان وبعض العرب ويهود بني قريظة الذين اجتمعوا وتحزبوا لغزو المسلمين في المدينة فرد الله تعالى كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال،^(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۗ﴾ الأحزاب: ٢٢ وقال المهيامي: «سميت بها لأن قصتها معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة لنصره بالريح والملائكة بحيث كفى الله المؤمنين المنافقين وهذا من أعظم مقاصد القرآن». ^(٣)

- (١) قال الحاكم في المستدرک: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المستدرک للحاكم النيسابوري، ج: ٤، ٤٠٠، وصحيح ابن حبان، ج: ١٠، ص: ٢٧٤، وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه عبد الرزاق في المصنف والطيالسي وسعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن منيع والنسائي وابن المنذر وابن الانباري في المصاحف والدارقطني في الأفراد والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن زر، والسيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٥٨.
- (٢) منيرة محمد ناصر الدوسري، أسماء سور القرآن وفضائلها، (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢٦)، ط ١، ص: ٣١٧-٣١٨.
- (٣) تفسير المهيامي، ١٥٢/٢. عن المرجع السابق ص: ٣١٨ الحاشية رقم ١.

٢- عدد آياتها:

هي ثلاث وسبعون آية كما وردت في المصاحف وفي حديث أبي بن كعب السابق.

٣- مرحلة النزول:

هي مدينة بإجماع العلماء،^(١) وتتناول هذه السورة قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى ما قبل صلح الحديبية، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرا واقعيا مباشرا،^(٢) وقد نزلت بعد سورة الأنفال.^(٣)

٤- محور السورة:

هذه السورة لها ثلاثة محاور رئيسة:

أ- المحور الأول: يدور حول: «ربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير وهو أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره، ذلك كافتتاح السورة: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَتَيْنِ فِي جَوْفِهِ ٤﴾، وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعية في أول السورة: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾ لَيْسْتَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾، والتعقيب على موقف المرجفين «يوم الأحزاب» التي سميت السورة باسمها: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٥/ ص ١٦٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨١٧.

(٣) برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م)،

ط ١، ج: ٦، ص: ٧٥.

مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾، ومثل قوله في صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة، المخالفة لمألوف النفوس في الجاهلية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، وأخيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾. (١) هذا هو المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، ومن هنا فإن البقاعي يؤكد المقصد الرئيس السابق للسورة بقوله: «الحث على الصدق في الإخلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق لأنه عليه بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله فهو يعلي من يشاء وإن كان ضعيفا، ويردي من يريد وإن كان قويا، فلا يهتمن الماضي لأمره برجاء لأحد منهم في بره ولا خوف منه في عظيم شره وخفي مكره» (٢).

ب- المحور الثاني: الرئيس الذي تدور حوله السورة هو النبي ﷺ وتشريفه وتنزيهه مع آل بيته والمؤمنين معه، قال ابن عاشور: «افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ» (٣)، وقال الطبرسي: «لما صور سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر بعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه» (٤).

ج- المحور الثالث: الحديث عن غزوة الأحزاب التي سميت السورة بها، والحديث عن نعمة الله على النبي ﷺ وأصحابه الكرام بالنصر المؤزر على قوى الباطل في هذه الغزوة.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨١٨.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٦٧.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ط ١،

ج: ٢١، ص: ٢٤٩.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج: ٢٢، ص: ١٦٥.

٥- المناسبات في السورة:

أ- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لما كان محور السورة يدور حول الاعتقاد بالله تعالى والاستسلام له، ناسب أن يطلق اسم الأحزاب على هذه السورة لأن حادثة الأحزاب كانت تعبيرا واضحا لاستسلام النبي وأصحابه الكرام لإرادة الله ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، وزادهم إيمانا وتثبيتا بالله تعالى، وذلك على عكس طائفة المنافقين الذين أشاعوا الخوف بين صفوف المؤمنين وشككوا بوعد الله تعالى ووعد الرسول بقولهم: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وبينت السورة نتيجة التسليم لله تعالى والتوكل عليه بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

وبما أن من محاور السورة أيضا تشریف النبي ﷺ وبيان قدره فقصة الأحزاب فيها أبلغ تشریف وتأييد لهذا النبي الكريم حيث نصره الله تعالى بجنوده من الملائكة الكرام وبالريح وبالخندق، نصره الله وأيده على الأحزاب من قريش وغطفان واليهود الذين أتوا مع الأحزاب والذين نقضوا العهد في المدينة وعلى الأعداء الداخلين من المنافقين، فوضعت حدا لكل هؤلاء ولذلك كانت غزوة الأحزاب حدا فاصلا لمرحلة جديدة، فأعلن النبي ﷺ أنه لن يأتي أحد بعد هذه الغزوة ليغزو المسلمين بل هم سيقومون بغزو أعدائهم.

ب- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

كما افتتحت السورة ببدء خير الخلق محمد ﷺ وأمره بالتقوى التي هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، ختمت السورة بأمر المؤمنين بتقوى الله تعالى وبالحث على الالتزام بالأمانة وبيان عقوبة من خانها وجزاء من التزم بأدائها. وكما اختتمت الآية الأولى من السورة باسمي الحكيم والعليم اختتمت السورة باسمي الغفور والرحيم ليستدل بذلك على حكمة الله وعلمه فيما أمر ونهى وقضاه وقدره مما

ذكر في هذه السورة، وكيف وفق الله المؤمنين وخذل الكافرين والمنافقين الذين خرجوا عن سنة الله تعالى في الكون، ثم ختمت السورة بالمغفرة والرحمة لأن الله تعالى يعلم تقصير عباده في أداء الأمانة فبذلك يطمعون في عفوه وغفرانه ويرجون رحمته وجنته.

ج- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة السورة التي قبلها:

يقول أبو حيان: «ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة وهو أنه حكى أنهم يستعجلون الفتح وهو الفصل بينهم، وأخبر تعالى أنه يوم الفتح لا ينفعهم إيمانهم، فأمره في أول هذه السورة بتقوى الله ونهاه عن طاعة الكفار والمنافقين فيما أرادوا به، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ علياً بالصواب من الخطأ والمصلحة من المفسدة، حكياً لا يضع الأشياء إلا مواضعها منوطة بالحكمة». (١)

ووجه اتصالها بما قبلها على ما قاله الجلال السيوطي هو تشابه مطلع هذه ومقطع تلك «فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحى إليه والتوكل عليه عز وجل». (٢)

(١) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج: ٧، ص: ٢٠٦.

(٢) الألويسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص: ١٤٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٦٧.

المقطع الأول

افتتاحية سورة الأحزاب

أمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع الوحي والتوكل على الله ومخالفة الكفار والمنافقين
قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً
حَكِيماً ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾﴾.

أولاً: سبب النزول:

روي في أسباب نزول الآيات السابقة روايات عديدة منها: ما أخرجه «ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾»^(١) وروي «أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يجب إسلام اليهود قريظة والنضير وبني قينقاع وقد بايعه أناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه وكان يسمع منهم فنزلت».^(٢)

ثانياً: المعنى الإجمالي للافتتاحية:

ينادي الله تعالى نبيه ﷺ بأجمل نداء وألطفه آمراً له أن يتقي الله تعالى بالالتزام بطاعته وأداء فرائضه والانتهاز عن محارمه والابتعاد عن حدوده، ونهاه أن يطيع الكافرين عامة وخصوصاً أولئك الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يطرد من معه من المؤمنين الضعفاء، ونهاه أن يطيع المنافقين الذين يظهرون الإيمان بالله والنصيحة للرسول وهم يقصدون إيذاء المؤمنين

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٦٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٢٧.

والإضرار بهم فنهاه الله أن يقبل رأيهم ومشورتهم لأنه سبحانه العليم الحكيم فهو يعلم بأنهم أعداء ألداء ويعلم ما تضره نفوسهم وما تنطوي عليه من الشر، وهو حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك ودينك وغير ذلك من تدبير جميع خلقه. ثم يأمر الله رسوله بأن يعمل بما أنزل الله عليه من وحي فهو سبحانه خبير بما تعمل به أنت وأصحابك من هذا القرآن وغير ذلك من أمور، وهو سبحانه خبير لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو مجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء، ولهذا فوض يا محمد إلى الله أمرك وثق به وكفى بالله وكيلًا أي وحسبك بالله فيما يأمرك وكيلا وحفيظًا بك. (١)

ثالثاً: أسلوب القرآن الكريم في مخاطبة النبي ﷺ

يخاطب الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بأجل خطاب فيناديه ويشرفه ويعلي من شأنه بخطابه بوصف النبوة، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم إذا أرد أن يخاطب النبي يشرفه بذكر النبوة أو الرسالة دون ذكر اسمه تنويهاً بفضلها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحریم: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبما أن أحد أهم محاور السورة هو تشريف النبي ﷺ فقد ذكرت السورة أوصافه بالنبي خمس عشرة مرة وبالرسول ثلاث عشرة مرة، وبخاتم النبيين وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله وسراج منير مرة واحدة (٢)، وكذلك ذكرت أمور عديدة في هذه السورة الكريمة تدل على مكانته العظيمة عند الله تعالى كجعل ولايته عامة على كل المؤمنين، وأنه أولى بهم من أنفسهم، وإعلامنا بصلاة الله تعالى عليه وملائكته، وأمرنا بالصلاة والسلام عليه، وغير ذلك من أمور نوضحها لاحقاً.

ولم يناد الله تعالى النبي باسمه كما نادى الآخرين بيا آدم ويا موسى ويا عيسى ويا داود تعظيماً له، وأما عندما ذكر اسمه فإنما ذكره في معرض الإخبار كما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١١٧، وقارن بالسعدي، تفسير السعدي، ج: ١، ص: ٦٥٨.

(٢) عبد الحميد طهراز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة

سبأ وسورة فاطر، (دمشق: دار القلم، ١٤١٧/١٩٩٦)، ط ١، ص: ٣٥-٣٦.

اللَّهِ [الفتح: ٢٩] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار. ^(١) ومما يدل على أهمية المنادى كما يقول الفخر الرازي هو أسلوب النداء بـ(يا أي) دون يا، فقولك: يا رجل، غير قولك: يا أيها الرجل، إذ الثاني ينبئ عن خطر خطب المنادى له. ^(٢)

رابعاً: دلالة أمر النبي ﷺ بالتقوى:

إن النبي ﷺ هو أتقى الناس وأخشاهم الله تعالى، فهو قد طبق هذه الآية تطبيقاً قولياً وفعالياً من خلال حياته مع زوجته ومع المجتمع الذي يعيش فيه، وسيرته خير شاهد على ذلك. فعن عائشة قالت: دخلت امرأة عثمان بن مظعون واسمها خولة بنت حكيم علي وهي باذة الهيئة، فسألتها ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، فدخل النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فلقي النبي ﷺ فقال: (يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا أما لك في أسوة فوالله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأننا)، ^(٣) وعن عائشة رضي الله عنها: (أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَفْتِيهِ وَهِيَ تَسْمَعُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ أَفَأَصُومُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ فَقَالَ لَسْتُ مِثْلَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي). ^(٤) ولهذا قال المفسرون إن أمر النبي بالتقوى وهو متق لله فعلاً إنها هو أمر له بالثبات والدوام عليه وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره، ^(٥) وكذلك هو تنبيه لأتباعه من المؤمنين بأنه إذا كان النبي مأموراً بالتقوى فهم مأمورون به من باب أولى، ^(٦) لأن «تقوى الله والشعور برقابته واستشعار

(١) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص ٥٢٧.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٤.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٣، ص: ١٤٥.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ٧٨١، رقم الحديث: ١١٠٨.

(٥) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص ٥٢٧.

(٦) ذكر الرازي دلالات أخرى لأمر الله تعالى نبيه بالتقوى، فانظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٥.

جلاله هي القاعدة الأولى، وهي الحارس القائم في أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ،^(١) وهي التي يناط بها كل تكليف في الإسلام وكل توجيه، ومما يدل على ذلك هو قوله تعالى مخاطباً أمة النبي ﷺ في ختام الآية الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.^(٢)

ومن أهم ثمار التقوى الالتزام بأوامر الله تعالى واجتناب الطاغوت المتمثل بطاعة الكافرين والمنافقين الذين لا يحبون الخير والرقى للمسلمين، فهم كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقد أثبت الزمان الذي نعيش فيه صدق هذا فالكفار والمنافقون فينا هم ما بين مستعمر لبلادنا، أو ناهب لخيراتنا، أو مستهزئ بديننا وقليل منهم المنصف فكيف نطيعهم في أمور تتعلق بمصيرنا وثقافتنا وعقيدتنا؟ ويلاحظ أن الله تعالى وصف المعارضين بالكفار هنا للدلالة على أنهم منكرون لحقوق الله تعالى ولحقوق العباد فكيف بمن هذا شأنه أن يطاع؟

وقد ختمت الآية الكريمة بفاصلة دالة على اسمين من أسماء الله الحسنى وهما: العليم والحكيم، وذلك إشارة إلى أن التقوى يجب أن تكون في أعلى مراتبها لأن الله تعالى عليم بذات الصدور^(٣) ويعلم السر وأخفى، ويعلم المتقي من غير المتقي حيث إن مصدر التقوى قلبي قبل أن يكون ظاهرياً، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَجْدُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ).^(٤) وفي اختتام هذه الآية

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٢٢.

(٢) عبد الحميد طهراز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ٤٤.

(٣) فانظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٥.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٥٦٤.

بفاصلة: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إشارة إلى أن الأمر بترك طاعة الكافرين والمنافقين فيه حكمة عظيمة لا يعلمها إلا العليم الحكيم لأن المطيع لهم لا يعلم الغيب ولا يعلم النتائج المترتبة على طاعتهم، فكان هذا الأمر تحذيرا مسبقا للمؤمنين من طاعتهم حتى لا يفشلوا ويندموا بعد فوات الأوان.

خامساً: المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

وهذه الآيات تتناسب مع محور السورة العام حيث إنها تحث النبي ﷺ على التعلق بالله تعالى وحده دون غيره تقوى واعتمادا وتوكلا، وأما تناسب الآيات مع بعضها فنرى بأن الافتتاح بالأمر بالتقوى فيه دلالة على أمر عظيم يأتي بعده هو الابتعاد عن طاعة الكافرين والمنافقين واتباع أوامر الوحي والتوكل على الله حق التوكل، وفيه تهيئة أن «تشرعا عظيما سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين. وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي ﷺ لا يقبل أقوالهم لئاسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكاييد ويظهرون أنهم ينصحون النبي ﷺ ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام»^(١).

سادساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الأول:

- * تعظيم النبي ﷺ عند ذكره بوصف النبوة والصلاة والسلام عليه.
- * أهمية التقوى في حياة المسلم لأن عليها ينبنى كل شيء في تصرفات الإنسان وسلوكه.
- * النهي عن طاعة المعادين للإسلام من الكفار والمنافقين الذين لا يجون الخير للمسلمين.
- * ضرورة اتباع الوحي الرباني فيما يأمر وينهى.
- * لزوم الاعتماد على الله تعالى والثقة به والتوكل عليه حق التوكل في كل الأمور، ومن اعتمد عليه أفلح.

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ٢١، ص: ٢٥٠-٢٥١.

المقطع الثاني

تصحيح مفاهيم اجتماعية وأسرية خاطئة

قال الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ۝

أولاً: سبب النزول:

روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ ﴾ ثلاثة أقوال:

١- أخرج ابن أبي حاتم من طريق ضعيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت، وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني. وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نزلت في رجل من بني فهم قال: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له جميل بن معمر.

٢- أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلبا معه، فأنزل الله: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ ﴾^(١).

٣- أنه عنى بذلك زيد بن حارثة من أجل أن رسول الله ﷺ كان تبناه فضرب الله بذلك مثلاً كأنه يقول: كما أنه ليس لرجل قلبان، فكذلك ليس ابن رجل آخر ابنك. وقد رجح الطبري

(١) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ج: ١، ص: ١٧١.

السبب الذي يقول إنها نزلت في الرجل الذي ادعى أن له قلبين، ولم يمنع الطبري جواز السبب الثاني إلا أن المقصود العام هو أن الله نفى عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة. (١)

ثانياً: المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

لما كان موضوع المقطع الأول الحث على التقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين بدأ هنا يبطل بعض معتقدات الكافرين وعاداتهم كالاعتقاد الباطل بوجود قلبين لدى الأذكىاء من البشر، ويبين أن تشبيه الرجل لزوجته في الحرمة كظهر الأم غير صحيح ومحرم، ويمهد بذلك لتحريم التبني بنفي كون الولد المتبى ابناً حقيقياً، وكان لهذا علاقة بزيد بن حارثة الذي كان للمنافقين فيه نصيب، وما كل تلك العادات والتقاليد الجاهلية إلا دعاوى لا أساس لها من الصحة بحيث لا تتجاوز الأفواه.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

افتتحت الآية بنفي أن يكون لرجل قلبان في جوفه وبيان الحقيقة في ذلك تصحيحاً لما كان بعض الناس في الجاهلية يعتقدونه، وذلك تمهيداً لبيان حقيقة الظهار وهو بأن يحرم الرجل زوجته على نفسه بأن يقول: أنت علي كظهر أمي، فهذا القول محرم ومنكر ولا يجعل الزوجة أمًا، وتمهيداً لتحريم التبني واعتباره لا حقيقة له من حيث ثبوت النسب، فكل هذه الأمور ادعاءات لا أساس لها من الصحة فهي أقوال بالفم لا تغير شيئاً من حقيقة الواقع. والقرآن يختم هذه الآية بفاصلة رائعة تناسب السياق بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ فما قاله الله تعالى في نفي أن يكون لرجل أو امرأة قلبان، وفي نفي أن تجعل الزوجة كالأم في الحرمة بمجرد التلطف بكلمة، وفي نفي أن يجعل تبني شخص غريب ابناً حقيقياً، فهذا القول هو الحق لا غير لأن قائله هو الحق تعالى ولا يصدر عنه إلا الحق، وهو سبحانه يهدينا الطريق المستقيم

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١١٩.

والصائب في كل الأمور لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى وهو خلق الإنسان وهو يعلم أعضائه ويعلم كل شيء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤). فالطريق الصحيح والعدل عند الله تعالى هو أن نسب هؤلاء المتبنين لأبائهم الحقيقيين، وأن نحافظ على الأنساب، ومن هنا كان الذي يسلك غير هذا السبيل ضالاً، فعن أبي ذرٍّ أنه سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: (ليس من رجلٍ ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادَّعى ما ليس له فليس منا وليتَّبوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، ومن دَعَا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه).^(١) وإذا لم يعرف للمتبنى أب فيقال له: يا أخي ويا مولاي، وليس يا ابني ولهذا لما نزلت هذه الآية لم يعد الصحابة يدعون زيد بن حارثة بزید ابن محمد بل نسبوه لأبيه الحقيقي، وإن لم يعرفوا آباءهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم أي عوضا عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضي الله عنها تنادي ياعم ياعم فأخذها علي ﷺ وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فاحتملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة فقال علي ﷺ: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب ابنة عمي وخالتها تحتي، يعني أساء بنت عميس فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي ﷺ: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر ﷺ: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد ﷺ: أنت أخونا ومولانا).^(٢) وقد رفع الله الحرج والإثم عمن دعا إنسانا لغير أبيه خطأ لأن الله غفور رحيم، أما من تعمد الخطأ فعليه إثم، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)،^(٣) ولهذا ناسب أن تختتم الآية بالفاصلة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ مراعاة للسياق قبلها.

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج: ١، ص: ٦٩، رقم الحديث: ٦١. وأخرجه البخاري، صحيح البخاري،

ج: ٣، ص: ١٢٩٢، رقم الحديث: ٣٣١٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٦٧.

(٣) الطبراني، المستدرک على الصحيحين، ج: ٢، ص: ٢١٦، رقم الحديث: ٢٨٠١، وابن حبان، صحيح ابن

حبان، ج: ١٦، ص: ٢٠٢، رقم الحديث: ٧٢١٩.

رابعاً: المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

بما أن من محاور السورة الرئيسة الحث على الإخلاص لله تعالى، لذا فقد ضرب الله المثل لمن ينزع إلى جهتين متناقضتين بأن يدعي أن ظهر زوجته كظهر أمه، وأن من ليس ابنه ابنا له كالذي يدعي باطلا بأنه يتصرف بقلبين في جوفه، وذلك ليؤكد الله تعالى ضرورة الإخلاص له والالتزام بالواقع والحقيقة. وإذا كان للإنسان قلب واحد، «فلا بد له من منهج واحد يسير عليه. ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه»،^(١) وهذا المنهج هو الإسلام.

خامساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني:

- * إطلاق المسميات الحقيقية على الأشياء من غير تبديل أو تغيير يؤدي لقلب الحقائق، فعندما يطلق الرجل على شخص أنه ابن لفلان وهو ليس كذلك فهذا تغيير للحقيقة.
- * القرآن الكريم هو مصدر الحق لأنه من الله الحق سبحانه وتعالى، وقد تأكد علمياً أنه لا يمكن للإنسان أن يعيش بقلبين.
- * لا عبرة للتقاليد والعادات المنتشرة بين الناس والجارية على أفواههم إذا ما خالفت الحقيقة أو الشريعة.
- * ضرورة أن يوحد المسلم هدفه تجاه خالقه وهو الله تعالى، فيطيعه في كل ما أمر، وينتهي عن كل ما نهى عنه، فلا يجوز للمسلم أن يأخذ من مصدر يخالف القرآن أو السنة، سواء كان المصدر من الشرق أو من الغرب، فالله تعالى جعل منهجاً واحداً للإنسان كي يتبعه ولا يمكن أن يتبع منهجين متناقضين في آن واحد إذ لم يجعل الله لرجل من قلوبين في جوفه.
- * رفع الإسلام الظلم عن المرأة بتحريم الظهار على صورتها في الجاهلية، ورتب عليه أحكاماً قاسية في الإسلام كي يتعد عنه المسلم لأن فيه ظلماً للمرأة وبذلك يكون الإسلام أول من دافع عن حقوق المرأة.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٢٨.

- * حرم الإسلام التبني لأنه يخلط بين الأنساب وفيه قلب للحقائق، وهو يؤدي لمفاسد كثيرة أخرى، فهذه السورة أساس في أمور تنظيم الأسرة.
- * بما أنه من صفات الله تعالى المغفرة والرحمة، فالله تعالى لا يؤاخذ الإنسان على الخطأ ولكن يؤاخذة على تعمد الخطأ.

المقطع الثالث

الولاية العامة للنبي ﷺ على المؤمنين وأخذ الله الميثاق من النبي ﷺ

ومن النبيين عليهم السلام لتبليغ الدعوة

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

أولاً: العلاقة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد أن منع الإسلام التبني وأوضح أن العلاقة الحقيقية تكون بالنسب فقط، ناسب أن يبين القرآن أن قرابة الأخوة الإيمانية بين المؤمنين التي كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بناء عليها، والتي اقتضتها مرحلة صعبة تأسيسية في حياة المسلمين، ناسب أن ينسخ هذا الحكم لتعود الأمور إلى أصلها وهو التوارث بناء على صلة النسب مع بقاء الأخوة الإيمانية. وكذلك لما منع الإسلام التبني ناسب أن يبين ماهية ولاية النبي ﷺ بالنسبة لزيد بن حارثة خاصة والمؤمنين عامة، فبين القرآن أن هذه الولاية هي ولاية عامة على كل المؤمنين وأنه ﷺ أولى بهم من أنفسهم وعليهم أن يقدموه على أنفسهم لأنه السبب في إخراجهم من الظلمات إلى النور، فعلاقته ﷺ بالمؤمنين أعظم من أي علاقة فهو أب لهم ورحيم ورؤوف بهم، وكذلك قررت الآية الأمومة الروحية لزوجات النبي ﷺ وذلك حرمة له ﷺ وتشريفاً لقدره.

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

جعل الله تعالى ولاية النبي ﷺ عامة على المؤمنين لأنه يستحق هذه المكانة وهو أولى بهم من أنفسهم في كل أمور الدين والدنيا لأنه أعلم بمصالحهم وأحرص عليهم من أنفسهم، ولهذا كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، [النساء: ٦٥]، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فقد جمع النبي ﷺ بين حرص الوالد على مصلحة ولده وعطف الأم ورحمتها بأولادها، فعن أبي هريرة ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوفد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنهن فيقتحمن فيها فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها^(١)، وقال النبي ﷺ: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، فأبياً مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاؤه^(٢)، وقال: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)،^(٣) وقال ﷺ أيضاً: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).^(٤) فاللهم اجعل حبه في قلوبنا أكثر من حبنا لأنفسنا وأموالنا وأولادنا والناس أجمعين. وهذه الولاية العامة تكون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد بينتها الأحاديث السابقة، وأما في الآخرة فهي تتجلى بشفاعه النبي ﷺ للمؤمنين به، حتى قال بعضهم: «أرجى آية في كتاب الله عز وجل ﴿ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٥، ص: ٢٣٧٩، رقم الحديث: ٦١١٨، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٧٨٩، رقم الحديث: ٢٢٨٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٢، ص: ٨٤٥، رقم الحديث: ٢٢٦٩.

(٣) أبو داود، سنن أبي داود، ج: ١، ص: ٣، رقم الحديث: ١١.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج: ١، ص: ١٤، رقم الحديث: ١٤.

رَبُّكَ فَتَرَضَى ﴿ [الضحى: ٥]، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى أن يبقى أحد من أمته في النار. (١) وبما أن كل من اتصل بهذا النبي بصلة ما صارت له أهمية واحترام، فمن باب أولى أن يكون لزوجاته التقدير والاحترام بأن جعلهن الله تعالى أمهات للمؤمنين من حيث حرمة الزواج بهن بعد موت النبي ﷺ ومن حيث احترامهن. وقد غلظ القرآن العقوبة لمن لا يحترم أمهات المؤمنين فيرمي إحداهن بفاحشة فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣]، فهذه الآية نزلت في عائشة خاصة، وفي أمهات المؤمنين عامة، فلم يجعل الله تعالى لمن قذفهن توبة ولعنه الله تعالى قاله ابن عباس والضحاك (٢)، فرضي الله عنهن أجمعين. ثم انتقلت الآية الكريمة للكلام عن ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فنسخت حكم التوارث الذي كان في بداية الإسلام بين المهاجرين والأنصار وأرجعت الأمور إلى نصابها فجعلت التوارث مبنيا على القرابة النسبية، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في التوارث خصوصا، فهم أولى من غيرهم من المؤمنين ممن لا قرابة نسبية لهم، إلا إذا أراد المورث أن يوصي للبعيد بما دون الثلث فقد سمح بذلك، وإن مضمون هذا الحكم قضاه الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ.

ثم أوضحت الآية الثانية أمرا خطيرا وهو أخذ الله العهد القوي والعقد من النبي ﷺ ومن إخوانه الأنبياء عليهم السلام كي يؤدوا وظيفة النبوة والتبليغ على أحسن وجه في المنشط والمكروه، وبأن يعبدوا الله ويدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل، وأن يبشر كل واحد منهم بمن بعده، (٣) وهذا يدل على أمرين أولهما: عظم وخطر أمر النبوة، وثانيهما: هو مكانة خاتم الأنبياء ﷺ عند الله فهو مقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا أخذ الله العهد منهم في مكان آخر أن يؤمنوا بالنبي ﷺ إذا هو بعث في زمانهم فقال تعالى: ﴿ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُؤْتَمِرٌ لَكُمْ أُتَى مِنْ رَبِّكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ الْيَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ [النور: ٢٣]، وهذا يدل على عظم شأن النبي ﷺ وعظم شأن العهد الذي أخذ الله من الأنبياء عليهم السلام.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٢، ص: ٢٠٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٢، ص: ٢٠٩.

(٣) السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج: ٣، ص: ٤٢.

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ. ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٨١]. ونتيجة هذا العهد هو إقامة الحججة فيثيب الصادقين في وفاء العهد والمخلصين في إيمانهم، ويعذب الكافرين المنكرين عذاباً أليماً.

ثالثاً: المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

لما كان أحد محاور السورة الرئيسة هو بيان مكانة النبي ﷺ، فقد أوضحت هذه الآية بشكل صريح أن النبي ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأن عليهم أن يقدموه على أنفسهم في كل شيء، ويتبع مكانة النبي الرفيعة زوجاته الشريفات فهن من خير نساء العالمين ولهذا استحققن أن يعطين لقب «أمهات المؤمنين» رضي الله عنهن أجمعين. وكذلك بينت الآية التي تلت آية الولاية مكانته ﷺ بتقديم ذكره على ذكر الأنبياء في أخذ الميثاق بتبليغ الدعوة، وبأخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام بوجود الإيوان بالرسول ﷺ ونصرته.

خامساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث:

- * على المؤمن أن يطيع النبي ﷺ طاعة لا تردد فيها، وعليه أن يحبه أكثر من نفسه، وأن يجاهد نفسه في ذلك، لأنه مقدم على كل شيء في الحياة بعد الله تعالى.
- * تتجلى مكانة النبي ﷺ من خلال هاتين الآيتين: إذ أعطته الأولى مكانة الولاية على كل المؤمنين، والثانية قدمته على جميع الأنبياء مكانة بتقديم ذكره على ذكرهم مع أنه متأخر زمناً عنهم، وفي هذا رد واضح على الجهلاء الذين لا يعرفون مكانة هذا النبي الكريم ﷺ.
- * لذوي الأرحام حق عظيم على الإنسان، إذ جعل الله تعالى لهم الأولوية على غيرهم، ومن هنا مدح الإسلام الذين يصلون أرحامهم ويتقون الله فيهم قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].
- * لا مانع أن يحسن الإنسان لغير أقرابه بعد أن يقوم بحق الأقرباء فهم الأصل ويأتي بعدهم غيرهم.
- * إن الله تعالى كتب الأشياء قبل وقوعها في اللوح المحفوظ فالؤمن يسلم ولا يعترض وينفذ أوامر الله تعالى دونها شعور بالتردد.

* الأنبياء عليهم السلام إخوة من علات، وكلهم أتوا بدين واحد، وأيد بعضهم بعضاً، وكذلك على الدعاة أن يقتدوا بهم فيؤيد بعضهم بعضاً، قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد وليس بيننا نبي».^(١)

المقطع الرابع

قصة غزوة الأحزاب

التذكير بنعمة النصر على الأحزاب وابتلاء المؤمنين

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

أولاً: علاقة المقطع الرابع بالمقاطع السابقة :

قال سيد قطب: «يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدأه ونهايته، قبل تفصيله وعرض موافقه، لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها؛ وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين».^(٢) وفي نصر المسلمين في هذه الغزوة نعمة عظيمة يمن الله تعالى بها على عباده المؤمنين المخلصين في تقواهم التي أمر الله تعالى بها في أول السورة

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٢٧٠، رقم الحديث: ٣٢٥٩، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٤،

ص: ١٨٣٧، رقم الحديث: ٢٣٦٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٣٦.

فكان النصر الإلهي نتيجة لتلك التقوى والتوكل الحقيقي على الله تعالى، فهذه النعمة تذكر المؤمن بأن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من الله الخالق وحده لا من خلقه لأن الأمر كله بيد الله تعالى، فمن كان مع الله كان معه كل شيء، ومن لم يكن معه الله فلا شيء معه ولو ملك كل مقومات القوة الظاهرية، لذا يقول الفخر الرازي في مناسبة هذه الآيات لما قبلها: «تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد... والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره، ولا يأمن مكره فإنه قادر على كل ممكن»^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يذكر الله تعالى عباده المؤمنين بنعمة من نعمه العظيمة عليهم، إذ نصرهم في غزوة الأحزاب وهم أذلة ضعفاء يخافون أن يغلبوا من كثرة عدوهم الذي كان زهاء اثنتي عشرة ألفاً من قريش وغطفان وقبيلتي بني النضير وقريظة من اليهود، وتذكير النعمة يراد به شكران المنعم سبحانه، فهو الذي أيد المؤمنين ونصرهم بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، وفي هذه المرة كانت الريح هي أهم تلك الجنود وأبرزها حيث حسمت الريح المعركة بعد أن استمر حصار المدينة زهاء خمسة وعشرين يوماً، حسمت الريح المعركة لصالح المسلمين، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)،^(٢) وأرسل الله تعالى نوعاً آخر من الجنود وهم الملائكة لنجدة المسلمين «وكانوا ألفاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم، وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٥٠٧، رقم الحديث: ٣٨٧٩، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ٦١٧، رقم الحديث: ٩٠٠، والنسائي، سنن النسائي، ج: ٦، ص: ٤٥١، رقم الحديث: ١١٤٦٧.

بالسحر فالنجاء النجاء فانهمزوا من غير قتال»^(١).

الله أكبر وأعظم به من نصر، الله أكبر وأعظم بها من معركة، سلاحها الفتاك هو الريح والملائكة والرعب، فمن كان معه الله سخر له ما يشاء، نصر الله المؤمنين بالرغم من إتيان الأعداء من كل الجهات فحاصروا المدينة المنورة حصارا شديدا، أتى النصر من الله البصير بأعمال المؤمنين الصادقين في نصره دينه وذلك بعد أن اشتد الامتحان وعظم فزاغت الأبصار واضطربت القلوب وخافت وظن المؤمنون أنهم ممتحنون فخافوا من الزلل، وظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون، ولكن خابت ظنون المنافقين ونصر الله عباده المتقين.

واختبر المؤمنون اختبارا عظيما واضطربوا اضطرابا شديدا من هول الموقف وبسبب خيانة المنافقين واليهود وهجوم الكافرين عليهم، إلا أنهم كانوا متيقنين بنصر الله تعالى لهم، فحقق الله تعالى لهم وعده، ونصرهم على الأحزاب.

ثالثا: المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

يتناسب الكلام عن غزوة الأحزاب مع محاور السورة في الحديث عن غزوة الأحزاب ثم في بيان مكانة النبي ﷺ وشأله الرفيعة وأخلاقه الكريمة فقد كشفت هذه الغزوة العصبية -التي امتحن الله تعالى فيها المسلمين امتحانا عسيرا- عن المعدن الثمين الكريم للنبي ﷺ الذي كان همه نصره الدين والإشفاق التام والمحبة الشديدة لأصحابه الكرام من خلال اشتراكه معهم في حفر الخندق ومن خلال دعوته لهم إلى الطعام الذي أعده جابر وغير ذلك من أمور تجلت في هذه الغزوة،^(٢) وكشفت أيضا عن معدن الصحابة الكرام الذين وقفوا بجانب النبي في أحلك الساعات وأشدّها حيث زلزلوا زلزالا شديدا ولم يثنهم ذلك عن تأييده والتضحية

(١) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٣٤.

(٢) قارن بعبد الحميد طههاز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ٥٥، وصالح أحمد رضا، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، (الشارقة: جامعة الشارقة، ٢٠٠٦)، ص: ٢٧٣-٢٧٤.

في سبيل الله تعالى. وكذلك فإن نصر الله تعالى للمؤمنين في أشد حالات الضعف وتأييده لهم في أقوى حالات الوهن وقوة بطش أعدائهم عدة وعددا إذ كان الأحزاب اثني عشر ألفا من مختلف قبائل العرب واليهود كل ذلك يؤكد ضرورة الإخلاص لله تعالى والاعتماد عليه إذ إن هذا الإخلاص والتوكل على الله حق التوكل كان أحد أهم أسباب النصر حيث تجلّى ذلك في سلوك النبي ﷺ الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام، وهذا أحد أهم مقاصد السورة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، أما المنافقون فقد محصتهم هذه الغزوة، وكشفت عن كفرهم الدفين، فميز الله بين الخييب والطيب والكافر والمؤمن.

ثالثا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع:

* أن يشكر الإنسان ربه على ما أنعم عليه من نعم كثيرة، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يستطيع أداء هذا الشكر ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والشكر له نتائج جميلة قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ١]، وأعظم أنواع الشكر عبادة الله وأداء الفرائض وأولها الصلاة فقد جاء عن ابن مسعود أنه قال: «من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ومن دعا لوالديه عقبها فقد شكر لهما».^(١) وربنا سبحانه أرأف بنا من أمهاتنا، فهو يستحق الشكر والحب لما يغذونا من نعم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحيي)،^(٢) وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة من كن فيه آواه الله في كنفه وستر عليه برحمته وأدخله في محبته قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: من إذا أعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر).^(٣)

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٢، ص: ١٠، رقم الحديث: ٥٠٤.

(٢) الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ج: ٣، ص: ١٦٢، رقم الحديث: ٤٧١٦، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ج: ١، ص: ٢١٤، رقم الحديث: ٤٣٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد فإن عمر بن راشد شيخ من أهل الحجاز من ناحية المدينة قد روى عنه أكابر المحدّثين.

- * أن الله تعالى يسخر لعباده المتقين أسباب النصر فيؤيدهم بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ولكن المهم هو أن نصر الله حتى ينصرنا.
- * إن الريح هي جند من جنود الله تعالى وكذلك الملائكة يرسلهم لنصرة أوليائه، كما حدث للمسلمين في غزوة الخندق.
- * حسن الظن بالله تعالى ضروري فلا يظن العبد بربه إلا خيرا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني).^(١)
- * الله تعالى يبتي عباده المؤمنين بأشد أنواع البلاء حسب درجاتهم ليرفع مقاماتهم عنده، ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].
- * وردت في كتب السير تفصيلات عن غزوة الخندق ارتأينا أن لا نذكرها هنا منعاً للإطالة ولكننا نذكر بعض الفوائد والبصائر المستنبطة من هذه المعركة:
- أ- المسلم منفتح على كل جديد نافع لأمتة والحكمة ضالته أينما وجدها التقطها، ولهذا فقد أخذ النبي ﷺ بمشورة سلمان الفارسي ﷺ فحفر الخندق حول المدينة، وشكل هذا الخندق مفاجأة حربية كبيرة للأحزاب وكان أحد أهم أسباب هزيمتهم.
- ب- تحققت معجزات عديدة في هذه الغزوة ومنها بركة تكثير الطعام في شاة جابر التي كفت ألفا وثمانمائة من أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا يحفرون الخندق، ومنها: «إخباره ﷺ عن أمور ستحدث في مستقبل الإسلام من فتح الشام والعراق واليمن، وهم في أضيقت حال... وإرسال الله تعالى الصحابي نعيم بن مسعود ليثبط همة الأحزاب ويفرق شملهم، فقد كان من غطفان، وكان نديما لليهود في الجاهلية، وكان معروفا لقريش بوده، وفراقه لمحمد ﷺ، فاستطاع بطريقة ذكية أن يشكك اليهود بالمشركين، وغطفان بقريش، وقريشا بالطرفين». ^(٢)

(١) الحميدي، الجمع بين الصحيحين، ج: ٣، ص: ٧، رقم الحديث: ٢١٧٠.

(٢) صالح أحمد رضا، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، ص: -٢٧٤.

ج- ظهور غدر اليهود وعداوتهم الشديدة للرسول ﷺ وذلك بتأليب بني النضير للأحزاب وبنقض بني قريظة للعهد، وهذا تصديق لقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢]، حيث إن اليهود والمشركين تحزبوا للقضاء على الإسلام في هذه الغزوة، ولكن الله تعالى خيبهم وخذلهم وأهلك طائفة منهم وهم اليهود، ولما علم النبي ﷺ بخيانة اليهود العهد قال رسول الله: (الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين)، وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين. (١)

د- ظهر النفاق في هذه الغزوة واضحا وهو ما ستبينه الآيات القادمة، وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز؟. (٢)

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٢٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٤٧، والطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٢٨.

المقطع الخامس

فضح موقف المنافقين في هذه المعركة وبيان صفاتهم القبيحة

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَإِلَهِكُمْ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ وَالَّذِينَ كَانُوا عَاهِدُوا لَإِلَهِكُمْ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمٍ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِمَّنْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْمَوتُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

أولا سبب النزول:

١- في قوله تعالى: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فإن العلماء يذكرون حادثة حفر النبي للخندق وما بشرهم به النبي من فتوحات لبلاد فارس والروم وغيرها ثم يقولون: قال معتب بن قشير: كان محمد يرى أن يأكل من كثر كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط^(١) إلا قتل، هذا والله الغرور، فأنزل الله تعالى في هذا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.^(٢)

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٧٥.

(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٧٧-٥٧٨.

٢- قال أوس بن قيطي في ملأ من قومه من بني حارثة: (إن بيوتنا عورة) وهي خارجة من المدينة ائذن لنا فرجع إلى نساتنا وأبنائنا وذرائعنا فأنزل الله على رسوله حين فرغ منهم ما كانوا فيه من البلاء يذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ (١).

٣- قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا يوم الأحزاب، انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونيذ فقال له: أنت ها هنا في الشواء والرغيف والنيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال: هلم إلى هذا فقد بلغ بك وبصاحبك، والذي يحلف به لا يستقبلها محمد أبدا، فقال: كذبت والذي يحلف به، قال: -وكان أخاه من أبيه وأمه- أما والله لأخبرن النبي ﷺ أمرك، قال وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، قال: فوجده قد نزل جبرائيل عليه السلام بخبره: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢).

ثانياً: المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع السابق:

بعد أن بين الله تعالى نعمته على عباده المؤمنين في هذه المعركة وما حدث لهم من الابتلاء العظيم، أوضح أنواع الظنون التي كانت تختلج في نفوس المنافقين وفضح أعمالهم وأقوالهم الشنيعة وصفاتهم القبيحة التي ظهرت في هذه المعركة.

وهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى عن المنافقين تنطبق على المنافقين في كل زمان ومكان وكما يقول سيد قطب: «فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»، (٣) ذكرها الله تعالى لنا لنحذرنا ونعرف صفات عدونا.

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٨٠-٥٨١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٣٩، وقارن بالسيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٨٠-٥٨١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٣٨.

ثالثا: المعنى الإجمالي للآيات:

تبين هذه الآيات الكريمة حالة المنافقين مع الأمة الإسلامية ومع الرسول ﷺ في حالة الشدائد وتفضحهم. فتبدأ الآيات ببيان كفرهم بإنكار وعد الله الصادق فيما وعدهم الله ورسوله من نصر في بداية معركة الأحزاب، واعتبار الوعد وعدا كاذبا، ولهذا لم يكن لهم دافع للقتال لعدم إيمانهم، فمنهم من بدأ يثبط المؤمنين ويطلب منهم الرجوع إلى المدينة وترك ساحة المعركة، وقسم آخر بدأ يستأذن من الرسول للرجوع إلى المدينة وساق الأعذار الكاذبة بادعاء أن بيوتهم عورة أي مكشوفة على الأعداء فهم يريدون الرجوع إلى بيوتهم ليدافعوا عن أعراضهم وأولادهم، فنفى القرآن أن يكون كلام هؤلاء صادقا ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾، وإنما الهدف هو سوق العذر أيا كان بهدف الفرار من المعركة، وهذا هو شأن المنافق حيث يترك المؤمنين في أشد الحالات وأصعبها ليوажها الصعاب، فالمنافق غدار كذاب. إنهم سريعون في غدرهم وارتدادهم عن الدين، فلو أن الأحزاب اجتاحت المدينة ودخلوها من مختلف أطرافها، ثم سيطروا على المدينة وسألوا المنافقين أن يؤيدوهم ويرتدوا، لفعلوا هذا الأمر بسرعة وبدون تردد. وغدرهم ونقضهم للعهود هو من صفاتهم المتأصلة فيهم، فهم كانوا قد عاهدوا الله من قبل المعركة أن لا يهربوا من المعركة إلا أنهم خانوا وسيأسأهم الله ويحاسبهم على نقضهم العهد. وإذا كان الأجل محتما على الإنسان وله وقت محدد معلوم عند الله تعالى ولا يمكن لأحد أن يهرب منه فقد قرر القرآن الكريم أن فرار المنافقين من ساحة القتال كي لا يقتلوا أو يموتوا لن يؤخر ذلك إتيان الأجل لأن ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح: ٤]، ﴿ قُلْ إِنَّ أَلَمَاتِ الْمَوْتِ الَّتِي تَفْرُوتُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]، وهم وإن توهوا أنهم قد نجوا مؤقتا من الموت إلا أنهم سيمكثون فترة زمنية يسيرة في هذه الدنيا ثم يأتيهم أجلهم الذي قضاه الله تعالى عليهم. والحقيقة أنه لا يستطيع أحد أن يعصم أحدا أو أن يمنعه من وقوع قضاء الله عليه سواء كان ذلك القضاء خيرا أم شرا، فالله تعالى مالك الملك ويده ملكوت كل شيء. وإن الله عليم بأفعال المنافقين الشنيعة وصفاتهم القبيحة فهم يشيعون الإشاعات ليمنعوا المؤمنين ويشطوهم

عن الذهاب للقتال في سبيل الله، ويطلبون من إخوانهم في الدين والرأي أن تركوا ساحة القتال والتحقوا بنا في المدينة، ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيرا ودفعا عن أنفسهم^(١) من أن يتهمهم المؤمنون فهم يقاتلون رياء. وأما صفاتهم القبيحة الأخرى فهم أشحة عليكم و«الشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير، وأصله عدم بذل المال، ويستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة... والمعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي إذا حضروا البأس - وهو القتال - منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحهم بأنفسهم وكل ما يشح به»،^(٢) قال الطبري: «إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجن والشح ولم يخص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى فهم كما وصفهم الله به أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله على أهل مسكنة المسلمين». ^(٣) وأما الصفة القبيحة الثانية لهؤلاء المنافقين فهي جبنهم الشديد عند رؤيتهم للأعداء في ساحة المعركة وهم يلوذون بك وينظرون نظر الهلع المختلط الذي تدور عيناه في كل الجهات المحيطة وتضطربان كاضطراب عيني الذي يغشى عليه بسبب النزاع عند سكرات الموت. ^(٤) وأما الصفة القبيحة الثالثة لديهم فهي أنهم إذا ما انتهى القتال وذهب الخوف آذوكم وخاصموكم بكلام مستكره وبألسنه سلطة ذرية، قال يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم في أذاكم وسبكم وتنقيص ما أنتم عليه من الدين. ^(٥) و«قال قتادة ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا أعطنا فإننا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، قال النحاس: هذا قول حسن لأن بعده أشحة على الخير». ^(٦) فهم أشحة على الخير أي هم

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٣٩.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ١٠، ص: ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٠.

(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ١٠، ص: ٢٩٦-٢٩٧.

(٥) الألويسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص: ١٦٥.

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٥٤.

بخلاء حريصون على مال الغنائم إذا ظفر المؤمنون،^(١) وذهب أبو حيان إلى عموم الخير.^(٢) ولأن المنافقين كفرة أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر فقد أبطل الله أعمالهم، وهذا الأمر هين وسهل على الله عز وجل. والمنافقون من شدة خوفهم يحسبون أن الأحزاب لم يذهبوا والحال أنهم تركوا حصار المدينة وذهبوا، ويتمنى المنافقون من شدة الخوف والجبن أنه إذا أتى الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا في حينها قد خرجوا إلى البادية مع الأعراب خوفا من القتل ويتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ولو كانوا معكم في المعركة ما نفعوكم وما قاتلوا المشركين إلا قليلا، أي إلا تعذيرا، لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب،^(٣) بل يقاتلون رياء فلا أجر لهم، ولو كان قتالهم لله تعالى لكان أجرهم عظيما وكثيرا.

رابعا: المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

بما أن محور السورة يدور حول الإخلاص لله تعالى والتوكل عليه بين القرآن الكريم فئة من الناس مرضى النفوس والقلوب، لا تتقي الله تعالى ولا تخلص له سبحانه وتعالى في اعتقادها ولا في أعمالها، فهم يظنون الكفر ويظهرون الإيمان، وهم يراؤون الناس في أعمالهم الصالحة وهم غير مخلصين في أداء الأعمال: ففي الصلاة: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾، وفي القتال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وفي الإنفاق يبغون الشهرة، وكذلك في سائر أعمالهم. وهذا النوع من الناس لا يتوكلون على الله تعالى في أعمالهم، فهم مضطربون في إيمانهم يظنون بالله ظن السوء بدليل قولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، ويخونون العهود، ويظنون أن باستطاعتهم الفرار من الموت الذي قضاه الله تعالى. وفي سوق صفات المنافقين هذه حث للمؤمن على الحذر من الوقوع في هذه الصفات تحقيقا للإخلاص الكامل لله تعالى. وكذلك فإن في سوق هذه الآيات عن المنافقين توضيح لعظمة النبي ﷺ في صبره على هذا

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤١.

(٢) الألويسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص: ١٦٥.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٢-١٤٣.

الصف من الناس لنقتدي به في التعامل مع المنافقين المبتوثين في الأمة الإسلامية.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الخامس:

- * إن المنافق مريض القلب والنفس، قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].
- * المنافق يظن بالله تعالى ورسوله ظن السوء.
- * المنافق لا يقاتل عن عقيدة ولهذا إذا وجد الفرصة للهرب من أي مهمة صعبة فهو لا يتحمل المسؤولية بل يتنصل من واجباته.
- * لا يحافظ المنافق على العهود مع الله تعالى، فهو يخونها وسيأسأله الله ويحاسبه على ذلك يوم القيامة، ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].
- * إن قدر الله تعالى لا يمكن أن يفر منه أحد، فإذا قدر الله شيئا فهو كائن لا محالة، فعلى الإنسان ألا يفر من قضاء الله بل أن يتلقاه بكامل الرضا والقبول.
- * من أهم صفات المنافقين التي يجب الابتعاد عنها: الشح والبخل وعدم حب الخير للآخرين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٤].
- * إن المنافقين جنباء إلى درجة عالية بحيث إذا وقعوا في مصيبة كالحرب تراهم مضطربين كالميت الذي ينازع في السكرات تتحول عيناه يمنة ويسرة من هول ما يعاناه.

المقطع السادس

الرسول هو الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام هم نجوم يهتدى بهم

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَكَلَّمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْآخِرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۗ ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ۗ ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۗ ﴿٢٤﴾ ۝﴾

أولاً: سبب النزول:

قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر ؓ سميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع، قال فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ ؓ، فقال له أنس ؓ: يا أبا عمرو أين واهما لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل ؓ، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا بينانه، قال فنزلت هذه الآية: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ۗ ﴾، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة به ورواه النسائي أيضاً وابن جرير من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ؓ به نحوه. (١)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٧٦، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، الترمذي، سنن الترمذي، ج: ٥، ص: ٣٤٨، رقم الحديث: ٣٢٠٠.

ثانياً: علاقة المقطع السادس بالمقطع السابق:

هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ وعسكره بالمدينة من المؤمنين به ومن غير المؤمنين، فالمؤمن عليه أن يكون مع رسول الله حيثما كان وألا يتخلف عنه لأن النبي ﷺ قدوة له حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق،^(١) وأما المنافق فتقوم عليه الحجة، ولما أخبر تعالى عن المنافقين «بهذه الأحوال التي هي غاية في الدناءة، أقبل عليهم إقبالا يدلهم على تناهي الغضب، فقال مؤكداً محققاً لأجل إنكارهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الناس كافة الذين المنافقون في غمارهم ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾ الذي جاء لإنقاذهم من كل ما يسوءكم، وجلاله من جلاله المحيط بكل جلال، وكهاله من كهاله العالي على كل كمال، وأشرف الخلائق، فرضيتم مخالطة الأجلاف بدل الكون معه»،^(٢) ومقابل هذه الصورة القائمة للمتخلفين عن القتال وللمثبطين عنه من المنافقين كان هناك صورة رائعة يرسمها الرسول الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام، صورة «مطمئنة وسط الزلازل، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب»،^(٣) وكذلك رسم أصحاب رسول الله صورة الواثق بنصر الله الموفي بعهد الله تعالى، فكانوا بذلك قدوة لمن يأتي بعدهم من المؤمنين على مر العصور «ونموذجاً في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير».^(٤)

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هو أصل عظيم في وجوب

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٥٥.

(٢) الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ -

١٩٩٥م)، الطبعة الأولى، ج: ٦، ص: ٩٠.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤١.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٤.

الافتداء برسول الله في كل الأمور واتباع سنته السنية، ومن لم يقتد به فقد ضل ضلالا بعيدا. فهو القدوة الحسنة لكل المسلمين في أقواله وأفعاله وأحواله، ففي غزوة الخندق بذل نفسه لنصرة دين الله فشارك في حفر الخندق، وجاع مثلما جاع المسلمون، فعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرجع رسول الله ﷺ عن حجرين) أخرجه أبو عيسى الترمذي وقال: حديث غريب، وقال ﷺ لما شج: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، فقد ضرب النبي ﷺ المثل للمسلمين في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، ولقد شج وجهه وكسرت رباعيته وقتل عمه حمزة وجاع بطنه ولم يلف إلا صابرا محتسبا وشاكرا راضيا، ^(١) فألف ألف صلاة وسلام عليه، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. ^(٢) ومعنى الأسوة الحسنة كما يقول الزمخشري: إما أنه في نفسه أسوة حسنة أي قدوة وهو المقتدى به، وإما أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع وهي المواساة بنفسه، ^(٣) ولهذا قال البغوي:

«اقتداء حسن أن تنصروا دين الله وتوازنوا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه، وأوذي بضروب من الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا انتم كذلك أيضا واستنوا بسنته». ^(٤)

والذي يقتدي برسول الله ويتخذ قدوة حسنة إنما هو ذلك المؤمن الذي يرجو ثواب الله تعالى ويخافه، ويرجو الثواب يوم القيامة ويخاف عذاب الله تعالى فيه، والمؤمن الصادق يذكر

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص: ١٥٥-١٥٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣ ص ٤٧٥.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٣٩.

(٤) البغوي، تفسير البغوي، ج ٣ ص ٥١٩.

الله تعالى كثيرا فإن من ذكر الله كثيرا خافه ولان قلبه ﴿ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأفان: ٢]، وذكر الله يؤدي لملازمة الطاعة، ومن ثم يلزم عنها محبة رسوله ﷺ والافتداء به، وفي ذكر هذه الصفات رد على المنافقين الذين لم يقتدوا برسول الله ﷺ حيث لم يتوفر لديهم الرجاء في ثواب الله تعالى والخوف من عذابه، وهم لا يذكرون الله إلا قليلا. فاللهم اجعلنا من الذاكرين الله ذكرا كثيرا، والمقتدين برسولك الكريم اقتداء صحيحا. وقد ضرب لنا أصحاب النبي مثلا عظيما في حسن الاتباع به ﷺ والالتزام بسنته السنية، فمثلا: أخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم عن حفص بن عاصم بن عمر قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنها: رأيتك في السفر لا تصلي قبل الصلاة ولا بعدها، فقال: يا بن أخي صحبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا وكذا فلم أراه يصلي قبل الصلاة ولا بعدها. ^(١) وأخرج ابن ماجه عن إسحاق بن قبيصة عن أبيه: أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيَّ النَّقِيبَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزَا مَعَ مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الرُّومِ فَنَظَرَ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ كَسَرَ الذَّهَبِ بِالذَّنَانِيرِ وَكَسَرَ الْفِضَّةِ بِالذَّرَاهِمِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ الرَّبَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَا تَبْتَاغُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلِ لَا زِيَادَةَ بَيْنَهُمَا وَلَا نِظْرَةَ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: يَا أَبَا الْوَلِيدِ لَا أَرَى الرَّبَا فِي هَذَا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ نِظْرَةٍ، فَقَالَ عُبَادَةُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمُحَدِّثُنِي عَنْ رَأْيِكَ، لَئِنْ أَخْرَجَنِي اللَّهُ لَا أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لَكَ عَلَيَّ فِيهَا إِمْرَةٌ، فَلَمَّا قَفَلَ لِحَقِّ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ وَمَا قَالَ مِنْ مُسَاكِنَتِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ إِلَىٰ أَرْضِكَ، فَقَبِحَ اللَّهُ أَرْضًا لَسْتُ فِيهَا وَأَمْثَالِكَ، وَكَتَبَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ: لَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَيْهِ، وَأَهْمِلْ النَّاسَ عَلَىٰ مَا قَالَ فَإِنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ. ^(٢) وهناك حوادث كثيرة

(١) مسند أبي عوانة، ج: ٢، ص: ٦٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ج: ١، ص: ٨، رقم الحديث: ١٨. مصنف عبد الرزاق، ج: ٨، ص:

٣٤، رقم الحديث: ١٤١٩٣.

أكثر من أن تحصى تؤكد التزام الصحابة الكرام باتباع الرسول ﷺ التزاما دقيقا حتى قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يجب أحدا كحب أصحاب محمد محمدًا. (١)

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ من الابتلاء ثم قالوا ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، في مقابلة قول المنافقين: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٢) فلما عاين المؤمنون جماعات الأحزاب قادمة بحماسة لمحاربتهم علموا أنهم سيبتلون بشدائد عظيمة وأنهم سيتصرفون في النهاية على الأحزاب، (٣) وزادهم هذا الأمر إيمانا بالله تعالى حيث عاينوا ما وعدهم الله حسا في عالم الشهادة بعد أن سبق وأخبرهم به قبل وقوعه، وزادهم تحقق هذا الوعد تسلييا بما يخبرهم به الله ورسوله من أمور غيبية أو غيرها، قال الطبري: «وعدهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم وتسليمهم لأمره الثناء فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانا بالله وتسلييا لقضائه وأمره ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء». (٤) وفي إظهار اسم الله واسم الرسول في قوله: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ زيادة تعظيم الله تعالى فلم يقل: وصدقا. وذكر الصدق هنا تأكيد للوعد الذي وعدهم الله تعالى ورسوله به، قال ابن عطية: هذا «ليس إشارة إلى ما وقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هي إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا: ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ وقد وقع، وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس. (٥) وشأن المؤمن أن يزداد إيمانه ويسلم أمره لله تعالى كلما

(١) البغوي، تفسير البغوي، ج: ١، ص: ١٨٢.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٣٧٧.

(٣) محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، دار المعارف ص ٥٥٢.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٤.

(٥) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٣٧٧.

رأى آية من آيات الله تعالى الكونية أو القرآنية. وقد جمع الله تعالى هنا لهم بين وصفي الإيمان الذي هو التصديق القلبي، والإسلام عبر كلمة تسليما والتي هي صيغة مبالغة من الإسلام، ليشير إلى أنهم سلموا لقضاء الله وقدره بجميع جوارحهم.^(١)

ومقابل صورة الخائنين للعهود غير الموفين بها من المنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، يرسم القرآن لنا صورة رجال مؤمنين صادقين وفوا بعهودهم فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ فمن المؤمنين الكاملين الإيمان رجال أفوا بعهودهم مع الله تعالى، وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس، فمنهم من وقى بنذره فاستشهد في سبيل الله كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم من الصحابة الكرام، ومنهم من ينتظر إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة،^(٢) كعلي بن أبي طالب وطلحة اللذين كانا حين عند نزول هذه الآية، فعن موسى بن طلحة قال: دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ أَلَا أُبَشِّرُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ،^(٣) فهؤلاء الرجال المؤمنون ما غيروا عهد الله ولا بدلوه كما غير المنافقون، ولا نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّ يَوْمَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(١٣) وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا^(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ. ونتيجة الطاعة والوفاء بالعهد أن الله تعالى يثيب أهل الصدق بسبب صدقهم، وأما الغدارون من المنافقين فيعذبهم إن شاء تعذيبهم بأن لا يوقفهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، فيستوجبوا النار، أو يتوب عليهم بأن يوقفهم للتوبة والإنابة، إن الله كان دائما غفورا لذنوب المسرفين على أنفسهم إذا تابوا، رحيمًا بهم، حيث

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٩٢.

(٢) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٤٢١.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، ج: ٥، ص: ٣٥٠، رقم الحديث: ٣٢٠٢، وقال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإنما روي عن موسى بن طلحة عن أبيه.

وفقهم للتوبة النصوح. (١)

رابعاً: المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

يبين القرآن لنا هنا مكانة النبي من أمته فهو جدير بأن يؤتسى به، فهو القدوة الحقيقية لكل المؤمنين وهو الإنسان الكامل حقا. وكذلك ربي النبي ﷺ أصحابه على الصدق والوفاء بالعهد والإيمان الكامل والاعتماد على الله حق الاعتماد ليكونوا نموذجا عمليا لنا، وبسبب تطبيقهم هذه الصفات اسحقوا هذا المدح من الله تعالى، وهذان الأمران من أهم محاور السورة.

خامساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع السادس:

- * أن يتخذ المسلمون من رسول الله ﷺ قدوتهم الوحيدة في الحياة.
- * إن من مستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر اتباع الرسول ﷺ المعرف بها حق التعريف.
- * من شأن المؤمنين حقا: التصديق بما وعد الله عباده المؤمنين في القرآن من أمور غيبية وكذلك بما وعدهم وبشرهم به الصادق المصدوق ﷺ، وأن يسلموا نفوسهم لقضاء الله وقدره في الحياة الدنيا دون اعتراض.
- * مدح الله تعالى أصحاب النبي ﷺ مدحا عظيما لا يمكن لأحد أن يمدحهم به أو أن يدركهم به، وذلك كي نفتدي بهم قدر الإمكان، فهم أولا رجال مؤمنون حقا، صادقون في عهودهم مع الله تعالى، باعوا نفوسهم له وضحوا بها في سبيله حتى آخر لحظة من حياتهم. ولهذا وجب تعظيمهم واحترامهم رضي الله عنهم أجمعين.
- * إن خير ربح هو في بيع النفس والمال الذي نملكه لله تعالى الذي هو المالك الحقيقي لكل شيء، فمن باع نفسه وماله لله يربح الجنة ويرتاح من متاعب الحياة ووطأة تكاليفها ويرتاح من الخوف من المستقبل، لأن المؤمن يسعى ثم يترك النتائج دائما للخالق سبحانه ويسلم له

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٤٢١.

كل أموره، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة: ١١١].

* إن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وكذلك من عمل سوءاً يجز به، وإن باب التوبة مفتوح لمن أراد أن يدخله حتى ولو اقترب أكبر الكبائر فإن الله تواب وغفور رحيم سبحانه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، فسبحان من سبقت رحمته غضبه.

المقطع السابع

نتيجة المعركة ونتيجة خيانة اليهود

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَدِيرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوَّهْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

أولاً: المعنى الإجمالي للآيات:

رد الله تعالى الذين كفروا من قريش وغطفان خائبين خاسرين مغتاضين مغمومين لم ينالوا الخير في الدنيا بالنصر على المسلمين، ولا في الآخرة، وكفى الله القوي العزيز الذي لا يغلب المؤمنين القتال بأن أرسل على الأحزاب الريح والجنود التي لم يروها وهم الملائكة. وهزم اليهود الذين أيدوا الأحزاب بأن أنزلهم أذلة صاغرين من حصونهم، فأقام النبي ﷺ عليهم حكم الله تعالى فيهم من فوق سبع سماوات فقتل الرجال وأسر النساء والأطفال. وأورث الله تعالى القدير على كل شيء المسلمين أرضهم الغنية بالزراعة والنخيل وبيوتهم، ووعد الله

تعالى المؤمنين بأن يرثوا في المستقبل أرضاً لم يطووها بعد كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَىٰ لِي مِنْهَا)^(١) ففتح المسلمون بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية الكريمة بلاد فارس والروم. وكذلك قدم قوله: (وأنزل) على قوله (وقذف) وإن كان قذف الرعب قبل الإنزال وذلك لأن الاهتمام والفرح بذكر الإنزال أكثر.^(٢) وكذلك قدم مفعول (تقتلون) وهو: (فريقاً)، لأن القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين، وكان الاعتناء بحالهم شديداً ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء بل بقاءهم هناك بالأسر أشد، وكذلك للاهتمام بذكره لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين يقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى ولذلك لم يقدم مفعول (تأسرون) إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله،^(٣) ولأنه لو قال: (وفريقاً تأسرون) فإذا سمع السامع قوله (وفريقاً) ربما ظن أنه يقال بعده يطلقون أو لا يقدر على أسرهم.^(٤) ومن النكات في الآية أن فيها ترتيباً بناء على ما حدث في الواقع فإن المؤمنين أولاً تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها، ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم، ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم.^(٥) وأما خلاصة قصة المسلمين مع اليهود كما يرويها الطبري: «عن قتادة قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ٢٢١٥، رقم الحديث: ٢٨٨٩.

(٢) نظام الدين الحسن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، ط ١، ج: ٥، ص: ٤٥٧، وانظر محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٥.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٣.

(٤) نظام الدين الحسن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج: ٥، ص: ٤٥٧- وانظر محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٥.

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٦.

ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿٢٥﴾ وهم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان وراسلوه فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبي الله، قال: فيينا رسول الله عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه إذ أتاه جبرائيل فقال: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة فانفض إلى بني قريظة فإني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال ولبلال، قال: فاستلأم رسول الله ثم سلك سكة بني غنم فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب، قال: فأتاهم رسول الله فحاصروهم وناداهم: يا إخوان القردة فقالوا يا أبا القاسم ما كنت فحاشا، فنزلوا على حكم ابن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة، وأوما إليهم أبو لبابة أنه الذبح فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبي ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: أثرت المهاجرين بالعقار علينا، قال: فإنكم كنتم ذوي عقار وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم، وذكر لنا أن رسول الله كبر وقال قضي فيكم بحكم الله. (١)

ثانياً: علاقة المقطع السابع بالمقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تعالى المؤمنين بنعمه عليهم بأن أرسل على أعدائهم جنودا لم يروها، وجعل رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وبين أحوال المنافقين والصادقين وجزاءهم، بعد كل هذا أوضح الله تعالى هنا تمام النعمة بأنه صرف الأعداء على كثرتهم وقوتهم بطريقة معجزة بقدرته وعزته فصدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم أوضح أنه لما «أتم أمر الأحزاب أتبعه حال الذين ألبوهم وكانوا سبباً في إتيانهم من اليهود كحبي بن أخطب والذين مالؤوهم على ذلك ونقضوا ما كان لهم من عهد فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾» (٢) فتجلت بذلك قدرة الله تعالى على كل ما يظنه الناس مستحيلاً، وكافاً عباده الضعفاء الفقراء فقواهم بالنصر على الأعداء، وأغناهم بأن أورثهم أرض الأعداء وديارهم ووعدهم بالاستيلاء على أراض أخرى.

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٥٥.

(٢) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب بين الآيات والسور، ج: ٦، ص: ٩٥-٩٦.

ثالثا: المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

لما كان المسلمون وعلى رأسهم رسول الله ﷺ متعلقين بالله وحده، ومستسلمين لقدره، وواثقين بوعدده، كافأهم الله تعالى بالنصر على أعدائهم والظفر بهم، ووعدهم بفتح أماكن أخرى نتيجة لهذا الاستمسك والاعتصام به سبحانه، وقد أنجز الله تعالى فعلا وعده.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السابع:

* إن عاقبة الكافرين والمعادين للإسلام هي الخذلان في الدنيا والآخرة ولنا في مصير الأحزاب ومن أيدهم من اليهود عبرة.

* إذا شاء القدير العزيز سبحانه أن ينصر عباده المستضعفين في الأرض على أعدائهم الأقوياء فإنه ينصرهم، ومن هنا على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يستمدوا العون من القوي العزيز وحده لا من الشرق أو الغرب، وأن يردوا الأمر كله لله، وبهذا فإن القرآن يرسخ في قلوب أتباعه الاعتقاد برد الأمر كله إلى الله تعالى ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس^(١).

* نصر الله نبيه محمدا ﷺ بالرعب وهذا ما حدث مع اليهود والأحزاب.

* إن الله وعد المؤمنين الصادقين الذين يعملون الصالحات أن يستخلفهم في الأرض ويبدلهم بعد الخوف أمنا، وصدق الله وعده إذ أورت المسلمين أرضا لم يكونوا قد وطئوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس وبلاداً أخرى كبيرة وكثيرة.^(٢)

* إن من شأن اليهود على مدى التاريخ الغدر وخيانة الأنبياء ورسالاتهم، ولهذا كان عاقبتهم السوء، فعلينا أن لانتق بعهودهم وموآثيقهم لأن شأنهم دائما هو الخيانة والغدر خصوصا

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٩.

(٢) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: ١٠١٨.

مع المسلمين،^(١) وقد عبر سيد قطب عن ذلك أحسن تعبير عندما قال: «ومنذ هذا اليوم -أي غزوة الخندق- بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام واليهود».^(٢)

* على المسلم أن لا يخون العهود وأن لا يخون المسلمين فيدل الأعداء على أسرار المسلمين، وفي إخبار أبي لبابة لليهود عما سيقوم الرسول ﷺ به تجاههم ثم توبته من ذلك مثل لكل مؤمن كي لا يقدم على مثل ما فعله أبو لبابة ؓ، وكذلك ضرب لنا أبو لبابة مثلاً في اعتراف العبد بذنبه ورجوعه عنه.

المقطع الثامن

النبي ﷺ مع زوجاته رضوان الله عليهن أجمعين

تخيير النبي ﷺ لزوجاته أن يطلقهن أو يبقيهن معه

﴿ يَتَأَيَّمُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمْتِعَنَّكَ وَأَسْرَحَنَّكَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

أولاً: سبب النزول:

ما ذكره أهل التفسير في سبب نزول هذه الآيات: « أن أزواج النبي ﷺ سألته شيئاً من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة النفقة وأذينه بغيره بعضهن على بعض، فألى رسول الله ﷺ منهن شهراً وصعد إلى غرفة له فمكث فيها، فنزلت هذه الآية، وكن أزواجه يومئذ تسعاً: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة أم سلمة وصفية الخيرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش

(١) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: ١٠١٨.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٦.

وجويرية بنت الحارث فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن فبدأ بعائشة فاخترت الله ورسوله ثم قالت: يا رسول الله لا تخبر أزواجك أني اخترتك، فقال: إن الله بعثني مبلغا ولم يعثني متعتا^(١) والقصة بطولها مذكورة في كتب الحديث^(٢) والتفسير.

ثانياً: المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع السابق:

لما نصر الله نبيه ﷺ، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وطلبن منه أمرا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات. وروي أيضا أن بعضهن سألته أشياء من زينة الدنيا، وقلن: «يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول (الخدم)، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق»، يعني أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة، فغم النبي ﷺ وآمن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحياة، وقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ من مطالبة نسائه له بالنفقة وبسط الحياة مبلغا كبيرا أدى لأن يعتزلن شهرا، وأزواج النبي ﷺ آنذاك تسع سبق ذكر أسمائهن^(٣). وقيل أيضا: إن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ، وكان قد تأذى من بعض زوجاته^(٤).

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ج: ٦، ص: ٣٧٦.

(٢) انظر القصة بتفاصيلها في كل من صحيح البخاري، ج: ٢، ص: ٨٧١-٨٧٣، رقم الحديث: ٢٣٣٦. وصحيح مسلم، ج: ٢، ص: ١٢٠٣، رقم الحديث: ١٧٤٥.

(٣) قارن بالسعدي، تفسير الكريم الرحمن، ج: ٦، ص: ١٠٤، والزخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٢٥٨، والطبرسي، مجمع البيان، ج: ٨، ص: ١٣٣، وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٢، ص: ٢٨٩-٢٩٠، وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٤-٣١٥، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٥، ص: ٢٨٥٤، والصابوني، صفوة التفاسير، ج: ١٢، ص: ٥٨.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٠٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٤.

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

يأمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بأن يخير نساءه اللاتي اجتمعن عليه يطلبن منه زيادة النفقة، بين أن يفارقهن دون ضرر أو إيذاء فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله وما أعد الله لهن في الدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. ^(١) وفيما خيرهن فيه الرسول ﷺ قولان:

أحدهما: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، هذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها، والثاني: أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن أو اختيار الآخرة فيمسكهن ولم يخيرهن في الطلاق، قاله الحسن وقتادة.

وفي سبب تخيره إياهن ثلاثة أقوال:

«أحدها: أنهن سألنه زيادة النفقة، والثاني: أنهن آذينه بالغيرة، والقولان مشهوران في التفسير، والثالث: أنه لما خير بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختر الآخرة أمر بتخير نساته ليكن على مثل حاله حكاه أبو القاسم الصيمري». ^(٢)

رابعا: المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة:

بما أن أحد أهم محاور السورة يدور حول مقام النبي ﷺ ومكانته وأنه الأسوة الحسنة لكل مؤمن، فقد بينت هذه الآيات الكريمة كيفية تعامل النبي ﷺ مع أسرته ومقام النبي الزوج، وهو الذي كان يقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي). ^(٣)

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج: ٣، ص: ٤٨١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٦٧-٧٦٨.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير، ج: ٦، ص: ٣٧٧.

(٣) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج: ٩، ص: ٤٨٤، رقم الحديث: ٤١٧٧.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثامن:

- * في الآيات حث واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقته، ولو من أقرب الناس إليه وفيها أدب عال خاص ببيت النبوة ونسائه الطاهرات، وفيها ترفع عن حطام الدنيا وتربية لنساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي، وإعظام الله ورسوله ﷺ.
- * القول الأصح في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية، أو الطلاق. فاخترن البقاء، لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته. فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعده طلاقا، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير للمأمور بين البقاء والطلاق.^(١)
- * بيان حب النبي ﷺ لزوجه عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنها وعن أبيها حيث بدأ بتخيرها، وفيه بيان فضلها وفضل أمهات المؤمنين على غيرهن من نساء العالمين حيث إنهن اخترن رضاء الله تعالى ورضاء رسوله ﷺ على متاع الدنيا الزائل.
- * أراد النبي ﷺ أن يرفع أزواجه إلى المستوى العالي المتجرد عن حظوظ الدنيا كي يكن قدوة لنساء العالمين، وفي ذلك دلالة واضحة على أن دعوة الرسول ﷺ لم يكن هدفها سوى رضاء الله عز وجل وأنه كان أزهد الزاهدين في الدنيا التي فتحت له أبوابها وغنائمها فأعرض عنها إلى الطاعة الخالصة لله عز وجل بالتجرد عن حظوظ الدنيا، وجعل الآخرة هي المقصد الأساس، قال النبي ﷺ: (من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلي أشعث شاحب مشمر لم يضع لينة على لينة، ولا قصبة على قصبة، رفع له علم فشمّر إليه، اليوم المضمار وغدا السباق، والغاية الجنة أو النار).^(٢)

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٢٩٤.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٩٩.

المقطع التاسع

بيان فضل نساء النبي ﷺ

على سائر نساء العالمين ومستلزمات ذلك

﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضُرْنَ بِالقَوْلِ فِطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

أولاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يا نساء النبي من يأت منكن بمعصية ظاهرة يُضَاعَفْ لها العذاب مرتين. فلما كانت مكانتهن رفيعة ناسب أن يجعل الله الذنب الواقع منهن عقوبته مغلظة؛ صيانة لجنابهن وجناب رسول الله ﷺ، وعلى قدر علو المقام يكون الملام، وبقدر النعمة تكون النقمة،^(١) وكان ذلك العقاب على الله يسيراً. قال ابن كثير: «يقول تعالى واعظان نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار والآخرة واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخيرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة»^(٢) يضاعف عذابها، ومن تطع منكن الله ورسوله، وتعمل بما أمر الله به، نُعْطَا ثواب عملها مثلي ثواب عمل غيرها من سائر النساء وأعدنا لها رزقاً كريماً، وهو الجنة.

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٨٣.

يا نساء النبيّ - محمد- لستنّ في الفضل والمنزلة كغيركنّ من النساء، إن عملتن بطاعة الله وابتعدتن عن معاصيه، فلا تتحدثن مع الأجنبي بصوت لئن يُطمع الذي في قلبه فجور ومرض في الشهوة الحرام، وهذا أدب واجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، وقلن قولاً بعيداً عن الريبة، لا تنكره الشريعة. والزّمن بيوتكن، ولا تخرجن منها إلا لحاجة، ولا تُظهرن محاسنكن، كما كان يفعل نساء الجاهلية الأولى في الأزمنة السابقة على الإسلام، وهو خطاب للنساء المؤمنات في كل عصر. وأدّين - يا نساء النبي - الصلاة كاملة في أوقاتها، وأعطين الزكاة كما شرع الله، وأطعن الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، إنما أوصاكن الله بهذا؛ ليزكيكن، ويبعد عنكنّ الأذى والسوء والشر يا أهل بيت النبي - ومنهم زوجاته وذريته عليه الصلاة والسلام- ويطهّر نفوسكم غاية الطهارة. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من القرآن وحديث الرسول ﷺ واعملن به، واقدرنه حقّ قدره، فهو من نعم الله عليكن، إن الله كان لطيفاً بكنّ؛ إذ جعلكنّ في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والسنة، خيراً بكنّ إذ اختاركنّ لرسوله أزواجاً. (١)

ثانياً: المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع السابق:

نتيجة للعهد الذي عاهدن عليه رسول الله ﷺ وهو اختيار الله تعالى واختيار الرسول ﷺ، فإن الله عز وجل كرم نساء النبي فخاطبهن مباشرة، متوعداً من اقترفت ذنباً أو فاحشة بمضاعفة العذاب، وواعداً المحسنات منهن - وكلهن محسنات والحمد لله - أجراً عظيماً، وأول بوادر هذا الأجر هو مضاعفة حسناتهن ووعدهن بجنة عرضها السموات والأرض. (٢) ولما كان مقامهن عظيماً خصهن بأمور ليقتندي بهن لأنهن خير نساء العالمين:

١- النهي عن ترقيق الكلام بأن يكون لنا عذبا رخوا. (٣)

٢- القرار في البيت وعدم الخروج إلا لحاجة.

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٧٦٨-٧٦٩.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٧٩.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠١.

- ٣- عدم إظهار زينتهن التي يحرم إظهارها للأجانب.
- ٤- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.
- ٥- تحقيق صون العرض والسمعة عن الذنوب والمعاصي والتجمل بالتقوى.
- ٦- أمرهن بتعليم غيرهن القرآن والسنة، وتذكر نعم الله تعالى عليهن^(١) بأن جعلهن في أطهر بيت وبأن أذهب عنهن الرجس وطهرهم تطهيرا، فلتقتد نساء العالمين بخير نساء العالمين وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.

ثالثا: المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

لما كان من أهم محاور هذه السورة بيان مكانة النبي ﷺ، اقتضى ذلك بيان فضل نسائه عليهن الرضوان والرحمة، ولما كانت هذه السورة تحث على الطاعة الكاملة والاستسلام لله تعالى وقد فعلت نساء النبي ﷺ ذلك واخترن الله ورسوله على الدنيا وزينتها، فقد كافأهن الله تعالى الكريم الرحيم فضلهن على نساء العالمين وجعلهن قدوة يقتدى بهن.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع التاسع:

- * إن الله عز وجل يخوف عباده بعدم الاقتراب من المعاصي والذنوب لأن في ذلك عذابا أليما، ولا يمنع القرب من النبي ﷺ مرتكب الذنب من أن يناله العقاب حتى ولو كن زوجاته بل العقوبة للأقرب تكون مضاعفة. وهذا من عدل الله تعالى، وأما نتيجة الطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ فهو مضاعفة الثواب ودخول الجنة، وهذا من فضل الله تعالى وكرمه.
- * كل ما أمر الله تعالى به نساء النبي ﷺ من أوامر فهو أمر لنساء المؤمنين، وهن بالتالي مأمورات بتبليغ هذه الأوامر الربانية والنبوية للأمة: فليبلغ الشاهد الغائب، قال الزمخشري: أمرهن أن لا ينسين ما يتلى في بيوتهن «من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوة لأنه معجزة بنظمه، وهو حكمة وعلوم وشرائع». (٢)

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٧.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٤٦.

- * هذه الآيات تدل على عظمة نساء النبي ﷺ وشرفهن وفضلهن على غيرهن من النساء، فهن لسن كأحد من النساء بشرط الالتزام التام بالتقوى.
- * أول نتيجة للتقوى هي الابتعاد عما يغضب الله تعالى بتلين الكلام للأجانب إلى درجة تطمع الرجل بالمرأة التي أمامه. فالمرأة مأمورة بالقول المعروف وهو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس^(١) السليمة.
- * إن المرأة مأمورة أن لا تخرج من بيتها إلا لحاجة كقضاء حاجة أو عمل ضروري، وعليها أن تخرج محتشمة بحجاب العفة والطهر، لا كما تخرج كثير من نساء اليوم بلا حشمة كاسيات عاريات رؤوسهن كأسنمة البخت كما حدثنا النبي ﷺ، يخربن نفوس الشباب وعقولهم وأفئدتهم، ولهذا فهن لا يشمنن رائحة الجنة.
- * خص الله تعالى أمهات أركان الإسلام بوجوب الأداء كما في الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأن الصلاة تمثل رأس الشكر وهي عبادة بدنية وروحية وهي عماد الدين، وأما الزكاة فهي عبادة مالية تطهر النفس من الشح والمجتمع من الفقر، فهاتان العبادتان لهما آثار عظيمة على النفس والمجتمع.
- * إن آل البيت هم على الراجح عند أهل السنة والجماعة: أولاده ﷺ، وأزواجه^(٢)، والحسن والحسين وعلي منهم، وكذلك بنو أعمامه: العباس وأبي طالب،^(٣) وسياق الآيات يؤيد دخول الزوجات في أهل البيت لأنها نزلت تحاطب نساء النبي ﷺ وهن أولى من يدخل

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ١٣.

(٢) قال عكرمة ؓ: من شاء بأهله نزلت في أزواج النبي ﷺ، انظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٦، ص: ٦٠٣.

(٣) أخرج مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أذكركم الله في أهل بيتي، فقيل لزيد رضي الله عنه، ومن أهل بيتي، أليس نساؤه من أهل بيتي؟ قال: نساؤه من أهل بيتي، ولكن أهل بيتي من حرم الصدقة بعده: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. انظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٦، ص: ٦٠٥.

في أهل بيته، وكذلك أولى من يدخل في أهل البيت هم آل العباء: علي وفاطمة والحسن والحسين، فعن عطاء بن يسار عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنك أهلي خير، وهؤلاء أهل بيتي اللهم أهلي أحق. ^(١) وعن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: جئت أريد عليا رضي الله عنه فلم أجده فقالت فاطمة رضي الله عنها انطلق إلى رسول الله ﷺ يدعوه فاجلس فجاء مع رسول الله ﷺ فدخل ودخلت معها قال: فدعا رسول الله ﷺ حسنا وحسينا فأجلس كل واحد منهما على فخذه، وأدنى فاطمة من حجره وزوجها ثم لف عليهم ثوبه وأنا شاهد فقال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا اللهم هؤلاء أهل بيتي. ^(٢)

* إن محبة آل البيت فرض على كل مسلم ومسلمة قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]، وأما أيداؤهم فهو إيذاء الله ورسوله فعن ابن أبي مليكة قال: جاء رجل من أهل الشام فسب عليا رضي الله عنه عند ابن عباس رضي الله عنهما فحصبه ابن عباس رضي الله عنهما وقال: يا عدو الله أذيت رسول الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لو كان رسول الله ﷺ حيا لأذيته. ^(٣)

(١) الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، ج: ٢، ص: ٤٥١، رقم الحديث: ٣٥٥٨، هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، ج: ٢، ص: ٤٥١، رقم الحديث: ٣٥٥٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) السيوطي، الدر المنثور: ج: ٦، ص: ٦٥٦.

المقطع العاشر

المساواة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ فَرُوجَهُمْ وَالْحَاظِلَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٥)

أولاً: سبب النزول:

وردت روايات عديدة في سبب نزول هذه الآية الكريمة منها: عن أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهراً إلا نداؤه على المنبر وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر: يا أيها الناس إن الله يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١).

ثانياً: المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع السابق:

بعد أن أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ ونهاهن عن الأمور السابقة، وبين ما يكون لهن من ثواب، أبان الله تعالى ما أعد للمسلمين والمسلمات من المغفرة والثواب العظيم في الآخرة. (٢) يقول برهان الدين البقاعي: «ولما حث سبحانه على المكارم والأخلاق الزاكية، وختم بالتذكير بالآيات والحكمة، أتبعه ما لمن تلبس من أهل البيت بما يدعو إليه ذلك من صفات الكمال

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٠.

(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ١٧.

ولكنه ذكره على وجه يعم غيرهم من ذكر وأثنى مشاكلة لعموم الدعوة وشمول الرسالة»^(١). ويقول سيد قطب: « وهكذا يعم النص في الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما، بعدما خصص نساء النبي ﷺ في أول هذا الشوط من السورة. وتذكر المرأة في الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام في رفع قيمة المرأة، وترقية النظرة إليها في المجتمع وإعطائها مكانها إلى جانب الرجل فيما فيه سواء من العلاقة بالله، ومن تكاليف هذه العقيدة في التطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة». ^(٢)

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

ذكر الله تعالى عشرة صفات ومراتب لمن وعدهم بمغفرته وجنته وهي: إن المتقادين والمتدلين لأوامر الله، والمنقادات والمتذللات، والمصدقين والمصدقات رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من عند الله، والمطيعين لله ورسوله والمداومين على الطاعة والمطيعات، والصادقين في أقوالهم وأعمالهم والصادقات، والصابرين عن الشهوات وعلى الطاعات وعلى المكاره والصابرات، أو الصابرين لله في البأساء والضراء على الثبات على دينه وحين البأس والصابرات والخائفين من الله والخائفات، أو المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، والمتصدقين بالفرض والتَّفُّل والمتصدقات والصابئين في الفرض والتَّفُّل والصابئات، والحافظين فروجهم عن الزنى ومقدماته، وعن كشف العورات والحافظات، والذاكرين الله كثيراً بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات، أعد الله هؤلاء مغفرة لما اقترفوا من الصغائر، وثواباً عظيماً في الآخرة على ذلك من أعمالهم وهو الجنة. ^(٣)

وفي مدح الذاكرين الله تعالى والذاكرات قيدها بالكثرة هنا وفي مواطن أخرى من القرآن

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٣.

(٣) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٩، والرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢، واليضاوي،

ج: ٤، ص: ٣٧٥، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٧٦٩.

الكريم، يقول الرازي: « ثم قال تعالى: ﴿ وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفي قوله بعد هذا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال من قبل: ﴿ لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر، فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة، ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولأن جميع الأعمال بذكر الله تعالى وهي النية^(١)، وقال مجاهد: لا يكون ذاكر الله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات^(٢) فاللهم ارزقنا أن نتصف بهذه الصفات الكريمة التي جعلتها لعبادك الصالحين ميزة، عبادك الذين يستحقون مغفرتك ودخول جنتك.

رابعا: التناسب في الآية نفسها:

يقول الإمام القرطبي: «بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعم الإيـان وعمل الجوارح، ثم ذكر الإيـان تخصيصاً له وتنبهها على أنه عظم الإسلام ودعامته^(٣)، وقال الرازي: إن الله تعالى ذكر «الإسلام والانقياد لأمر الله أولاً، والثانية الإيـان بما يرد به أمر الله فإن المكلف أولاً يقول كل ما يقوله أقبـه فهذا إسلام، فإذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيـان، ثم اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٨٥-١٨٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٨٥-١٨٦.

الثالثة المذكورة بقوله: ﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَتِ﴾، ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾، ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾، ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله: ﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ﴾، أو نقول: لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة والغضب منها يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمور شتى فقوله: ﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ﴾ أي المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة، ثم قال تعالى: ﴿وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ﴾ أي الباذلين الأموال الذين لا يكتزونها لشدة محبتهم إياها، ثم قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله، ثم قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ قُرُوبَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾، أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية، ثم قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾، يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله. (١)

خامساً: المناسبة بين المقطع العاشر ومحور السورة:

لما كان بعض أهم محاور السورة يدور حول أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره، ناسب أن تذكر الصفات التي يتصف بها هؤلاء الذين يستسلمون لله تعالى وقدره ليلتزم بها المؤمنون، يقول سيد قطب: «وفي صدد تطهير الجماعة الإسلامية وإقامة حياتها على القيم التي جاء بها الإسلام الرجال والنساء في هذا سواء.. يذكر الله الصفات التي تحقق تلك القيم في دقة وإسهاب وتفصيل». (٢)

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢، وقارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٥-١٠٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٢.

سادسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع العاشر:

- * أوضحت الآية عشر آداب إسلامية تجمع بين أصول الإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك والعمل الاجتماعي البناء في إطار من النية الصادقة والإخلاص لله عز وجل وهو المراد بذكر الله كثيرا،^(١) قال ابن عاشور: اشتملت هذه الخصال العشر على جوامع فصول الشريعة كلها.^(٢)
- * أظهرت هذه الآية المساواة التامة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء،^(٣) وفي هذا رد على كل من يدعي أن الإسلام ميز سلبيا بين المرأة والرجل وجعل منزلتها دون منزلة الرجل.
- * كل مؤمنة وكل مؤمن يمكن أن يتصف بالصفات الجليلة التي اتصفت بها نساء النبي ﷺ لينال بذلك رضى الله سبحانه.

(١) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٢٢.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ج: ٢٢، ص: ٢٢.

(٣) عبد الحميد طههاز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ١١٢.

المقطع الحادي عشر

قصة زيد وزينب رضي الله عنهما

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨) الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩)

أولاً: سبب النزول:

ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ أقوال عديدة أهمها:

عن زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ قَالَتْ: حَطَبَنِي عِدَّةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَرْسَلْتُ أُخْتِي حَمَّةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَشِيرُهُ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيْنَ هِيَ مِمَّنْ يَعْلَمُهَا كِتَابَ رَبِّهَا وَسُنَّةَ نَبِيِّهَا، قَالَتْ: وَمَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، قَالَ: فَغَضِبْتَ حَمَّةَ غَضَبًا شَدِيدًا وَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَزَوَّجُ بِنْتَ عَمَّتِكَ مَوْلَاكَ؟ قَالَتْ: جَاءَتْنِي فَأَعَلَّمْتَنِي فَغَضِبْتُ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهَا وَقُلْتُ أَشَدَّ مِنْ قَوْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾، قَالَتْ: فَأَرْسَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُلْتُ: إِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَفْعَلْ مَا رَأَيْتَ، فَرَوَّجَنِي زَيْدًا وَكُنْتُ أَرْتِي عَلَيْهِ، فَشَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَاتَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ عُدْتُ فَأَخَذْتُهُ بِلِسَانِي فَشَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أُطَلِّقُهَا، قَالَتْ: فَطَلَّقَنِي، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي لَمْ أَعْلَمْ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي وَأَنَا مَكْشُوفَةُ الشَّعْرِ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ

فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ بلا خِطْبَةٍ وَلَا إِشْهَادٍ فقال: اللَّهُ الْمَرْجُوحُ وَجَبْرِيلُ الشَّاهِدُ. (١)

وعن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب وهي بنت عمته وهو يريد بها لزيد، فظنت أنه يريد بها لنفسه، فلما علمت أنه يريد بها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرَضِيَتْ وَسَلِمَتْ ﴾. (٢)

وأما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فسبب نزولها كما قال ابن حجر: «لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش»، (٣) فقد روى البخاري عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات. وعن ثابت: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة. (٤) وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية. (٥) وقال الحسن ما أنزلت عليه آية أشد من قوله: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها. ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ قال: خشي نبي الله ﷺ قاله الناس، وقوله: ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ قال جعل يقول: يا نبي الله إنها قد اشتد علي خلقها وإني

(١) السيوطي، المعجم الكبير، ج: ٢٤، ص: ٣٩.

(٢) ابن حجر الهيتمي، مجمع الزوائد، ج: ٧، ص: ٩١-٩٢، وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٦، ص: ٢٦٩٩، رقم الحديث: ٦٩٨٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

مُطَلَّقٌ هَذِهِ الْمَرْأَةُ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَالَ زَيْدٌ ذَلِكَ قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ. (١)

وقال ابن حجر معلقاً على أسباب النزول الأخرى التي ذكر فيها متعلق ما أخفاه النبي في نفسه من أنه أحب زينب وغير ذلك من أمور لا تليق بعصمته ﷺ، فقال: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد». (٢)

ثانياً: المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع السابق:

قال البقاعي: «لما كان الله سبحانه قد قدم قوله: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ﴾ - الآية، فعلم قطعاً أنه تسبب عنها ما تقديره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ لأن يكون له ولي غير النبي ﷺ، فطوى ذلك للعلم به، واستدل على مضمون الآية وما قبلها بقصة الأحزاب، وأتبعها نتيجة ذلك مما ذكر تأديب الأزواج له ﷺ وتهذيبهن لأجله وتطهير أهل بيته وتكريمهم حتى ختم سبحانه بالصفات العشر التي بدأها بالإسلام الذي ليس معه شيء من الإباء، وختمها بأن ذكر الله يكون ملء القلب والفم وهو داع إلى مثل ذلك لأنه سبب الإسلام، عطف على مسبب آية الولاية ما يقتضيه كثرة الذكر من قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾». (٣)

وقال ابن عاشور: «المناسبة تعقيب الثناء على أهل خصال هي من طاعة الله، بإيجاب طاعة الله والرسول ﷺ فلما أعقب ذلك بما في الانصاف بما هو من أمر الله مما يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوى في ذلك بين الرجال والنساء، أعقبه ببيان أن طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به ويعتزم الأمر هي طاعة واجبة، وأنها ملحقة بطاعة الله، وأن صنفى الناس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية». (٤)

(١) السيوطي، المعجم الكبير، ج: ٢٤، ص: ٤٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٦-١٠٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٢٧.

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

إن الله تعالى بهذه الآيات المحكمات يضع قاعدة اجتماعية وهي أنه لا فرق بين الناس في أنسابهم، وأن التفاضل بينهم يكون بالتقوى، ولهذا ناسب أن يتزوج زيد زينب التي تفوقه نسبا، وناسب أن يتزوج بلال الحبشي أخت عبد الرحمن بن عوف، وهذه القاعدة أكدها القرآن الكريم في آيات أخرى تؤكد الأصل الواحد للإنسانية والمساواة بين الناس في الخلق وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وتستمر الآيات تضع قاعدة أخرى هو التسليم لله والرسول ﷺ في كل ما أمرا به أو نهيا عنه، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعص الرسول فقد عصى الله تعالى، وها هي زينب أم المؤمنين قد أطاعت الله ورسوله حقا فسلمت أمرها لله والرسول ﷺ، وتزوجت بزید طاعة لله ولرسوله قبل الهجرة، ثم كافأها الله تعالى بأن تزوجت بسيد الخلق محمد ﷺ. وتمضي الآيات تقول: ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أنفسهم حكماً أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم أو أن يخالفوه، بأن يختاروا غير الذي قضى فيهم، ومن يعص الله ورسوله فقد بعد عن طريق الصواب بعداً ظاهراً وجار عن قصد السبيل وسلك غير سبيل الهدى والرشاد.

ثم يعاتب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: واذكر يا محمد إذ تقول للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام - وهو زيد بن حارثة، وأنعمت عليه بالعتق بعد أن تبنيته: أبقى زوجك زينب بنت جحش ولا تطلقها، واتق الله يا زيد، وتخفي - يا محمد - في نفسك ما أخبرك الله به من أنها ستصير زوجتك بعد أن يطلقها زيد، والله تعالى مظهر ما أخفيت، «والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا يبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابنا، ووقع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم»^(١)، وهذا القول هو ما عليه المحققون من المفسرين

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

والراسخون في العلم، وقد نفى ابن حجر كما ذكرنا سابقا في أسباب النزول وكذلك القرطبي كل الروايات الأخرى التي فيها تحبب فيما يتناول متعلق ما كتبه الرسول وخشي الناس من الاطلاع عليه مما يتنافى مع عصمة النبي ﷺ، وذلك كقول بعض المجان: إن النبي ﷺ عشق زينب رضي الله تعالى عنها. (١)

والله تعالى أحق أن تخافه. فلما قضى زيد منها حاجته، وطلقها، وانقضت عدتها، زوجها، لتكون أسوة في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المتبنى بعد طلاقها، ولا يكون على المؤمنين إثم وذنوب في أن يتزوجوا من زوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم. وكان أمر الله مفعولا لا عائق له ولا مانع. وكانت عادة التبني في الجاهلية، ثم أبطلت بقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ (٢) ثم خاطب القرآن الكريم جميع الأمة يعلمهم أنه ما كان على النبي ﷺ من إثم فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها، كما أباحه للأنبيا قبله، سنة الله في الذين خَلَوْا من قبل مثل داود وسليمان عليهما السلام حيث وسع الله عليهم بالنكاح، وكان أمر الله قدراً مقدوراً لا بد من وقوعه. (٣) ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم بأنهم: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ إلى الناس، ويخافون الله وحده في تركهم تبليغ ذلك للناس، ولا يخافون أحدا إلا الله فإنهم إياه يرهبون إن هم قصرُوا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليهم، وكفى بالله محاسباً عباده على جميع أعمالهم ومراقباً لها. فالقرآن يقول لنبيه محمد ﷺ فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم كن ولا تحش أحدا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه ولا يمنعك أحد من خلقه منه إن أراد بك سوءا. (٤)

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩١.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٨، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢.

(٣) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٤، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٤، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٠.

(٤) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٥، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧١.

رابعاً : المناسبة بين المقطع الحادي عشر ومحور السورة :

لما كان أحد أهم محاور هذه السورة أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره لذا يؤكد هذا المقطع أنه ليس للمسلمين في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء، إنما هم وما ملكت أيديهم لله يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد... وعندما فهم الصحابة الكرام الصف الأول من المسلمين هذا الفهم سلموا نفوسهم لله عز وجل، فرضيت نفوسهم بما قدره الله لهم فاستراحت نفوسهم ولم تجزع لحادثة الليالي، مع أخذهم بالأسباب والعمل ضمن سنة الله تعالى وتوفيق الحركة مع حركة الوجود، وتحقيق هذا التوازن الذي حققه الرعيل الأول هو الذي أهلهم لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة وكفل لها تحقيق المنجزات الخارقة في فتح القلوب والبلاذ. ^(١)

خامساً : من الفوائد المستنبطة من المقطع الحادي عشر :

- * المسلم يسلم نفسه لله تعالى ورسوله فيقوم بما أمر الله تعالى به ورسوله دون تردد، وينتهي عما نهى الله تعالى ورسوله عنه دون تلوؤ أو تباطؤ.
- * لزيد مكانة عظيمة عند الله تعالى حيث إنه الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن، فهو حب رسول الله، وقد عوضه الله تعالى بعد أن كان يدعى زيد بن محمد بأن جعل اسمه يتلى إلى يوم القيامة وفي صحف مكرمة مرفوعة مطهرة.
- * أما زينب رضي الله عنها فقد كانت مثالا للمرأة الصالحة التي أطاعت الله تعالى ورسوله في المكره والمنشط. وقد كانت تفتخر على نساء النبي الأخريات بأن الله زوجها من سبع سموات وأن الشاهد كان سيد الملائكة جبريل عليه السلام. قال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإن الله أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل عليه السلام. ^(٢)

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٦-٢٨٦٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٥.

- * على الإنسان أن لا يخشى أحدا إلا الله تعالى فهو الذي بيده الخير، وهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يعز ويذل، وهو الذي بيده الملك وحده. فيعلم الوحي المؤمن أن لا يخشوا أحدا في الدنيا، إذ لا أحد يستحق الخشية إلا الله تعالى.
- * من آمن بالقدر أمن من الكدر، فكل ما قدر الرحمن مفعول فعلينا التسليم لله سبحانه وقضائه وقدره.
- * الإسلام هو دين المساواة فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وتزويج النبي ﷺ لزينب التي هي من قبيلة مرموقة لزيد الذي كان عبدا هو دليل واضح على أن الإسلام ألغى الفوارق القبلية والطبقية في المجتمع، وجعل الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى.
- * إن هذه الآيات تدل على صدق الرسول ﷺ في تبليغه عن الله عز وجل فهو قد نقل الوحي وبلغه كله دون أن ينسى أو يكتم منه شيئا، ولو كان كاتما شيئا لكتم هذه الآيات التي تعاتبه في إخفائه أمرا عن الناس خشية من المنافقين.
- * اقترنت واقعة زواج النبي ﷺ بزينب في السيرة بأحكام شرعية منها: استخارة الله تعالى في الأمور، وندب وليمه الزواج.

المقطع الثاني عشر

محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣ حَبِّتُهُمْ يَوْمَ بَلَقُونَهُ، سَلَّمَ ۗ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤﴾.

أولاً: سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ قَالُوا تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ ﴾ وكان رسول الله ﷺ تَبْنَاهُ وهو صَغِيرٌ، فَلَبِثَ حَتَّى صَارَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ زَيْدٌ بَنُ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ ۗ فَلَانَ مَوْلَى فُلَانٍ، وَفُلَانٌ أَخُو فُلَانٍ، ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يعني أعدل^(١).

وعن قتادة قوله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾، قال: نزلت في زيد إنه لم يكن بابنه ﷺ، ولعمري ولقد ولد له ذكور إنه لأبو القاسم وإبراهيم والطيب والمطهر، ولكن رسول الله وخاتم النبيين^(٢).

ثانياً: المناسبة بين المقطع الثاني عشر والمقطع السابق:

لما بين سبحانه الفوائد الجليلة في زواج النبي ﷺ من زينب، وأن ذلك الزواج كان خالياً من المفاصد وخصوصاً خلوه مما كان يعتقد خطأً أنه زواج بزوجة الابن، أكد الله تعالى ذلك

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج: ٥، ص: ٣٥٢، رقم الحديث: ٣٢٠٧، وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٦.

بنفي أن يكون الرسول ﷺ أبا لأحد من الرجال وأولهم زيد، بل مقامه ﷺ أعلى من ذلك فهو خاتم النبيين وهو بمقام الأب الرحيم لكل المؤمنين بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وبما أن مبنى السورة، وأحد مقاصدها تعظيم النبي ﷺ وتأديبه وما ينبغي أن يكون عليه مع الله وهو التقوى، وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع أهله وأقاربه بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَأُزَوِّجَكَ﴾ الأحزاب: ٢٨، والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين، لذلك أرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ الأحزاب: ١. (١)

ثالثا: المعنى الإجمالي:

ما كان محمد ﷺ أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يولد له محمد ﷺ، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة، فلا نبوة بعده إلى يوم القيامة. وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك، ذا علم لا يخفى عليه شيء، (٢) فيعلم سبحانه الأحكام والحكم التي بينت فيما سبق، والحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين. (٣) وفي هذا رد واضح على كل كذاب ادعى النبوة بعد رسول الله كمسيلمة الكذاب قديما، كزعماء فرقتي البابية والبهائية الموجودة في زماننا، وقد صح عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسَ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ). (٤) قال الرماني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح فمن لم يصلح به فميثوس

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٦.

(٣) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢٢، ص: ٤٢.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٣٠٠، رقم الحديث: ٣٣٤٢، ومسلم، صحيح مسلم، =

من صلاحه. (١)

ثم يقول جل ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشره، اذكروا الله بقلوبكم وألستكم وجوارحكم ذكراً كثيراً، (٢) واستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وأشغلوا أوقاتكم بذكر الله تعالى عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله، وكف اللسان عن الآثام، وتعين على كل خير (٣). وقد ورد في فضيلة الذكر أحاديث كثيرة منها: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (أكثرُوا ذكرَ الله حتى يقولوا مجنون)، (٤) وعن معاذ بن جبل قال سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله قال: (أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله). (٥)

ونتيجة لذكر الله تعالى ذكراً كثيراً فإنه سبحانه هو الذي يرحمكم ويشي عليكم وتدعو لكم ملائكته؛ وقيل: إن معنى قوله: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ يشيع عنكم الذكر الجميل في عباد الله، ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلالات والكفر إلى نور الإسلام والهدى، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين له. وتحية هؤلاء المؤمنين من الله في الجنة يوم يلقونه سلام، وأمان لهم من عذاب الله، ويمكن كذلك أن تكون التحية فيما بين المؤمنين في الجنة سلام يقول بعضهم لبعض أمانة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أن يعذبنا بالنار، وقد أعد لهم ثواباً حسناً، وهو الجنة. (٦)

= ج: ٤، ص: ١٧٩١، رقم الحديث: ٢٢٨٦.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٧.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧١.

(٤) الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ج: ١، ص: ٦٧٧، رقم الحديث: ١٨٣٩، وقال الحاكم معلقاً: هذه

صحيفة للمصريين صحيحة الإسناد وأبو الهيثم سليمان بن عتبة العتواري من ثقات أهل مصر.

(٥) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج: ٣، ص: ٩٩، رقم الحديث: ٨١٨.

(٦) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٧.

رابعاً : المناسبة بين المقطع الثاني عشر ومحور السورة :

إن أحد مقاصد السورة الرئيسة بيان عظمة الرسول ﷺ ومقامه السامي وهذا المقطع يبين حقيقة هذا النبي الكريم وهو أنه ليس نبيا عاديا بل هو خاتم النبيين، والخاتم يكون سيد الأنبياء وشريعته أكمل الشرائع لأنه لا وحي بعدها.

خامساً : من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني عشر :

* إن محمدا ﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين، وفي ذلك حجة قاطعة على أهل الكتاب، وكل من ادعى النبوة بعده أو كل من ينتظر عودة نبي من الأنبياء باستثناء عيسى عليه السلام الذي ينزل ويتبع دين محمد ﷺ. فكل من ادعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كُلَّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ)،^(١) وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث: «وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقا فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة».^(٢)

* الحض على ذكر الله تعالى وشكره على نعمه، وتسييحه في معظم الأحوال بالتسييح والتهليل والتحميد والتكبير.

* إسباغ الرحمة الإلهية على المؤمنين، وتسخير الملائكة للاستغفار لهم بقصد هدايتهم وإخراجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الهدى واليقين.

* يشعر المؤمن بالقوة والطمأنينة عندما يعلم أن الله تعالى وملائكته يصلون على المؤمنين.

(١) أبوداود، سنن أبي داود، ج: ٤، ص: ١٢١، رقم الحديث: ٤٣٣٣، وأحمد بن حنبل، المسند، ج: ٢، ص: ٤٢٩، رقم الحديث: ٩٥٤٣.

(٢) انظر شرح الحديث في ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٦، ص: ٦١٧.

المقطع الثالث عشر

بعض أسماء النبي ﷺ وصفاته

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

أولاً: المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع السابق:

من أفضل ما قيل في علاقة هذا النص مع ما قبله هو قول الرازي: «قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي ﷺ من ربه فقوله في ابتدائها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع ربه، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾، إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق.^(١)

ثانياً: المعنى الإجمالي:

يا أيها النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِكَ بِإِبْلَاغِهِمُ الرِّسَالَةَ، قال مجاهد: شاهدًا على أُمَّتِهِ بِالتَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِتَّبْلِيغِ أَنْبِيَائِهِمْ إِلَيْهِمْ،^(٢) وهو ﷺ أيضاً شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهو مبشرهم بالجنة إن صدقوه وعملوا بما جاء به من عند الله، ونذير من النار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذبوه وخالفوا ما جاءهم به من عند الله، وداعياً إلى توحيد الله وعبادته وحده بأمره إياك، وسراجاً منيراً لمن استنار بك وبالقرآن الذي نزل معك، فأمرك ظاهر فيها جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند، وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ دعا رسول الله ﷺ

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٧.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٨٨.

أبا موسى ومعاذا فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا فإنه قد نزل علي الليلة آية: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ من النار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله. (١)

وقد كان النبي ﷺ فعلا السراج المنير فعن أبي هريرة قال: (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ، كان كأنَّ الشَّمْسَ تجري في جبهته)، (٢) وكما جمع القرآن وشريعته الغراء صفات الكمال فهو كذلك جمع صفات الكمال حسا ومعنى وبيعته كان تمام الأخلاق. وقد أورد العلماء للنبي ﷺ أسماء عديدة يقول القرطبي: «وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسماهات جليلة ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة، وقد سماه الله في كتابه: محمدا وأحمد، وقال ﷺ فيما روي عنه الثقات العدول: «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب». وفي صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم وقد سماه الله رءوفا رحيمًا، وفيه أيضا عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فيقول: (أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة). وقد تتبع القاضي أبو الفضل عياض في كتابه المسمى (بالشفا) ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وما نقل في الكتب المتقدمة وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة قد صدقت عليه ﷺ مسمياتها ووجدت فيه معانيها. وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في أحكامه في هذه الآية من أسماء النبي ﷺ سبعة وستين اسما. وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس: إن لمحمد ﷺ مائة وثمانين اسما من أرادها وجدها هناك. (٣) وهذا كله يدل على علو مكانة النبي ﷺ عند الله تعالى.

- (١) عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيب، (مكة المكرمة، مكتبة مصطفى نزار الباز، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج: ٩، ص: ٣١٤٠.
- (٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، وهو حديث حسن، ج: ٢، ص: ٣٨٠.
- (٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٠٠.

وبشر - يا محمد- أهل الإيمان بالله بأن لهم من الله ثوابا كبيرا مضاعفا وهو روضات الجنات، قال ابن عطية: قال لنا أبي ﷺ: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى، لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا وقد بين تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، فالآية التي في هذه السورة خبر والتي في حم عسق تفسير لها. (١) ولا تطع لقول كافر ولا منافق فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير في تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه، وثق بالله في كل أمورك واعتمد عليه؛ فإنه يكفيك ما أهمك من كل أمور الدنيا والآخرة. (٢)

ثالثا: المناسبة بين المقطع الثالث عشر ومحور السورة:

جمع الله تعالى لنبيه ﷺ كل صفات الكمال، ومن محاور السورة الرئيسة بيان فضله وكماله فوضح الله تعالى في هذه الآيات بعض صفاته بأنه شاهد على أمته وكل الأمم، وكذلك هو مبشر ونذير والسراج المنير بشخصه ورسالته وكتابه فهو نور على نور، وهو فوق هذا داع إلى الكمال المطلق إلى الله تعالى بإذنه وتوفيقه، ولولا بعثته ﷺ وصفاته الشريفة لما استجاب أحد ولما وصل الإسلام إلى ما وصل إليه الليل والنهار، ولما عرف الله تعالى، ولما عرفت حكمة خلق السموات والأرض والكون كله.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث عشر:

* أرسل الله محمدا ﷺ يدعو إليه سبحانه بإذنه وتوفيق منه تعالى، وجعله سراجا للخلق ينير لهم الطريق ويبشرهم بجنات عرضها السموات والأرض، وينذر من أعرض منهم بعداب شديد، فالعاقل من أجاب، والشقي من كفر وأعرض.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٠٢.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٠.

- * إن النبي ﷺ ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة في الدنيا. ولكنه مأمور أيضا بأن يدع أذاهم مجازاة على إذابتهم إياه، فلا يعاقبهم، وإنما يصفح عن زللهم معتمدا على الله بنصر دينه وتأييده وعصمته من الناس.
- * من توكل على الله كفاه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟ ... بلى.

المقطع الرابع عشر

خصائص النبي ﷺ في أحكام الزواج

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥١﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا ءَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيُكَيَّلَ بِكَ مَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٢﴾ ﴾ تَرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أَنْ يَنْفَعِتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَبْنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَانَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

أولا: سبب النزول:

١- سبب نزول الآية رقم (٥٠)

أخرج ابن سعد وابن راهويه وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله

عنها قالت خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت اليه فعذرني فأنزل الله: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾، إلى قوله: ﴿ هَاجِرًا مَعَكَ ﴾ قالت: فلم أكن أحل له لأنني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء. (١)

وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدوسي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ وكانت جميلة فقبلها، فقالت عائشة رضي الله عنها: «ما في امرأة حين وهبت نفسها لرجل خير قالت أم شريك رضي الله عنها، فأنا تلك فسأها الله تعالى (مؤمنة) فقال: ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾، فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة رضي الله عنها: إن الله يسارع لك في هواك». (٢)

٢- سبب نزول الآية رقم (٥١)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير عن الحسن وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عائشة قالت: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول كيف تهب نفسها فلما أنزل الله ﴿ تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك». (٣)

وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة فخشين ان يطلقهن فقلن يا رسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك وما شئت ولا تطلقنا فأنزل الله ﴿ تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ ﴾، إلى آخر الآية، قال وكان المؤويات خمسة: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأم حبيبة والمرجات أربعة: جويرية وميمونة وسودة وصفيه. (٤)

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٢٨.

(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٠.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٤.

(٤) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٣.

٣- سبب نزول الآية (٥٢)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ قال: حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه. وأخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس رضي الله عنه قال: لما خيرهن الله فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾^(١).

ثانياً: المناسبة بين المقطع الرابع عشر والمقطع السابق:

لما ذكر الله سبحانه قصة زيد وطلاقه لزَيْنَبَ وكان قد دخل بها وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها،^(٢) خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول، وقال ابن عاشور: «إنه لما خاض المنافقون في تزوج النبي ﷺ زَيْنَبَ بنتِ جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبناه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية من يحل للنبي تزوجهن حتى لا يقع الناس في تردد ولا يفتنهم المرجفون. ولعل ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتغالها على قوله: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعاً لتكون جامعة للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردد والاحتمال».^(٣)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشره، إذا عقدتم على النساء المؤمنات - ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد-^(٤) ولم تدخلوا بهن، ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعهن، فما لكم عليهن من عدة تحمونها عليهن، فأعطوهن من أموالكم متعة يتمتعن بها بحسب الوسع

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٧.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٠.

(٣) ابن عاشور التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٦٣.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٠.

جبراً لخواطرهن، وخلوا سبيلهن مع الستر الجميل، دون أذى أو ضرر،^(١) ولا تمسكوهن ضراراً، وأخرجوهن من منازلكنم إذ لا عدة لكم عليهن.^(٢) وتخصيص المؤمنات في قوله تعالى: (نكحتم المؤمنات) والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخبيراً لنظفته.^(٣)

ثم تنبه الآية الكريمة التالية على أن الله تعالى أحل لنبيه أربعة أصناف من النساء فتقول: ١- يا أيها النبي إنا أبخنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن، ٢- وأبخنا لك اللاتي ملكت يمينك من إمائك اللواتي سببتن فملكتهن بالسبأ وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء فهن مما أنعم الله به عليك، ٣- وأبخنا لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك دون من لم يهاجر منهن معك، ٤- وأبخنا لك امرأة مؤمنة منحت نفسها لك من غير مهر، إن كنت تريد الزواج منها خالصة لك، وليس لغيرك من المؤمنين أن يتزوج امرأة بالهبة. قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، وما شأوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، ولكننا رخصنا لك في ذلك، ووسعنا عليك ما لم يوسع على غيرك؛ لثلاث يضيق صدرك ولا يكون عليك إثم في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف. وكان الله غفوراً لك ولذنوب عباده المؤمنين، رحيماً بالتوسعة عليك وعليهم. وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن تنزل عليه هذه الآية أن يتزوج أي النساء شاء فقصره الله على هؤلاء فلم يعدهن، وقصر سائر أمته على ثلث وثلاث وربع.^(٤) ولم يكن تحت رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها بالرغم من عرض ما يقرب من ثلاث نسوة أنفسهن على رسول الله ﷺ منهن أم شريك.^(٥) توخر من تشاء من نسائك في القسم في المبيت، وتضم إليك من تشاء منهن، ومن طلبت

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٣٨.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٠.

(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٨٠.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٢١-٢٢.

(٥) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٢٣.

ممن أحررت قسّمها، فلا إثم عليك في هذا، ذلك التخيير أقرب إلى أن يفرحن ولا يحزنن، ويرضين كلهن بما قسمت لهن، والله يعلم ما في قلوب الرجال من ميلها إلى بعض النساء دون بعض. وكان الله عليماً بما في القلوب، حليماً لا يعجل بالعقوبة على من عصاه. وعن قتادة قوله: ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّئُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ قال: فجعله الله في حل من ذلك أن يدع من يشاء منهن ويأتي من يشاء منهن بغير قسم وكان نبي الله يقسم،... ويعدل بينهن حتى لقي الله،^(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يستأذن إذا كان في يوم المرأة منا بعد ما نزل: ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّئُ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾، قالت معاذة فقلت لعائشة: ما كنت تقولين لرسول الله ﷺ؟ قالت: كنت أقول: «إن كان ذاك إلي لم أوتر أحدا على نفسي».^(٢)

ثم يخاطب الله تعالى نبيه بأنه لا يباح لك النساء من بعد نسائك اللاتي في عصمتك، واللاتي أبحنهن لك، وهن المذكورات في الآية السابقة رقم [٥٠] من هذه السورة، ومن كانت في عصمتك من النساء المذكورات لا يحل لك أن تطلقها مستقبلاً وتأتي بغيرها بدلا منها، ولو أعجبك جمالها، وأما الزيادة على زوجاتك من غير تطبيق إحداهن فلا حرج عليك وأما ما ملكت يمينك من الإماء فحلال لك منهن من شئت. وكان الله على كل شيء رقيباً، لا يغيب عنه علم شيء.^(٣)

رابعا: المناسبة بين المقطع الرابع عشر ومحور السورة:

لما بين الله تعالى في بدء السورة أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكان من أهم مقاصد السورة بيان ما شرف الله تعالى به نبيه وبيان مناقبه وما خصه الله به مما قد يطعن فيه المنافقون من كونه أولى من كل أحد بنفسه وما له، ناداه بوصف النبوة لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٢٥٠-٢٦.

(٢) الحاكم، المستدرک، ج: ٢، ص: ٢٠٤، رقم الحديث: ٢٧٦٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢-٧٧٣.

من الخلاق تشريفا له به، ثم بين أنه مع ذلك لا يرضى إلا بالأكمل، فبين أنه كان يعجل المهور ويوفي الأجور، وأحل له أصنافا محددة من النساء دون غيره من المؤمنين نظرا لأهمية الدور الذي يقوم به في الدعوة إلى الله تعالى مما اقتضى تشريعات خاصة به. (١)

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع عشر:

* المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك، فإن دخل بها فعليها العدة إجماعا. وإن العدة ليست خالص حق العبد، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معا؛ لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضا، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلق لأن الشرع أثبتها. (٢)

* إذا طلق الرجل زوجته فعليه أن يسرحها سراحا جميلا ويحسن لها ولا يؤذيها.

* ظاهر قوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ ناسخ لما كان قد ثبت له - ﷺ - من أنه إذا رأى واحدة فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها، وهو دليل على منع تبديل زوجات النبي اللاتي اخترنه وهن تسع، (٣) وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده، حرم عليه أن يتزوج غيرهن. (٤)

* قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهَا﴾ دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها فعن أبي هريرة قال: كنت عند النبي ﷺ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْظَرْتَ إِلَيْهَا؟ قَالَ: لَا قَالَ: فَاذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا فَإِنْ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا». (٥)

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١١٨-١١٩.

(٢) الزحيلي، تفسير المنير، ج: ٢٢، ص: ٤٥.

(٣) الزحيلي، تفسير المنير، ج: ٢٢، ص: ٧٥-٧٧.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٣.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ١٠٤٠، رقم الحديث: ١٤٢٤.

- * ظاهر عموم قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يدل على إحلال الأمه الكافرة للنبي ﷺ وهو قول مجاهد وسعيد، والأصح أن الكافرة لا تحل له تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة.
- * خص الله تعالى النبي ﷺ بخصائص فأحل له أشياء لم يحلها لأحد غيره، وحرّم أشياء عليه لم يحرمها على أحد غيره.
- * كل من يعدد بين الزوجات فالنبي ﷺ قدوته في العدالة، فقد كان ﷺ متشددا في ذلك حتى أنه كان إذا سافر يجري القرعة بين زوجاته، وفي مرض موته استأذن من زوجاته أن يمرض في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها، فصلّى الله عليك يا رسول الله ألف ألف مرة. فالعدالة المادية ممكنة ولكن الحب فوق الطاقة البشرية، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل فيقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك).^(١)
- * أن يحذر المؤمن اطلاع الله تعالى على ما في قلبه من نوايا غير صالحة لأنه عليم بذات الصدور مطلع عليها، وهو رقيب على كل شيء. وهذا مدعاة كي يراقب العبد ربه في كل أحواله.
- * إن الله تعالى ذكر في هذه الآيات الكريمة أسماء حسنى له مثل الغفور والرحيم والعليم والحليم وكونه على كل شيء رقيب، كل ذلك ليزداد الإنسان حبا لله تعالى وتعلقا به ويعرف صفات خالقه وأسمائه الحسنى.

(١) الحاكم، المستدرک، ج: ٢، ص: ٢٠٤، رقم الحديث: ٢٧٦١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

المقطع الخامس عشر

آداب دخول بيت النبي والأمر بالحجاب

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعِينِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا زَوْجَهُ مِنْ بَعْدِهِ إِنْ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفِّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي ءَابَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَابِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَقْبَعِينَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

أولاً: سبب النزول:

١- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ عن أنس رضي الله عنه قال بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بَزِينَبُ بِنْتُ جَحْشِ بْنِ خَبْرٍ، وَلَحْمٌ فَأُرْسِلَتْ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ، وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّرَى حُجْرَةَ نِسَائِهِ كُلَّهُنَّ يَقُولُ لهنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أُدْرِيَ أَحْبَبَتْهُ أَوْ أُخْبِرَتْ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكَفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السُّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ. (١) وفرض

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٧٩٩، رقم الحديث: ٤٥١٥.

الحجاب على نساء النبي ﷺ من موافقات سيدنا عمر ؓ حيث قال: (وَأَفَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَتَزَلْتُ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وَآيَةُ الْحِجَابِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَإِنَّهُنَّ يُكَلِّمُهُنَّ الْبُرِّ وَالْفَاجِرُ فَتَزَلْتُ آيَةَ الْحِجَابِ وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ ﴿عَسَى رَبِّيْهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحریم: ٥]، فَتَزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ. (١)

٢- سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنَكِّحُوا أَزْوَاجَهُ، مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية (٥٣):

قال ابن كثير: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان أهي عائشة قال: قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم...، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين. (٢) وروي عن ابن عباس أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله ﷺ إلا أن القرطبي رد هذه الرواية وقال: « وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله والكذب في نقله وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال». (٣)

ثانياً: المناسبة بين المقطع الخامس عشر والمقطع السابق:

يتتابع الكلام عن خصائص الرسول فبعد أن انتهى الكلام عن خصائصه المتعلقة بالزيجات بدأ الكلام عن خصوصية دخول بيته المبارك، ومخاطبة نسائه من وراء حجاب، وكما أكدت الآيات السابقة على مراقبة الله تعالى عادت هذه الآيات لتؤكد على هذه المراقبة الذاتية

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٥٧، رقم الحديث: ٣٩٣.

(٢) ابن كثير، التفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ٥٠٧.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٩.

الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا سَيِّئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، ويلاحظ في هذا المقطع والذي سبقه التركيز على القلوب واطلاع الله تعالى عليها كي يظهرها المرء من الأدناس الحسية والمعنوية، ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين بمخاطبة النساء من وراء حجاب حفاظا على طهارة القلب ثم حذرهم من اطلاعه على ما في قلوبهم وعلى كل أعمالهم وأنه شهيد عليهم، كل ذلك ليرقى الإنسان إلى مرتبة الإحسان فيعبد الله كأنه يراه.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا بإذنه لتناول طعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا دعاكم رسول الله فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم فانصرفوا من منزله غير مستأنسين بالحديث بينكم؛ فإن انتظاركم واستئناسكم يؤذي النبي، فيستحيي من إخراجكم من البيوت مع أن ذلك حق له، والله لا يستحيي من بيان الحق وإظهاره. وإذا سألتن نساء رسول الله ﷺ حاجة من أواني البيت ونحوها فاسألوهن من وراء ستر؛ ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال؛ فالرؤية سبب الفتنة، وتركها نفي للريبة والتهمة، وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تتزوجوا أزواجه من بعد موته أبدا؛ لأنهن أمهاتكم، ولا يجزئ للرجل أن يتزوج أمه، إن أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده إثم عظيم عند الله. وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه^(١). إن تُظهِرُوا شَيْئًا عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ - أيها الناس - مما يؤذي رسول الله مما نهاكم الله عنه أو من مراقبة النساء، أو تخفوه في أنفسكم، فإن الله تعالى بكل ذلك وبغيره من أموركم وأمور غيركم عليم لا يخفى عليه شيء وهو يجازيكم على جميع ذلك، قال البيضاوي: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٤.

مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد. (١)

ولما نزلت آيات الحجاب تساءل بعض أقارب أمهات المؤمنين أنحن نكلمنهن من وراء حجاب فرد الله سبحانه عليهم: لا إثم ولا حرج على نساء النبي ﷺ وأمهات المؤمنين في عدم الاحتجاب من آبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن وعني بإخوانهن وأبناء إخوانهن إخوانهن وأبناء إخوانهن، والنساء المؤمنات والعييد المملوكين لهن؛ لشدة الحاجة إليهم في الخدمة. وخفى الله -أيها النساء- أن تتعددين ما حدَّ الله لكنَّ، فتبدين من زينتك ما ليس لكنَّ أن تبدينه، أو تترك الحجاب أمام من يجب عليكن الاحتجاب منه. والزمن طاعته إن الله كان على كل شيء شهيداً، يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، وسيجزئهم عليها، يقول الطبري: «فاتقين الله في أنفسكن لا تلقين الله وهو شاهد عليكم بمعصيته وخلاف أمره ونبيه فتهلكن فإنه شاهد على كل شيء». (٢)

رابعاً: المناسبة بين المقطع الخامس عشر ومحور السورة:

لما كان محور السورة يدور حول تعظيم الرسول ﷺ وإظهار شرفه ومناقبه، بين القرآن كيفية الدخول إلى بيته وأن في ذلك خصوصية له، وكذلك هناك خصوصية في الكلام مع زوجاته وفي حجابهن، وأن الهدف من كل هذه الأوامر هو تقوى الله تعالى والارتباط به، وقد ختمت الآيات بحرمة إيذاء الرسول ﷺ مطلقاً وخصوصاً فيما يتعلق بتزوج نسائه من بعد موته.

خامساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الخامس عشر:

* أمر الله تعالى المؤمنين ألا يدخلوا بيوت النبي إلا إلى الطعام وطلب من الذين يدعون لمأدبة في منزل النبي أن يتفرقوا وينتشر وا بعد الانتهاء من الطعام، وذلك لأن الدخول حرام وإنما

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٨٤.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٤-٧٧٥، ومحمد محمود حجازي، التفسير الواضح، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣)، ط ١٠، ص: ١١٢.

- جاز لأجل الأكل فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله. ^(١)
- * في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها فلا يجوز كشف ذلك إلا الحاجة كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها. ^(٢)
- * يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل، له فإن مجانبته ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته. ^(٣)
- * أذية رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه. ^(٤) قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ومن استحل ذلك كان كافرا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾. ^(٥)
- * إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد إحاطة علم الله تعالى بكل شيء فهو جل وعلا عالم بما بدا وما خفي، وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماض تقضى ولا مستقبل يأتي، وهذا الوصف مدح لله تعالى، وهو كذلك تويخ ووعيد لمن أضمر إيذاء النبي ﷺ في زوجاته كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. ^(٦)
- * استثنى الله تعالى من فرضية الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم الأقارب المحارم من النسب أو الرضاع، وهم الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء

- (١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٦.
- (٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٨.
- (٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٨.
- (٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣٠.
- (٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٩.
- (٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣٠.

الأخوات والنساء المؤمنات، وهو رأي بن عباس ومجاهد، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي ﷺ من الكافرات. ويرى بعضهم أن المراد منهن النساء القربيات، وتكون إضافتهن إليهن لمزيد اختصاصهن بهن، لما هن من صلة القرابة، وكذلك الخادמות. وأيضا ماملكت أيانهن من الذكور والإناث.

* توج الله تعالى آية الحجاب واستثناء المحارم بالأمر بالتقوى، كأنه قال: اقتصرن على هذا، واثقين الله فيه أن تعدينه إلى غيره، وخص النساء بهذا الأمر وعينهن، لقلّة تحفظهن وكثرة استرسالهن، ثم توعده تعالى بأنه رقيب على كل شيء بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي أنه يعلم علم شهود وحضور ومعينه، فيجازي على ما يكون. (١)

المقطع السادس عشر

بيان مكانة النبي عند الله وفي الملأ الأعلى وعند الخلق إنسا وجنا

وحرمة إيدائه وايداء المؤمنين

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
 ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

أولا: سبب النزول:

عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿٥٧﴾، قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي بن أخطب. (٢)

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١-٢٢، ص: ٨٢.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٥.

ثانياً: المناسبة بين المقطع السادس عشر والمقطع السابق:

شرف الله تعالى في هذه الآية رسوله ﷺ وذكر منزلته منه وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء في أمر أزواجه ونحو ذلك،^(١) قال الفخر الرازي: «لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نساءه احتراماً كمثل بيان حرمة ذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلواته وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾، وحالة يكون في ملاء، والملاء إما الملاء الأعلى وإما الملاء الأدنى، أما في الملاء الأعلى فهو محترم فإن الله وملائكته يصلون عليه، وأما في الملاء الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.^(٢)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

شرف الله تعالى في هذه الآية رسوله عليه الصلاة والسلام، وبين مقامه ومنزلته منه بأنه سبحانه وتعالى يثني على النبي ﷺ عند الملائكة المقربين ويباركه ويرحمه، وملائكته يثنون على النبي ويدعون له، وأكد الله تعالى تمجيدَه ﷺ بصيغة (إن)، وبالجملة الاسمية لتفيد الدوام، وذكر اسم (الله) تعالى، وفعل المضارع (يصلون) الذي يفيد تجدد الثناء. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بأن يصلوا على رسول الله ويدعوا له، وأن يسلموا عليه تسليماً، تحية وتعظيماً له فجمع الله تعالى في هذه الآية الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وأما حكم الصلاة والسلام عليه فهي فرض في العمر مرة، قال ابن عطية: «والصلاة على رسول الله في كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه».^(٣) وعند الإمام الشافعي هي فرض في الصلاة ومن تركها فسدت صلاته.^(٤)

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج: ٥، ص: ١٩٦.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج: ٤، ص: ٣٩٧-٣٩٨.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥٠٩.

أما كيفية الصلاة على النبي ﷺ فقد وردت أحاديث كثيرة حول ذلك منها: عن ابن أبي ليلى عن كعب بن عُجْرَةَ ﷺ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ». (١)

أما أجر الصلاة عليه فقد وردت أحاديث عديدة منها: عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا». (٢) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ». (٣)

وعن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنْ صَلَّاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ قَالَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ قَالَ يَقُولُونَ بَلَيْتَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ». (٤)

وزيادة على ما سبق من فوائد متعلقة بالصلاة على النبي ﷺ فقد ذكر ابن قيم الجوزية جملة من الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة على النبي ﷺ ومنها: امتثال أمر الله تعالى، وأنها سبب لغفران الذنوب، وكفاية العبد ما أهمه، وأنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة، وأنها سبب لقضاء الحوائج. (٥)

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٨٠٢، رقم الحديث: ٤٥١٩.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، ج: ١، ص: ٣٠٦، رقم الحديث: ٤٠٨.

(٣) علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن، موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، ج: ١، ص: ٥٩٤، رقم الحديث: ٢٣٩٠.

(٤) أبو داود، سنن أبي داود، ج: ٢، ص: ٨٨، رقم الحديث: ١٥٣١.

(٥) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢٠)، ط ٣، ص: ٦١٢-٦١٣.

وإذا بان شرف رسول الله ﷺ ومكانته عند الله تعالى وعند الملأ الأعلى، وفضل المسلم عليه فعندئذ يعرف عظم ذنب من يذمه أو يؤذيه باستحقاقه اللعنة التي هي أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير،^(١) ولهذا قال الله تعالى محذرا ومنبها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أُولَئِكَ اللَّهُ يَصْرِفُهُمْ فِي الْوَيْدَانِ فَتُلَاقُوا السَّاعَةَ وَتُنْفَعُ الْجَنَّةَ لَمَّا سَأَلْتُمُ الْمَوتَ أَنِ امْوتُوا وَأُوتُوا إِلَهِكُمْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ سَأَلْتُمُوهُ فَقَالَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أُمَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانُوا مِنْكُمْ بِغَائِبِينَ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

بالشرك أو غيره من المعاصي، ويؤذون رسول الله بالأقوال أو الأفعال، أبعدهم الله وطردهم من كل خير في الدنيا والآخرة، وأعد لهم في الآخرة عذاباً يذلمهم ويهينهم فيه بالخلود فيه. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل من غير ذنب عملوه، فقد ارتكبوا أفحش الكذب والزور، وأتوا ذنباً ظاهر القبح يستحقون به العذاب في الآخرة، فكيف إذا أودوا بالمعروف فذلك يضاعف له العذاب.^(٢)

رابعا: المناسبة بين المقطع السادس عشر ومحور السورة:

قال الطبرسي: لما صدر سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر تعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه.^(٣)

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السادس عشر:

- * إن الصلاة على النبي ﷺ من أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها بنفسه مع ملائكته الكرام وأمر بها المؤمنين، ولا يوجد عبادة مماثلة لها من هذا الوجه.
- * إن الأمر بالصلاة على النبي ﷺ بهذه الطريقة تفيد أن الرسول ﷺ هو أكرم مخلوق على الله تعالى وأفضل الخلق أجمعين، وهو أفضل الأنبياء قاطبة حيث لم نؤمر بالصلاة على غيره من الأنبياء عليهم السلام.
- * يصلى على النبي شفاهة كلما ذكر، أما كتابة فقد ذكر ابن كثير: أن أهل الكتابة استحبوا أن

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٧.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٥، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٥.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار الحياة)، ج: ٢٢، ص: ١٦٥.

يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه، ولم يصح في ذلك حديث، ونقل ما ذكره الخطيب البغدادي قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظا. (١)

* لا يفرد غير الأنبياء بالصلاة والسلام عليهم، لأن هذا صار شعارا لهم إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: أبو بكر عليه الصلاة والسلام ولا علي عليه الصلاة والسلام بل ﷺ، فعن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة. (٢)

* يستحب الصلاة على الرسول في مواطن عديدة منها: بعد إجابة المؤذن وعند الإقامة، وعند الدعاء، ويوم الجمعة، وغيرها من مواطن وأزمته، ومن المواطن التي مضى عليها عمل الأئمة ولم تنكرها الأمة: الصلاة على النبي ﷺ في الرسائل، وما يكتب بعد البسملة. (٣)

* من المواطن التي لا تصح فيها الصلاة على النبي ﷺ: عند طنين الأذن، (٤) وعند أكل الفجل، ولمن اتهم وهو بريء. (٥)

* إيذاء النبي ﷺ من أكبر الكبائر التي تستوجب الطرد من رحمة الله تعالى، ولم يتعرض أحد في التاريخ للأذى كرسول الله ﷺ، وما نراه اليوم من التناول على مقام النبي ﷺ ومكانته بالرسوم الكاريكاتورية وغيرها دليل على ما نقوله، وبذلك نعلم حكمة إظهار مقامه الحقيقي عند الله تعالى وإثم من اعتدى عليه، وبشاعة عمله، ويصور هذا التعبير ﴿ إِنَّ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٨.

(٣) القاضي أبو الفضل عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق عبد السلام محمد أمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢)، ط ٢، ج: ٢، ص: ٤.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٧.

(٥) السخاوي، القول البديع في الصلاة على النبي الشفيع، ص: ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٤٧.

الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿ الحساسية بإيذاء الرسول وكأنها هو إيذاء الله عز وجل، فما أبشع وما أشنع هذا العمل. ^(١)﴾

* لا يجوز إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالافتراء عليهم بنسبة أمور سيئة لم يرتكبوها، وها نحن اليوم نرى هذا ونسمعه من كثير من أعداء الإسلام الذين يتهمون المسلمين زورا بالإرهاب، وقد قال الله تعالى محذرا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفُحْشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

المقطع السابع عشر

حجاب المرأة المسلمة

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ آدَبٌ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٩)

أولا: سبب النزول:

عن أبي مالك قال: كانت نساء المؤمنين يخرجن بالليل الى حاجاتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهن ويؤذونهن، فنزلت هذه الآية. وقال السدي كانت المدينة ضيقة المنازل، وكان النساء إذا كان الليل خرجن، فقضين الحاجة، وكان فساق من فساق المدينة يخرجون فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا هذه حرة فتركوها، وإذا رأوا المرأة بغير قناع قالوا هذه أمة فكانوا يراودونها فأنزل الله تعالى هذه الآية. ^(٢)

(١) سيد قطب، الظلال، ج: ٥، ص: ٢٨٧٩.

(٢) علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٥)، ط ٢، ص: ٢٥٧.

ثانياً: المناسبة بين المقطع السابع عشر والمقطع السابق:

لما نهى الله تعالى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، ناسب أن يتبع ذلك أمر المؤمنات باجتنب أسباب الأذى ومواطن التهم بفرض الحجاب عليهن عند الخروج كي لا يتعرض لهن الفساق من الناس، وفي ذلك حصانة لهن وطهر ومنع من وصول الأذى إليهن. وأما سبب تخصيص النهي عن إيذاء النساء هنا فلعل سببه ما قاله الرازي: «ولما كان الإيذاء القولي مختصاً بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء، فإن ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء. بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها، ومن ذكر رجلاً بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه».^(١)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

تعد هذه الآية الكريمة من أهم آيات الأحكام المتعلقة بحجاب المرأة المسلمة، وهي عنوان لحشمة النساء وتبيان لعلة فرض الحجاب عليهن بأنه الحفاظ عليهن من الفسقة المعتدين، ومعناها: يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن يرخين ويسدلن على رؤوسهن ووجوههن من أرديتهن وملاحفهن؛ لستر وجوههن وصدورهن ورؤوسهن، والجلباب ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل، وقيل الملحفة وكل ما يستر به من كساء أو غيره،^(٢) ورجح القرطبي أنه الثوب الذي يستر جميع البدن.^(٣) ذلك أقرب أن يميّز بالستر والصيانة وأن يعرفن بأنهن حرائر، فلا يُتعرّض لهن بمكروه أو أذى، وهذا هو علة الأمر بالحجاب. وكان الله غفوراً رحيماً حيث غفر

- (١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٨، وقارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ١٠٤.
(٢) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٦٩.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٤٣.

لكم ما سلف من عدم إدنائهن من جلابيهن، ورحمكم بما أوضح لكم من الحلال والحرام. (١)

والإدناء: التقريب وضمن معنى الإرخاء والإسدال ولذلك عدي بـ(على)، وكما قال الطبري: اختلف أهل التأويل في صفة الإدناء الذي أمرهن الله به، (٢) وقال ابن عطية: اختلف الناس في صورة إدنائه فقال ابن عباس وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضا وقتادة: وذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ بأنهن حرائر ولسن بإماء، فإذا عرفن لم يقابلن بأذى. (٣) وأيا كان الأمر فالأمة مجمعة على وجوب أن تغطي المرأة شعرها ورأسها أما الأمر بتغطية الوجه فقد اختلفوا فيه، وهذا مبني على اختلافهم في معنى الزينة التي يجب على المرأة أن تسترها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهل وجه المرأة عورة أم لا؟ والقول ومعلوم أن للعلماء رأيين في هذا المجال: رأي يوجب تغطية البدن جميعا مع الوجه والكفين، ورأي آخر يوجب تغطية البدن كله ما عدا الوجه والكفين، وكلا الرأيين حق، ولسنا هنا في معرض الترجيح بينهما وإنما نكتفي بالقول: إن الأكمل والأحسن للمرأة هو ستر الوجه والكفين، وأما التي كشفت وجهها وكفيها دون زينة زائدة فقد التزمت شرع ربها ولا يجوز أن ننكر عليها ذلك خصوصا في هذا الزمان العصيب الذي قل فيه الالتزام بأدنى متطلبات الحجاب في كثير من الدول الإسلامية، والمفروض في زماننا أن يقوم الدعاة بنصح أولئك الكاسيات العاريات كي يرجعن إلى الله تعالى قبل أن يمتن فلا يشمن رائحة الجنة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صَنَفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج: ٤، ص: ٣٩٩.

رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».^(١) وقد دخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رفاق، فقالت عائشة: إن كتتن مؤنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كتتن غير مؤنات فتمتعينه. وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قبطي معصفر فلما رأتها قالت: لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا.^(٢)

رابعاً: المناسبة بين المقطع السابع عشر ومحور السورة:

إن من أهم مقاصد السورة تبيان مقام الرسول وأنه قدوة للناس، وفي هذه الآية أمر الله تعالى الرسول ﷺ القدوة بأن يكون أول من يبادر إلى تطبيق الحجاب على زوجاته ليسير خلفه قافلة المؤمنين فيطبقوا هذا الأمر على زوجاتهم.

خامساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع السابع عشر:

* إن الرسول ﷺ هو سيد الأمة وقدوتها ولهذا توجه الأمر إليه أولاً في فرض الحجاب على زوجاته، وكذلك تبعه المؤمنون من الصحابة والصحابيات فبادروا لتطبيق هذا الحكم دون أي تردد، فقد ذكر عند عائشة نساء قريش وفضلهن فقالت: إن نساء قريش لفضلاء ولكني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُجُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان.^(٣) وهذا الأمر يدعونا في هذا الزمان للمسارة إلى تطبيق ما أمر الله تعالى به دون أي تردد خصوصا في مسألة الحجاب الذي يصعب على بعض النفوس تطبيقه.

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج: ٣، ص: ١٦٨٠، رقم الحديث: ٢١٢٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٤٤.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٤٩٠.

- * إن الحجاب حصانة للمرأة ونور يغطيها، وهو من شعائر الإسلام، يميز المرأة المسلمة عن غيرها أينما كانت، فلا بد من الالتزام به وحث المرأة عليه.
- * إن الحجاب مناسب لفطرة المرأة، لأنها لا ترغب في أن ينظر إلى جمالها الفسقة من الناس^(١) والحجاب سبب لدوام حب الزوج لزوجته التي لا تبدي زيتها إلا لزوجها خلافا للمرأة المتبرجة، يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى: «إن الهدف صيانة المجتمع كله من الفتنة وإبقاء الاستقرار والأمن بالنسبة للمرأة حتى لا يخرج زوجها من بيته وهي لا تعلم هل ستفتنه امرأة أخرى فيتزوجها... أم أنه سيعود إلى بيته؟»^(٢).
- * أدى ترك الحجاب في مجتمعاتنا إلى مفاسد عظيمة لكل من الرجال والنساء.

المقطع التاسع عشر

جزاء المنافقين والكفار

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُحْذَرُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا ۗ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۗ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۗ ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَلَا يَجِدُونَ لِيَنَا وَلَا نَصِيرًا ۗ ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُغْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۗ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۗ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۗ ﴿٦٨﴾﴾

(١) سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة محمد زاهد الملا زكريدي، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٥/ ١٩٨٥)، ط ١، ص: ٣٠٣.

(٢) بليغ فتحي عبد الخير، تأملات في سورة الأحزاب، ص: ٣١١.

أولاً: سبب النزول:

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: إن أناساً من المنافقين أرادوا أن يظهرُوا نفاقهم فنزلت فيهم: ﴿لَيْنَ لَمَّ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، لنحرسنك بهم. ^(١)

ثانياً: المناسبة بين المقطع التاسع عشر والمقطع السابق:

لما كان المؤذون بما مضى وغيره أهل النفاق ومن داناها، حذرهم الله تعالى من استمرار الأذى كي لا يظنوا أن حلم الله عنهم سيستمر، وتشير هذه الآية إلى أن إيذاء الرسول بالقول أو الفعل، والتعرض بالسوء لنسائه وآل بيته، وعدم امتثال أمر الله مطلقاً وخاصة في ستر عورات النساء، كل هذا من لوازم النفاق العملي الذي يأباه الله ويتنافى مع حقيقة الإسلام. ^(٢)

ثالثاً: المعنى الإجمالي:

لئن لم يكف الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإيمان والذين في قلوبهم شك وريبة من شهوة الزنى وحب الفجور، والمنافقون أصناف عشرة في سورة براءة، فالذين في قلوبهم مرض صنف منهم مرض من أمر النساء. والذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تخيف قلوب المسلمين في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، يتوعدهم الله تعالى إن لم يتهوا عن نفاقهم لنسلطنك عليهم، ثم لا يسكنون معك في المدينة إلا زمناً قليلاً فتنفيهم عنها وتخرجهم منها. وهم مطرودون من رحمة الله، في أي مكان وجدوا فيه أُسروا وقُتلوا تقتيلاً إذا هم أظهروا الكفر وداموا على النفاق ونشر الأخبار الكاذبة بين المسلمين بغرض الفتنة والفساد.

وتلك هي سنة الله مع منافقي الأمم السابقة أن يؤسروا ويُقتلوا أينما كانوا، ولن تجد

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٦٢.

(٢) قارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٦، ومحمود حجازي، التفسير الواضح، ج: ٣، ص: ١١٩-

-أيها النبي - لطريقة الله تحويلاً ولا تغييراً، يقول القرطبي: «وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد والدليل على ذلك بقاء المنافقين مع الرسول ﷺ حتى مات». (١)

ولما بين الله تعالى ما أعد لأعداء دينه في الدنيا، وبين أن طريقته جادة لا تنخرم، لما لها من قوانين الحكمة وأفانين الإتقان والعظمة، وكان من أعظم الطرق الحكيمة والمغيبات العلمية الساعة، وكان قد قام ما يحرك إلى السؤال عنها في قوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الأحزاب: ٥٧، وكان قد مضى آخر السجدة أنهم سألوا استهزاء وتكديماً عن تعيين وقتها، وهددهم سبحانه على هذا السؤال، قال تعالى مهدداً أيضاً على ذلك مبيناً ما لأعداء الدين المستهزئين في الآخرة: (٢) يسألك الناس -أيها الرسول- عن وقت القيامة استبعاداً وتكديماً، قل لهم: إنما علم الساعة عند الله وما يدريك -أيها الرسول- لعل زمانها قريب؟، فأرشده إلى أن رد علم الساعة إلى الله كما أعلمه في سورة الأعراف، وأعلمه في آيات أخرى كذلك بقرب الساعة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله تعالى: ﴿أَنذَرُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ١]. (٣)

ثم توعد تعالى الكافرين بعذاب لا ولي لهم منه ولا ناصر فقال: إن الله طرد الكافرين من رحمته في الدنيا والآخرة، وأعد لهم في الآخرة ناراً موقدة شديدة الحرارة، ماكثين فيها أبداً، لا يجدون ولياً يتولاهم ويدافع عنهم، ولا نصيراً ينصرهم، فيخرجهم من النار. يوم تُقَلَّبُ وجوه الكافرين في النار، وخصت الوجوه بالذكر لأنها طالما عصت ربها، وأذت رسوله، وتكبرت على عباده المؤمنين. (٤) واذكر يوم يقولون نادمين متحيرين عندما يسحبون في النار على وجوههم:

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٤٨.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٧.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥٢٠.

(٤) محمد حجازي، التفسير الواضح، ص: ١٢١.

يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله في الدنيا، فكنا من أهل الجنة،^(١) ومثل هذا قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۗ ﴾^(٢٧) يَتَوَلَّوْنَ لَيْتَنِي لَوْلَا اتَّخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا ۗ ﴾^(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

وقال الكافرون يوم القيامة معتذرين: ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلال والشر وكبراءنا في الشرك، فأزالونا عن طريق الهدى والإيمان. ربنا عذبهم من العذاب مثلي عذابنا الذي تعذبنا به، واطردهم من رحمتك طرداً شديداً. وفي هذا دليل على أن طاعة غير الله في مخالفة أمره وأمر رسوله، موجبة لسخط الله وعقابه، وأن التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، فليحذر المسلم ذلك، لأن الله تعالى خلق لكل إنسان عقلاً وفكراً مستقلاً يحاسبه عليه بناء على ما يختار من خير أو شر.

رابعاً: المناسبة بين المقطع التاسع عشر ومحور السورة:

لما كان من أهم مقاصد السورة تعظيم النبي، بين الله تعالى جزاء المنافقين والكفار الذين يؤذون الرسول ﷺ، وما سيتعرضون له من العقاب الدنيوي والأخروي جزاء وفاقاً لهذا الإيذاء.

خامساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع التاسع عشر:

* النفاق مرض قلبي وهو أنواع منه حب الشهوات المحرمة كالزنى وغيره، نعوذ بالله تعالى منه ومن كل أمراض القلوب.

* إن المدينة المنورة بلدة مباركة وهي كما قال النبي: (أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَّتَ الْحَدِيدِ)،^(٢) فمن جاور فيها فهو ذو حظ

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٤٠٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٢، ص: ٦٦٢، رقم الحديث: ١٧٧٢، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٢،

ص: ١٠٠٦، رقم الحديث: ١٣٨٢، وعبد الرزاق الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، ج: ٩، ص: ٢٦٩،

رقم الحديث: ١٧١٦٥.

عظيم، اللهم ارزقنا ذلك.

- * إن الله تعالى سننا في الكون لا تتغير ولا تتبدل، فعلى الإنسان أن يحذر عذاب الله تعالى وغضبه، وأن يتحرى رضوانه بأن يراعي سنن الله في الكون ويوافق حركته لها.
- * غيب الله تعالى علم وقوع الساعة عن الإنسان لحكم عظيمة، منها متعلق بالتكليف كي يبقى الإنسان مستعداً دوماً للقاء الله تعالى فيستعجل في عمل الخير ويتعد عن اقتراف المعاصي.
- * أن لا يكون الإنسان إمعة يتبع كل ناعق، بل على الإنسان أن يستخدم عقله في كل أمره فيتنبه لأصحاب الدعاوى الباطلة فيحذرهم لأنه يوم القيامة سيحاسب على عمله وعلى من يتبع ويحب فالمرء يحشر مع من يحب، ويوم القيامة لا تنفع الندامة. وفي ذلك اليوم لا ينفع السادة الضالون من اتبعوهم من الضعفاء والمساكين وغيرهم.

المقطع العشرون

توجيهات وعظات للمؤمنين

﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾

أولاً: المناسبة بين المقطع العشرين والمقطع السابق:

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله والمؤمنين بأنواع عديدة من الأذى وتوعدهم بأصناف من العذاب، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في أذيتهم سيدنا موسى ﷺ حتى لا ينالهم ما نال المنافقين والكفار من العذاب. ويقول النسفي: «وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ليرتادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما

يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه». (١)

ثانياً، المعنى الإجمالي:

ابتدأ الله تعالى بنداء المؤمنين تنبيهاً إلى أهمية وخطورة ما سيأتي بعد النداء فقال: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل، ونداء المؤمنين فيه تعريض بمن لا يؤمن بالرسول من المنافقين لأنه يصدر منه إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً مثل الأذى الذي عمله المنافقون حول زواج النبي بزینب، أو الأذى الذي تعرض له النبي أثناء قسمة الغنائم وغيرها، ونهى الله تعالى المؤمنين بأن لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبي الله موسى باتهامه بأنواع من الأذى مثل قولهم: إنه آدر أي: منفوخ الخصيتين، أو أبرص، أو أنه قتل أخاه هارون، ورجح الطبري الأول لورود الحديث التالي في ذلك، فبرأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور، وكان عند الله عظيم القدر والجاه. فنفر الله المؤمنين أن يكونوا كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلاً صارخاً للالتواء. (٢)

ومثل عموم هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِغَيْرِكُمْ أَيْ رَسُولُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ فُلَمَّا رَأَوُا آرَاءَ اللَّهِ فَلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، حيث لم يحدد نوع الإيذاء فكما آذوه شخصياً آذوه كثيراً من جانب الرسالة كما بينه تعالى في قوله عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا له: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٤٢]، فأذوه بالعصيان والتهكم، وقالوا له مرة: ﴿أَلْتَّخَذْنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]، فنسبوه إلى الطيش والسخرية، ولهذا رد موسى عليهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. وقال صاحب أضواء البيان: ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة

(١) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٥، ص: ٢٨٨٣-٢٨٨٤.

ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه وفي ما جاء به فبرأه الله مما قالوا في آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم والعلم عند الله تعالى. (١) أما إيذاء موسى الشخصي فقد أخرج البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءٌ مِنْهُ فَأَذَاهُ مِنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتُرُ هَذَا التَّسْتُرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بَجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَحَدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثُوبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ نُوبِي حَجَرٌ نُوبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثُوبَهُ فَلَبَسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لِنَدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا». (٢)

وهذه الآية تدل على وجوب توقيف النبي والابتعاد عن إيذائه وقد التزم أصحاب النبي بذلك أشد التزام، وقد حصل الإيذاء من بعض المنافقين أو الغافلين فعن عبد الله ﷺ قال: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسَمًا فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ لِقَسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَعَضِبَ حَتَّى رَأَيْتَ الْعُضْبَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ. (٣)

وبعد الانتهاء من نهي المسلمين عن إيذاء الرسول أمرهم بجماع الأمر كله وهو التقوى وذلك بأن يعملوا بطاعته، ويجتنبوا معصيته؛ لئلا يستحقوا بذلك العقاب، وأمرهم بأن: قولوا في جميع أحوالكم وشؤونكم قولاً مستقيماً موافقاً للصواب خالياً من الكذب والباطل. والقول السديد يشمل مدح النبي ﷺ وقول الصدق، والإخلاص في القول والعمل، بل هو يعم الخيرات كلها. (٤)

(١) الشنقيطي، أضواء البيان، ج: ٩، ص: ١٠٩.

(٢) البخاري صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٢٤٩، رقم الحديث: ٣٢٢٣.

(٣) البخاري صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٢٤٩، رقم الحديث: ٣٢٢٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٥٣.

وإذا اتقيتم الله وقلتم قولاً سديداً أصلح الله لكم أعمالكم، وغفر ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى فقد فاز بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة. قال الرازي: «أرشدكم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين على الخيرات بإصلاح الأعمال فإن بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب». (١)

ثالثاً: المناسبة بين المقطع العشرين ومحور السورة:

لما ابتدأت السورة بأمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع الوحي ناسب أن يثني هنا بأمر المؤمنين في ختام السورة بهذا الأمر العظيم وهو التقوى، وكذلك لما كانت السورة في بيان فضل النبي وبيان مقامه العظيم ناسب أن يؤكد على المؤمنين كيف يعظمونه بالابتعاد عن إيذائه وبأن يقولوا في حقه ما يناسب مقامه الجليل ﷺ.

رابعاً: من الفوائد المستنبطة من المقطع العشرين:

- * حرمة إيذاء النبي ﷺ، وضرورة تعظيمه.
- * إن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، فمن كان مع الله كان الله معه ومن لم يكن الله معه فلا شيء معه ولو كانت الدنيا كلها معه.
- * ضرورة التزام التقوى لأن النتائج كبيرة ومهمة، وضرورة الصدق في القول والعمل، لأن النتيجة هي مجتمع صالح يصلح الله له أعماله في الدنيا ويغفر له ذنوبه في الآخرة ويكون له الفوز العظيم بالجنة.

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٢، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٧.

المقطع الحادي والعشرين

عظمة تكليف الإنسان وحمله الأمانة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

أولاً: المناسبة بين المقطع الحادي والعشرين والمقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تعالى أهمية التقوى ونتائجها الحميدة وأمر بطاعة الله تعالى ورسوله وبين أن نتيجتها الفوز بالجنة، عقب ذلك عظيم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبر هناك ولا إبرام وعبر عنها بالأمانة، فالطاعة هي الأمانة التي هي التكليف. (١)

ثانياً: المعنى الإجمالي:

ينبئنا الله تعالى بأنه عرض تحمل الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وخفن أن لا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه فهو ظلوم بترك حمل الأمانة وجهول بما يترتب على حملها من تبعات، فالذي كلف به «الإنسان بلغ من عظمه أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حمله وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه، إنه كان ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خان بضمانه فيها». (٢)

(١) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢٢، ص: ٩٦، وسعيد حوى، الأساس في التفسير، (دار السلام للنشر والتوزيع)، ج: ٨، ص: ٤٤٩٠.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٨.

فما هي هذه الأمانة التي خافت منها كل المخلوقات عدا الإنسان؟ ذكر المفسرون أقوالاً عديدة ولكنها كلها ترجع إلى معنى جامع لها هو التكليف والشعور بتحمل المسؤولية، إنها (الأنا)، يقول ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال العديدة حول معنى الأمانة: « وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله». ^(١) وقال الطبري مرجحاً: «إنه عنى بالأمانة في هذا الموضوع جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس وذلك أن الله لم يخص بقوله: ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ بعض معاني الأمانات»، ^(٢) لهذا فقد عد من قصر في طاعته لله تعالى خائناً للأمانة قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالإنسان إذا اعترف بألوهية الله تعالى وعبوديته له سبحانه واعترف بعجزه وفقره، عرف أنه ضيف في ملك الله تعالى القدير المطلق والغني المطلق، وأنه خلق لعبادة الله فيؤدي الأمانة على وجهها الأتم ويرضى بقضاء الله وقدره فيصير عبداً صالحاً يقتضي أثر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأما إذا خان الأمانة فأنكر ألوهية الله تعالى أو عصاه وتفرغت نفسه وأنانيته واتخذ إلهه هواه فقد خان الأمانة ويصير من زمرة الضالين والمغضوب عليهم من الفراعنة والنهاردة والظلمة المعتدين.

وكانت النتيجة: أن حمل الإنسان الأمانة وذلك كي يعذب الله الذين خانوا الأمانة من المنافقين والمنافقات الذين يُظهرون الإسلام ويُخفون الكفر، والمشركين والمشركات في عبادتهم غير الله تعالى، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بستر ذنوبهم وترك عقابهم. وكان الله غفوراً للثائبين من عباده، رحيماً بهم. ^(٣) وههنا لطيفة في ختم الآية الكريمة بصفتي المغفرة والرحمة قال

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥٢٣.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٥٧.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٩.

الرازي: «إن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم». (١)

ثالثاً: المناسبة بين المقطع الحادي والعشرين ومحور السورة:

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي ﷺ بأحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ أي التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة. (٢) ولما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين، أمر بالتزام أوامره، والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح. (٣)

رابعاً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الحادي والعشرين:

- * جعل الله الإنسان ثمرة للكون فخلقه في أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولهذا كان تكليفه بحسب مقامه فحمله الأمانة والتكليف الذي أبت السموات والأرض حملها.
- * الإنسان يبلغ إلى درجة أعلى عليين إذا هو اعترف بربوبية الله تعالى وأذاب أنانيته وأطاع ربه فيتوب الله عليه ويوفقه ويرحمه فيستحق بذلك الجنة وهذا هو شأن المؤمنين والمؤمنات. وينزل الإنسان إلى دركة أسفل سافلين إذا هو خان الأمانة وادعى الربوبية واتبع هواه وعصى ربه فيعذبه الله تعالى وهذا هو شأن المنافقين والكافرين. (٤)
- * إن فعل الحسنات هو محض فضل وتوفيق من الله تعالى لأن طبيعة الإنسان الميلان للمعصية والظلم بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٣٥].

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٥.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٢.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٥٣.

(٤) سعيد النورسي، المقالات، ترجمة الملا محمد زاهد الملازكريدي، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦/١٩٨٥)،

ط ١، ص: ٣٥٢-٣٥٣.

كلمة الختام

لقد بينت سورة الأحزاب مقام هذا النبي الكريم صاحب الخلق العظيم وخير خلق الله أجمعين، بدءاً من نداءه في أول السورة بصفة النبوة ثم تخصيصه بتشريعات متعلقة بالزواج وبأهل بيته الذين طهرهم الله وأذهب عنهم الرجس، ثم بينت مكانته عند الله وفي الملائكة الأعلى وفي العالم العلوي والسفلي بأن الله بذاته مع ملائكته يصلون على النبي وقد أمر المؤمنين إنساً وجنّاً أن يصلوا عليه، ثم بين الله تعالى جزاء الذين يؤذون النبي واعتبر إيذاء النبي إيذاء الله تعالى. وفصلت سورة الأحزاب الطريق العملي للتقوى وبينت ما يتناقض معه فبدأت بأمر النبي بالتقوى وختمت بأمر المؤمنين بذلك.

وبينت سورة الأحزاب كيف يتعامل المسلم مع الأحداث اليومية والمحن على مختلف المستويات وكيف ينبغي أن يكون حاله القلبي وسلوكه اليومي، وسورة الأحزاب حددت أطر الحياة في المجتمع الإسلامي وحددت الأخلاقيات العليا للمرأة حتى تسلك عليها فتخرج من الظلمات إلى النور.

إن سورة الأحزاب تذكرنا بأن على الإنسان أن يحاسب نفسه^(١) وأن يذكر الله كثيراً، إنها تدور حول المحور الأساسي ألا وهو الاستسلام لله تعالى ورسوله فيما يأمران أو ينهيان عنه، والتي عبرت السورة عنها بالأمانة التي من خانها استحق غضب الله وعذابه، ومن راعاها أدخله الله في رحمته وجنته، وما أجمل ما ختمت به السورة من صفتي المغفرة والرحمة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ليعلم الإنسان أن الله تعالى سبقت رحمته غضبه فيطمع المؤمن بذلك فاللهم رحمتك ومغفرتك.

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج: ٨، ص: ٤٤٩٥.

سورة سبأ

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سُمِيَتْ هذه السورةُ الكريمةُ بسورةِ سبأ، حيث وردت فيها قصةُ قومِ سبأ، حين كفروا بأنعمِ الله، وأعرضوا عن الحق، فجزاهم الله بكفرهم وجحودهم وجعلهم آيةً وعبرةً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

ب. فضائل السورة.

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني، ومما ورد في فضائل هذه السور الكريمة ترغيباً

في تلاوتها وتبييناً لمزيّتها:

* مارواه الإمام أحمد وغيره عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ المَثْنَيْنِ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الإنجِيلِ المَثَانِي، وَفُضِّلَتْ بِالمَفْصَلِ) ^(١).

ج. مكية السورة.

* هذه السورة مكية، نزلت بمكة قبل الهجرة. ^(٢)

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في تفسيرنا لسورة الأنعام.

(٢) قال القرطبي «مكية في قول الجميع، إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. فقالت =

- * نزلت لتكون حجة ساطعة تشهد بصدق النبي ﷺ.
- * نزلت لتقرر الإيمان بالبعث وتبين الحكمة منه.
- * كان نزولها تسلييةً وتسريةً وتثبيتاً لقلب النبي ﷺ.
- * جاءت بتقرير معنى الشكر لله تعالى وجزاء الشاكرين، مع التحذير من عاقبة الكافرين بأنعم الله.

د. عدد آيات السورة.

عددُ آياتها: خمسون وخمس آيات في الشامي، وخمسون وأربع في عدد الباقيين.
وكلمتها: ثمان مئة وثلاث وثمانون كلمة.
وحروفها: ثلاثة آلاف وخمسة مئة واثنان عشر حرفاً.

اختلافها: ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، عدّها الشامي ولم يعدّها الباقيون. (١)

= فرقة: هي مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي ﷺ؛ قاله ابن عباس، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره قاله مقاتل، وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ المؤمنون به كائناً من كان". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٥٨ ويراجع المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٢ / ١٣٠.

وأرى أن هذه السورة كلها مكية، والآية السادسة ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ عامة في كل من آتاه الله العلم النافع من أمة محمد ﷺ وسائر الأمم، فالعلم يبصر صاحبه بالحق ويهديه إليه، يقول صاحب الظلال «ومجال الآية أكبر وأشمل، فالذين أوتوا العلم في أي زمان وفي أي مكان، من أي جيل ومن أي قبيل، يرون هذا متى صح علمهم واستقام؛ واستحق أن يوصف بأنه {العلم}! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال، وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذي علم صحيح، وهو يكشف عن الحق المستكن في كيان هذا الوجود كله، وهو أصدق ترجمة وصفية لهذا الوجود، وما فيه من حق أصيل. في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٤.

(١) يراجع: كتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ص ٢٠٩، وكتاب «أقوى العدد في معرفة العدد» لعلم الدين السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء ١ / ٢١٢ وفنون الأفسان في علوم =

هـ. محور السورة.

تدور آيات السورة الكريمة حول قضية أساسية وحقيقة إيمانية: إنها قضية البعث، الذي قرره القرآن، وأثبتته بالحجة والبرهان المادي والعقلي.

وعن ذلك يقول صاحب الظلال: « موضوعات هذه السورة المكية هي موضوعات العقيدة الرئيسية: توحيد الله، والإيمان بالوحي، والاعتقاد بالبعث، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح لا الأموال ولا الأولاد هما قوام الحكم والجزاء عند الله، وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله، وما من شفاععة عنده إلا بإذنه.

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ولطفه، وتكرار الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرقٍ منوعة، وأساليب شتى؛ وتظلل جوَّ السورة كله من البدء إلى النهاية.

فعن قضية البعث قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٣.

وعن قضية الجزاء يقول سبحانه ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ سبأ: ٤ - ٥^(١).

= القرآن لابن الجوزي ص ٣٠٠.

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٨.

و. المناسبات في السورة.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

سميت سورة سبأ: نسبةً إلى قصة سبأ، وهذه القصة صلةٌ دقيقةٌ بمحور السورة، حيث وردت احتجاجاً على منكري البعث؛ مع إقرارهم بهذه القصة التي استفاضت بها الأخبار وتداولتها الأجيال، حتى صارت مثلاً عربياً شائعاً يدلُّ على الفرقة بعد اجتماع، يقولون: [ذَهَبُوا أَيَدِي سَبَأَ، وَفَرَّقُوا أَيَدِي سَبَأَ].^(١)

قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ ١٥ - ١٧]

فهذه القصة التي يعرفها العرب، ويضربون بها المثل، دليلٌ جليٌّ على كمال قدرته تعالى وعجيب صنعه، فلئن كانت تلك الوفرة والرفاهية ورغد العيش آيةً من آيات الله، فإن تبدُّل النعم وتداول الأجيال وانقلاب المنحة إلى محنة آيةٌ عظيمةٌ تدل على قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، حضارات تزدهر وأخرى تضمحل وتتلاشى، أمم تنهض وترتقي سلمَ المجد وأخرى تنتحى عن مقدمة الركب ثم تتداعى وتتساقط.

خصوبةٌ ورغدٌ ووفرةٌ ورخاء، يعقبه جذبٌ وقحطٌ وفقرٌ وهوانٌ وفرقةٌ وشتاتٌ: ألا يدلُّ ذلك على وجود إرادةٍ غالبيةٍ ومشيةٍ علييةٍ وأقدارٍ مقضيةٍ، وأحكامٍ عادلةٍ فاصلةٍ، لا تقبل النقض أو الاستئناف، وجزاءٍ ذنوبي عاجل يُعَدُّ مقدمةً وبرهاناً وتمهيداً وعنواناً على الجزاء الأخروي الآجل؛ إذ لا بدَّ من مجازاة كلِّ كفورٍ، ومثوبة كلِّ صَبَّارٍ شكورٍ.

فهذه القصة لمن تأملها برهانٌ ساطعٌ على كمال قدرته تعالى وجزائه العادل وإرادته الغالبة

(١) تراجع: مجمع الأمثال للميداني ١ / ٢٧٥ برقم ١٤٥٤.

سورة سبأ

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

ومشيئته النافذة، ومن ثمَّ فهو قادرٌ على البعثِ والجزاء.

المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمتها.

* بدأت السورةُ الكريمة ببيان موقف المشركين من البعث حيث الإصرار على إنكاره واستبعاده والسخرية والتهمُّم بالنبي ﷺ حين أخبر عنه، ومضت السورة الكريمة في إقامة الأدلة على البعث، ثم جاء الختام ببيان إقرارهم بالبعث ولكن بعد فوات الأوان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا ءَأَمْتًا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِمَّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ: ٥٢ - ٥٤].

* افتتحت السورةُ الكريمةُ بحمد الله تعالى على نعم الدنيا والآخرة، وتضمنت العديد من النعم منها نعمة الخلق والرزق، ونعمة البعث والجزاء، ونعمة الهداية إلى طريق الحق والنجاة، لكن الكفار في غفلة عن هذه النعم وجحود لها، لم يتأسوا بمن أذى شكر هذه النعم كنبى الله داود وسليمان عليهم السلام، ولم يعتبروا بمن سلف من الأمم التي كفرت بأنعم الله كقوم سبأ.

المناسبة بين السورة وسابقتها

مع نزول سورة الأحزاب في المدينة، ونزول سورة سبأ في مكة إلا أن الترابط بينهما وثيقٌ متينٌ، قد تجلَّى في وجوه عديدة، نذكرُ منها:

* حديث السورتين عن الريح، فهي جندٌ من جنودِ الله تعالى ونعمةٌ من نعمه: ففي سورة الأحزاب بين تعالى أنها حسمت غزوة الأحزاب لصالح المسلمين حين سلطها الله على المشركين فكانت شديدة عاتية باردة قلعت خيامهم وأطفأت نارهم وأكفأت آبيتهم دون أن تجاوز عسكرهم إلى أن تبدد شملهم ولاذوا بالفرار، ويُنَّ تعالى في سورة سبأ أنها كانت من جنود سليمان عليه السلام تحمله وجنده بسرعة فائقة وتهبط بسلام حيث شاء.

كما سلط الله الماء على قوم سبأ، فانفتق السدُّ وفاض الماء، فسلط الله الريح على الأحزاب وعاقب سبأ بالماء.

* في سورة الأحزاب تذكير بنعم الله تعالى، ومنها نصر المؤمنين على الأحزاب، وجملة من نعم الله تعالى على نبيه ﷺ، وفي سورة سبأ تذكير بنعمة تعالى العاجلة والآجلة، نعمة الخلق والرزق والهداية والرعاية ونعمة البعث والجزاء، فضلا عن نعمه تعالى التي أسداها على داود وسليمان عليهما السلام

* في سورة سبأ دعوة لآل داود ﷺ أن يشكروا الله تعالى شكرا تاما بالقلب واللسان والجوارح، وفي سورة الأحزاب توجيهات عديدة لآل بيت النبي ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

* في السورتين الكريمتين بيانٌ لمهمة النبي ﷺ الجليلة ورسالته السامية ودعوته العامة:

قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾
وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
[الأحزاب: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى في سورة سبأ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرْدَيْ ثُمَّ لِنَفْكَرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦].

* في السورتين الكريمتين بيان لعاقبة المستضعفين والمستكبرين وتخاصمهم يوم الدين، قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٢﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا

الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

وقال تعالى في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الظَّالِمِينَ مَوْفُوتًا عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة التي قبلها :

* اختتمت سورة الأحزاب بقوله تعالى ﴿ لِعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].
وافتححت سورة سبأ بقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١].

ونظير هذا ختام سورة المائدة مع بداية سورة الأنعام: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِن تَعَدَّيْتُمْ فَإِنِّي أَنزِلُ عَلَيْكُمْ طُوفَانًا مِّنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَّلْنَا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٨ - ١٢٠].

وقال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

فتعذيبُ العصاة وإثابة الطائعين نعمةٌ عظيمةٌ تستوجبُ الحمد.

قال السيوطي في وجه مناسبة سورة سبأ لما قبلها: « ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها أن تلك لما ختمت ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٧٣) ، افتتحت هذه بأن له ما في السموات وما في الأرض، وهذا الوصف لائقٌ بذلك الحكم، فإن الملك العام، والقدرة التامة، يقتضيان ذلك».

* في السورتين الكريمتين دفاعٌ ونصرةٌ للحبيب المصطفى ﷺ، أما الأحزاب: ففيها دفاعٌ عنه من أراجيف المنافقين، وأما سبأ: ففيها دفاعٌ عنه من دعاوى وافتراءات المشركين.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تتصلُّ جميعُ مقاطعها بقضية البعث والجزاء، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تتنظَّم في سلكٍ واحدٍ وتدورُ في فلكٍ واحدٍ، وهو تقريرُ أمر البعث والجزاء، وسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة، وتفسير كلِّ مقطع على حدة.

بين مقدمة السورة ومحورها

لما دارت السورة حول تقرير قضية البعث والجزاء: استهلَّت بحمد الله تعالى على نِعَمِهِ في الدارين فهو تعالى المحمود فيها قال تعالى في مطلع السورة ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾.

مقدمة السورة

الاستفتاح بالحمد

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ١-٢]

التفسير الإجمالي

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أثنى على نفسه سبحانه، فهو المحمود قبل أن يحمده الحامدون، وأمرنا بالثناء عليه، فهو الموصوفُ بصفات الكمال والجلال، المنعم المتفضل على عباده في الدنيا والآخرة. ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ورزقاً وتديراً وتصريفاً وتقديراً وقضاءً، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه؛ وكما أوجد هذه النعم في الدنيا فهو تعالى قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنعم العاجلة دليلٌ على النعم الآجلة، ونعيم الدنيا يذكر بنعيم الآخرة، وعالم الشهادة دليلٌ وعنوانٌ على عالم الغيب.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ على كمال عدله وتماز رحمة؛ إذ يفصل بين العباد ويقضي بينهم فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين، وينصف المظلومين، ويقتص من الطغاة المجرمين، فهو المحمود في الآخرة، حتى ممن كانوا يجحدونه في الدنيا، أو يشركون معه غيره عن جهل وضلالة، أو هوى متبع أو عصبية وتقليد، إذ تنكشف لهم الحقائق وتنجلي الحجج، ويتبين لهم فضل الله عليهم في الدنيا وإمهاله لهم، وعدله في حكمه، فيقرون له بالحمد والثناء.

قال النيسابوري: «واعلم أنه تعالى وصف نفسه في أول هذه السورة بأن له ما في السموات وما في الأرض؛ إيداناً بأن كونه مالكا لكل الأشياء يُوجب كونه محموداً على كل لسان، لأن الكل إذا كان له فكل من يتنفع بشيء من ذلك كان مستنفعاً بنعمه، ثم صرح بأن له الحمد في الآخرة: تفضيلاً لنعم الآخرة على نعم الدنيا وإيداناً بأنها هي النعمة الحقيقية التي يحق أن يحمد

عليها ويشئ عليه من أجلها^(١).

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الحكيم في ملكه وتدبيره، وحكمه وتقديره، وأفعاله وأقواله.
﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بواطن الأمور، فضلاً عن ظواهرها، فالخلق خلقه والملك ملكه، قَالَ تَعَالَى:
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ما يدخل فيها من قطر وكائنات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٢١] ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من كنوز ونبات، ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والأرزاق والمقادير والبركات والرحمات. فما من شاردة ولا واردة، ولا واجبة ولا خارجة، ولا نازلة ولا صاعدة إلا وقد أحصاها ربنا عدداً، وأحاط بها قدرةً وعلماً.

﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴾ نَشَرَ بِسَاطَ رَحْمَتِهِ وَبَثَّ آثَارَهَا، وَأَمَطَرَ سَحَابَ مَغْفِرَتِهِ وَفَتَحَ

أبْوَابَهَا.

المناسبة بين مقدمة السورة ومحورها

الموضوع الرئيسي في هذه السورة هو تقرير حقيقة البعث وبيان الحكمة منه، وقد استهلته السورة بحمد الله تعالى على ما اتصف به من كمال الربوبية، فالسماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ملكه وتحت سلطانه وتدبيره، وعلمه تعالى شامل لكل ما جل ولطف وكل ما صغر وكبر وكل الحج وخارج وكل نازل وعارج، فله الحمد في الدنيا على نعمه الجليلة التي لا تعد ولا تحصى، وله الحمد في الآخرة على فصله بين العباد، وإثابة المطيعين، وإنصاف المظلومين، وعقاب المعرضين الجاحدين.

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ٧٤، ٧٥.

وفي الآية الكريمة: ردُّ على منكري البعث بيان إحاطة علمه تعالى وشمول قدرته، ونظير هذا قوله تعالى في سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَرًا بَلْ كَذَّبُوا بِآلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٤﴾ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ۝٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٦﴾ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ ﴿بَصِيرَةً وَذَكَرْنا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٢-٨].

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

- * أثنى الله تعالى على نفسه سبحانه، فهو المستحقُّ لجميع المحامد، الموصوفُ بصفات الكمال والجلال المنعمُ المتفضلُّ على عباده في الدنيا والآخرة.
- * ورد الحمد في القرآن الكريم متعلقًا بنعم كثيرة ومتنوعة، منها العامُّ والخاصُّ، والماضي والحاضر، والعاجلُ والآجلُ، والظاهرُ والباطنُ، واستفتح الله تعالى خمس سورٍ بالحمد، كما اختتمت به بعض السور؛ وذلك للتذكير به والتنويه على فضله، وتنبية الغافلين عن جلائل النعم فضلًا عن لطائفها.
- * لله تعالى ما في السموات وما في الأرض، فالجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه.
- * القادر على إيجاد هذه النعم في الدنيا قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنعم العاجلة دليلٌ على الآجلة، ونعيم الدنيا برهانٌ على الآخرة.
- * لله الحمد في الآخرة على كمال عدله وتمام رحمته وقضائه بين خلقه.
- * هو تعالى الحكيم في ملكه وتدبيره، وحكمه وتقديره، وأفعاله وأقواله، الخبير ببواطن الأمور، فضلًا عن ظواهرها.
- * علمه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون، فهو المحيط بكل شيء علمًا.

- ١ -

قضية البعث والجزاء

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَتُرَوَّأ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِم كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾ [سبأ: ٣ - ٩]

المناسبة

دارت مقدمة السورة حول تفرده تعالى بالحمد واستحقاقه له، فهو المالك المتصرف، وهو الحكيم الخبير، وهو العليم بكل معلوم، وهو الرحيم الغفور، وهذا تمهيد وتوطئة للحديث عن قضية البعث والجزاء؛ لذا أتبع هذه المقدمة ببيان موقف المشركين من هذه القضية، وتجلية الحكمة من البعث وإبراز موقف أهل العلم منه، وبهذا تتجلى المناسبة بين آيات هذا المقطع ومقدمة السورة ومحورها.

التفسير الإجمالي

موقف الكفار من البعث

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُيِّنٌ ﴿٣﴾

مع هذه الآيات البينات التي تشهد بكمال ملكه وتمام عدله، وعظيم حكمته، وإحاطة علمه، وطلاقة قدرته إلا أن الكفار يصرون على إنكار البعث! مع أنه أمرٌ يقيني تقتضيه الحكمة لإقامة موازين العدل ونشر بساط الرحمة، وهذا الإنكار: « ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره، فحكمة الله لا تترك الناس سدى، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء؛ ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته، وقد أخبر الله على لسان رسوله: أنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة، فكل من يدرك حكمة الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره.. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة»^(١).

ولقد أمر سبحانه رسوله الكريم وهو الصادق المصدوق أن يقسم لهم مؤكدا لهم أن الساعة آتية لا محالة، حتى لا يترك لهم حجة، فقد سلك بهم جميع طرق الإقناع: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم برهن على مجيئها باستثارة تعالى بعلم الغيب وإحاطته به وشمول علمه لكل ما دق ولطف وكل ما ظهر وخفي فلا يعزب عن علمه شيء ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾، فأكد تعالى وقوعها بأشد أنواع التوكيد، وأتبع ذلك ببيان علمه للغيب؛ فالساعة أمرٌ غيبيٌّ، وموعدها مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو تعالى لا يعزب عن علمه شيء مهما صغر ولطف، فما من صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مسجلة في اللوح المحفوظ الذي حوى كل ما كان وما يكون وما سيكون.

وفي هذا ردٌّ قاطع على ما أثاره المنكرون للبعث من شكوك وشبهات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْتَحِرُونَ ﴾ وَيُنْتَحِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَا وَبِكَمَا وَصَّأ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾ ذَلِكَ

(١) غرائب القرآن ورجائب الفرقان للنيسابوري ٤٠/٢٢.

﴿ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايِنِنَا وَقَالُوا آءَ ذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْتًا آءَ نَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٩٨) [الإسراء: ٩٧-٩٨].

البعث عدلٌ ورحمةٌ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (٥) سبأ: ٤ - ٥

بين عز وجل حكمته في بعث العباد؛ ليفصل بينهم، ويقضي فيهم، فيثيب المؤمنين بالمغفرة والرضوان والفوز بالجنان ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤)، ويعاقب الجاحدين المعاندين بالشقاء والحرمان والخلود في النيران ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾: سعوا في آياته صداً عنها وقدحاً فيها، وتعجزوا لمن جاء بها وتثبطاً لمن آمن بها ودعا إليها، ظانين بإنكارهم للبعث والنشور أننا لن نقدر عليهم، وناسبين العجز لمن تبع النبي ﷺ، وساعين إلى تعطيل سير قافلة الدعوة أو إبطائها، أو إعاقة الناس عن اللحاق بها، وباذلين كل جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا، ومسرعين في تكذيبها، وجاهدين في إظهار المؤمنين بمظهر الضعيف العاجز عن الدفاع عن دينه والذب عن عقيدته.

عن قتادة رحمه الله قال: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴾ قال: كذبوا بآيات الله فظنوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه.

قرأ الجحدري وابن كثير: ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾ بدون ألف: أي معجزين قدرة الله تعالى فيهم بزعمهم، وقال ابن الزبير: معناه مثبطين عن الإيمان من أراده مدخلين عليه العجز في نشاطه وهذا هو سعيهم في الآيات (١).

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٢.

وعن مجاهد، قوله: «مُعْجَزِينَ» قال: مبْطُون يَبْطُونُ الناس عن اتباع النبي ﷺ. (١)
وقال الطبري: « وقراءة: (مُعْجَزِينَ) بتشديد الجيم بغير ألف، بمعنى أنهم عَجَزُوا الناس ونبطوهم عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان بالقرآن، ومن عجز عن آيات الله فقد عاجز الله ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبْطُونُ الناس عن الإيمان بالله تعالى، واتباع رسوله ﷺ ويغالبون رسول الله ﷺ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله» (٢).

وقال البغوي: «... ومعنى يعجزوننا: أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقيل: «معاجزين» مغالين، يريد كل واحد أن يظهر عجز صاحبه» (٣).

﴿ أَوْلَيْتِكَ لَهْمَ عَذَابٍ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾: أي مؤلم لأبدانهم ولمشاعرهم، فهو عذابٌ حسيٌّ ومعنويٌّ، والرجز يعني سوء العذاب، وشدة الإيلام، وما يَضِيقُ به الإنسان من قدرٍ ووجعٍ.

موقف أهل العلم من البعث

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

لما ذكر موقف المنكرين للبعث الذي ينبثق عن جهلهم واتباعهم للهوى وتقليدهم الأعمى، ذكر موقف أهل العلم: وهو التصديق والتسليم بأن هذا اليوم حق وأن النبيين حق

- (١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٣٣٤ ويراجع الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٢٥٤ وحجة القراءات لابن زنجلة (أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه) ص ٤٨٠.
- (٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٦٢ ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٦١ والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ١ / ٣٢٣.
- (٣) جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٦١.

وأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، وأنهم موقنون به حقّ اليقين.
﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ يهدي إلى طريق الهدى والنور، طريق العزِّ
والتمكين، وهو طريق محمود العواقب.

قال صاحب الظلال: « وصرط العزيز الحميد هو المنهج الذي أَرادَه للوجود؛ واختاره
للبشر لينسّق خطاهم مع خطى هذا الكون الذي يعيشون فيه، وهو الناموس الذي يهيمن على
أقدار هذا الكون كله، بما فيه من الحياة البشرية التي لا تنفصل في أصلها ونشأتها، ولا في نظامها
وحركتها عن هذا الكون وما فيه ومن فيه». (١)

شبهات وأباطيل

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَىٰ رِجْلِ نَبِيِّكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّنْ لَكُمْ لَيْ حَاقٍ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ
﴿٨﴾ [سبأ: ٧ - ٨]

إلى هذا الحد من الدهشة والاستغراب كانوا يثيرون الشكوك حول قضية البعث
ويتهمون ويسخرون من النبي ﷺ وَيَشِيعُونَ بين الناس هذه الإشاعة الكاذبة المغرضة ! حتى
أخرجوا كلامهم مخرج الألغاز والأحاجي: ﴿ هَلْ نَدُوكُمْ عَلَىٰ رِجْلِ نَبِيِّكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّنْ لَكُمْ
لَيْ حَاقٍ جَدِيدٍ ﴾ !

ونحو هذا قوله تعالى عنهم ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَمِىٌّ عَجِيبٌ
﴿٢﴾ أَمْ دَأْبًا وَإِنَّا لَكَا نَرِيبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ﴿٥﴾ [ق: ٢ - ٥].

فقد كذبوا بالساعة، واستبعدوا وقوعها ونالوا من النبي ﷺ فرموه بالافتراء تارة والجنون تارة
أخرى، وأشاروا إليه إشارة تعبر عن تجاهلهم له « كأنهم لا يعرفونه ﷺ، مع أنه أظهر من الشمس.

(١) معالم التنزيل للبخاري ٥ / ٣٩٢.

وليس قولك من هذا بضائره... العُربُ تعرفُ من أنكرتِ والعَجْمُ»^(١).

فرد عليهم تعالى أبلغ الردَّ ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾؛ إذ أي ضلالٍ أشدُّ من إنكارهم للوعد الحق مع تسلسل آياته وتجلي شواهدة فيما حولهم، بل في أنفسهم، وأيُّ ضلالٍ أشدُّ من تنكرهم لهذا النبي الذي يعرفون صدقه وأمانته ورجاحة عقله وفتانته، لكنها الأهواء الجاحمة والنفوس المريضة والقلوب القاسية والعقول التي احتجبت عن هذه البصائر الجليلة، وعمت عن الآيات الصريحة، وغفلت عن الشواهد الناطقة والبراهين العقلية، وتجاهلت الأدلة الحسيّة التي تقرّر البعث على حدِّ قول القائل:

لقد ظهرت فما تخفى على أحدٍ إلا على أكمه لا يعرف القمر

« وحاصل الآية إثبات الجنون الحقيقي لهم؛ فإن الغفلة عن الوقوع في العذاب وعن الضلال الموجب لذلك جنون أي جنون واختلال عقل أي اختلال؛ إذ لو كان فهمهم وإدراكهم تاما وكاملا لفهموا حقيقة الحال ولما اجترؤا على سوء المقال»^(٢).

الأدلة العقلية والمادية على البعث

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيْفٌ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ نَسُفَ عَلَيْهِمْ كَسْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٩].

دعاهم الله تعالى إلى النظر والاعتبار فيما سبقهم وما حولهم من آيات بينات، ثم توعدهم سبحانه بعذاب عاجل فقال ﴿إِنَّ شَأْنًا خَفِيْفٌ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ نَسُفَ عَلَيْهِمْ كَسْفًا مِنْ السَّمَاءِ﴾، فالأرض والسماء مسخرة لأمره، خاضعة لسلطانه، ولو شاء الله تعالى لأمر الأرض فحسفت

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٤.

(٢) البيت للفرزدق ويقصد به زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ٧ حين تجاهله هشام بن عبد الملك لما رآه يطوف حول الكعبة والأبيات موجودة في كثير من كتب الأدب، يراجع الأغاني للأصبهاني - ٥ / ٤٤٥، وزهر الآداب وثمر الألباب للحصري: أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني المعروف بالحصري القيرواني ص ٢٧.

بهم، أو السماء فأسقطت عليهم كسفا، وأمطرتهم بالحجارة، أو رجتهم بالشهب، ولكنه تعالى يمهلهم ويستدرجهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾: إن فيما سبق ذكره والإشارة إليه آية لكل عبد منيب مقبل على مولاه راجع إليه في كل أحواله، فهو تعالى قصده ووجهته ورجاؤه وغايته.

الهدايات المستنبطة

* البعث أمرٌ يقينيُّ تقتضيه الحكمةُ الإلهية؛ لإقامة موازين العدل والإنصاف ونشر بساط الرحمة وظلالها، وصدق الله جلَّ وعلا إذ يقول ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنٰى﴾ [النجم: ٣١].

* علمُ الساعة أمرٌ غيبيُّ، مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو تعالى لا يعزب عن علمه شيء مهما صَغُرَ وَلَطَفَ، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حوى كل ما كان وما يكون وما سيكون، وفي هذا ردٌّ على شبهات المشركين التي أثاروها حول البعث.

* كشفت الآيات عن موقف أعداء الإسلام من الحق وأساليبهم المتلوية في الصد عنه وتشكيكهم في قدرة الله تعالى وتثيبتهم للمؤمنين وبثَّ روح الهزيمة فيهم، والسعي الدءوب إلى إبطاء مسيرة الدعوة، وإظهار المؤمنين بمظهر الضعيف العاجز عن الدفاع عن دينه والذَّبِّ عن عقيدته.

* لما ذكر موقف المنكرين للبعث الذي ينبثق عن جهلهم واتباعهم للهوى وتقليدهم لأساطين الكفر وأئمة الضلال، ذكر موقف أهل العلم وهو التصديق والتسليم بأن هذا الوعد حق. قال السعدي رحمه الله: «وهذه منقبةٌ لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علما وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم معرفة بحكم وأوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول ﷺ،

- احتج الله بهم على المكذبين المعاندين»^(١).
- * بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ يقول صاحب الظلال: « يهدي إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه في إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه؛ ومكان هذا الإنسان منه، ودوره فيه؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله وهو معها في تحقيق مشيئة الله وحكمته في خلقه، وتناسق حركات الجميع وتوافقها في الاتجاه إلى باري الوجود.
- * ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بمنهجه التربوي الذي يعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية، ويعد الجماعة البشرية للتجاوب والتناسق أفراداً وجماعات مع مجموعة الخلائق التي تعمر هذا الكون! ويعد هذه الخلائق كلها للتجاوب والتناسق مع طبيعة الكون الذي تعيش فيه.
- * ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه، متناسقة مع القوانين الكلية التي تحكم بقية الأحياء، وسائر الخلائق؛ فلا يشذ عنها الإنسان بنظمه وتشريعاته، وهو أمة من هذه الأمم في نطاق هذا الكون الكبير»^(٢).
- * دلَّ إنكارُ الكفار للبعث على توغلهم في غَمَرَاتِ الضلال وتردِّبهم في دركاته، فضلاً عن تقلبهم في عذاب الدنيا قبل أن يذوقوا عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾، وأي ضلالٍ أشدُّ من إنكارهم للوعد الحق مع تسلسل آياته وتجلي شواهد فيها حولهم، بل وفي أنفسهم!
- * فهم في ضلالٍ بعيدٍ وعذابٍ دائمٍ، ودليل ذلك عيشهم في عذابٍ نفسيٍّ؛ إذ لا شعور

(١) روح البيان لإساعيل حقي ١١ / ١٦٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٥.

بالراحة ولا إحساس بالسكينة، ولا غاية لهم في هذه الحياة، فإن وقع عليهم ظلمٌ واستبدادٌ فهم في يأسٍ وقنوطٍ، إذ لا أمل عندهم في تعويضٍ من حرمانٍ أو إنصافٍ من ظلمٍ وطغيانٍ، حتى المتقلبُ منهم على فراشِ العافية، الرافلُ في أثوابِ النعمِ يعيش حياةً مفعمةً بالهمومِ والمنغصاتِ والخوفِ والقلقِ والحيرة؛ مخافة أن تسلب منه تلك النعمُ العارضةُ، وفي الحياة مواقفٌ وابتلاءاتٌ لا يقوى الإنسانُ على مواجهتها إلا وفي قلبه يقينٌ وفي نفسه رجاءٌ بالآخرة، وتعلقٌ بثوابها، فيتسلى عن كل نقصٍ وحرمانٍ وتعَبٍ ونصبٍ بما ينتظره عند الله من حسنِ الثوابِ.

* عن أنسٍ رضي الله عنه قال: حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفَرُونَ فِي عِدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ) ^(١).

* وَعَنْ سَهْلِ رضي الله عنه قَالَ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَحْفِرُ الْخَنْدَقَ وَنَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَانِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) ^(٢).

فدعها وسلّ النفسَ عنها بجَنَّةٍ	من الحُسنِ في روضاتها الدر ييسم
ومن تحتها الأنهار تخفق دائما	وطير الأمانى فوقها يترنم
وقد ذللت منها القطوفُ فمن يُرد	جناها ينله كيف شاء وينعم
وقد فتحت أبوابها داعي الهدى	هلموا إلى دار السعادة تغنموا

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير. باب: التحريض على القتال. حديث ٣٦٧٩، ورواه مسلم في الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق، رقم: ١٢٧ - (١٨٠٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة - باب دعاء النبي ﷺ (أصلح الأنصار والمهاجرة) حديث ٣٥٤٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب وهي الخندق. حديث ١٢٦ - (١٨٠٤).

فطوبى لمن حلُّوا بها وتنعَموا
من الناس والرحمن بالغرس أعلم
سعيدٌ وإلا فالشقا متحتم
قفوا بي على تلك الربوع وسلموا
قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا^(١)

وقد طاب منها نُزُلُها ومقيلها
وقد غرس الرحمنُ فيها غراسه
فمن كان من غرس الإله فإنه
فيا مسرعينَ السيرَ بالله ربكم
وقولوا محب قاده الشوق نحوكم

* وقال أبو تمام:

والحادثاتُ وإنْ أصابك بُؤْسها
فهو الذي أدراك كيفَ نعيمُها

وقال أيضا:

وليس يعرفُ طيبَ الوصلِ صاحبه
حتى يصابَ بنأيٍ أو بهجران
فإذا أنعم الله على المؤمنِ بنعمةٍ كانت النعمُ حافزةً له ومشوقةً لنعيمِ الآخرة التي يستحضرها
ويستشعرها ويجدد ذكراها مع كل نعمةٍ ينالها.

* دعاهم الله تعالى إلى النظر والاعتبار فيما حولهم وما سبقهم من آيات بينة وعظات بليغة،
ثم توعدهم سبحانه بعذاب عاجل فقال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمُ
كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، فالأرض والسماء مسخرة لأمره، خاضعة لسلطانه، ولو شاء الله
تعالى لعجل بهلاكهم ولكن يمهلهم ويستدرجهم.

* الإنابة إلى الله تعالى هي الرجوع إليه في جميع الأحوال، في السراء والضراء، في الشدة
والرخاء، وتفويض الأمر إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه والمسارعة إلى عفوه
ورضاه، ومن ثمرات الإنابة نفاذُ البصيرة وصفاء الذهن وحضور القلب وخشوع
الجوارح وعمق الفكرة وبعد النظرة وجلاء العبرة.

(١) طريق المهجرتين لابن القيم ١ / ٩٣.

-٢-

مع داود وسليمان عليهما السلام

مثال عملي للأوابين الشاكرين

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَقَدْرًا فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَنِيعًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسَلِيمَانَ الَّرِّيْحَ غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نُنْذِرْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَيَّنَّتِ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤]

المناسبة

لهذه الآيات صلة جليلة بمحور السورة الكريمة وسياقها العام والذي يدور حول قضية البعث، فقدرة الله تعالى لا تحدّها حدودٌ، والكون مشحونٌ بعجائب الآيات. فالجبل الأشمُّ ينبض بالروح وتسري فيه الحياة ويخضع ويتصدع من خشية الله ويتجاوب مع نبي الله داود فيردد معه.

والطير مع وحشتها ونفورها تترنم في ألفةٍ ووثام وأنس وانسجام.

والحديد مع صلابته يلين كالشمع أو العجين، بين يديه الطير.

والريح تطير بسليمان الطير وجنده وعتاده فتقلعهم من مكان إلى مكان.

والجن مع نفوره وتمرده يذعن خاضعا وينقاد مستسلما في خدمة سليمان.

والنحاس وهو معدنٌ جامدٌ يذوبُ نعمةً وكرامةً وآيةً لهذا النبي الملك.

كل هذه الأمور الخارقة ألا تدل على إمكانية البعث؟
 أليس القادر على هذه الآيات قادر على أن يحيي الأموات؟
 ليس من منح داود وسليمان هذه الفضائل والمكرمات بقادرٍ على أن يبعث عباده ليجزل لهم المثوبات، ويغدق عليهم الجوائز والهبات؟ بل هو قادر.

قال أبو حيان: « مناسبة قصة داود وسليمان، عليهما السلام، لما قبلها، هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره، إذ طفحت ببعضه أخبارهم وشعراؤهم على ما يأتي ذكره، إن شاء الله، من تأويب الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد، وهو الجرْم المستعصي، وتسخير الريح لسليمان، وإسالة النحاس له، كما ألان الحديد لأبيه، وتسخير الجن فيما شاء من الأعمال الشاقة.

وقيل: لما ذكر من ينب من عباده، ذكر من جملتهم داود، كما قال: ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَهُ وَخَرَّرَ كَعْبًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] وبين ما آتاه الله على إنابته فقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾، وقيل: ذكر نعمته على داود وسليمان، عليهما السلام، احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ: أي لا تستبعدوا هذا، فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا». (١)

وقال البقاعي: « ولما أشار سبحانه بهذا الكلام الذي دل فيه على نفوذ الأمر إلى أنه تارة يعدل وتارة يفضل، وكان الفضل أكثر استجلاباً لذوي الهمم العلية والأنفس الأبية، بدأ به في عبد من رؤوس المنيين على وجه دال على البعث بكمال التصرف في الخافقين وما فيها بأمر شوهدت لبعض عبيده تارة بالعيان وتارة بالأذان، أما عند أهل الكتاب فواضح، وأما عند العرب فبتمكينهم من سؤلهم فقد كانوا يسألونهم عنه ﷺ» (٢).

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٢٦٢.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٦ / ١٥٧.

التفسير الإجمالي

مع نبي الله داود عليه السلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ: ١٠-١١]

ضرب الله مثلاً بنبيه داود عليه السلام على كمال قدرته وجميل عطائه وجليل نعمائه على عباده الشاكرين، حيث تفضل الله على داود بهذه الآية العجيبة، وهي ذلك التألف والانسجام بينه وبين ما حوله من جبالٍ وطيور، فالجبال تؤوب بأمر من الله تعالى، دليلاً على صدقه وإخلاصه وخشوعه وتضرعه، وقوة تأثيره، فتتسجم مع هذا الصوت الجميل الذي صدر من قلب حاضر ولسان شاكر، فتثير المشاعر وتوقظ الهمم وترقق القلوب وترهف الأسماع، وترنو الأنظار لهذا المشهد المهيب، مشهد الجبال الشاخحات وصداهها العجيب حين تحشع وتلين وتؤوب مع داود، ومنظر الطير وهي تشدو بأحلى الألحان وأعذب الأصوات وأطيب الكلم.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قيل: كان داود عليه السلام إذا تخلل الجبال فسبح جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح.

وقيل: كان داود عليه السلام إذا لحقه فتورٌ أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطاً له ^(١).

ولقد ضرب النبي ﷺ أروع المثل بهذا الصوت الندي الشجي حين امتدح تلاوة أبي موسى الأشعري فقال ﷺ: (لَقَدْ أُعْطِيَ أَبُو مُوسَى مِزْمَارًا مِنْ مِزْمِيرِ دَاوُدَ) ^(٢).

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦ / ٣٨٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن - باب: حسن الصوت بالقراءة للقرآن الحديث: ٤٧٦١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث: ٢٣٥ - (٧٩٣)، ورواه النسائي في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الافتتاح، باب =

وكما لانت له الجبال مع صلابتها وألفتُهُ الطيرُ مع نفورها ووحشتها، فقد ألان الله له الحديد ليصنع به الدروع السابغات المحكمات، فكان الحديد في يده كالشمع أو العجين، يعمل منه ما يشاء من غير طرقٍ أو تسخينٍ.

قال السدي: « كان الحديد في يده كالطين المبلول، والعجين، والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة»^(١). فيصنع منه بدقة وإحكام دروعا حصينة متينة، بأمر الله تعالى وتعليمه، حيث أرشده سبحانه إلى أسس الجودة وأصول الإتقان وفنون الإبداع في صناعتها ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ اجعلها سابعة محكمة وقدر في سردها ودقق في حلقاتها حتى تكون منتظمة متينة متناسقة ضيقة لا تنفذ منها السهام.

فهذه نعمة على نبي الله داود عليه السلام بل وعلى البشرية جمعاء، كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

لما ذكر جملة من نعمه عليه أمره بالمبادرة إلى عمل الصالحات التي يعظم نفعها ويمتد أثرها في العاجل والآجل فقال سبحانه: ﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مطلع على أعمالكم بصيرٌ بدقائقها ولطيفها فضلا عن جليلها.

=تزيين القرآن بالصوت - الحديث: ١٠١٣ والمراد بآل داود نفسه وكثيرا ما يطلق آل فلان على نفسه. ورواه الترمذي في السنن أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مناقب أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وقال: " هذا حديث غريب حسن صحيح، وفي الباب عن بريدة وأبي هريرة وأنس"، ورواه ابن ماجه في السنن كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب في حسن الصوت بالقرآن حديث ١٣٤١.

ورواه أحمد في المسند ٣٤٩/٥، ورجال أحمد رجال الصحيح

(١) معالم التنزيل للبخاري ٦ / ٣٨٨ فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣١٥.

مع نبي الله سليمان عليه السلام

قال تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاَ شَهْرًا وَرَوْحُهاَ شَهْرًا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظِيرِ وَمَنْ أَلْجَيْنَ مَنْ يَعمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَمَنْشِيلٍ وَّجِجَانٍ كَالْجِوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ۗ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤]

المناسبة

- * كما سخر الله الجهاد والطير لداود عليه السلام فأوبت معه الجبال وترنمت الطيور ولان الحديد فقد سخر الله لسليمان عليه السلام الإنس والجن والطير والرياح.
- * وكما امتن الله على داود بهذه النعم الجليلة، كذلك امتن الله على سليمان فسخر له الريح تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده فتقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير، وتهبط بهم آمنين مطمئنين.
- * وهذه النعم الربانية تدل على كمال قدرته وجليل حكمته تعالى، وفي هذا رد على منكري البعث لجهلهم بربهم، وغفلتهم عن شهود عظمته.
- * ولقد كان ملك سليمان العادل وعهده المبارك امتداداً لملك أبيه داود عليه السلام ومواصلة لمسيرة الخير والنماء وطريق الأمن والرخاء.

التفسير الإجمالي

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاَ شَهْرًا وَرَوْحُهاَ شَهْرًا﴾ أي تقطع في الغدو أو الرواح مسيرة شهر مما يدل على سرعتها الفائقة.

جاء في المصباح المنير: « غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ: أَي ذَهَابُهَا وَرُجُوعُهَا » (١)، وقال قتادة: معناه: إنها كانت تَقْطَعُ به في الغدوِّ إِلَى قُرْبِ الزَّوَالِ؛ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَتَقْطَعُ فِي الرَّوَّاحِ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ كَذَلِكَ (٢).

وقال سبحانه ﴿ وَاسْلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وفي هذه الآية ما يدل على سرعتها الفائقة.

وقال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٣٦) [ص: ٣٥ - ٣٦].

وفي هذه الآية وصف لها بالليونة وأنها موجهة حيث أراد نبي الله سليمان ﷺ. فهذه الريح مسخرة لسليمان تسير بأمره حيث شاء، وهي سريعة ومأمونة الجانب ولينة. فجمعت الريح بين القوة الرهيبة والمعجزة العجيبة مع كونها وسيلة آمنة مريحة وآية فريدة لا يمكن للبشر مهما أوتوا من علم وقوة أن يتمكنوا منها ويتحكموا فيها ويوجهوا مسيرها فتقلهم وتحمل متاعهم من بلد إلى بلد..

وكما ألان الله الحديد لداود وتجاوبت معه الجبال وألفته الطير، فقد أسال الله تعالى القطر لسليمان، قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ لتفيض بالنحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، في التشييد والبناء وصناعة الآلات والأواني والأسلحة، كما سخر الله تعالى له الجن يعملون بين يديه فيراهم ويشرف على عملهم ويوزع عليهم المهام كما قال سبحانه: ﴿ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ (٣٧) ﴿ وَأَخْرَجَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) [ص: ٣٧ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُوقُ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ٤ / ٣.

(٢) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٠ / ٣٦٢.

﴿حَكْفِطِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

فسخر له الشياطين في بناء وتشديد المساكن والمحاريب، وصناعة الجفان والتماثيل وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار.

﴿وَمَنْ يَنْزِعْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فسليمان عليه السلام نبي ملك تجب طاعته من جهتين: من جهة كونه نبيا مرسلا، ومن جهة كونه ملكا وقائدا، فطاعته من طاعة الله تعالى فكل من تمرد على سلطانه، فقد عرض نفسه للعذاب العاجل فضلا عن الآجل.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣)

المحراب: كل موضع مرتفع، وقيل للذي يصلّى فيه: محراب لأنه يجب أن يرفع ويعظم فالمساجد، والأبنية المرتفعة من قصور حصينة ودور شريفة وحصون منيعة من المحاريب، وسميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها، والمحراب مقدم كل مسجد ومجلس وبيت^(١).

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ قصاع ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي الحياض التي يجبي فيها الماء، يقال: كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها، ولما ذكر الصحاف على وجه يعجب منه ويستعظم، ذكر ما يطبخ فيه طعامها فقال ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ ثابتات لها قوائم لا يحركن عن أماكنها، ولا ينزع عنها أثافيها لعظمتها، وكان يصعد إليها بدرج.

فقال: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي ثابتات ثابتاً عظيماً.

قال الألوسي « وقدمت الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل؛ لأنه لما ذكرت الأبنية الملكية ناسب أن يشار إلى عظمة السماط الذي يمد فيها فذكرت الجفان أولاً لأنها تكون فيها بخلاف القدور فإنها لا تحضر هناك، كما ينبيء عنه

(١) معالم التنزيل البغوي ٦ / ٣٨٩، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٥٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٤٠، وأنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٩٤.

قوله تعالى: ﴿رَأْسَيْتَ﴾، وكأنه لما بين حال الجفان اشتاق الذهن إلى حال القدور فذكرت للمناسبة»^(١).

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣)

اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، أو اعملوا عملاً يُعبر ويعرب ويترجم عن شكركم لله تعالى، وخصَّهم بالذكر مع أن الشكر واجب على سائر الخلق لأنهم موضع التأسي والافتداء ومحط الأنظار.

علوُّ في الحياة وفي الممات!

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْنَا عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (١٤)

كما كانت حياته عليه السلام حافلة بالمنح والمكرمات زاخرةً بالدلائل والنيرات والمعجزات الباهرات، فقد كان موته آيةً من أعظم الآيات؛ إذ كان شياطينُ الجنِّ قد ادعوا معرفة الغيب فأراد الله تعالى أن يُطَلِّعَ الإنسَ على كذبهم، وكان سليمان عليه السلام يشرف على الأعمال فيجلس الساعات الطوال يتابع سير العمل، وهو متكئ على عصاه، حتى أتاه الموت وهو على حاله والجن مستغرقون في العمل؛ هيبة له وإجلالاً، وخضوعاً وإذعاناً، حتى أكلت الأرضُ عصاه، فخرَّ سليمان، ليعلم الجميع بموته ويستيقن الإنس أن الجن لا علم لهم بالغيب وتسقط تلك الأوهام والادعاءات، ويواجه الجنُّ بهذه الحقيقة التي غابت عنهم أو غفلوا عنها، فكان معرفتهم بموت سليمان كالصاعقة التي أفاقوا منها على تلك الحقيقة التي كانت الأرضُ هذه المخلوقة الضعيفة وراء انكشافها؛ لينكشف للجميع كذب ادعائهم معرفة الغيب إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العمل الشاق الذي كلفهم به سليمان عليه السلام.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٧٢ بتصرف.

الهدايات المستنبطة

- * تفضل الله تعالى على أنبيائه بالنعم الجليلة والمواهب العظيمة تأييدا لهم وإنعاما عليهم.
- * « في قصة داود عليه السلام وتعلمه صناعة الدروع دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان، وفي الصحيح عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)^(١)، وإنما خصه عليه السلام بالذكر لأنه مع نبوته كان ملكاً، فلم يمنعه ذلك من العمل.
- * إتقان العمل من شيم أهل التقى والصلاح، والاجتهاد في تطوير الحرف والصناعات النافعة مطلب شرعي وأمر ضروري.
- * في قوله تعالى: ﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ دعوة إلى توظيف الملكات والمواهب والنعم في الأعمال الصالحة، ومراقبة الله تعالى في جميع الأحوال والأعمال، قال صاحب روح البيان: « ومن عرف أنه البصير راقبه في الحركات والسكنات، حتى لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره »^(٢).
- * قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ يدلُّ على أنَّ عَمَلَ التَّائِيلِ كَانَ مُبَاحًا، وَهُوَ مُحْظُورٌ فِي شَرِيعَتِنَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: (لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٣٤ والحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع. - باب:

كسب الرجل وعمله بيده. حديث ١٩٦٦.

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي ١١ / ١٧٣.

فِيهِ صُورَةٌ (١)، وَحَدِيث (لَعَنَ اللَّهُ الْمَصُورِينَ) (٢).

قال ابن العربي: « فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ شَاءَ عَمَلَ الصُّورِ الْمُنْهَى عَنْهَا؟ قُلْنَا: لَمْ يَرِدْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهَيًّا عَنْهَا فِي شَرْعِهِ، بَلْ وَرَدَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُ كَانَ أَمْرًا مَأْذُونًا فِيهِ، وَالَّذِي أَوْجَبَ النَّهْيَ عَنْهُ فِي شَرْعِنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، فَكَانُوا يُصَوِّرُونَ وَيَعْبُدُونَ، فَقَطَعَ اللَّهُ الذَّرِيعَةَ وَحَمَى الْبَابَ... وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا فَيَكُونُ نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الصُّورِ نَسْخًا...

وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الَّذِي كَانَ يُصْنَعُ لَهُ الصُّورُ الْمُبَاحَةُ مِنْ غَيْرِ الْحَيَوَانَ وَصُورَتِهِ فَشَرْعُنَا وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ» (٣).

وقد استثنى من هذا الباب لعب البنات لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلَعِبُهَا مَعَهَا وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانِ عَشْرَةَ (٤).

وعنها أيضا: أَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَكَانَتْ تَأْتِينِي صَوَاحِبِي فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسْرِبُهُنَّ إِلَيَّ (٥).

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عائشة كتاب اللباس باب: من كره القعود على الصور. حديث ٥٦١٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب. حديث ٨١- (٢١٠٤).

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة كتاب الطلاق - باب: مهر البغي والنكاح الفاسد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ٨، ٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب: تزويج النبي ﷺ عائشة، وقدمها المدينة، وبنائه بها حديث ٣٦٨٣.

(٥) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب: الانبساط إلى الناس. حديث ٥٧٧٩.

ورواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب في فضل عائشة، رضي الله

قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة النبات حتى يتدربن على تربية أولادهن ثم إنه لا بقاء لذلك وكذلك ما يُصنَع من حلاوة أو عجين لا بقاء له فرخص في ذلك، والله أعلم^(١).

وكذلك ما يصنع من تماثيل لأغراضٍ علمية، كدراسة علم الطبّ والتشريح ونحوه.

* وهب الله سليمان ملكاً عظيماً وأيده بجنود عجيبة منها الريح والطيور والجن فضلاً عن الإنس، وإذابة عين النحاس له، فشهد عصره ازدهاراً حضارياً وتقدماً ورفقياً مادياً وروحياً.

* الشكر من أعمال القلوب والألسنة والجوارح: وهو اعتراف القلب بنعمة الله واستحضارها وثناء اللسان وعمل الجوارح.

وشكر الله تعالى لا نهاية له ولا حد له، بل التوفيق للشكر نعمة تستوجب الشكر، وقد نظم هذا المعنى بعضهم فقال:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً علي له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِهِ وإن طالَتِ الأيامُ واتسعَ العُمُرُ
إذا مس بالنعماءَ عمٌّ سـرورُها وإن مسَّ بالضراءَ أعقبها الأجرُ^(٢)

* قوله تعالى ﴿اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣): قال صاحب

الظلال: «تعقيبُ تقريرِ وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصص، يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقبل القادرون على شكرها، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله، وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء، فكيف إذا قصرُوا وغفلوا عن الشكر من الأساس!؟»

تعالى عنها. ٨١- ٢٤٤٠، والانقاع: الاختفاء حياءً وهيبة.

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٤٠.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للأوسى ١٦ / ٢٧٤.

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة؟.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.. وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه، وعن أيانه وعن شوائله، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه. وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام! (١) انتهى كلامه رحمه الله.

* وإنما خصَّ آل داود بالذكر مع أن الشكر واجب على سائر الخلق فالخير قد عم الجميع في هذه المملكة العادلة ﴿اعْمَلُوا أَلَّ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣)؛ لأنهم موضع التأسي والافتداء ومحط الأنظار، وفي هذا درسٌ لآل كل داعية وأسرة كل حاكم أن تكون أسرع استجابةً وأشدَّ حرصاً وأعظم إقبالا على طاعة الله وشكر نعمه، شكرا تاما عمليا.

-٣-

مع قوم سبأ

مثال واقعي لعاقبة من كفر بأنعم الله

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشِقَءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْرِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَلْهَرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ سبأ: ١٥ - ٢١

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٩.

المناسبة

* لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبِّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾

* كذلك لما بين تعالى أن الحكمة من قيام الساعة جزاء المؤمنين ومجازاة الكافرين، ذكر مثالا لمجازاة الكافرين في الدنيا بقوم سبأ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (١٧).

* وكذلك جاءت هذه القصة مفصلة ومقررة لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيْفٌ بِهِمْ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٩: سبأ) فهي عبرة وعظة لكفار قريش الذين أنكروا البعث وما يستتبعه من جزاء، وكذبوا بالنبي ﷺ وأعرضوا عما بين أيديهم وما خلفهم من الآيات، وهذه القصة التي يعرفونها من أجل العبر وأبلغ النذر.

التفسير الإجمالي

بعد أن ذكر الله أحوال الشاكرين وضرب لهم مثالا بداود وسليمان عليهما السلام، ذكر عاقبة الكافرين بأنعم الله، فضرب مثالا بقوم سبأ الذين قابلوا نعمة الله عليهم بالجحود والنكران والإعراض والنسيان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبِّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ (١٥)

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبِّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾: آية عجيبة تحتاج إلى وقفة وتأمل ونظرة واعتبار، فهي عظة وعبرة، ودلالة على قدرة الله تعالى، وإرادته الغالبة وسننه الماضية والجارية.

قال الألوسي: «أي علامة دالة بملاحظة أخواتها السابقة واللاحقة على وجود الصانع

المختار، وأنه سبحانه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة، مجازٍ للمحسن والمسيء^(١).
﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: هذه الجنانُ عن اليمين والشمال رمزٌ لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكُر بالمنعم الوهاب.

لقد ارتقوا في سُلْمِ الحضارة والمدنية، حتى تحكّموا في مياه الأمطار الغزيرة، فأقاموا خزائناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق، وخزنوا الماء بكميات وفيرة وراء السد، وتحكّموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا موردٌ مائيٌّ عظيم، عُرفَ باسم «سد مأرب».

﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: فالأرض بساطٌ سندسيٌّ أخضر، قد طبعت فيها الزهورُ الفواحةُ بألوانها الزاهية أبدع النقوش.

وقد دعاهم الله تعالى بلطفٍ ولينٍ إلى مائدته العامرة ورزقه الكريم ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: دعوة من الكريم للتمتع بهذه الطيبات ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ من الآفات، خالية من المنغصات، قد طاب فيها المقامُ ورغد العيشُ، وثمازُ يانعة دانية، وقصورٌ منيفةٌ ومساكنٌ عالية، ومناظرٌ رائعة، وسهولٌ ممتدة، وربوعٌ خضراء، وأنهارٌ تتدفقُ بالخيرات، وأشجارٌ تتفتقُ بأطيابِ الثمرات، وحقولٌ تجودُ بأجودِ المحاصيل، وهواءٌ عليلٌ، ﴿وَرَبِّ غَفُورٌ﴾ يعفو عن الكثير ويثيبُ على القليلِ ويمنحُ الثوابَ الجزيل.

فماذا فعل قوم سبأ؟

﴿فَاعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ اَكْثِلِ خَمْطٍ وَاَثَلِ وَشَقِو
مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي اِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

أقبل قوم سبأ على المائدة الربانية معرضين عن شكرها، فقابلوا النعم بالجحود والنكران، والآيات والعبر بالغفلة والنسيان، فكان جزاؤهم الشقاء والحُرمان.

(١) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٢٧٥.

﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ عن المنعم جل وعلا، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ السيل الجرار الذي خرب سدهم وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت تلك الحقول والبساتين المثمرة، بأشجارٍ رديئةٍ الثمر، قليلة النفع.

قال الشوكاني: « وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، فردموا ردماً بين جبلين، وجبسوا الماء، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الثالث، فأخصبوا، وكثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض، فدخل الماء جنتهم، فغرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، وهو جمع عرمة وهي: السُّكْرُ التي تحبس الماء»^(١).

﴿ وَيَدَّلُكُمْ بِمَجَنَّيْتِهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

وتسمية البدل جنتين: للمشاكلة اللفظية، والتهكم بهم.

وقال قتادة: بينها شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر، ويحتمل: أن يرجع قوله: ﴿ قَلِيلٍ ﴾ إلى جميع ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.

وقال الخليل: الخمط الأراك، وكذا قال كثير من المفسرين، وقال أبو عبيدة: الخمط كل شجرة مرّة ذات شوك، وقال الزجاج: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكن أكله، وقال المبرد: كل شيءٍ تغَيَّرَ إلى ما لا يشتهي يقال له: خمط، ومنه اللبن إذا تغير^(٢).

وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بريٌّ لا يتنفع به، ولا يصلح للغسول، وله ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى: الضال، والثاني سدر ينبت على الماء، وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب، قيل: ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وهو

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢٠.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ٢٤٩.

النوع الثاني الذي ذكره الأزهري.

﴿ ذَلِكُمْ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: ذلك التبديل بسبب كفرهم وجحودهم كما قال تعالى:
﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأَنْفَال: ٥٣].

﴿ وَهَلْ نُجِزِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ « كانوا في رَغَدٍ من العَيْشِ وسلامة الحال ورفاهته، فأمرُوا بالصبر على العافية والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا، وكفروا بالنعمة، وضيّعوا الشكر، فَبَدَّلُوا وبُدِّلَ بهم الحال، كما قيل:
تبدلت وتبدلنا، يا حَسْرَةَ لِمَنْ ابْتغى عِوَضًا لِسَلَمَى فلم يَجِدْ

بين الجحود والفتور!

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيْرًا فِيهَا لِيَأْتِيَ وَيَأْتِيَ أَمِينٌ ﴾ (١٨) بين تعالى ما كانوا فيه من نعم ظاهرة، وحياة رغيدة، وعيشة سهلة ليثة، وبلاد طيبة آمنة وقرى متقاربة متواصلة التي باركنا فيها، قيل هي بلاد الشام.

﴿ قُرَى ظَاهِرَةٌ ﴾: متواصلة تترأى للناظرين، فلا يغادر المسافر قرية إلا ويشرف على قرية أخرى، وتظهر معالمها فلا يحتاج إلى دليل ولا حمل زاد أو مبيت في أرض خالية ولا يخشى من عدو أو وحوش ضارية.

﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدرًا من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية، حتى يكون المَقِيلُ في قرية والمبيتُ في قرية أخرى، وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء أو قتلها، أو لخوف الطريق فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة.

﴿ سِيْرًا فِيهَا لِيَأْتِيَ وَيَأْتِيَ أَمِينٌ ﴾ ونعمة الأمن من أعظم النعم؛ فهم في أمن من كل المخاطر والآفات مهما ساروا بالليل أو النهار.

والتعبير بـ ﴿سَيَرُوا فِيهَا﴾ «مؤذن بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى»^(١)،
وقدم الليالي لأنها مظنة الخوف؛ وقد قيل الليل أخفى للويل، أو لأنها سابقة على الأيام أو قلنا
سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياماً كثيرة.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾

قرأ ابن كثير وأبو عمرو فقالوا ربنا بَعْدَ بالتشديد وقرأ الباقون باعد بالألف، وقرأ أبو
صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب ويروى عن ابن عباس: (رَبُّنَا
بَاعَدَ) تقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا كأن الله تعالى يقول: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشرا
وبطرا: لقد بوعدت علينا أسفارنا وعلى هذا فإنهم ما طلبوا التباعد إنما طلبوا أقرب من ذلك
القرب بطرا وعجبا مع كفرهم، وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس
(رَبُّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) وفسرها ابن عباس قال: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم، وقراءة
سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري (رَبُّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) ربنا نداء مضاف ثم أخبروا
بعد ذلك فقالوا: (بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) ورفع (بَيْنُ) بالفعل (بَعْدَ) أي بَعْدَ ما يتصل بأسفارنا،
ويعدت المسافات بين البلاد، وروى الفراء وأبو إسحاق (بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا): بعد سيرنا بين
أسفارنا.^(٢)

والمعنى: تبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان السفر طويلاً وشاقاً، وبلغ
الترف ببعضهم والدَّعَةُ أن اشتكى من بعد الأسفار جحوداً وإنكاراً لنعم الله تعالى فكانوا بين
جاحدٍ للنعمة وبين متبرم منها متململ يتمنى زوالها، وذلك لما طالت بهم مدة النعمة فبطروا
وملوا وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعد كان ما نجلبه
منها أشهى وأعلى.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٨٨.

(٢) يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٨٢ والنشر في القراءات العشر ٢ / ٣٥٠، والجامع لأحكام
القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٥٦.

فسموا طيب العيش وملوا العافية، وطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان السلوى والعسل، وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيهِ وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتناولوا فيها على الفقراء.

قال الشوكاني: « وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى: أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء، والشجر، والأمن: المفاوز، والقفار، والبراري المتباعدة الأقطار، فأجابهم الله إلى ذلك، وخرّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بها فيها من الخير، والماء، والشجر. ^(١) »

﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتمللهم وتعنتهم.

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم

الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلمهم بعد عزهم.

﴿ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي فرقناهم حتى صار تفريقهم مثلاً سائر لكل فرقة ليس بعدها

وصال فقالوا، تفرقوا أيادي سبأ، وذهبوا أيادي سبأ، يؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعَلَةَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سَبَأٍ مَا هُوَ أَرْجُلٌ أَمْ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: (بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةَ فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَبِالشَّامِ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةٌ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْهَارٌ وَحَمِيرٌ عَرَبًا كُلَّهَا، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَحْمٌ وَجُدَامٌ وَعَامِلَةٌ وَعَسَّانٌ). ^(٢) »

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢٢.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١/٣١٦) وإسناده حسن.

ضحايا إبليس !

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١].

تأتي هذه الآية الكريمة تعقيماً على قصة سبأ واستخلاصاً لبعض دلائلها وعبرها، فتبين قيمة الإيمان باليوم الآخر وأثره في وقاية الإنسان من مكائد الشيطان وعصمته من فتنته، وكيف وقع قوم سبأ في مصائد الشيطان فصدق عليهم ظنه لما عرضوا عن شكر النعم ونسوا المنعم بل وجحدوا النعم، وأخذوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والممذات، فوقعوا في حبال الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قوله كما أخبر رب العزة ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَفْعَدَنَّ لَكَ مِمَّنْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هٰذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَىٰ لَيْنٍ أَخْرَجْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيْلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿ فَاتَّبَعُوهُ ﴾: تركوا له الذمام وأذعنوا له وساروا في ركابه.

﴿ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾: ممن عصمهم الله من وساوسه ونجّاهم من إغوائه.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطٰنٍ ﴾: ما كان له أن يصل إلى بني آدم، لولا أن الله تعالى قدر ذلك فتنة وابتلاء للناس، فلم يقهرهم إبليس على الكفر وإنما كان منه الدعاء والتزيين والسلطان: القوة وقيل الحجة أي لم تكن له حجة بينها لهم، ولا برهان يقيمه عليهم، وإنما اتبعوه بأهوائهم الجاحمة، وتقليدهم الأعمى، لا عن حجة ودليل.

﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ ﴾ «أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحاً، يثبت عند الامتحان والاختبار وإلقاء الشبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده،

فالله تعالى جعله امتحانا، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب»^(١).

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: يحفظ العباد، ويحصى عليهم أعمالهم، فيجازيهم بها.

الهدايات المستنبطة

- * الجزء الدنيوي تمهيدٌ وبرهانٌ ودليلٌ وعنوانٌ على الجزء الأخروي.
 - * سبقت قصة سبأ لتكون عبرةً وعظةً وحجةً على كفار قريش الذين أنكروا البعث وكذبوا بالنبي ﷺ وأعرضوا عما بين أيديهم وما خلفهم من الآيات.
 - * أقبل قوم سبأ على المائدة الربانية ولكنهم تغافلوا عن شكرها، فقابلوا النعم بالجحود والنكران، والآيات والعبر بالغفلة والنسيان، فكان جزاؤهم الشقاء والحرمان.
 - * دلّ قوله تعالى: ﴿وَهَلْ يُجْرِي إِلَّا الْكَفُورُ﴾: على عدله سبحانه في حكمه وستته في مجازاة كل كفور، ومن هنا تتجلى حكمة البعث لإقامة موازين القسطِ وردِّ الحقوق لأصحابها والانتصاف للمظلومين.
 - * في قصة سبأ درسٌ للأمم الأمانة المطمئنة أن تعبد الله وتشكره على نعمه وتوظفها في طاعة الله تعالى.
 - * كم من أناس تحولت نعمتهم إلى نقمة وعذاب؛ بكفرهم وفسادهم، وكم من أمة شقيت من حيث ترتجي وتأمل وقد قيل:
- إذا كنتَ في نعمةٍ فارعها فإن المعاصي تزيلُ النعم
وداومَ عليها بشُكْرِ الإلهِ فشكْرُ الإلهِ يُزيلُ النِّقَم
- * اقترن ذكر «الصبار الشكور» بهذه الصيغة الدالة على المبالغة في أربعة مواضع هي:
- ١ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ

(١) تفسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٦٧٧.

إِلَى السُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِهِمْ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
[إبراهيم: ٥].

٢ - وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً نَبِيًّا فَصَالُوا مِنْهُ ذِكْرًا وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [لقمان: ٣١].

٣ - وقوله تعالى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٩].

٤ - وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٣].

ذلك أنه حين تمتزج مرارة الصبر بحلاوة الشكر مع حرارة الإيمان: تتفتق عن بصيرة نافذة وفكر ثاقب وعقل مستنير وقلب حاضر يستنبط الدروس ويستوعب العبر، ويستجلي الآيات ويستنطق الآثار.

* ذاك هو حال المؤمن بين الصبر والشكر، فأمره كله خير وحياته كلها ثمر: كما في الصحيح عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" (١).

* كلُّ من ضلَّ وغوى فقد صدق فيه ظنُّ إبليس حين أقسم بعزته تعالى أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين كما أخبر رب العزة ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا آغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [إلا عبادة منكم

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير. ٦٤ وابن حبان في صحيحه ١٥٥ / ٧ حديث ٢٨٩٦، وهو على شرط مسلم والبيهقي في شعب الإيمان ٤ / ١١٦ حديث ٤٤٨٧.

الْمُخَلَّصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٠].

* فتنة إبليس ابتلاءً وامتحاناً للناس ليتين المؤمن الصادق من الكافر المرتاب، فثبت المؤمن ويعصمه الله، ويقع المرتاب في حبال الشيطان، وبقدر إيمان العبد بالله ويقينه باليوم الآخر بقدر ثباته أمام هذه الفتنة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ﴿٤١﴾.

- ٤ -

حوار مع المشركين

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَىٰ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَابَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْتَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

[سبأ: ٢٢ - ٢٨]

المناسبة

هذه جولات حوارية مع المشركين لتقرير القضية الأساسية في هذه السورة، قضية البعث والجزاء، بعد قيام الحجة عليهم بقصة داود وسليمان عليهما السلام، ثم بقصة سبأ وتحذيرهم من اتباع الشيطان.

وفي هذه الآيات تقرير لوحيدانية الله تعالى وبيان لعظمة سلطانه، وإشعاراً بهيبته تعالى

وجلاله، ودحضُ لمزاعم أهل الشرك، وتمهيدٌ للحديث عن مشاهد القيامة.

الملكُ والأمرُ لله وحده

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾: بعد ذكر هذه القصة وما انطوت عليه من دلائل وعبر أمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين احتجاجاً عليهم وتبكيئاً لهم وتهكماً بهم: ادعوا آلهتكم التي زعمتم، فهل يملكون في هذا الكون مثقال ذرة؟ أم لهم شرك في السماوات والأرض؟ أم الله تعالى في حاجة إليهم فيستعين بهم؟

فإذا لم يصحَّ شيء من ذلك فلم توجهون لهم الدعاء وتلتمسون منهم الرجاء؟

قال القرطبي: « هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتي، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرةٌ على شيء من ذلك؟ وهذا خطاب توبيخ وفيه إضمار: أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم فإنهم لا يملكون ذلك»^(١).

﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ ﴾: والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء، ولا بغيرهم؛ فما هو في حاجة إلى معين.

﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾: حتى الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله؛ وترغم لهم شفاععة عند الله، لا يملكون من الأمر شيئاً.

الشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله لمن ارتضاه.

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٦٠.

الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَىٰ لَهُ﴾: فالشفاعة مرهونة بإذن الله، والله لا يأذن في الشفاعة في غير المؤمنين به المستحقين لرحمته، فأما المشركون به فليسوا أهلاً لأن يأذن بالشفاعة فيهم، أما الأصنام التي عبدوها فأنى لها أن تشفع وهي لا تضر ولا تنفع، والشفاعة لا تكون إلا لمن ارتضاه الله وأذن له من الملائكة المقربين والنبیین والصدیقین.

« ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص وعن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها في الجملة فلأن يجرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى»^(١).

والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة وغيرهم، إلا أن الله سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء، ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ حَسْبَتِيءِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سرى عنهم ﴿قَالُوا﴾ للملائكة فوقهم، وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: ماذا أمر به؟ فيقولون لهم: قال: القول ﴿الْحَقُّ﴾ وهو: قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ استشعاراً وتعبيراً عن هيئته وإجلاله، فله سبحانه أن يحكم في عبادته بما يشاء، ويفعل ما يريد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: إنه مشهد في ذاك اليوم العصيب، يوم يقف الناس، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يأذن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام، ويطول الانتظار، ويطول التوقع، وتعنو الوجوه، وتسكن الأصوات، وتحشع القلوب في انتظار الإذن من ذي الجلال والإكرام، ثم تصدر الكلمة الجليلة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٩٧.

الرهية، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ «وكشف الفزع الذي أصابهم، وأفاقوا من الروعة التي غمرتهم فأذهلتهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يقولها بعضهم لبعض، لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى، ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾.. ولعلمهم الملائكة المقربون هم الذين يجيئون بهذه الكلمة المجملة الجامعة: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾.. قال ربكم: الحق... ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.. وصف في المقام الذي يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب..

وهذه الإجابة المجملة تشي بالروعة الغامرة، التي لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة!

فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب، وهذه صورة الملائكة فيه بين يدي ربهم، فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله، شفعاء في من يشرك بالله؟!». (١)

وقيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم: المشفوع لهم، والذين أجابوهم: هم: الشفعاء من الملائكة، والأنبياء. (٢).

وهذا المشهد المهيب: مشهد الملائكة وهم في غاية الهيبة والإجلال لربهم، خاشعين مذعنين لأمره تعالى مشهد متكرر في الدنيا، كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسَّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾... الحديث. (٣)

الرزق والهداية من الله

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٠٤ بتصرف.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٦ / ٥١٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرْقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ الحجر: ١٨.

صَلَلِي مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ [سبأ: ٢٤].

هذه الآية تقريرٌ لما سبق ذكره من بيان عجز آلهتهم عن الخلق والرزق ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم يعلمون أن الخالق الرازق هو الله، فلماذا يلجئون إلى الأصنام وهي لا تملك لهم رزقا؟

وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَآ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَهًا لَّهُ يُرْجِعُوكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالذي يُنزلُ عليكم الخيرات ويمنحكم البركات من السموات هو الله وحده، والذي ينبت لكم الأرض ويخرج خيراتها وكنوزها هو الله تعالى، ومن ثمَّ فهو وحده المستحقُّ للعبادة أما الأصنام فإنها لا تملك في هذا الكون مثقال ذرة.

﴿قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

وهذه غاية النُصفة والاعتدال والأدب في الجدل، أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال، ليشير دوافع التدبر ونوازع التفكير في رفقٍ ولطفٍ بعيدا عن أجواء التعصب والهوى والاستعلاء.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فلا رازق سواه ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ﴾ فالحق لا يتعدد، إما هدى وإما ضلال. وبعد هذا البيان الساطع والبرهان القاطع تبيين لمن له أدنى نظر من المحق ومن المبطل «وإيثار (على) في صاحب الهدى و(في) في مقابله: للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكينه وإطلاعه على ما يريد، كالواقف على مكان عالٍ أو الراكب على جواد، وانغماس الضال في ضلاله، حتى كأنه في مهواة مظلمة»^(١).

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢٣/١٤.

﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥]

هذا أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦]

أمرهم على سبيل التعجب من حالهم وتبكيتهم وإثبات عجزهم وضلالهم.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ أَحَقَّتْ بِهِمْ شُرَكَاءُ كَلَّابٌ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٧]

« وأريد بأمرهم ياراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷻ إظهار خطئهم وإطلاعهم على بطلان رأيهم، أي أرونيها لأنظر أي صفة فيها اقتضت إلحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة، وفيه مزيد تبكيتهم بعد إلزامهم الحجة...»^(١).

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم، فأمر رسوله أن يبلغهم قوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢) يوم القيامة وجهاً لوجه، ثم يحكم بيننا بالقول الفصل والحكم العادل، وهو سبحانه الفتاح: يفتح بين عباده بالحق، العليم بصالحهم وطالحهم لا يخفى عليه منهم شيء.

ومن عرف أنه تعالى هو العالم بكل شيء، راقبه في كل شيء وفوض إليه كل أمر.

عموم الرسالة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣)

هذه الآية بمثابة الختام لما قبلها والتمهيد لما بعدها، إذ بعد أن أقام سبحانه الأدلة على

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن - للسيد محمد صديق خان الهندي ٧ / ٤٥٢.

البعث، وضرب لذلك الأمثال، وأورد من الآياتِ والعبرِ ما يقرر صدق النبي ﷺ في ما أخبر عنه، من ذلك قصة داود وسليمان وقصة سبأ، وفي إيرادها دليلٌ على صدقِ رسالته ﷺ، شرع في ذكر الرسالة ويبيِّن أنها عامةٌ للناس جميعاً، وأن من سياتها البارزة البشارة والندارة، فكانت هذه الآية بالنسبة لما سبقها كالنتيجة لهذه المقدمات، كما أنها تمهيدٌ للحديث عن مشاهد يوم القيامة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ وما أرسلناك إلى قومك خاصة بل

لنناس عامة، مبشراً من أطاع بجزيل الثواب، ومنذراً من عصى بأليم العقاب.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: لا يعلمون حقيقة الرسالة ومهمة الرسول،

فيحملهم جهلهم إلى الصدود والإعراض والتكذيب والاستبعاد ويدفعهم إلى سوء الأدب مع الرسل عليهم السلام، فتراهم يتناولون على الأنبياء ويوسعونهم افتراءً، ويطالبونهم بمقترحات تنمُّ عن تعنتهم وعنادهم.

الهدايات المستنبطة

* الخالق الرازق والمالك المصرف هو الله تعالى ولا شفيع إلا بإذنه ورضاه، ولا شفاعة إلا لمن ارتضاه.

* قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ درسٌ في آداب الجدل والمناظرة، يدل على غاية الإنصاف والموضوعية، والتجرد للحقِّ وابتغائه في رفقٍ ولطفٍ بعيداً عن أجواء التعصب والهوى، والجدل على هذا النحو المهذب الموحى أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين، وأجدربأن يثير التدبر الهادئ والافتناع العميق، وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة.

* قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبأ: ٢٥].

دليلٌ على الرفق بالمخالف والتلطف معه في الخطاب وترغيبه وكسب وُدّه وعاطفته؛ حتى يقبل على الحقِّ ويدعن له فلا يكابر ولا ينفر من أهل الحق.

* الجهل بحقيقة الرسالة ومهمة الرسل، من دواعي الصدود والإعراض والتكذيب والاستبعاد والتجني على الأنبياء، ومطالبتهم بمقترحات تنم عن تعنتهم وعنادهم، من هنا كان الحديث عن الرسول والرسالة من محاور القرآن الرئيسة.

- ٥ -

من مشاهد القيامة

حوارات صريحة

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَفْهِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لَمَنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ كٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المناسبة

* صلة هذه الآيات بمحور السورة الكريمة واضحة جلية حيث تنتقل بنا إلى مشاهد القيامة وحال الكفار في هذا اليوم لتخاطب وجدانهم وتثير مشاعرهم وتنقلهم إلى أجواء هذا اليوم.

* وصلتها بالآية السابقة واضحة حيث إنها تتصل بمهمة الرسول ﷺ وهي البشارة والندارة حيث أنكر الكفار ما أُنذروا به واستعجلوه استبعادا له وتهكما به.

التفسير الإجمالي

وعد الله آتٍ.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

من سوء أدب الكفار وفرط جهلهم وشدة تعنتهم ولجاجهم: سؤال استبعاد وإنكار عن وقت مجيء هذا الوعد الحق فيقولون: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؟

ولكن: أي تلازم بين معرفة ساعة هذا الوعد الحق، وبين التصديق بها حتى يربطوا هذه بتلك؟ أليس هذا دليل على جهلهم وسفهمهم؟

وتأتي الإجابة الحاسمة: ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: فالذي قدره وحدده هو الله عز وجل، وإذا حلَّ بكم فلا مفرَّ منه ولا سبيل إلى تأخيره وتأجيله كما لا يمكن تقديمه.

عاقبة التكذيب

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ إنه منطق الكفر الذي تأصل فيه وتغلغل في أعماقهم، فاندفعوا إلى التكذيب الذي لا مبرر له إلا سحائب الجحود المعتمة، وحُجُب الإنكار الكثيفة التي ظللتهم وجللتهم، فلا تنجلي عنهم ولا تنقشع إلا بالمواجهة الواقعية والمعاينة الحسية.

مراجعات

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ دعوا السؤال عن وقت الساعة، فإنها آتية لا محالة، وتأملوا في هذا المصير الذي ينتظركم إن متم على ظلمكم وإعراضكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾

حوارات صريحة وحقيقية بين الأتباع والتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، حوارات حقيقية لا يتبادلون فيها المجاملات والابتسامات، بل يتراشقون الملامة والعتاب، حوارات واقعية لا شكلية تدور حول المصير المحتوم.

يبدأ المستضعفون بالكلام الصريح بعد أن سقط ذلك الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين، وتلاشت تلك الهيبة التي كانت تمنع المستضعفين من مراجعة الكبراء فكلهم في المذلة والهوان سواء.

لكن الحوار يبدأ هذه المرة من جانب المستضعفين بعد أن كانت الصدارة في الدنيا للكبراء والوجهاء، يتراشقون التُّهم ويتبادلون اللوم والعتاب ويسعى كل فريق إلى التنصُّل والانفلات، والنجاة، والتعلُّل والتبرير ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾: أنتم تتحملون مسئوليتنا، فقد كنا لكم تبعاً، وكنا رهن إشارتكم، وعشنا تحت أقدامكم، وكنا عوناً لكم لتحقيق مآربكم، وجنوداً لضمان سلامتكم!

وهنا يتملص التبوعون من الأتباع بل ويرمونهم بتهمة الإجرام لينسلوا منها، ويتساءلون بكل سهاجة وصفاقة ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴾ (٣٢) بعد أن كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يسمعون لهم، ولا يباليون بهم، ولا يعتدُّون بوجودهم، ولا يحفلون بأرائهم، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا يأذنون لهم بمناقشة! فهم اليوم يسمعون منهم ويحييون عليهم في حوار واقعي صريح، يقولون للمستضعفين: بل اخترتم طريق الإجرام بإرادتكم وتسابقتم إلى التزلف منا وبالغتم في الخنوع لنا، وتفنتتم وأخلصتم في خدمتنا، من أجل مصالحكم العارضة ومآربكم الحفيرة، فلا تلوّمونا ولوّموا أنفسكم.

﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴾: فقد جاءكم الهدى فما

الذي صرفكم عنه أيها المجرمون؟ هل أرغمناكم على اتباعنا؟ أم أنه الإجرام يسري في دمائكم والتبعية تحملكم على الانصياع لنا ومما لأتنا.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

أجابوهم بكل ما لديهم من لوعة وأسى وحسرة وحُرقةٍ وبكل ما يضمرونه من حنق وغيظ: ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ أنسيتم عملكم الدائب وكيدكم المتواصل وتأمركم الخبيث على الحق وأهله وصدكم الدائم وأوامركم الصريحة ودعواتكم المتواصلة إلى الكفر البواح؟ واتخاذ الأنداد؟

﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ لما تبين لهم ضلالهم وتحققت خسارتهم، تمنوا لو سلكوا طريق الحق، وأسروا بالندامة خشية الفضيحة، وهنا نلاحظ أنهم في بعض مواقف القيامة يجاهرون بالحسرة والندم، وفي بعضها يتهامسون ويتخافتون ويضمرون ويسرون.

﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ ﴾ إذلالاً لهم وتضييقاً عليهم ونكالاً بهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كما كانوا عبيداً للشهوات أسارى للأهواء استحقوا المذلة والمهانة والقيود والحبس، فالجزء من جنس العمل.

قال صاحب الظلال: « ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين. وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان؛ وإدراك الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان.. وكلهم في العذاب سواء، لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص، شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض، وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم، وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء!«^(١).

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٠.

الهدايا المستنبطة

- * في تذكّر المؤمن أمور الآخرة ومواقف القيامة واستحضار مشاهدتها ما يسليّ الفؤاد ويثبت القلب، ويزيده يقيناً بوعد الله وإجلالاً وهيبَةً بعظمة مقام الله عما يهون عليه كلّ بلاءٍ.
- * ضرورة تذكير الكافر ومواجهته بمصيره الذي ينتظره إن بقي على كفره.
- * يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ عنيفةً وحواراتٍ صريحةً بين الأتباع والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، يتبادلون فيها اللوم والعتاب، ويتراشقون التُّهم ويسعى كلُّ فريق إلى النجاة على حساب الآخر.
- * ينكشف لكلِّ فريق حقيقة الآخر وتفضح النوايا ويظهر المستور، وتهاوى العلاقة الهشّة والمودة الزائفة، ويظهر الحقد الدفين.
- * يشهد يوم القيامة مواقف الكفار المتباينة والتي تنمُّ عن حيرةٍ واضطراب فتارةً يجاهرون بالحسرة والندم، وتارةً يتهامسون ويتخافتون، ويضمرون ويسرون وتارةً يجحدون وينكرون وتارةً يقرون ويعترفون!

-٦-

الترف والمترفون

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِنَّ رِجِيَّ بِيَسْطَ الرِّزْقِ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْضَرُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ إِنَّ رِجِيَّ بِيَسْطَ الرِّزْقِ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سبأ: ٣٢ - ٣٩

المناسبة

يخبر تعالى عن أحوال الأمم الماضية المكذبة للرسول، أنها كحال هؤلاء المكذبين، وأن الترف من أسباب الصدود والاستكبار عن الحق، وأنه سبحانه ما أرسل رسولا في قرية من القرى، إلا كفر به مترفوها، وأبطرهم نعمتهم وفخروا بها، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت له وبيان لما للترف من آثار سلبية، من أخطرها أنه سبب للصدود عن الحق وإنكار البعث والجزاء مع جلاء الآيات والبراهين.

التفسير الإجمالي

المال ليس قيمة في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلا على قربه من الخالق الرازق عز وجل، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة بل الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب فعادة المترفين في كل العصور: الركون إلى الدنيا وملذاتها والصدود عن الحق وإعلان الحرب على أهله، والاعتزاز بالأمان الكاذبة والظنون المبنية على الوهم والخيال، والاعتزاز بالمال والولد والتفاخر بذلك.

وهم مع الرفاهية التي يعيشونها والنعم التي يرفلون في أثوابها جفاة المشاعر غلاظ

القلوب.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

﴿ ٣٢ ﴾

سارعوا إلى الكفر وأعلنوا الحرب على دعاة الحق واستبعدوا العذاب متعللين بكثرة المال والولد.

وخصّ المترفين بالذكر لأنهم غالباً أول المكذبين للرسول عليهم السلام لما انشغلوا به من زخارف الدنيا وبهاجها، فهم منهمكون في شهواتها مستغرقون في ملذاتها قد انقلبت موازينهم واختلطت مفاهيمهم فتراهم يستهينون بالفقراء، ويزدرونهم وينفرون منهم، فكيف بدعوة تجمعهم ورسالة توحدهم وعقيدة تؤاخيهم!

أما الفقراء فهم غالباً أصفياء القلوب أنقياء السرائر قد خلت قلوبهم من حب الدنيا خلواً جيوبهم وفراغ بيوتهم من متاعها وأعراضها، ليس عندهم ما يخافون عليه إن اتبعوا دعوة الحق بل إنها طريقهم إلى الخير والسعادة التي يملكون بها؛ ولذلك تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام كما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان وفيه «... وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعْفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرَّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيْمَانِ حَتَّى يَتِمَّ...»^(١).

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ ﴿ ٣٥ ﴾

وهم كاذب وسراب خادع، ذاك الذي يتعلقون بأهدابه الواهية، أیظنون أن كثرة الأموال والأولاد سبب للنجاة والرضوان! أي منطق هذا! وأي ميزان!

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾

الرزق وتضييقه دليلاً على ما زعمتم؛ فالرزق بتقدير وتدبير من الله عز وجل إن شاء بسطه

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي حديث ٦.

وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتدني منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً، وجعل المال والولد وسيلة لرضا الله تعالى، فأولئك لهم جزاء مضاعف بإيمانهم وصلاتهم وقيامهم بحقوق المال والولد.

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ إنما الذي يتزلف به العبد إلى مولاه هو ما قدمه من إيمان خالص وعمل صالح؛ يرتقي به إلى أعلى مقامات القرب ودرجات الرضوان في أعالي الجنان ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾: أي في أعالي القصور منعمون آمنون في الغرفات الهائلة الوثيرة، يُسعى إليهم بما يشتهون، ﴿ ءَامِنُونَ ﴾ من كل آفة فلا موت ولا حرمان ولا أسقام ولا أحزان، بل بهجة وسرور وكرامة وأمان.

﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أما أولئك الذين يسعون في آيات الله، لا لتدبرها والانتفاع بها بل للتكذيب بها وتعجيز من آمن بها ودعا إليها يحسبون أنهم يفوتونها بأنفسهم ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي في جهنم، تحضرهم الزبانية فيها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٦].

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ تقرير لهذا المعنى وتمهيد للدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾: ما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة في أي باب من أبواب الخير فإن الله تعالى يخلف على المنفق، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴾ فاطلبوا الرزق منه والتمسوا أسبابه وأنفقوا ينفق عليكم، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

الهدايا المستنبطة

- * المال ليس قيمة في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلاً على قربه من الخالق الرازق عز وجل، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة.
- * الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب.
- * من أحوال المترفين: الركون إلى الدنيا وملذاتها والصدود عن الحق، والاعتزاز بالأمانى الكاذبة، والاعتزاز بالمال والولد.
- * الرزق بتقدير وتدبير من الله عز وجل إن شاء بسطه وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتدني منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً وجعل المال والولد وسيلة لرضا الله تعالى.
- * الحث على البذل والإنفاق قال تعالى ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ)، وَقَالَ: (يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وَقَالَ (أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانَ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ)^(١).
- * وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا)^(٢).

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير - باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾. [هود ٧] - حديث ٤٤٠٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة. باب: قول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْمَسْكِينِ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْمَسْكِينِ (١٠) [الليل: ٥ - ١٠].

-٧-

عود إلى مشاهد القيامة

مواجهة حاسمة... وعاقبة الظالمين

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ
وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِيَوْمَ لَا يَمْرُكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا
وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤٢]

المناسبة

يعود بنا السياق للحديث عن مشاهد يوم القيامة فيوقفنا أمام موقف مهيب ومواجهة صريحة مباشرة بين المشركين والملائكة الذين يتبرؤون من الشرك وينزهون الله تعالى عن ذلك، ويشهدون على ضلال المشركين واتباعهم لشياطين الجن.

التفسير الإجمالي

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يحشر الله تعالى المشركين ومن أشركوهم معه تعالى في مواجهة فاصلة ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَ ﴾ في هذا المشهد المهيب والموقف العصيب مواجهة حاسمة بين الملائكة ومن عبدوهم، وهذا الاستفهام يتضمن توبيخاً وإنكاراً على المشركين، ومواجهة لهم بمن عبدوهم من دون الله.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

تنزيه وتقديس لله تعالى مع تعجب وتبرؤ من صنيع المشركين، إذ كيف يعبدوننا وأنت مالكننا ومدبر أمورنا! ونحن ما دعوناهم لعبادتنا، بل فعلوا ذلك استجابة وطاعةً لشياطين الجن الذين وسوسوا وزينوا لهم ذلك. (١)

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٧١ .

وهنا يلتفت الخطاب إلى هذا الحشد العظيم ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ خاب رجاؤكم وانقطع أملكم وضل سعيكم، فلا يملك بعضكم لبعض نفعاً وضرراً؛ إذ كانوا يعبدون الجن رغبة ورهبة، وكان الجن يستمتعون بعبادة المشركين لهم كما قال سبحانه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]

﴿وَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أمر لا سبيل إلى التفلت منه، أمرٌ يحمل معنى الإهانة والتوبيخ، وسهام التقرع، كما قال سبحانه ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَأَصْبُرُوا أَوْ لَا تَصْبُرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٣-١٦]

الهدايا المستنبطة

- * يشهد يوم القيامة مواجهاً حاسمةً ومساجلاتٍ مباشرة بين الأتباع والمتبعين وبين المشركين ومن أشركوهم مع الله.
- * تقديس الملائكة ربهم وتنزيهه عن شرك المشركين، ويبرؤون ممن عبدوهم من دون الله.
- * لا تبقى للمشركين حجة يتعللون بها بل يستيقنون من ضلالهم ويعانون العذاب الذي طالما استبعدوه وكذبوا به.

-٨-

عود إلى حال المشركين في الدنيا

﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَدِبِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣-٤٥]

المناسبة

بعد التذكير بهذا المشهد المهيب والموقف العصيب بين يدي علام الغيوب، تذكر هذه الآيات بسجل المشركين الحافل بالصفحات المظلمة والجرائم المنكرة، فتبين ما كانوا عليه في الدنيا من تكذيب وإعراض وجحود وعناد وصدود وافتراء، وعداءٍ لدعوة الحق التي جاءتهم وتشكيك في الكتاب الذي جاءهم.

وكان الأولى بهم أن يقبلوا على هذه الدعوة ويناصروها ويؤازروها فهي شرف لهم، كان عليهم أن يعتبروا ممن سبقهم على طريق الضلال من الأمم الغابرة الذين ما أغنى عنهم ما حازوه من الخيرات وما بلغوه من التمكين؟ فأين هم منهم؟ ولم يبلغوا معشار ما بلغوا!

التفسير الإجمالي

﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَدِبِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾
أعرضوا عن آيات الله تعالى مع جلائها، وافتروا على الله الكذب، ونالوا من نبيه ﷺ وكذبوا بوعيده، واختلقوا الأباطيل، ورفعوا شعار التقليد الأعمى لما كان عليه الآباء والأجداد، ليصدوا الناس عن دعوة الحق.

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ فكان أخرى

بهم أن يقبلوا على هذا الكتاب وأن يتمسكوا به ويتشبثوا بهذا النذير الذي جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، بدلاً من التكذيب والافتراء الذي لا أصل له.

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾ من الأمم السالفة والقرون الغابرة، فما بلغ كفار قريش من الرفاهية والترف معشار ما بلغت تلك الأمم التي آتاها الله نعماً وفيرة ومكّن لهم ما لم يمكن لغيرهم، فما أغنت عنهم النعم حين كذبوا رسل الله ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر كيف كان عذابي لهم وإنكاري عليهم.

الهدايات المستنبطة

- * إعراض المشركين عن آيات الله وصدودهم عنها، واختلاقهم الأكاذيب المتناقضة ونسجهم الافتراءات المتضاربة للصد عنها.
- * كان الأولى بكفار قريش أن يقبلوا على هذه الدعوة ويناصروها ويؤازروها فهي لهم شرف وذخرٌ، ومجدٌ وذكورٌ، كما كان عليهم أن يعتبروا ممن سبقهم على طريق الضلال من الأمم الغابرة الذين ما أغنى عنهم ما حازوه من الخيرات وما بلغوه من التمكين.
- * تمكين الله لكثيرٍ من الأمم السابقة لم يغن عنهم شيئاً حين كذبوا وأعرضوا.

خاتمة السورة

دعوة للتفكير والنظر

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يَعْبُدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنْتَ لَهُمْ تَتَنَاوَشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

[سبأ: ٤٦ - ٥٤]

المناسبة

بعدما أقام عليهم من حجج، وحذرهم من سوء العاقبة، دعاهم إلى التجرد للحق والصدق في طلبه، والتخلي عن الأهواء والمطامع التي تحول دون التفكير الصحيح والنظر الثاقب والقرار الصائب في أمر هذه الدعوة، وأحوال إمامها، والنظر في مصيرهم المحتوم ومراجعة حالهم قبل فوات الأوان.

التفسير الإجمالي

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ﴾ أقدم لكم هذه الموعظة البليغة، وأدعوكم إلى هذه النظرة العميقة التي إن فعلتموها أصبتم ووفقتم: أن تقوموا لله تعالى بإخلاص وتجرد، فتستمروا عن ساعد الجد، وليحاور كل واحد صاحبه الذي يثق في صدقه ونصحه، ويعرض كل واحد محمول فكره على صاحبه، وينظران معا نظر الصدق والإنصاف أو يراجع كل فرد نفسه فيتفكر ويتأمل بعدلٍ ونُصفَةٍ ويعزم عزمًا خالصًا على ابتغاء الحق، فإن

من سنن الله تعالى الثابتة أن من ينشد الحق بعزمٍ وصدقٍ يوفقُ إليه.

قال الإمام النسفي: « ومعنى تفرقهم مثني وفرادى أن الاجتماع مما يشوشُ الخواطر ويُعمي البصائر ويمنع من الروية ويقلُّ الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويشور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محمول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله». (١)

﴿ ثُمَّ نَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾: ثم تفكروا فيما بينكم في أمر صاحبكم، هل صحيح ما تدعونهُ وتصمونه به من جنون؟ أليس للجنون أعراض؟ فهل ظهر عليه شيء منها؟ أم هل جربتم عليه كذباً؟ أليس تدعون بالصادق الأمين؟ أستم تشهدون له برجاحة العقل؟ ورحابة الفكر؟

قال القرطبي: «... ثم تفكروا هل جربتم على صاحبكم كذباً أو رأيتم فيه جنة أو في أحواله من فساد أو اختلف إلى أحد ممن يدعي العلم بالسحر أو تعلم الأفاصيص وقرأ الكتب أو عرفتموه بالطمع في أموالكم أو تقدرتون على معارضته في سورة واحدة؟ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقهُ فما بال هذه المعاندة!». (٢)

« وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأذكاهم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملاً وأجمعهم للكمالات البشرية، وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزاتٌ تحرُّ لها صمُّ الجبال، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبكم للإيماء إلى أن حاله ﷺ مشهورٌ بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا» (٣)، وفي هذا تعريضٌ بتجاهلهم وتنكيرهم له.

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٣٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٧٢.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٣٣٠.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: إن هذه هي الحقيقة وهي النتيجة التي تصل إليها العقول السليمة بعد تجريد الفكر وإمعان النظر.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً في مقابل دعوتي إليكم فخذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم! وهو أسلوب فيه تهكم، وفيه توجيه، وفيه تنبيه.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فهو وحده رجائي ووجهتي، وهو الذي كلفني، وهو الذي يبينني، فلا أرتقب إلا ثوابه، ولا أبتغي إلا رضاه.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم بجميع الأمور شاهدٌ عليها.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَماً الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) أي يلقيه إلى أنبيائه ويهدي إليه كل من ينشده ويتحراه، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].

وأفاد التعبير بقوله ﴿يَقْذِفُ﴾ سرعة وصول الحق، وسرعة التحول من الكفر إلى الإيمان فالهداية تأتي في لحظة واحدة، فإذا القلب وقد تلقفها، وإذا النفس في طَرْبٍ وفرحة لا توصف ففدائف الحق دوماً صائبة لا تسري إلا للقلوب التي تتلهف عليها وتتشوق إليها، والعقول التي تبحث عنها.

﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء مهما صغر ودقَّ.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيَنَّ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) بعدما قدمته السورة من حجج وبراهين جاء الحق ولاحت أعلامه، وتجلت حججه وقامت دلائله، أما الباطل فقد تمزقت حجبه وتلاشت شبهاته، وتبددت ظلماته وانقضت غيومه وانطفأ بريقه، فلم تعد له صولة ولا جولة فهو زاهق، أما الحق فإنه ظاهرٌ.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

فالوحي هو طريق الهداية، فلا هداية إلا من هذا الطريق مهما كانت سعة الإدراك وصفاء الذهن ونقاء الفطرة، فالهداية منحة وتوفيق من الله تعالى.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرَعَوْنَ فَلَاقَتْ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ لو ترى هذا الموقف حين

يروعهم الفرع ويغشاهم الهول ويستبد بهم الرعب ويحاط بهم من كل جهة، وفي كل مرحلة عند الموت وعند دخول القبر، وسؤال الملكين، وعند يوم الفرع الأكبر، أهوال عظام ترتبص بهم.

﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من حيث كانوا فمهما شرّقوا أو غرّبوا فهم من الله قريب.

قال الألويسي: ﴿ فَلَا قَوْلَ ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو نحوه عما يريد سبحانه

بهم ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الموقف إلى النار أو من ظهر الأرض إلى بطنها أو من صحراء بدر إلى القلب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل^(١).

﴿ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ قالوها بعد انقضاء الزمان

وفوات الأوان وانطواء الصحف، وأنى لهم ذلك وقد انقضت الدنيا فلا مرد إليها، فلا يُسمع لهم دعاء، ولا يُرحم لهم بكاء، كما قيل:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ

فليس لأيام الصفاء رجوع

وقيل:

وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَمَىٰ بِرَوَاجِعِ

إِلَيْكَ، وَلَكِنْ حَلَّ عَيْنِكَ تَدَمَعًا^(٢)

والتناوش التناول، والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بُعد! يعني: في الآخرة،

وقد تركوه في الدنيا، وهو معنى ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾: وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد

(١) روح المعاني للألويسي ١٦ / ٣٣٥.

(٢) البيت: للصمة بن عبد الله القشيري.

ما فات عنهم، وقيل: التناوش الرجعة، أي: وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تـؤوبَ إليَّ مـيِّ
وليس إلى تناوشها سبيل^(١)

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) ﴿ أنى لهم أن يقبل إيمانهم وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشبه والأباطيل ورموه بالظنون والأوهام.

عَنْ قَتَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾، قَالَ: «يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُكْذِبُونَ بِالْآخِرَةِ، وَيَقُولُونَ: لَا بَعْثَ، وَلَا جَنَّةَ، وَلَا نَارَ.»^(٢)

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ (٥٤)

حيل بينهم وبين ما يشتهون من الأهل والعشيرة والجاه والسلطان والأولاد والخلان.

أو حيل بينهم وبين الإيمان فلا يقبل منهم. أو حيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وترفها، وحرمانهم من نعيم الجنة وملذاتها.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى التفكير والنظر في رَوِيَّةٍ وهدوءٍ، وإخلاصٍ وتجردٍ بهدف الوصول إلى الحقيقة والتسليم بها.

* تضمنت الآية الكريمة الأصول الثلاثة، فقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى التوحيد

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٢٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٦ / ٤٠٧، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ١٧٩ حديث ١٧٩١٠.

- وقوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر. ^(١)
- * الداعية يرتقب الأجر من الله تعالى على دعوته ويراقب الله تعالى في أداء هذه الرسالة الخالدة.
- * الهداية تأتي في لحظة واحدة، فإذا القلب وقد تلقفها، وإذا النفس في طرب ونشوة لا توصف، وقذائف الحق لا تسري إلا للقلوب التي تتلهف عليها وتتشوق إليها.
- * الباطل على مرّ الأيام لا يزيد إلا زهوفاً، والحق على مرّ الأيام لا يزداد إلا قوة وظهوراً.
- * طريق الهداية هو الوحي، فلا هداية إلا من هذا الطريق مهما كانت سعة الإدراك وصفاء الأذهان وجلاء الأفهام، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده
- * تذكر أحوال الآخرة ومواقفها العظيمة ومشاهدها المهيبه مما يسلي الدعاة ويخفف عنهم ويهون عليهم ما يواجهونه من مصاعب وعقبات.
- * بعد فوات الأوان يعترف الكفار ويقرون بالبعث! وأنى لهم أن يقبل إيمانهم وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشبه والأباطيل ورموا من أخبر عنه بالظنون والأوهام.
- * مجال بين الكافر وبين المتع والم لذات والجاه والسلطان والأهل والخلان.
- * الشك والارتياب في حقائق الدين يورث الحرمان كما ورد عن قتادة في قوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ﴾، قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالشَّكَّ وَالرَّيْبَةَ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكٍّ بُعِثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْهِ. ^(٢).

(١) أفاد هذا المعنى الإمام الرازي في تفسيره ٢٥ / ٢٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم - ١٠ / ٣١٦٩ حديث ١٧٩١٤.

سورة فاطر

بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة بسورة فاطر، حيث جاء في مطلعها قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر : ١] فسميت بهذا الاسم لاستفتاحها بهذه الصفة العظيمة الدالة على عجب قدرته تعالى وبديع صنعه.

كما سميت بسورة الملائكة لورود ذكر الملائكة الكرام عليهم السلام، في مطلعها بما يدل على عظمتهم وطاعتهم وجليل قدرهم ورفيع درجتهم عند ذي الجلال والإكرام، وعجب خلقهم الذي يتناسب مع مهامهم الجليلة ويبين عظمة الخالق وبديع صنعه، وفي هذا إشعارٌ بنعم الله تعالى على عباده وتفضله عليهم، فإن فطر السموات والأرض : ابتداءً وهما وإنشأؤهما وإبداعهما، وكذلك خلق الملائكة بهذه الهيئة حتى يتمكنوا من أداء مهامهم، حيث لا يتنزلون إلا بالحق ولا يُرسلون إلا بالخير.

ب. فضائل السورة :

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة ما يرغب في تلاوتها وبيِّن مزيَّتها :

* فَعَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِثْنُ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِثْنِ، وَفُضِّلَتْ بِالْمُقْصَلِ) (١).

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني.

* وروى أبو عبيد القاسم بسنده عن عامر بن عبد قيس قال : « أربع آيات من كتاب الله

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في تفسيرنا لسورة الأنعام.

إذا قرأتها ما أبالي ما أصبح عليه وما أمسي : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] ، وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَاكَ إِشْفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وقوله تعالى ﴿ لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنْهَأَ سَيِّجَعُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ مُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦]^(١).

ج. مكية السورة :

هذه السورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة.

قال القرطبي : « سورة فاطر مكية في قول الجميع »^(٢).

- * نزلت بما يشهد بعظمة الخالق جل وعلا وبديع صنعه وجليل إنعامه.
- * نزلت مقرررة لوحدانته تعالى ومفندة شبه أهل الشرك.
- * نزلت لتقرر الإيمان بالبعث بالأدلة والبراهين.
- * وكان نزولها تسليية وتسرية وتثبيتا لقلب النبي ﷺ.

د. عدد آيات السورة :

عدد آياتها : أربعون وست آيات في المدني الأخير والشامي، وأربعون وخمس في عدد الباقيين.

وكلمها : (٧٧٧) سبع مئة وسبع وسبعون كلمة.

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ٢ / ٥ حديث ٤٥٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٣١٨.

وحروفها : ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفاً^(١).

هـ. محور السورة :

حديث هذه السورة الكريمة حول تقرير العقيدة الإسلامية : حيث استفاضت في بيان أركان الإيمان : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأجابت عن الأسئلة الملحة التي تدور في الأذهان : كيف ؟ ولماذا خلقنا ؟ وما هو دورنا في هذا الوجود ؟ وما هو مصيرنا ؟ فتضمنت السورة حديثاً عن خلق الإنسان والغاية من وجوده ومصيره الذي ينتظره، كما تحدثت عن نظرة المؤمن للكون والحياة.

والمحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة : التذكير بنعم الله تعالى الجليلة، من ذلك نعمة فطر السموات والأرض ونعمة إرسال الملائكة بالخير، ونعمة الزيادة في الخلق ونعمة خلق الإنسان ونعمة الرزق ونعمة العناية والهداية، والإنذار والإعذار، ونعمة القرآن ونعمة الفوز بالجنان، والنجاة من النيران، ونعمة الاستخلاف في الأرض، وحرية الاختيار، ونعمة الآثار الماثورة والعبر الناطقة، ونعمة الإمهال والحلم، ونعمة إهلاك الظالمين وقطع دابر المجرمين هذه النعم الجليلة حين نتأملها في ضوء هذه السورة الكريمة : تملأ قلوبنا هيبةً وإجلالاً وتشحن نفوسنا خشيةً وتعظيماً، وأرواحنا تحفزاً وتوثباً، ورغبةً ورجاءً في فضل ورحمة هذا المنعم العظيم.

و. المناسبات :

المناسبة بين اسم السورة ومحورها :

محور السورة يدور حول التذكير بنعم الله تعالى وعظمته تعالى، وتسميتها بسورة « فاطر »،

(١) يراجع : كتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤ هـ، ص ٢١٠، وكتاب « أقوى العدد في معرفة العدد » لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣ هـ، « جمال القراء وكمال الإقراء ١ / ٢١٣ وفنون الأفتان في علوم القرآن لابن الجوزي ص ٣٠١.

وسورة « الملائكة » : يحمل دلائل العظمة وآيات القدرة وشواهد الإبداع، وجليل النعم حيث خلق الله هذا الكون الرحيب بهذا الإبداع العجيب الشاهد على كمال قدرته وبديع صنعه وعظيم سلطانه ولطيف إنعامه، كذلك خلق الملائكة بهذه القوة العجيبة والسرعة الفائقة والهئية الرائعة التي تتناسب مع مهامهم ووظائفهم.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :

* في مطلع السورة الكريمة حديث عن خلق السموات والأرض، وفي ختام السورة حديث عن نعمة العناية والحفظ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلْمَعْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَتْنِي وَثَلَّثَ وَرَبَعَ بَزِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر: ١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١].

* في السورة الكريمة تسلية للنبي ﷺ وتعزية له عن تكذيب الكفار الذين ساروا على خطى من سبقهم على طريق التكذيب والإعراض، فإلى الله المرجع والمآب، وبينت السورة أسباب صدودهم وإعراضهم وهو الاستكبار والمكر السيئ، وجاء الوعيد بسنة الله تعالى في المكذبين وهي الإهلاك والعذاب.

قال تعالى في أول السورة ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤].

وفي منتصفها ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [فاطر: ٢٥-٢٦].

وفي آخرها ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ

إِلَّا بِأَهْلِيهِ فَعَلَّ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

المناسبة بين السورة وسابقتها :

الصلة بين سورة فاطر وسورة سبأ : صلة واضحة جلية، من ذلك :

* افتتاح السورتين بالحمد على نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ومنها نعمة الخلق والرزق والهداية والاجتباء، والرحمة والعطاء، ونعمة البعث والجزاء وغير ذلك من النعم.

التناسب بين سور الحمد كلها : في القرآن الكريم خمس سور مفتوحة بالحمد وهي : فاتحة الكتاب والأنعام والكهف وسبأ وفاطر، ويقترن ذكر الحمد في مطالع هذه السور ببيان نعم الله تعالى العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة التي تضمنتها هذه السور : نعمة الحياة وما يتصل بها من نعم جلييلة، ونعمة الهداية وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ونعمة البعث والجزاء. (١)

(١) قال الإمام الرازي : « السور المفتوحة بالحمد خمس سور: سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف، وسورتان في الأخير، وهما هذه السورة [يقصد سورة سبأ] وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير، والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم به، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة، فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم، فلنا حالتان الابتداء والإعادة، وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فقال في النصف الأول ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا ﴾ [الكهف : ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات في المشتبهات وأدى ذلك إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في سورة سبأ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ : ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ ﴾، وقال في سورة الملائكة =

* ختام سورة سبأ مع مطلع سورة فاطر تشبه خاتمة الأحزاب مع مطلع سبأ وخاتمة المائدة مع افتتاح الأنعام، فالقضاء بين العباد نعمة تستوجب الحمد وإهلاك الظالمين وقطع دابرهم وحرمانهم مما يشتهون كذلك، ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

قال الإمام أبو حيان: « ولما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين، وأنزلهم منازل العذاب، تعين على المؤمنين حمدُه تعالى وشكرُه لنعماته ووصفُه بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ﴿٥٦﴾﴾ بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر حالهم، ذكر حال المؤمن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة»^(١).

* بينت السورتان بطلان دعاوى المشركين وفساد اعتقادهم في تلك الآلهة التي زعموها من دون الله، فهي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك مثقال ذرة في هذا الكون ولا تقدر على شيء.

= ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَقَىٰ وَتَلَّتْ وَرُبِعَ بَزِيدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، إشارة إلى نعمة الإبقاء وبدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا﴾ [فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى: ﴿وَنَلَقَّيْنَهُمَا الْمَلَكِيَّةَ هُنَا هَذَا يَوْمَكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خِرْنَتُهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وفتاحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفتحة: ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفتحة: ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام» التفسير الكبير للرازي ٢٥ / ٢٣٨.

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٧ / ٢٩٧ بتصرف.

قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].
 وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ بَعْدَ الظَّالِمِينَ بَعْضَهُمْ بِعَضًا إِلَّا عُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر: ٤٠].

* في سورة سبأ: دعوة إلى التفكير والنظر، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِدٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ فَتُفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦]، وفي سورة فاطر: دعوة للتأمل والإمعان في آيات الكون، وحث على السير والنظر والاعتبار في عاقبة السابقين: قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا لَهُمْ حُكْمًا فَخَسِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيُعْجِزَهُمْ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤٤].

* في السورتين حديث عن خطورة المكر، وانكشاف أمر الماكرين، وفضحهم وخسرانهم وسوء عاقبتهم وانقلاب مكرهم عليهم: قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ اسْتَجْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها :

تناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها ؛ وهو استحضارُ نعمه تعالى واستشعارُ عظمتِهِ، فتمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض :

مقاطع السورة كما بيَّنا تتنظَّم في سلكٍ واحدٍ وتدورُ في فلكٍ واحدٍ، وهو الحديث المستفيض عن لطائف نعمه وجليلِ عطائه وعظيمِ سلطانه، وسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها :

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوهٍ عديدةٍ : منها تقريرُ أركان العقيدة وبيان أصولها، ورد شبه الكفار ودحض حججهم، واستجلاء نعمه تعالى، واستعراض دلائل القدرة وشواهد العظمة، والدعوة إلى التفكير والنظر والسير والاعتبار.

بين مقدمة السورة ومحورها :

لما دارت السورةُ حول التذكير بنعم الله العظيمة استُهلَّت بالحديث عن نعمة خلق السموات والأرض وما فيها من آيات تدلُّ على عظمة الخالق جلَّ وعلا.

مقدمة السورة

الاستفتاح بالحمد

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتْنَىٰ وَتُلُكَتْ وَرُبِعٌ يَزِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر : ١ - ٢]

التفسير الإجمالي

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتْنَىٰ وَتُلُكَتْ وَرُبِعٌ يَزِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ : حمد تعالى نفسه قبل أن يحمده الحامدون، وأثنى على نفسه قبل ثناء غيره عليه، وعلم خلقه كيف يحمده، فله الحمد على ما اتصف به من صفات الكمال والجلال، وله الحمد على ما أولى عباده من كريم السجايا وجميل الخصال، وله الحمد على أن علمنا كيف نحمده ونثني عليه.

﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أبداعها وأنشأهما، فله الحمد على إيجادهما من غير أن يسبقهما مثال، وله الحمد على ما بث فيها من مشاهد الجمال وآيات العظمة والجلال، فكل ما في الكون يدل على بديع صنعه ولطائف حكمته.

قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى اختصم أعرابيان في بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتهما، أي : ابتدأتهما^(١).

﴿ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا ﴾ فمنهم الموكل بالرزق، ومنهم الموكل بالوحي، ومنهم الموكل بحفظ الإنسان، ومنهم الموكل بكتابة الأعمال، ومنهم الموكل بقبض الأرواح، فلكل مهمته ورسالته التي يؤديها على أتم وجه.

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ٦/ ٤٧٢.

﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّنْثَىٰ وَثُلُثَ وَيُنْعُ﴾ : يتفاوتون في القوة، وفي السرعة، كما يتفاوتون في الرتبة والدرجة، فضلاً عن تنوع مهامهم، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، وفي هذه الآية لفتٌ للأُنظار إلى هذا العالم النوراني الذي جُبل على طاعة الله ومحبة أولياء الله، وبيانٌ لتفاضلهم في الرتبة والمنزلة.

وفي الملائكة من له أكثر من أربعة أجنحة، وهذا يندرج تحت قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، ففي الصحيحين: «عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ»^(١).
﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ : فالذي فطر السموات والأرض وأبدعها من غير مثال مسبوق، والذي خلق الملائكة بهذه الهيئة الجليلة قادرٌ على المزيد، فقدرته تعالى لا تحدّها حدود وإبداعه تعالى لا منتهى له.

والزيادة في الخلق عامة وشاملة، منها على سبيل المثال: الخلقُ الحَسَنُ، والوجه الحسن والصوتُ الحَسَنُ، ومنها مَلَاةُ العينين، واعتدال الصورة، وطلاقة اللسان، ومنها كمال العقل وجزالة الرأي، وجرأة القلب، وسماحة النفس، والظرف في الشئائل، وخفة الروح، وغير ذلك من الزيادات المحمودة، فهي شاملةٌ لكلِّ وصفٍ محمودٍ، والأولى أن يعمم، ويقال: الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء، فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وهذه دعوةٌ للتأمل والنظر في ما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال القدرة، وبقدر معرفة الإنسان وعمقه بقدر تذوقه لهذا الجمال الكوني الباهر الذي يتجلى حتى يراه الجميع، ويدقُّ ويلطفُ حتى لا يكتشفه إلا العلماء المدققون.

قال صاحب الظلال: «ولا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء، وأحجامها ونسبها، ونسب الفضاء حولها، وطرق سيرها في مداراتها، وعلاقة بعضها ببعض في أحجامها وأوضاعها وحركاتها.. لا يحتاج القلب المفتوح الواعي

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٦/ ٤٧٢.

الموصول بالله إلى علم دقيق بهذا كله، ليستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب، فحسبه إيقاع هذه المشاهد بذاتها على أوتاره، حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء، حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء، حسبه الفجر المشقشق بالنور الموحى بالتنفس والانطلاق، حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحى بالوداع والانتهاه، بل حسبه هذه الأرض وما فيها من مشاهد لا تنتهي ولا يستقصيها سائح يقضي عمره في السياحة والتطلع والتملي، بل حسبه زهرة واحدة لا ينتهي التأمل في ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها..

والقرآن يشير إشارات الموحية لتدبر هذه الخلائق... الجليل منها والدقيق... وحسب القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهاال..^(١)

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ : لا يقدر أحد على إمساكها وحسبها.

﴿ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ : لا يقدر أحد على إرسالها فخرائن الرحمت بيد الذي يقول للشيء كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده، فدل هذا على سعة رحمته وكمال قدرته وتواتر إنعامه وتسلسل إحسانه.

« وعبر عن إرسالها بالفتح إيداناً بأنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالاً»^(٢).

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هو العزيز الغالب فلا يمتنع عليه شيء، والحكيم في تصرفه وتدييره وتقديره.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب: ذكر الملائكة حديث ٢٩٩٣، ورواه مسلم في صحيحه

كتاب الإيمان، باب: في ذكر سدره المنتهى، رقم: (١٧٤) - ٢٨٠.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٣٦٠/٤.

قال صاحب الظلال : « وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تنقلب هي بذاتها نعمة، وما من محنة تحفُّها رحمةُ الله حتى تكون هي بذاتها نعمة، ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد، وينام على الحرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر.

ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبرُ بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة ووبار!

ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه، لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك، ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء، فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب، وتوصد جميع النوافذ، وتسد جميع المسالك فلا عليك، فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء، وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع، وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!

هذا الفيض يفتح، ثم يضيئ الرزق، ويضيئ السكن، ويضيئ العيش، وتحشن الحياة، ويشوك المضجع، فلا عليك، فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة، وهذا الفيض يمسك ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء، فلا جدوى، وإنما هو الضنك والحرَج والشقاوة والبلاء!... ومن رحمة الله أن تحسَّ برحمة الله! فرحمةُ الله تضمُّك وتغمركُ وتفيضُ عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة.

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرةً منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه

في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام... ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية.. لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسرٍ وجهدٍ وضيقٍ ومشقة. واجهتني في لحظة جفافٍ روحي، وشقاءٍ نفسي، وضيقٍ بضائقة، وعسرٍ من مشقة.. واجهتني في ذات اللحظة. ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكُب حقيقتها في روحي؛ كأنها هي رحيقُ أرشْفُهُ وأحس سرِيانَهُ ودببِيه في كياني، حقيقةً أدوقُها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها، تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا، وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت بها من قبل كثيراً، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هاأنذا.. نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون!

إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي! إنها نعمةٌ ضخمةٌ أن يفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية، نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها؛ ولكنه قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي، وهاأنذا أجدُ الفرج والفرح والرِّيِّ والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته^(١).

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

الصلة بينها واضحةٌ جلية: حيث بدأت بحمد الله تعالى على نعمه الجليلة وآلائه العظيمة وأشارت إلى نعمة خلق السموات والأرض وكذلك خلق الملائكة بهذه الهيئة العجيبة والقوة الفائقة التي تمكنهم من أداء وظائفهم، وهذا من فضله تعالى على الناس لأن الملائكة لا تنزل إلا بالحق والخير، كذلك من بديع صنعه وعظمة سلطانه وجليل إنعامه زيادته في الخلق ما يشاء، وفتح خزائن رحمته، وعزته تعالى وحكمته.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٢٩٢٢ - ٢٩٢٤ باختصار.

الهدايات المستنبطة

- * استفتاح السورة بحمد الله تعالى تنويهً وتنبيةً على فضائل الحمد، وتقديرًا لتفرده تعالى به فهو تعالى واهب النعم وصاحبُ العطاء والكرم، وكثيرٌ من الناس في غفلةٍ عن شكره تعالى.
- * كل ما في الكون يدل على بديعِ صنعه وبلاغةِ حكمته، ولطائفِ إحسانه وفيضِ جوده ويشهدُ بعظمته، ويلهجُ بحمدهِ تعالى.
- * تلتفتُ الآياتُ أنظارًا إلى هذا العالمِ النوراني الذي جُبلَ على طاعةِ الله ومحبةِ أولياءِ الله، وبيانِ تفاضلهم في الرتبة والمنزلة، فالإيمان بالملائكة ومحبتهم وتعظيمهم من صميم الإيمان وأركانه، وهم متفاوتون في القوة، وفي السرعة، كما أنهم متفاوتون في الرتبة والدرجة، فضلًا عن تنوع مهامهم، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة.
- * الزيادة في الخلق عامة وشاملة تشمل كلَّ وصفٍ محمودٍ، وكل نعمةٍ جليلةٍ وعطيةٍ حسنةٍ وهبةٍ طيبةٍ.
- * في الآيات دعوةٌ للتأمل والنظر في ما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال قدرته تعالى وعظيم سلطانه وجليل تفضله وإنعامه.
- * بقدر معرفة الإنسان وتعمقه في هذا الكون بقدر تذوقه لما أودعه الله فيه من آيات الجمال وشواهد العظمة والجلال.

وقد قيل :

تأمل سُطورَ الكائناتِ فإنها من
وقد خُطَّ فيها لو تأملتَ خطَّها
تأمل في ربيع الأرض وانظر
عيونٌ من لجين شاخصاتٍ
على قُضب الزبرجدِ شاهداتٍ
الملا الأعلى إليك رسائلُ
ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
إلى آثارِ ما صنعَ المليكُ
كأنَّ حدائقها ذهبٌ سيبُكُ
بأنَّ اللهَ ليسَ لهُ شريكُ

* خزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده، وهو العزيز فلا يمتنع عليه شيء، الحكيم في تصرفه وتديبره وتقديره.

- ١ -

النداء الأول

تذكير وتسليّة

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: ٣، ٤]

المناسبة

استهلت السورة بحمد الله تعالى وأشارت إلى جملة من نعمه تعالى، وفي هذه الآيات نداءً عامًّا يشمل الناس جميعًا، ويأمرهم بذكر نعمته تعالى واستحضارها وحمده عليها، فهو تعالى الخالق الرازق، كما يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ تسليّة له وتعزيةً وتأسياً بمن سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وما سجلوه من صفحاتٍ مضيئةٍ بالصبر والصمود في مواجهة تكذيب أقوامهم وإعراضهم، وأن مرجع الأمور جميعاً إليه تعالى.

التفسير الإجمالي

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

هذا هو النداء الأول في هذه السورة الكريمة، وهو موجّه إلى الناس جميعاً، وفيه تذكيرٌ لهم بنعمه تعالى التي لا تعدُّ ولا تحصى، ومن أجلها نعمة الخلق والرزق، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مما يدل على تفرده تعالى

بالوحدانية فلا رب غيره ولا معبود سواه، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ومع ذلك ينصرف الكفار عن هذه المعاني الجليلة ويقلبون تلك الحقائق الجليلة فيشركون مع الله آلهة لا تضر ولا تنفع ﴿فَأَنفُتُفَكُونُ﴾.

ثم يجيء الخطاب في الآية التالية بالتسلية والتسرية فتكذبيهم لا مبرر له، وشأنهم شأن من سبقهم من المكذبين، فإلى الله مرجعهم ومصيرهم، وفي هذا وعيدٌ لهم ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤).

وفي اللطائف: « هذه تسليةٌ للرسول ﷺ، وتسهيلٌ للصبر عليه؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنهم صَبَرُوا وأنَّ الله كفاهم، فهو يسلك سبيلهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه» (١).

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

يتسق هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث التذكير بنعم الله تعالى، والتفكير في عظمته فهو تعالى الخالق الرازق وإليه المرجع والمصير.

الهدايات المستنبطة

- * جاء النداء الأول موجهاً للناس جميعاً مذكراً لهم بنعمه تعالى التي لا تعدُّ ولا تحصى، ومن أجلها نعمة الخلق والرزق، مما يدلُّ على تفردته تعالى بالألوهية، فكيف ينصرف الناس لعبادة غيره، ويعرضون عن هذه الحقائق الثابتة؟
- * تسلية النبي ﷺ وتثبيته ببيان حال من سبقه من الأنبياء، حيث كذبوا وأوذوا وصبروا ليتسلى بقصصهم ويتأسى بهم.

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري ٦/ ٣٢٢.

-٢-

النداء الثاني

أسباب الغرور

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرَبْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُدٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧﴾ [فاطر : ٥-٨]

المناسبة

بعد الدعوة إلى تذكر نعمه تعالى واستحضارها، والدعوة إلى التوحيد الخالص، تأتي آيات هذا المقطع بالتحذير من الاغترار بالدنيا وزخرفها والاعترار بوساوس الشيطان، والوقوع في شرِّاكة ومكائده، والانتفاء إلى حزبه وأوليائه، فإنها يدعو حزبه إلى السعير، وهي مصير أهل الكفر والعصيان، أما أهل الإيمان والصلاح فلهم من الله مغفرة على ما بدر منهم من ذنوب وتقصير ولهم أجرٌ كبيرٌ على صالح أعمالهم، فضل من الله ونعمة، ومغفرة ورحمة، ثم تبين الآيات سببا من أسباب الصدود والإعراض وهو الاغترار بالباطل وزخارفه، حين تميل إليه النفس وتركن إليه، ومن هنا جمعت الآيات بين التحذير من الاغترار بالدنيا والشيطان والاعترار بالنفس وهو العُجْبُ، ودعت دعاء الحق إلى الصبر والثبات وأن لا يأسوا على من اختار طريق الضلال واستحسنه؛ فإن الهداية من الله تعالى، وهو عليم بهم مجازيهم بما يصنعون.

التفسير الإجمالي

تحذيرٌ من فتنه الدنيا والشيطان

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرَبْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤﴾ : هذا

هو النداء الثاني في السورة الكريمة وفيه تحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الغرور، وهو «كلُّ ما يعرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسرَّ الغرورُ بالشيطان؛ إذ هو أخبث الغارين، وهو محرِّكُ كلِّ فتنةٍ، ووراء كل اغترار.

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٦):
تأكيدٌ لعداوته ودعوةٍ لأخذِ الحذرِ والحيطَةِ منه ومن مكائده ومصائده، والترهيب من سوء عاقبة من والاه وسلَّم له الزمام فقاده إلى عذاب السعير.

وفي الإرشاد: «تقريرٌ لعداوته وتحذيرٌ من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحائين في الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعض، بل هو توريطهم وإقائهم في العذاب المخلد من حيث لا يحتسبون» (١).

عاقبة الفريقين

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧)

بين تعالى حال الفريقين: الفريق المطيع لإبليس والمتحزب له، والفريق الذي عصمه الله من فتنة إبليس وجنوده، أما فريق الكافرين فلهم عذاب شديد، وأما أهل الإيمان والصلاح فلهم مغفرة وأجر كبير.

الاغترار بالباطل... وداء العُجب

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءِ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءِ فَلَا نَذِيبُ لَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٨)

هذه الآية تقريرٌ لما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين وبيانٌ لأسباب الصدود.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٢.

وإتماماً لأسباب الصدود والإعراض، وهي الاغترار بالدنيا والشيطان والنفس وقد قال الشافعي: إني ابتليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا إِلَّا لشدَّةِ شِقْوَتِي وعنائِي إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى كيفَ الخلاصُ وكلُّهم أعدائي وأرى الهوى تدعو إليه خواطري في ظلمةِ الشهواتِ والآراءِ وفي التعبير عن الكافر بمن زين له سوء عمله فاستحسنه: إشارةً إلى غاية ضلاله واعتلال فكره وسفاهة نفسه، حتى بلغ به الحال أن استحَبَّ الكفر على الإيمان، وأثر الباطل على الحق بتزيين ما حوله من شياطين الجن والإنس، وإغرائهم وتهييجهم، حتى تعصب لما عليه من ضلال، وانتصر لباطله ونافح عنه.

قال صاحب الظلال: « هذا هو مفتاح الشر كله، أن يزين الشيطانُ للإنسان سوءَ عمله فيراه حسناً، ويعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها، ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثقٌ من أنه لا يخطئ! متأكدٌ أنه دائماً على صواب! معجبٌ بكل ما يصدرُ منه! مفتونٌ بكل ما يتعلق بذاته، لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر، وبطبيعة الحال لا يطيق أن يُراجعة أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه، لأنه حسنٌ في عين نفسه، مزينٌ لنفسه وحسه، لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان! »^(١).

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٨)

فالهداية من الله تعالى لمن سلك طريقها ورام أسبابها ورغبت بصديقٍ وهمية، أما أولئك الغارقون في ضلالهم، الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الحياة الدنيا ورضوا بها: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ لا تُهلك نفسك حزناً على حالهم، فقد ارتضوا هذا الطريق، والله تعالى عليمٌ بأحوالهم مطلعٌ على ضمائرهم، ومجازيهم بما يستحقونه.

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٢٦، ٢٩٣٦.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

من نعمه تعالى تذكيرنا بوعده الحق وتحذيرنا من الاغترار بدنيانا، وتحذيرنا من أخطار أعدائنا وكشف مكائدهم وأساليبهم حتى نتوقى شرورهم ونتوخى الحذر منهم، كذلك من نعمه تعالى عقاب الكافرين وإثابة المؤمنين الطائعين، كذلك تسلية النبي ﷺ وورثة دعوته والتخفيف عنهم من هموم الدعوة والتحذير من المبالغة في التأسف على المشركين والحسرة عليهم، فالهداية من الله تعالى يمنٌ بها على من يشاء، وفي التفكير في ما اشتملت عليه آيات المقطع من معانٍ إدراكٌ للطائف نعمه تعالى، وإشعارٌ بعظمة سلطانه.

الهدايات المستنبطة

- * التحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الشيطان، وبيان معاداته للإنسان، والدعوة لأخذ الحذر والحيطه منه والتوقي من الوقوع في مكائده ومصائده والتسلح بالإيمان والعمل الصالح في هذه المعركة الفاصلة مع الشيطان وأعوانه.
- * من أسباب الصدود والإعراض: الاغترارُ بالباطلِ وزخارفه، والانبهار بطلائه الزائف.

-٣-

آيات الله في الكون

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ⑩ ﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ ⑪ ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ⑫ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَبَسُّونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑬ ﴾ يُوَلِّجُ الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ⑭ ﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ⑮ ﴾ [فاطر : ٩-١٤]

المناسبة

في هذه الآيات بيانٌ لطائفةٍ من آيات الله الكونية الدالة على عظمته تعالى، الناطقة بكمال قدرته، وإنعامه على عباده بالحياة وأسبابها، الحافلة بشواهد العظمة ودلائل القدرة المبثوثة في هذا الكون في تناسقٍ بديعٍ وانسجامٍ تامٍّ، وفيها برهانٌ جليٌّ على أن وعد الله حقٌّ، وفيها لفتةٌ إلى الانشغال بالمنعم بعد التحذير من الاعتزاز بالدنيا وزخارفها، وبيانٌ لضلال أهل الشرك في عبادتهم لما لا يملك مثقال ذرةٍ في هذا الكون الفسيح.

التفسير الإجمالي

إمكانية البعث

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ ﴾

النشور ﴿٩﴾

في هذه الآية تقريرٌ لحقيقة البعث بدليلٍ حسيٍّ مشاهدٍ وهو إرسالُ الرياحِ وإثارتها للسحابِ ونزوله بالمطر الذي ينصرف بتقدير الله تعالى إلى حيث شاء سبحانه فيحيي به الله تعالى الأرض القاحلة، إنها دورة الحياة التي تدلُّ دلالةً قاطعةً على البعثِ والنشورِ.

قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْقِفُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: آيَةُ قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: آيَةُ، قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: آيَةُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(١)).

طريق العزة وعاقبة الماكرين

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴿١٠﴾ ﴾

بينت هذه الآية الكريمة طريق العزة وأنها لله ومن الله فلا عزَّ إلا به ولا ذلٌّ إلا له، فمن اعترز بغيره ذلٌّ ومن تذلَّل له عزٌّ، وقد قيل:

وإذا تذللت الرقاب تقرباً منها إليك فعزها في ذلها

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب: قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُورٍ ﴿١٠﴾ [الزمر: ٦٨] حديث ٤٥٣٦، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب: ما بين النفختين، حديث ١٤١- (٢٩٥٥).

فالأية تنبيه لأصحاب الهمم، من أين تنال العزة؟ وما السبيل إليها؟ فمن كان يريد العزة، ويطلبها، فليطلبها من الله عز وجل بطاعته وموالاته: فله العزة جميعاً، ليس لغيره منها شيء.

وفي الآية ردٌ على المشركين الذين تعززوا بعبادة الأصنام كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۗ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۗ﴾ (٨٢) [مریم: ٨١-٨٢]

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي: إلى الله يصعد لا إلى غيره، ومعنى صعوده إليه: قبوله له، وصعود الكتب من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخصّ الكلم الطيب بالذكر ليبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد، والتمجيد.

إذ يشمل كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار ودعوة وإصلاح ووعظ وإرشاد وتذكير.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب والكلم الطيب يرقى بالعمل الصالح فكلاهما ينهض بالآخر ويُعضده.

قال النسفي: «والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد، وقيل: الرافع الله والمرفوع العمل أي العمل الصالح يرفعه الله وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه، وقيل: العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً فإنه هو الذي يرفع العبد»^(١).

والكلم الطيب مع العمل الصالح من أسباب نيل العزة.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ : في مقابل الكلم

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٣٣٥.

الطيب والعمل الصالح نجد من يسعى ويحتال في تحصيل السيئات من الأعمال والخبيثات من الأقوال، فيجعلها مراده ومطية، ويجهتد في إخفائها شأن الماكر الذي يدبر الأمر في خفية ويظهر خلاف ما يضمرة، فمكرهم إلى بوار، كالذي يغرس في أرض بور لا تثبت زرعاً كذلك أعمالهم وكيدهم إلى بوار، وسبيلهم إلى المذلة والانكسار.

قال صاحب الظلال : « والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلباً للعزة الكاذبة، والغلبة الموهومة، وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء، وأنهم أعزاء، وأنهم أقوىاء. ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه. وبهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل. فأما المكر السيئ قولاً وعملاً فليس سبيلاً إلى العزة، ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان. إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد»^(١).

أطوار ومراحل خلق الإنسان

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

بينت هذه الآية الكريمة مراحل وأطوار خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم تحديد النوع الإنساني : ذكر أم أنثى، والحمل والوضع عند سائر المخلوقات التي تحمل وتضع كالحیوانات والزواحف والأسماك والحشرات والطير، ومدة حياة كل كائن، كل ذلك مسجل في اللوح المحفوظ، وهذا أمر يسير على الله تعالى، وهذا دليل على إحاطة علمه وشمول قدرته وعظمة سلطانه.

والتعمير يكون بطول الأجل ومد الأعوام ؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق لصالح الأعمال، وكذلك يكون نقص العمر بقصره ؛ أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث وتبديده في الكسل والفراغ.

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٣١.

ورب ساعة تعدل عمراً بما يتم فيها من أعمال وآثار. ورب عام يمر خاوياً فارغاً لا حساب له في ميزان الحياة، ولا وزن له عند الله!
وقد قيل: «رب عمر اتسعت أمادُهُ، وقلت أمادُهُ، ورب عمر قليلة أماده، كثيرة أماده»^(١).

عالم البحار والأفلاك

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

تلقت الآيات الكريمة أنظارنا إلى هذه العوالم التي تنطوي على آياتٍ وعجائب لا حصر لها، وتجمع من التنوع والاختلاف ما يدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم.

« هذا التنوع البيئي : يدلُّ على قدرة الله عز وجل وبديع صنعه، وتقديره عز وجل وتدبيره لهذا الكون، فمع تنوعه وتباينه إلا أن أعيننا لا تقع إلا على انسجام تامٍّ وتكامل بين هذه المخلوقات التي تشارك في دورة الحياة، حسب الدور المنوط لكلِّ كائنٍ حي، كما أن هذا التنوع العجيب يكسو هذا الكون روعةً وجمالاً، وطرافةً تُثيرُ الدهشة، وتدعو إلى النظر والتفكير في عجائب المخلوقات ونواديرها، فيزداد المؤمن إيماناً ويقيناً»^(٢).

فهذا العذب الفرات له مكوناته وخصائصه ومنافعه، وكذلك الملح الأجاج له خصائصه ومنافعه ومكوناته، فلا يستويان في التراكيب ولا في مستوى الماء ولا في الكثافة ولا فيما يحويه من كائناتٍ إلى غير ذلك من تباين بينهما تتجلى من خلاله عظمة الله تعالى وكمال إنعامه على الناس.

(١) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم لابن عجيبة ص ٢٥٦.

(٢) منهج القرآن في التوعية البيئية، إعداد أحمد محمد الشرفاوي ص ٢٤ من بحوث المؤتمر الوطني للبيئة - جامعة القصيم ١٤٢٨ هـ.

﴿ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.. « واللحم الطري هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، والحلية من اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ الذي ينمو في القواقع نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب، كي لا يؤدي جسم القوقعة الرخو، وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز، ويتحول إلى لؤلؤة! والمرجان نبات حيواني يعيش ويكون شعاباً مرجانية تمتد في البحر أحياناً عدة أميال، وتتكاثر حتى تصبح خطراً على الملاحه في بعض الأحيان؛ وخطراً على كل حي يقع في برائتها! وهو يقطع بطرق خاصة ومنافعه كثيرة! »^(١).

﴿ وَرَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾: كذلك من منافع عالم البحار والأنهار أنها تحمل السفن المحملة بالخيرات والمنافع فتقلها من بلدٍ إلى بلدٍ وتنقل الناس بقدره الله تعالى ولطفه وتيسيره.

﴿ وَعَلَّكُمُ تَشْكُرُونَ ﴾ دعوة إلى شكر الله تعالى على هذه النعم التي سخرها للإنسان والكنوز التي استأنه عليها، ليعمر هذا الكون.

﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾: فالليل والنهار نعمتان لا غنى بأحدهما عن الأخرى، ومن رحمته تعالى أن جعل الليل للسكن والراحة والنهار لطلب المعاش، وتجد التداخل بينهما والامتزاج فتارة يطول النهار وتارة يقصر وتارة يطول الليل وتارة يقصر وفي هذا التنوع فوائد جمة ومنافع كثيرة.

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: والشمس والقمر من أعظم الآيات على قدرة الله تعالى وتدبيره حيث يجريان بحساب دقيق وتقدير محكم فلا يتوقفان ولا يصيبهما عطبٌ ولا يعتريهما تغييرٌ.

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾:

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٤٣٩٢.

ألا يدل هذا كله على ربوبيته تعالى وسعة ملكه وعظمة سلطانه؟ فأين تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك مثقال ذرة في هذا الكون؟

والقطمير القشرة الرقيقة البيضاء التي بين الثمرة والنواة، وقيل: هو شق النواة، وقيل: القمع الذي على رأس النواة، وكل ذلك يسيرٌ وحقيرٌ، وفيه دلالةٌ على أنهم لا يملكون شيئاً فلماذا الشرك؟ وأين العقل والإدراك؟ وأي منطق يدعو الإنسان إلى عبادة أحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفعُ! ولا تبصر ولا تسمع!

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ : فهي أصنامٌ لا تسمع، ولو قدر لها السماع فأنى لها أن تجيب؟ وهي لا تملك ذرةً ولا قطميراً، فضلاً عن أن الله تعالى يُنطقُ تلك الأحجار يوم القيامة لتشهد على من عبدها بالكفر وتبرأ إلى الله تعالى من الشرك.

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، وهذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق، لأنني خبير بما أخبرت به.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

اشتملت آيات هذا المقطع على جملةٍ من نعم الله تعالى التي امتنَّ بها على عباده منها نعمة الماء، وهو إكسير الحياة وأصلها، ونعمة البعث والنشور، وبيان معالم طريق العزة، وأثر الكلم الطيب مع العمل الصالح في رفعة العبد وارتقائه، وجزاء الماكرين وعاقبة مكرهم، ثم جاء الحديث عن خلق الإنسان، وعن شمول علمه تعالى وإحاطته بكل مخلوق، وعن نعمة الأنهار والبحار ومانفعتها التي لا تحصى، كذلك نعمة الليل والنهار والشمس والقمر، فالخلق خلقه تعالى، والمملك ملكه وهو المستحق للحمد المتفرد بالكمال والجلال، وكلُّ ما في الكون يشهد له بالعظمة.

ثم يلتفت إلى الخطاب إلى المشركين منكرًا عليهم اتخاذهم آلهةً من دون الله لا تملك أدنى

شيء في هذا الكون الفسيح، كما أنها لا تسمع ولو سمعت ما استجابت لأنها لا تملك شيئاً فضلاً عن تبرؤها من عبودها من دون الله، ومن فضله تعالى وإنعامه أن أنبأنا بهذه الحقائق، فهو الخبير ببواطن الأمور فضلاً عن ظواهرها.

الهدايات المستنبطة

- * تقرير البعث بدليل حسيٍّ مشاهدٍ وهو إرسال الرياح وإثارتها للسحاب ونزوله بالمطر الذي ينصرف بتقدير الله تعالى إلى حيث شاء سبحانه فيحيي به الله تعالى الأرض القاحلة، إنها دورة الحياة التي تدلُّ دلالة قاطعة على البعث والنشور.
- * تنبيه وتوجيه لذوي الأقدار والهمم إلى طريق العزة وسبيل نيلها.
- * صعود الكلم الطيب والعمل الصالح معاً فكلاهما ينهض بصاحبه ويرقى به ويعضده.
- * تحذير لأهل المكر والخداع الذين يضمرون ما لا يظهرون ويحتالون على ارتكاب الخطايا فمكرهم إلى بوار ومصيرهم إلى المذلة والهوان.
- * تلفت الآيات الكريمة أنظارنا إلى هذه العوالم التي تنطوي على آياتٍ وعجائب لا حصر لها، ومنافع لا حدَّ لها، كما أنها تجمع من التنوع والاختلاف والتوازن ما يدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم، كما تشهد بتفرده تعالى بالخلق والأمر واستحقاقه وحده للعبادة.
- * ما أحوج النفس البشرية إلى تلك الانطلاقة في أرجاء هذا الكون الرحيب بعيداً عن هموم هذا الواقع المرير وآلامه المبرحة وحدوده الضيقة وأحداثه الجارية؛ لتستشعر عظمة الخالق جلَّ وعلا وتستحضر نعمه وتدرِّك قيمتها وتؤدي شكرها وتصونها.

-٤-

النداء الثالث

غنى الله عن خلقه وعدله فيهم

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر : ١٥-٢٦]

المناسبة

هذا هو النداء الثالث في هذه السورة الكريمة وهو متناسق مع النداءات السابقة التي وُجِّهت للناس جميعاً، وجاءت بتوجيهاتٍ رشيدةٍ وحكمٍ بالغةٍ، وفيه بيانٌ لافتقار الناس الدائم إلى مولا هم الحميد، وأنه تعالى لو شاء أن يستبدلهم بغيرهم لاستبدلهم، وأنه لا يؤاخذ أحداً بجريرةٍ غيره، ولا يحمل أحداً وزر أحدٍ، وأنه لا ينتفع بالإنذار إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ويسيئون الصلاة، وأن من يتزكى لنفسه، وأن الأعمى والبصير لا يستويان، كذلك الظلمات والنور، والظل والحورور، وكذلك الأحياء والأموات، وأن الذي يسمع وينتفع بما يسمعه هم أحياء القلوب، وأن مهمة النبي ﷺ هي النذارة، وأن الله تعالى أرسله بالحق مبشراً ومنذراً، كما أرسل أنبياءه في سائر الأمم السابقة، وأن التكذيب دأب الكفار على مر الزمان وأن عاقبة التكذيب وخيمةٌ ونهايته أليمةٌ.

التفسير الإجمالي

افتقار الخلق إلى الله !

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ بيان لافتقار الناس إلى مولاهم « فالإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلالاتها، وعظيمها وهينها، وعسيرها ويسيرها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو به مستغن عن كل واحد، والله تعالى غني عن الناس وعن كل شيء من مخلوقاته غني على الإطلاق»^(١).

«وهو الحميد النافع بغناه خلقه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم»^(٢).

قال صاحب الكشاف: « فإن قلت: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق - بإنعامه عليهم أن يحمده»^(٣).

﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾

فالله تعالى غني عن العالمين لو شاء لاستبدل الخلق بغيرهم كما قال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ : وما ذلك على الله تعالى بممتنع ولا عسير فهو القادر

على كل شيء.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٢/ ٢٣٣.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، ٣/ ٣٣٧.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٥/ ٤١٠.

لا يحمل أحد وزر غيره

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

لا تحمل نفس أئمة أئمة نفس أخرى، ولا يستتبع ذنب ذنب غيره، وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها؟

أما قوله ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣] فإنه وارد في الضالين المضلين، يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم، ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾: بيان لمن يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾: أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، أو يخشونه في الخلوات بعيداً عن أعين الناس.

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾: دل ذلك على قيامهم بحق ربهم ومن حافظ على الصلاة حافظ على غيرها من الطاعات.

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ ﴾: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من أدران الشرك وأدناس المعاصي فإنما تزكيتة لنفسه تنفعه في دنياه وتنجيه في آخره، والله تعالى لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، وإنما يعود نفع الطاعة إلى صاحبها وضرر المعصية إلى مرتكبها. ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فالمرجع والمآب إليه تعالى، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

لا يستويان !

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۗ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۗ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ۗ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۗ (٢٢) ﴾

هذا مثل للكافر والمؤمن، أو للجاهل والعالم، لأنها لا يستويان أبداً، وهل يستوي من تعامى عن الحق وأعرض عنه، بمن أبصر الحق واستضاء به، وهل تستوي ظلمات الكفر والضلال مع نور الإيمان والهدى ؟

وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأن نور الحق واحد وطريق الهدى واحد، أما طرق الضلال وسبل الظلمات فإنها كثيرة متشعبة.

﴿ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ۗ (٢١) ﴾ لا يستوي الظل الذي يستروح إليه الإنسان ويقبل ويتقي به وهج الشمس وهيب الحرّ بالحروور الذي لا يتحمّله الإنسان، وقيل الظل إشارة إلى الجنة والحورور إشارة إلى النار أو ظل الإيمان وحرارة الكفر.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ ﴾ : من شرح الله صدره للإسلام، ومن أقام على الكفر والضلال. فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وانسراح للصدر وبهجة النفوس، وجلاء الأفهام وربيع الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمة في القلب ووحشة في النفس وموت للروح وغشاوة على البصيرة وحيرة للعقول وضيق في الصدور.

وقد قيل :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَّاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءِ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلًا كَاسِفًا بِالْهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۗ ﴾ : ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم وأنى لهم أن يسمعوا وقد قبروا وهم أحياء في غياهب الشرك ولحود الضلال، فلا سبيل إلى سماعهم وقد جعلوا بينهم وبين الحق برزخاً وحاجزاً من المكابرة والجحود والتقليد الأعمى والتعصب للأهواء.

مهمةٌ جليّةٌ

﴿ إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

فمهمتك هي النذارة والله تعالى أرسلك بالحق داعياً وهادياً ومبشراً ونذيراً، فمن تمام رحمته وكمال عدله وبليغ حكمته تعالى أن أرسل الرسل في سائر الأمم منذرين.

فما عليك إلا الدعوة والبلاغ أما النتائج فهي على الله تعالى فلا تشغل عما طلب منك بما لم يطلب منك.

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْأُنْمِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

فالتكذيبُ ديدنُ أهل الكفر والضلال، ودأبهم، كما فعل من سبقهم على هذا الطريق الشائك والمنعطف الخطير، رغم ما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات والمعجزات الباهرات وبالكتب المنزلة من عند الله، فكان جزاء الكافرين وعاقبتهم أن أخذهم الله أخذاً شديداً وجعلهم عبرةً لكلٍ معتبرٍ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

تتسق هذه الآيات مع محور السورة حيث تتجلى فيها عظمة الخالق عز وجل ولطائف نعمه فهو الغني عن خلقه والكل مفتقر إليه، القادر على تبديلهم بغيرهم ولكنه يمهل ويؤخر ويعفو ويصفح، العادل في حكمه وجزائه لا يؤاخذ أحداً بجريرة غيره، ولا يحمل أحداً وزر غيره ولا يحاسبه إلا على ما قدم، ومن عدله وإنصافه أنه لا يسوي بين أهل الهدى والضلال، وأنه لا يحاسب أنبياءه وأوليائه إلا على ما كلفوا به، فلا يضرهم بقاء الكفرة على كفرهم لأن الهداية منه تعالى، ومهمة الرسول هي تبليغ الحق والبشارة والنذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فلا تخلو أمة منهم، وفي الآيات تسليّةً للنبي ﷺ أن عاقبة المكذبين إلى خسرةٍ وهلاكٍ شأن من سبقهم من الأمم الغابرة.

الهدايات المستنبطة

* افتقار الناس إلى مولاهم الغني الحميد، وأنه تعالى لو شاء أن يستبدلهم بغيرهم لاستبدلهم، وفي الحديث القدسي الذي رواه نبينا ﷺ عن رب العزة جل وعلا: (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرَ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ) ^(١).

* قال ذو النون: الخلق محتاجون إليه في كل نفسٍ وخطرةٍ ولحظةٍ وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به! ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الأشياء أجمع ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود بكل لسان، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء، وقال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى حُجِبَ عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد، وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء. ^(٢)

* من رحمته تعالى وعدله أنه لا يؤاخذ أحداً بجريرةٍ غيره، ولا يحمل أحداً وزر أحدٍ.

* الإيثار حياة القلوب ونور البصائر وانسراح للصدور وبهجة النفوس، وجلاء الأفهام وربيع الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمة في القلب ووحشة في النفس وموت للروح وغشاوة على البصيرة وحيرة للعقول وضيق في الصدور.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، حديث ٢٥٧٧/٥٥.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٣٣٧.

- * لا ينتفع بالإنذار ويرعوي به إلا أهل الخشية والطاعة ممن أحيا الله قلوبهم وأنار بصائرهم.
- * بيان مهمة النبي ﷺ وهي النذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أنه لم تخلُ أمةٌ من الأمم السابقة من نذيرٍ.
- * التكذيب دأب الكفار على مرِّ الزمان، وعاقبته وخيمةٌ ونهايته أليمةٌ.

-٥-

اختلاف الألوان

من روائع الأكوان

كتاب الله المنظور

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٢٨) فاطر: [٢٧-٢٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٢٨) فاطر: [٢٧-٢٨].

المناسبة

تتضمن هذه الآيات : دعوة إلى النظر في جمال الكون، ولفتة إلى هذا الإبداع العجيب والنسق الفريد والتمازج الدقيق في الألوان المختلفة والتي تحتاج إلى وقفة متأنية ودراسة عميقة وتشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا وبديع صنعه، وتقر افتقار الخلق إليه وغناه عنهم وإنعامه عليهم بما يستوجب حمده.

قال صاحب الظلال : « إنها لفتةٌ كونيةٌ عجيبةٌ من اللفتاتِ الدالة على مصدر هذا الكتاب

لفتة تطوّف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها، في الثمرات، وفي الجبال وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً؛ وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً»^(١).

التفسير الإجمالي

يبدأ هذا المشهد الرائع بإنزال المطر من السماء، وتفتق الثمرات المختلفة الألوان من أكمامها، فترى الحقول والرياح في حُللها القشبية، قد تدلت الثمرات من أغصانها كالقناديل المعلقة بألوانها الزاهية وأشكالها الرائعة، فالماء واحدٌ والتربة واحدةٌ ومع ذلك تخرج الثمرات المختلفة الألوان، فهذا أحمر وهذا أصفر وهذا أخضر وهذا أسودٌ وهذا أبيضٌ بل تجد للصف الواحد ألواناً متعددة، بل وللون الواحد درجاتٍ متفاوتة، وتجذ للثمرة الواحدة ألواناً متناسقةً متمازجةً، فكيف بالتمازج بين الألوان؟ فمن الذي أبدع هذا الجمال وصنغ هذه الألوان؟

قال صاحب الظلال «.. وألوان الثمار معرضٌ بديعٌ للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرةٍ أختين يبدو شيء من اختلاف اللون!»^(٢).

وإذا انتقلنا من عالم النبات إلى عالم الجبال: لوجدنا من أبداع الألوان ما تردهي به الجبال وتزدان، فترى الجمال في أبداع حلله وأزهي ألوانه.

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّ سُودٌ ﴾

والجدد جمع جُدة بالضم، بمعنى الطريقة التي يُخالَف لونها ما يليها سواء كانت في الجبل

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٢

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٩٤٢

أو في غيره، وقد تكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه.

قال صاحب الظلال: « والجدد الطرائق والشعاب، وهنا لفظة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد، واللفظة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيها في تقدير الإنسان»^(١).

« ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك، يستحق النظر والالتفات.

ثم ألوان الناس، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة!

وكذلك ألوان الدواب والأنعام. والدواب أشمل والأنعام أخص. فالدابة كل حيوان والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان. والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء»^(٢).

وهذا الاختلاف والتنوع مما يدعو إلى العظة والاعتبار، وكذلك الناس يختلفون في ألوانهم وهيئاتهم وأجناسهم وألستهم ومشاربهم وطبائعهم اختلافاً تتجلى فيه عظمة الخالق جلّ وعلا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٢

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٩٤٢، ٢٩٤٣

وعجيب صنعه، وتمام نعمته، ولطائف حكمته، بما يدعو إلى هيئته تعالى وإجلاله.^(١)

(١) وعن الإشارة العلمية في هذه الآية الكريمة: يقول الدكتور كارم غنيم: «ويصنف علماء الجيولوجيا الجبال تبعاً لصخورها الغالبة على تركيبها إلى ثلاثة أقسام رئيسية: هي جبال رسوبية طبقية، وهي المشار إليها في الآية الكريمة بـ «جدد بيض». وجبال قاعدية متبلورة متحولة وهي المشار إليها في الآية الكريمة «وحر مختلف ألوانها». وجبال بركانية غير متحولة نارية، وهي المشار إليها في الآية الكريمة بـ «غرايب سود».

وإذا كان جمهور المفسرين قد ذهبوا إلى أن «جدد» هي الخطط أو الطرق أو الطرائق، فإن من معناها العلمي (الطبقات)، وهذه إحدى خصائص الجبال الرسوبية، إذ هي جبال تكونت بترسيب طبقات فوق بعضها على مر الزمان، وهي «بيض» لأن اللون الغالب عليها هو الأبيض، وهو ما توصل إليه علماء الجيولوجيا، فالجبال الرسوبية إن لم تكن بيضاء فإن لونها يتحول إلى الأبيض بمرور الزمن، ويذكر المتخصصون من صخور هذه الجبال أنواعاً يغلب عليها اللون الأبيض مع وجود بعض الشوائب، ومن هذه الصخور: دياتوميت، وأوبوكا، وليوسيت، ويوكسيت، وكوارتز، وأميانت، وأورثوكلاس، وأهاريت،... إلخ.

أما الجبال الحمراء التي ورد ذكرها في الآية الكريمة بـ «حر مختلف ألوانها»، فيفسر المتخصصون ألوانها إلى شيوخ عنصر الحديد فيها، وهو الذي يتأكسد، فيظهر الصخر بلون أحمر، ويصاحب الحديد معادن فلزية أخرى كالنحاس والرصاص، وتختلف نسب وجودها، وبالتالي فاللون الأحمر ذو درجات، وليس أحمر قانياً أو محضاً.

أما الجبال النارية (البركانية) غير المتبلورة، فيشيع اللون الأسود الغريب عليها، ويعتبر البازلت هو الغالب في هذه الجبال، ويؤكد المتخصصون أنها أكثر الصخور القاعدية انتشاراً، وتشكل حمم الهضاب وكذلك الجبال البركانية (النارية) التي غالباً ما تكون على شكل مخاريط. ويعرف معجم المصطلحات الجغرافية للدكتور «يوسف توني» البازلت بأنه صخر ناري أسود اللون، له عدة أنواع، يتكون بفعل تجمد اللافا (الصهارة)، وأهم خصائصه أنه غير بلوري الذرات. والجبال النارية ليس لها سوى اللون الأسود، لأنها -بحكم طريقة تكوينها البركاني- لم يتعرض لإضافة أشياء (مخاليط) إليها.

وللحاء دور حيوي في تلوين الجبال: لدور الماء في ألوان الصخور، كما أن دوره حيوي في ألوان الثمرات (النباتات)، فإن له دوراً أيضاً في ألوان الجبال. ويمكن عرض موجز ما توصل إليه المتخصصون إليه في النقاط التالية: تظهر ألوان الصخور (ومن ثم ألوان الجبال) نتيجة لألوان المعادن الموجودة بها، ويتوقف لون المعدن على التركيب الكيميائي له وظروف البيئة التي يتكون فيها، إن كانت مؤكسدة أم غير ذلك. =

﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

= وتتغير ألوان المعادن بامتصاصها لكمية من الطاقة أو الموجات الضوئية، وأشد المعادن تأثراً بذلك المعادن المحتوية لفلزات انتقالية مثل الحديد والكروم والمنجنيز، وتتغير ألوانها بظاهرة الامتصاص فيما يسمى «نظرية المجال البللوري» ولما كان الماء أكثر السوائل انتشاراً (وخصوصاً السوائل ذات الكثافة المنخفضة)، وأكثر السوائل مقدرة على الإذابة، وأكثرها مقدرة على النقل، وأفضل العوامل المساعدة في تفاعلات المعادن السيليكاتية في الصهارة (الماجما)، وأفضل العوامل المساعدة في تحويل الصخور من نارية أو رسوبية إلى متحولة، فإنه يتدخل في تحديد ألوان الصخور بتدخله في عمليات جيولوجية خارجية وعمليات جيولوجية داخلية. أما العمليات الخارجية فتستمد الطاقة اللازمة لحدوثها من الشمس، وأهمها عملية التجوية وعملية الترسيب، ويتدخل الماء في تغيير ألوان معادن كالفلسبار والبيروكسين والهويرنلند والميكا، ويتدخل في أكسدة المعادن الحديدية فينتج مثلاً معدن الجوسان من الأكاسيد الحديدية المائية، وهي الأكاسيد التي يحدد محتواها المائي ألوان المعادن الناتجة عنها. كما أن الماء يقوم بدور ضروري في تحويل العديد من المعادن الأولية إلى معادن ثانوية ذات التراكيب الكيميائية والألوان العديدة، مثل المعدن الأولي المسمى يورانييت ذي اللون الأسود الداكن، الذي يتحد بأيونات وكتيونات عديدة فينتج أكثر من مائة معدن ثانوي ذات ألوان جميلة.

كما تذوب عناصر مثل الحديد والمنجنيز في الماء، ويعاد توزيعها على أسطح الحبيبات والبللورات، ومن ثم تصطبغ هذه الحبيبات والبللورات بألوان حمراء أو بنية أو بنفسجية أو غيرها من الألوان. وتحدث في المناطق غزيرة الأمطار عمليات التجوية الكيميائية حيث يغسل الماء المعادن، فتبقى منها رواسب مثل الهيروكسيدات والسيليكات المتميهة والكاولين والبوكسيت (الألومنيوم الخام) والحديد والنيكل. وأما دور الماء في تغيير ألوان الصخور (ومن ثم ألوان الجبال) عن طريق تدخله في عمليات الترسيب، فهو دور واضح جداً؛ إذ تبلور المعادن نتيجة التبخر، فتصطبغ بألوان معينة ويتوقف هذا على محتواها المائي (مثل الإنهيدريت والجبسوم)، وتتكون رسوبيات غروية في أثناء فعل عمليات التجوية، وتجري في الماء وتتجدد بأيونات معينة، وكذلك يتكون الكثير من المواد اللاصقة التي تربط فيما بين الحبيبات المنقولة إلى أحواض الترسيب، فتكسب الصخور ألواناً مميزة، ومن هذه الصخور: الحجر الرملي الحديدي..

الجبال.. اختلاف في الألوان وثرء في الصنعة!! أ.د. كارم السيد غنيم أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر
موقع إسلام أون لاين أضيف بتاريخ ٢٠٠٠/١١/٩
ويقول الدكتور زغلول النجار: « أثبتت دراسات علم الصخور أن العامل الرئيسي في تصنيف =

أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم الجليل

= الصخور النارية هو تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس انعكاسا واضحا علي ألوانها، وتقسم الصخور النارية علي أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني إلى المجموعات الرئيسية الثلاث التالية: (١) صخور حامضية وفوق حامضية وتشمل عائلة الجرانيت التي تتكون أساسا من معادن المرو (الأبيض) والفلسبار البوتاسي (المقارب إلى الحمرة) والبايوتايت (الذي يتراوح بين اللونين الأصفر والبني المائل إلى الحمرة أو العسلي).

(٢) صخور متوسطة وتشمل عائلة الدايوريت التي تتكون أساسا من قليل من المرو ومعادن البلاجيوكليز الكلسي والصودي والأمفيبول والتي تتراوح ألوانها بين الأبيض والأحمر والرمادي.

(٣) صخور قاعدية وفوق قاعدية وتشمل عائلتي الجابرو والبريدوتايت وتتميز بالألوان الداكنة التي تميل إلى السواد لوفرة معادن كل من الحديد والمغنيسيوم فيها من مثل معادن البيروكسين والأوليفين والبلاجيوكليز الكلسي. ومن ذلك يتضح بجلاء أن الجدد التي تتداخل في صخور الجبال هي في الأصل من الصخور النارية، وأن أفضل تصنيف لتلك الصخور هو التصنيف القائم علي أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس علي ألوانها علي النحو التالي:

(١) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر وهي الصخور الحامضية وفوق الحامضية وتشمل عائلة الصخور الجرانيتية (الرايولايت - الجرانيت).

(٢) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الداكنة من جهة أخرى، ولذا يغلب عليها الألوان الرمادية، وهي الصخور الموصوفة بالوسطية (بين الصخور الحامضية وفوق الحامضية من جهة، والصخور القاعدية وفوق القاعدية من جهة أخرى) وتضم عائلة الصخور الدايوريتية (الانديزايت - ديورايت)، وتقع تحت الوصف القرآني: مختلف ألوانها..

(٣) صخور تميل ألوانها إلى الدكنة حتي السواد وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وتشمل عائلتي الجابرو (البازلت - الجابرو) والبريدوتايت. وهذا التصنيف لم يصل إليه العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وآلاف الساعات من البحث المضي، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه في هذه الآية الكريمة بهذه الدقة البالغة التي تجمع الجدد البيضاء والحمراء في جهة، تعبيرا عن الصنف الأول من الصخور النارية (عائلة الجرانيت)، ثم تضيف هذه الإضافة المعجزة مختلف ألوانها لتعبر عن كل مراحل الانتقال في هذه المجموعة الحامضية وفوق الحامضية، ومنها إلى الصخور ذات التركيب الوسطي (مجموعة الصخور الدايوريتية)، وتحص المجموعة القاعدية وفوق القاعدية بهذا الوصف المبهر وغرائب سود (مجموعة صخور الجابرو والبريدوتايت). =

العليم القدير أتمّ وأعمق، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

« والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية. يعرفونه بأثار صنعته. ويدركونه بأثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. من ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً. لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون. ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب.. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علماً واصلاً. علماً يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل.

إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدي عن طريق جمالها، هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح، ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار. وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها!.. والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال.

الجمال عنصر مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن ثم هذه اللفتات في كتاب الله المنزل إلى الجمال في كتاب الله المعروض»^(١).

يقول العلامة الهندي الدكتور عناية الله المشرفي : كنت أدرس في كمبريدج. وذات يوم كانت السماء تمطر بغزارة، وكان صبيحة يوم الأحد سنة ١٩٠٩م فإذا بي أرى العالم الفلكي

= من أسرار القرآن - الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (٣٤).. ومن الجبال جدد بيض وحمرة مختلف ألوانها وغرايب سود بقلم د. زغلول النجار اسم الرابط hp://www.geociies.com/zaghloulalnajja/034.html بتاريخ ٢٨/١١/١٤٢٢ هـ ٢٠٠٢ م

(١) في ظلال القرآن / ٥ / ٢٩٤٣

المشهور «السير جيمس جينز» ذاهبا إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه.. فدنوتُ منه وسلمتُ عليه. فلم يرد عليَّ.. فسلمتُ مرةً أخرى فسألني : ماذا تريد مني ؟ فقلت له : أريد سؤالك عن شيئين :

الأول : لماذا لا تفتح مظلتك رغم نزول المطر ؟ فابتسم السير جينز وفتح المظلة.

والثاني : لماذا تذهب إلى الكنيسة وأنت عالمٌ كبيرٌ ذائع الصيت ؟^(١)

وهنا توقف العالم الكبير لحظة ثم قال لي : نلتقي معا في هذا المساء لنناقش هذه القضية.. وذهبت إليه في الموعد المحدد، فسألني على الفور : ماذا كان سؤالك لي في هذا الصباح ؟ ودون أن ينتظر مني جوابا، بدأ يتكلم عن الكون ونظامه الدقيق المدهش وعن الكواكب في السماء ونظامها العجيب المحكم... وعن المجرات وأبعادها اللامتناهية وطوفان أنوارها الباهرة.. و... نظرت إلى العالم الكبير فإذا به يبكي.. ويداه ترتعدان من خشية الله. ثم توقف فجأة. وبدأ يقول : عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ كياني يهتز من الجلال الإلهي. وعندما أركع أمام الله وأقول : إنك لعظيمٌ أحس بسعادةٍ تفوق كل سعادة..

فقلت له : لقد تأثرت كثيرا بما قلت : فهل تسمح لي بقراءة آية من آيات (القرآن) ؟

فأجاب المستر جينز : بكل سرور تفضل..

فقرأت عليه قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨]، وترجمت له معناها، وما كدت أتوقف حتى صرخ السير جينز قائلا : ماذا قلت ؟

(١) تعجب من ذهابه إلى الكنيسة في وقت انتشر فيه الإلحاد.

إننا يخشى الله من عباده العلماء. مدهش.. غريب.. عجيب جدا... من أنبا محمدا بهذا؟ هل هذه الآية في القرآن حقا؟ لو كان كما تقول.. فاكتب شهادة عني أن القرآن وحي من عند الله.. لقد كان محمد أميا.. ولا يمكن أن يكشف هذا السر بنفسه.. ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش وغريب وعجيب جداً.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

صلة هاتين الآيتين بمحور السورة صلة واضحة بيّنة؛ حيث تتجلى فيهما عظمة الخالق وجلاله وهيبته في قلوب العالمين المدققين في آيات الكون، الواقفين على بدائع المخلوقات وعجائب الكائنات ودقائق الآيات ولطائف الأسرار، الذين يعشقون هذا الجمال الذي أبدعه الخالق وأودعه في جميع العوالم المحيطة بنا في الآفاق وفي الأعماق وفي الثمرات اللبنة والجمال الشامخة، وفي الناس والدواب والأنعام وغير ذلك.

دعوة إلى تذوق هذا الجمال واستحضار عظمة الخالق واستذكار جليل نعمه ودقائقها.

الهدايات المستنبطة

- * الدعوة إلى النظر في الجمال الكوني وما يتمتع به من إبداع عجيب ونسق فريد وتمازج دقيق في الألوان المختلفة، التي تشهد بعظمة الخالق جلّ وعلا وبديع صنعه
- * هذا الاختلاف والتنوع مما يدعو إلى العظة والاعتبار، فكذلك الناس يختلفون في ألوانهم وهيئاتهم وأجناسهم وألستهم ومشاربهم وطبائعهم اختلافا تتجلى فيه عظمة الخالق جلّ وعلا وعجيب صنعه بما يدعو إلى هيبته تعالى وإجلاله ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ : أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة به أتمّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم.
- * فالتقوى والعلم متلازمان التقوى طريق العلم والعلم يقوي التقوى ويزيدها، قال نبينا

﴿... أَنَا أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعَلَّمَكُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ﴾^(١). وقال مسروق كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وقال رجل للشعبي أفني أيها العالم فقال الشعبي: إنما العالم من يخشى الله عز وجل، وقال مقاتل: أشد الناس خشية لله أعلمهم به، وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم^(٢).

* على المؤمن أن يجتهد في تحصيل العلم بالله حتى يرتقي إلى أعلى مقامات الخشية وينتفع بشمراتها؛ فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخشية وتتحقق ثمارها المرجوة.

-٦-

نعمة القرآن ومصير المؤمنين

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّن تَكُونُ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَلْحَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر : ٢٩-٣٥]

- (١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ (أنا أعلمكم بالله)، وأن المعرفة فعل القلب حديث ٢٠، ورواه الإمام مالك في الموطأ باب ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم موطأ مالك برواية يحيى الليثي ١/ ٢٩١ - حديث ٦٤١ وبرواية محمد بن الحسن ٢/ ١٦٥ حديث ٣٥١، ورواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن عطاء بن يسار عن رجل من الأنصار ٥/ ٤٣٤
- (٢) يراجع لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٥/ ٢٤٧.

المناسبة

بعد الحديث عن كتاب الله المنظور : جاء الحديث عن كتابه المسطور، فكما دعت السورة إلى التأمل في هذا الكون والنظر في شواهده وآياته، كذلك رغبت في تلاوة القرآن وتدبره والعمل به.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم كما يشعر به التعبير بالفعل المضارع.

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ جمعوا بين التلاوة والتدبر والعمل، وإقامة الصلاة والإنفاق في وجوه الخير برهان عملي على اتباع القرآن والانتفاع بهديه.

﴿ يَرْجُونَ جَنَّةً لَّيْسَ لَهَا فِيهَا نَكَبٌ ﴾: فدل هذا على سلامة القصد وصدق التوجه وإخلاص النية مع إتقان العمل، فهم يبتغون الأجر والثوبة من الله تعالى ويجتهدون في ذلك فتجارتهم رابحة وسعيهم مشكور.

﴿ لِيُوفِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾: يبتغون الأجر من الله والزيادة من فضله والله تعالى يحقق لهم ما يبتغون، ويبلغهم ما يرتجون، فهو تعالى غفور يغفر لهم الذنوب والتقصير، شكور يشكر سعيهم فيشبههم الثواب الجزيل على العمل اليسير.

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾
فهذا الكتاب وحي من الله تعالى، وهو الحق كما شهدت بذلك الآيات والدلائل وهو المصدق لما بين يديه.

أشرف ميراث

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣١) : أورث الله تعالى أعظم كتبه لخيرة خير أمة من اختارهم لحمل هذه الأمانة، ثم جعل الله هؤلاء القراء على ثلاث مراتب : فمنهم ظالم لنفسه بلغ حد التقصير وخلط الصالحات بالسيئات، ومنهم مقتصد يكتفي بترك المحرمات وفعل الواجبات، ومنهم سابق بالخيرات، وهم أصحاب الهمم العالية والنفوس المطمئنة والأرواح الوثابة إلى كل فضيلة، فذلك هو الفضل الكبير والشرف العظيم.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فِي قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾: « هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ وَرَثَتُهُمْ اللَّهُ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَ، فَظَالِمُهُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حُسَابًا سَيِّئًا، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١).

وعن محمد بن الحنفية رحمه الله قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. (٢).

وقال ابن كثير: « ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات» (٣).

« وإنما قدم الظالمين للإيدان بكثرتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون

(١) جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣١٨١ - برقم ١٧٩٨٥ ولباب التأويل للخازن ٥ / ٢٤٩

(٢) جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣١٨٢ - برقم ١٧٩٩٢ ولباب التأويل للخازن ٥ / ٢٤٩

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦ / ٥٤٦

أقل من القليل، وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لثلاثي يأس من فضله، وقيل: إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لا يبعده من ربه»^(١).

ونظير هذا قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ ﴿ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠-١٠٦].

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعني الأصناف الثلاثة الظالم لنفسه المقصر في بعض الواجبات المرتكب لبعض المحظورات، وكذلك المقتصد الذي يقتصر على ترك المحرمات وفعل الواجبات دون أن يجتهد في النوافل ويتنافس في الخيرات، وأما السابق إلى الخيرات فهو في أعلى المراتب بعلو همته وسمو روحه وصفاء قلبه واجتهاده في الطاعة وتقربه بالنوافل.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وقدم الحلية لأنها أحبُّ إلى النفس والشوق إليها أبلغ، وقد كان الذهب محرماً على الرجال في الدنيا وكذلك الحرير وقد أحله الله لهم وحلاهم بالأساور الذهبية والبسهم الحرير بألوانه الزاهية وملمسه الناعم كرامة لهم وتفضلاً عليهم.

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٣ / ٣٣٩

فالجنة دار النعيم وأهلها في أفراح متواصلة وسرور دائم، وقد نسوا ما مرَّ بهم في الدنيا من خوف وحزن وهم وغم وشقاء وحرمان، كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ).^(١)

وأهل الجنة في استحضر دائم لتلك النعم الربانية نعمة النجاة والفوز بالنعيم المقيم ونيل الفوز الكبير بالعمل اليسير ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الزلات فينساها المتعم في الجنان حتى لا تكدر عليه صفو عيشه، وهو تعالى الشكور يثيب على القليل بالثواب الجزيل.

﴿الَّذِي أَطَّلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾^(٢٥)

فالجنة من أجل النعم التي ينالها العباد بفضل الله تعالى وبرحمته: كما في الصحيحين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ؛ فَسَدُّوا وَقَارِبُوا)^(٢).

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ فلا شقاء فيها ولا عناء ولا تعب ولا نصب لأنها دار الجزاء لا دار عمل، فهي دار الراحة والاسترواح، ودار النعيم في ضيافة الكريم.

والنصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاوِل له، وأما اللغوب فما يلحقه

(١) رواه الإمام مسلم في صحيح كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة. حديث ٥٥ - (٢٨٠٧)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/٢٠٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل حديث ٦٠٩٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى. حديث ٧١ - (٢٨١٦).

من الإجهاد أو الإعياء أو الفتور الناتج عن النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب : نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة^(١).

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

إذا كان الكون شاهداً على عظمة الخالقِ وبديع صنعه، داعياً إلى شكره تعالى على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، فإن كتابَ الله تعالى من أجلِّ النعم وأعظم الشواهد الناطقة بكمال قدرته وإحاطة علمه وشمول رحمته وتمام نعمته، قد منَّ الله تعالى على من اصطفاه ليكون من ورثة هذا الخير ووعدهم بالجنان التي تتفاوت فيها الدرجات بتفاوت المقامات والأحوال والأعمال في الدنيا، والكلُّ فيها منعمٌ مسرورٌ، قد دخلوها برحمة الله وفضله ولطفه وإنعامه، فهي دار الخلد والمقامة والنعمة والكرامة، لا تعب فيها ولا نصب.

الهدايات المستنبطة

- * الدعوة إلى التأمل والنظر في كتاب الله المنظور وكتابه المسطور للوقوف على شواهد العظمة وآيات الحكمة ودلائل القدرة.
- * الحثُّ على تلاوة القرآن وتدبر معانيه، والنظر في مقاصده وأحكامه وعبره وعظاته مع التمسك بهديه والتخلق بأخلاقه.
- * أورث الله تعالى أعظم كتبه لمن اصطفاه واختارهم لحمل هذه الأمانة ونيل هذه المكانة
- * القراء على ثلاث مراتب : فمنهم ظالم لنفسه قد بلغ حد التقصير وخلط الصالحات بالسيئات، ومنهم المقتصد الذي يكتفي بترك المحرمات وفعل الواجبات، ومنهم السابق بالخيرات، وهم أصحاب الهمم العالية والنفوس الزاكية والأرواح الوثابة إلى كلِّ فضيلةٍ.

(١) يراجع الكشف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٥ / ٤٢٠

* الجنة دار نعيم مقيم وأهلها في فرح وحبور ولذة وسرور، وأنس وبهجة، لا شقاء فيها ولا عناء ولا تعب ولا نصب، فهي دار الجزاء لا دار عمل، دار الراحة والاستراحة، ودار النعيم في ضيافة الكريم.

-٧-

مصير الكافرين

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧]

المناسبة

بعد ذكر حال السعداء من ورثة كتاب الله تعالى التالي له العاملين به، ذكر حال أهل الشقاء من الكفرة المعاندين المعرضين.

التفسير الإجمالي

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ هذا مصيرهم المحتوم وجزاؤهم المعلوم ونصيبتهم المقسوم، فلا يخرجون منها ولا يموتون فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها فيستريحون. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾: جزاء عادل لكل من أصر على الكفر ومات عليه، وأعرض عن الحق وصدف عنه.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾

يجأرون ويستغيثون ألماً وحسرة وندماً وحرقةً، فيطلبون الرجوع إلى دار العمل ليستدركوا ما فاتهم ويصلحوا ما أفسدوه في حياتهم الأولى، وأنى لهم ذلك وقد أمهلهم الله تعالى وأمدَّ لهم في العمر فما استكانوا لربهم ولا رجعوا إليه، بل كذبوا بالندر وأعرضوا عنها.

﴿أَوْلَىٰ نَعْمِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وهذا وإن كان يشمل كلَّ عُمْرٍ تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وتغيير مساره، إلا أن ذنب من طال عمره أقيح وجرمه أعظم.^(١)

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَىٰ أَمْرِي آخَرَ أَجَلَهُ حَتَّىٰ بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً)^(٢) وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ أَبِيهِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ، قَالَ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ).^(٣)

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

ذوقوا العذاب الذي كنتم تستعجلونه استبعاداً وتحدياً وتعجيزاً، ذوقوا العذاب بعد ما حيل بينكم وبين ما تشتهونه في الدنيا من متع وملذات، فهو اليوم طعامكم وشرابكم ومهادكم وغطاؤكم، فلا ناصر لكم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

كما أن مصير السعداء فضل من الله ونعمة وعدلٌ ورحمةٌ، فكذلك مصير الأشقياء نعمة تستوجب الحمد على أن قطع الله دابرهم وأراح المؤمنين من شرورهم، والمؤمن يحمد الله تعالى

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٣٤١

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمْرِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْلَىٰ نَعْمِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ حديث ٦٠٥٦

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن بسر بسند صحيح المسند ٤/ ١٨٨، ١٨٨ وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ أَبِيهِ رضي الله عنه وإسناده حسن المسند ٥/ ٤٧، ٤٨.

على النجاة والعافية، كما يجمده على الفوز والرضوان، وفي التأمل في مصير الكفار استحضاراً لعظمة الله تعالى وهيبة وإجلالاً لمقامه تعالى.

الهدايات المستنبطة

- * الترهيب من النار ومن عذابها وشقاء أهلها، فلا يموتون فيستريحون ولا يخفف عنهم العذاب فيستروحون.
- * في التأمل في مصير الكفار استحضاراً لعظمة الله تعالى وهيبة وإجلالاً لمقامه تعالى، وفيه تسليّة لأهل الإيثار.
- * يُجمع للكفار بين العذاب الحسي والمعنوي، زيادة في إيلاهم، وتنكيلا بهم.

-٨-

من دلائل العظمة وشواهد القدرة

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلَقَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر : ٣٨-٤١]

المناسبة

بعد بيان مصير أهل الإيثار وعاقبة أهل الكفر والعصيان بين تعالى إحاطة علمه بعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة، وشموله لعلم كل ما استكن واستتر فضلا عما بدا وظهر، وإنعامه على بني آدم بنعمة الاستخلاف، ووعيده للكفرة بزيادة المقت والخسران بقدر زيادة

الكفر، ثم نفى شبهة المشركين ودحض حججهم الواهية، وجلى من شواهد قدرته وعظمته ووجوه لطفه وتعام نعمته: إمساكه السموات والأرض أن تزولا.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣٨) يعلم كل ما غاب واستتر فكيف علمه بما تجلّى وظهر، فضلا عن علمه بما يدور في الصدور، وما تكنه القلوب فيحاسب العباد على ما أظهره وما أضمره، ويشيب أهل الإيثار ويعاقب أهل الكفر والعصيان.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٣٩)

فكان الأولى القيام بواجبات هذه الخلافة والوفاء بحقوقها، فهي تشریف وتكليف، وابتلاء يعقبه جزاء، والله تعالى لا تنفعه طاعة الطائعين كما لا يضره كفر الكافرين، بل الكافر هو من يتضرر بكفره وينال جزاء عناده واستكباره وجحوده وإعراضه، ولا يزداد بكفره إلا مقتًا وبعداً وبغضاً من الله تعالى على هذه الجريمة النكراء، ولا يحظى إلا بالخسارة في الدارين لقاءً بقاءه على الكفر مع تسلسل الحجج وجلاء البراهين.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنِ بِعِذِ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٤٠)

بعد أن شهدت آيات الكون بعظمة الخالق عز وجل ونطقت بوحدانيته، فلماذا يصر المشركون على شركهم؟ وقد ظهر لهم أن الخالق الرازق هو الله وحده؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾؟

وقد تقرر أنهم لم يخلقوا شيئاً ولم يملكوا مثقال ذرة فلماذا يصر المشركون على شركهم وما حجتهم أمام الواحد الأحد؟ حين يقفوا بين يديه ويستيقنوا من أنهم كانوا على ضلال

بَيْنَ، وسراب خادع، متعلقين بالأمانى الكاذبة والمعاذير الواهية والشبه الباطلة ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُّ
الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١١)

من شواهد العظمة ودلائل القدرة أنه تعالى هو المدبر لهذا الكون المصرف لأمره وفق تقدير عجيب وترتيب محكم، وأنه تعالى يمسك السموات والأرض ولولا ذلك لزالتا، وهل يستطيع أحدٌ سواه أن يقوم بهذا الأمر الجليل؟ ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾، فيا لحلمه تعالى بعباده وإمهاله لهم ولو شاء لأطبق السماء على الأرض وعجل بهلاك كل مذنب ومقصر ولكنه تعالى حلیم بهم غافر لذنوب من قصده ورجاه وتاب إليه وطرق بابه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

هذه الآيات الكريمة ناطقةٌ بعظمة الخالق جل وعلا ودالةٌ على تمام عدله وشمول رحمته وشاهدةٌ بكمال قدرته وتفرد بالوحدانية، وفيها وعيدٌ للكافرين بما يستحقونه من مقت وخسرانٍ بقدر كفرهم، ودحضٌ شبه أهل الشرك، ومن دلائل العظمة ولطائف النعم إمساكُ السموات والأرض وحفظهما فلا يقدر على ذلك إلا الله.

الهدايات المستنبطة

- * إحاطة علمه تعالى بكل ما غاب واستتر، فضلا عما تجلّى وظهر، فهو عالم الغيب والشهادة وهو العليم بما يدور في الصدور وما تكئنه القلوب، وفي هذا ما يدعو إلى الخشية والإجلال والإحسان في سائر الأعمال.
- * من نعمه تعالى على البشرية وتكريمه لهم أن استخلفهم في الأرض فعليهم القيام بواجبات هذه المهمة الجليلة ومقتضيات هذه المسئولية العظيمة.
- * الله تعالى غنيٌّ عن العالمين، لا تنفعه طاعةُ الطائعين، ولا يضره كفرُ الكافرين.

- * التحذير من جريمة الكفر وسوء عاقبته، فالكافر لا يزداد بكفره عند ربه إلا مقتا وبعدا، ولا يحظى إلا بالخسارة في الدارين.
- * من شواهد العظمة ودلائل القدرة ولطائف النعمة : أنه تعالى هو المدبر لهذا الكون المصرف لأمره وفق تقدير عجيب وترتيب محكم.

-٩-

من أسباب الصدود

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إْحَدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر : ٤٢ ، ٤٣] .

المناسبة

هذه الآيات متصلة بما سبقها من حوار الكافرين ودحض شبههم وبيان أسباب صدودهم ونفورهم من دعوة الحق، ووعيدهم بما أصاب من سبقهم من المكذبين، فتلك سنة الله تعالى في الأولين لا تبديل لها ولا تحويل، وهذا من تمام عدله تعالى ودلائل قدرته وشواهد عظمته، وفي إهلاك المكذبين نجاة للمؤمنين ونصر لهم وتلك نعمة جليلة.

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إْحَدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أقسموا بالله إن جاءهم نذير ليؤمنن به ولينصرنه، فيتسابقون إلى الهداية والرشاد، فلما جاءهم النذير ما زادهم إلا نفورا، وكان أولى بهم أن يشكروا الله على هذه المنة، لكنهم بالغوا

في النفور من هذه الدعوة واستكبروا عنها ومكروا بخبث ودهاء لإمامها ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ : فماذا ينتظرون بعد ذلك ؟ وقد أنكروا النعمة وردوا الهدية واحتالوا لإمام الهدى وكادوا له ولمن آمن به، ماذا ينتظرون إلا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وسنة الله فيمن سبقهم على طريق الجحود والإعراض ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ سنة الله في المكذبين أن يعاقبهم بعذاب عاجل مع ما ينتظرون من العذاب الآجل وتلك سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وحكم فاصل عادل ﴿ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ .

أما كان الأولى بكفار قريش أن يحتفوا بهذا النبي العربي وأن يناصروه ويعزروه، وقد جاءهم بأعظم الكتب وأتم الشرائع وأقوم المناهج التي ترقى بهم إلى قيادة الأمم ؟

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصِدْقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدْقُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧].

فما حجتهم وقد جعل الله فيهم خير الدعوات وآخرها، وبعث فيهم خير الرسل وخاتمهم ؟

لقد كفروا بهذه النعمة المسداة، والرحمة المهداة، شأنهم شأن اليهود كانوا يستفتحون بالنبي الخاتم ﷺ فلما جاءهم وعرفوه كفروا به وجحدوه قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بينت الآيات موقف الكفار من هذه النعمة المهداة نعمة النبي العربي ﷺ الذي من الله عليهم به لكنهم أعرضوا عن نعمة الله وأنكروها استكباراً منهم واحتيالاً على دعوة الحق ومكراً بأهلها، وغفلة عن سنن الله الثابتة.

الهدايات المستنبطة

- * من أسباب الصدود والإعراض ومظاهرة : التخاذل عن نصره الحق والاستكبار في الأرض، والكيد لهذا الدين.
- * المكر السيئ يحيط بأهله فيهلكهم، فترتد إليهم عاقبته وتدور الدائرة عليهم، ومن مكر الله بهم استدراجهم وسوء خاتمهم.
- * التأمل والنظر في سنن الله تعالى والوقوف على سماتها وأبعادها وآثارها، فهي سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وهي سنن عادلة، ومن هذه السنن إهلاك المكذبين.

خاتمة السورة

دعوة للسير والنظر

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِّن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَدَ اللَّهُ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر : ٤٤ ، ٤٥] .

المناسبة

لما توعدهم بسنته تعالى في الأولين دعا إلى السير للاعتبار بآثارهم والوقوف على أخبارهم

وبين سبحانه أنه يمهلهم استدراجاً لهم ومكراً بهم، فإذا حان الأجل، وحَمَّ الأمرُ فإن الله بصيرٌ بهم محيطٌ بأعمالهم فيجزئهم عليها.

التفسير الإجمالي

﴿ أَوْلَىٰ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾

تختم السورة الكريمة بهذه الدعوة إلى السير والنظر في آثار الأمم الغابرة وحضاراتهم الآفلة، كيف ازدهرت وارتقت ثم تلاشت واضمحلت، وكيف تحولت هذه الأمم من القوة إلى الضعف، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الوحدة إلى الفرقة والشتات، ومن العزة إلى المذلة والهوان، فهل من معتبرٍ وهل من مدكر!

أُنشِدْ قَسْ بُنْ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي :

مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ	فِي الذَّاهِبِينَ الْأُولِينَ
لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ	لِمَا رَأَيْتُ مُوَارِدًا
يَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ	وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا
وَلَا مِنْ الْبَاقِينَ غَابِرُ	لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ
حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ	أَيَقْنَتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ

﴿ أَوْلَىٰ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ هل

أغنت عنهم حصونهم المنيعه وبروجهم المشيدة وجيوشهم الجرارة؟ كلا والله الذي لا يعجزه شيء، فهو تعالى العليم لا تخفى عليه خافيةٌ ولا تغيب عن علمه غائبة، القديرُ على إلحاق العذاب بمن خالفه وعصاه. ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعُجْزِهِ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

حلمه تعالى ولطفه بخلقه

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَا كُنْ

يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

ومن لطفه تعالى وحلمه ورحمته بعباده أنه لا يعجل لهم العقوبة بل يمهلهم ويؤخرهم لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولو عَجَّلَ المؤاخذة وأعقب كل ذنب بعقوبة عاجلة وبادر العصاة بحرب شاملة لما بقي على ظهر الأرض من دابة، ولكن يمهل ويؤخر إلى أجل قد قدره فإما أن يجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة وإما أن يدخر لهم العذاب ليكون أشدَّ وأعظم نكايَةً.

يقول صاحب الظلال: « إن تتابع الأجيال في الأرض، وذهاب جيل ومجيء جيل، ووراثته هذا لذلك، وانتهاء دولة وقيام دولة، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة، وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور.. إن التفكير في هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذكرون أخبارهم، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذكرون أخبارهم، وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمار، وتقلب الصولجان، وتديل الدول، وتورث الملك، وتجعل من الجيل خليفة لجيل، وكل شيء يمضي وينتهي ويزول، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يحول.

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي، فلا يخلد ولا يبقى، من كان شأنه أنه سائح في رحلة ذات أجل؛ وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل، من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثوائه القليل، ويترك وراءه الذكر الجميل، ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير^(١).

المناسبة بين خاتمة السورة ومحورها

السير في الأرض من أجل العبر وأبلغ التذُّر، فالأرضُ حافلةٌ بشواهد العظمة وآيات القدرة، ناطقةٌ بمصير الأمم السابقة، واعيةٌ لتاريخهم، حافظةٌ لآثارهم، وهذه التذُّر من أجل النعم؛ لأنها تهزُّ الوجدانَ وتقِيِّمُ الحجَّةَ والبرهانَ.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٧.

الهدايات المستنبطة

- * الدعوة إلى السير والنظر في أحوال السابقين وآثارهم سير تأملٍ ونظرة اعتبارٍ
- * قدرة الله تعالى التي لا تحُدُّها حدودٌ، وحكمته تعالى في إمهال الكافرين واستدراجهم وحلمه ولطفه في إمهال العصاة وإعذارهم.

سورة يس

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية :

سُميت سورة يس بهذا الاسم لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

ب - فضل السورة :

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواه الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَثِينَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلَتْ بِالْمَفْضَلِ) ^(١).

ومما ورد في فضل سورة يس على وجه الخصوص: ما أخرجه ابن حبان، عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفِرَ له. » ^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن سورة يس قد ورد في فضلها أحاديث كثيرة، لكنها إما ضعيفة أو موضوعة، ونشير إليها فيما يلي للعلم والحذر:

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٠٧ / ٤. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١ / ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ك: الصلاة، ب: قيام الليل، مبحث: استحباب قراءة يس للمتجهدي كل ليلة رجاء مغفرة الله ما قدم من ذنوبه بها ٠ الإحسان) ٦ / ٣١٢ رقم ٢٥٧٤. عن جندب - رضي الله عنه. والحديث صحيح. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٩٤.

- (إن الله تبارك وتعالى قرأ ﴿طه﴾ و﴿يس﴾ قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليهم، وطوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجوف تحمل هذا) وهذا الحديث ضعيف. (١)
- (من دخل المقابر فقرأ سورة ﴿يس﴾ خفف عنهم يومئذ، وكان له بعدد من فيها حسنات) وهذا الحديث موضوع. (٢)
- (إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس؛ كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) وهذا الحديث موضوع. (٣)
- (من قرأ ﴿يس﴾ ابتغاء وجه الله، غُفر الله له ما تقدم من ذنبه، فاقروها عند موتاكم) وهذا الحديث ضعيف. (٤)
- (من قرأ ﴿يس﴾ في صدر النهار؛ قضيت حوائجه) وهذا الحديث ضعيف. (٥)

ج - مكية السورة:

سورة يس مكية، ماعدا الآية «٤٥» فمدنية، وترتيبها في المصحف الشريف السادسة والثلاثون (٣٦). نزلت بعد سورة الجن. من الجزء «٢٣» والحزب «٤٥». عدد آيات السورة. عدد آياتها ٨٣ (٦).

- (١) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٤٨.
- (٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٤٦.
- (٣) ضعيف الترغيب والترهيب ٨٨٥.
- (٤) ضعيف الجامع الصغير ٥٧٨٥.
- (٥) ضعيف مشكاة المصابيح ٢١١٨.
- (٦) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٨٥.

محور السورة:

تناولت سورة يس ثلاثة مواضيع أساسية هي:

- الإيمان بالبعث والنشور والجزاء.

- قصة أهل القرية.

- الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

والمحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة: إثبات البعث والجزاء، وإقامة الأدلة

والبراهين على ذلك.

المناسبات في السورة الكريمة:**١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:**

المناسبة بين مطلع سورة يس وخاتمتها واضحة؛ ففي بداية السورة جاء الحديث عن

استحقاق الكافرين العذاب، لعنادهم، وختم الله على قلوبهم. ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً سَوَاءً لَهَا فِيهِمْ أَغْلَاقٌ فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

وفي نهاية السورة نموذج لواحد من هؤلاء المعاندين الجاحدين، ختم الله على قلبه، وأعمى

بصيرته؛ فجاء يجادل النبي ﷺ في قضية البعث ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة يس وخاتمة السورة التي قبلها (فاطر) ففي نهاية

سورة فاطر جاء الحديث عن قدرة الله تعالى المطلقة: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ. مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]. وجاء في أول سورة (يس) إشارة إلى

بعض مظاهر هذه القدرة المطلقة، مثل قدرته تعالى على إحياء الموتى، وإحصاء الأعمال وتدوينها على العباد بكل دقة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

٣. المناسبة بين مضمون سورة (يس) ومضمون السورة التي قبلها (فاطر).

هناك ارتباط بين مضمون سورة (يس) والسورة التي قبلها (فاطر)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين حديث عن عداوة الشيطان للإنسان: ففي سورة فاطر: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتُكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٥-٦]. وفي سورة يس: ﴿ ﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

* في السورتين حديث عن آيات الله تعالى في الكون والآفاق: ففي سورة فاطر: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١﴾ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنَ كُلِّ نَاقِلٍ لَحْمًا طَرِيبًا وَنَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنَ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُورِثُ الْآيِلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِثُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

وفي سورة يس: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

﴿ ٣٣ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴾ ﴿ ٤٣ ﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ﴿ ٤٤ ﴾ .

* في السورتين مقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين: ففي فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِذِ اللَّهُ ذَلِكُ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿ ٣٢ ﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ﴿ ٣٣ ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴿ ٣٤ ﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ ﴿ ٣٥ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ ﴿ ٣٧ ﴾ .

وفي سورة يس: ﴿ إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتُكْهَنُونَ ﴾ ﴿ ٥٥ ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ ﴾ ﴿ ٥٦ ﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ ﴿ ٥٧ ﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴾ ﴿ ٥٨ ﴾ وَأَمْتَدُّوا أَيُّومًا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ ٦١ ﴾ .

* في السورتين حديث عن قدرة الله تعالى؛ ففي سورة فاطر: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ ﴿ ٤٤ ﴾ وفي سورة يس: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ ٧٩ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ ﴿ ٨٠ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ ٨١ ﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ ٨٣ ﴾ .

ومن أوجه الارتباط بين سورتي فاطر ويس ما أورده السيوطي - رحمه الله - حيث قال:

« لما ذكر - جل شأنه في سورة فاطر قوله: ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته وأنه على صراط مستقيم، لينذر قومًا ما أنذر آباؤهم وهذا وجه بين.

وفي فاطر: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ وفي يس ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ وذلك أبسط وأوضح.

وفي فاطر: ﴿ وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ ﴾ وفي يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴿٤٣﴾ ﴿ فزاد القصة بسطاً. » (١)

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/١٦.

التفسير الموضوعي للسورة الكريمة

القسم بالقرآن الكريم، وحال النبي ﷺ مع قومه

﴿ يَس ١ ﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿ ٢ ﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٣ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٤ ﴾ نَزِيلَ الْعَرْشِ الرَّحِيمِ ﴿ ٥ ﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿ ٦ ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَیْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ٧ ﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿ ٨ ﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿ ٩ ﴾ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٠ ﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿ ١١ ﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿ ١٢ ﴾ ﴾

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ ﴾:

عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا الثقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن آثاركم تكتب، فلا تنتقلوا». (١)

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بـ ﴿ يَس ﴾ والقرآن الحكيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ. و﴿ يَس ﴾ حرفان من الحروف المقطعة، ذكرت في أوائل بعض السور للتنبية على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها. (٢)

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٣٦٣ رقم الحديث: ٣٢٢٦. وقال: حسن غريب. وقال الألباني: صحيح.

انظر: صحيح الترمذي ٣ / ٩٧.

(٢) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.

وقد أقسم الله تعالى هنا بهذا الكتاب المحكم، المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمداً ﷺ رسوله. وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ﷺ ما فيه.

أي وحق هذا القرآن الحكيم، إنك أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا، وتبليغ دعوتنا إلى الناس، لكي يخلصوا العبادة لنا، ولا يشركوا معنا في ذلك غيرنا. وجاء هذا الجواب مشتملاً على أكثر من مؤكد، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا في شأنه: « لست مرسلًا ». (١)

والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر، له سوابق مقررة. فليس هو الذي يراد إثباته. إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً ﷺ من هؤلاء المرسلين. ويخاطبه هو بهذا القسم - ولا يوجهه إلى المنكرين المكذابين - ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة. إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول (٢).

وكما أنك أيها نبي من المرسلين، فإنك كذلك على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد، قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى، وهو الإسلام كما قال قتادة، والتنكير للتفخيم والتعظيم. (٣)

ومن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبية إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جواباً! » في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.

(١) يراجع: تفسير القرطبي ١٥ / ٥٥، التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٢٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٢ / ٩٧.

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول. وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة، فهي قائمة كحد السيف، لا عوج فيها ولا انحراف، ولا التواء فيها ولا ميل. الحق فيها واضح، لا غموض فيه ولا التباس. ولا يميل مع هوى، ولا ينحرف مع مصلحة. يجده من يطلبه في سر وفي دقة. (١)

هذا القرآن الهادي المنير، تنزيلٌ من ربّ العزة جل وعلا، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه لتُحذّر يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان..

« والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته. معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة. تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها. ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم الذين مضت الأجيال دون أن ينذروهم منذر، أو ينبههم منبه. فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول. فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة، الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير. » (٢)

ثم بيّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فيبين أن عذاب النار قد وجب على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد..

لقد قضي في أمرهم، وحق قدرُ الله على أكثرهم، بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون. وهذا هو المصير الأخير للأكثرين. فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٩.

وهنا يرسم مشهداً حسيّاً لهذه الحالة النفسية، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً. فأغشيناهم فهم لا يبصرون..

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم، موضوعة تحت أذقانهم. ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف! ^(١)

قال في الجلالين: وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يُدْعون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له. ^(٢) قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جعل في عنقه غلّاً، وجمعت يده مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مُقمحاً، والمُقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغلِّ في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغلِّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق. ^(٣) وقال أبو السعود: مثل حالهم بحال الذين غلَّتْ أعناقهم والأغلال منتهية إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته. ^(٤)

وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك فغطينا بها أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٩.

(٢) تفسير الجلالين ٣ / ٣١٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٥.

(٤) إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٤٨.

والآيات، قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسد طرق الإيمان عليهم، بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده. (١)

يقول الفخر الرازي: يحتل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود، وسبيل الحق عليه مسدود، وهو لا يبصر السد، ولا يعلم الصد، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة، وغير ضال. (٢)

وهؤلاء الذين جعلنا في أعناقهم أغلالا.. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه، فهم - لسوء استعدادهم وفساد فطرتهم - لا يؤمنون بالحق الذي جتتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به، لأنهم ماتت قلوبهم، وصارت لا تتأثر بشيء مما تدعوهم إليه. (٣) وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان.

إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه وخاف الله دون أن يراه، فبشره يا محمد بمغفرة عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم، قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميل وذلك إنما يكون في الجنة (٤).

ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور، فبين جل شأنه أنه يبعث الموتى من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء. وقبل البعث كان يحصي عليهم في الدنيا أعمالهم ويكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها حتى آثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد.

وكل شيء من الأشياء أو أمر من الأمور جمعه الله - جل شأنه - وضبطه في كتاب مسطور، هو صحائف الأعمال كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]. أي

(١) يراجع حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١١٨.

(٣) التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٢٦.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٦.

بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ. (١) وقال أبو حيان: «ونكتب ما قدموا» أي ونحصى، فعبر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء». (٢)

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلاً طويلاً. وسيرد منه في هذه السورة أمثلة منوعة. وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار، كلها تكتب وتحصى، فلا يند منها شيء ولا ينسى. والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى، وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم، وهو الذي يحصي كل شيء ويثبته. فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد الله. (٣)

من هداية الآيات:

- * تقرير النبوة المحمدية وتأكيد رسالته صلى الله عليه وسلم.
- * بيان الحكمة من إرسال الرسول وإنزال الكتاب الكريم.
- * بيان أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بعث على فترة من الرسل.
- * بيان أن حب الدنيا والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة وعدم الالتفات إليها يضعان الإنسان بين حاجزين لا يستطيع تجاوزهما والتخلص منهما.
- * بيان أن الذنوب تقيدها صاحبها وتحول بينه وبين فعل الخير وقبول الحق.
- * بيان أن من سن سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده يجزي بها كما يجزي على عمله الذي باشره بيده.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٦.

(٢) البحر المحيط ٧ / ٣٢٥.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٠.

* تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن كل شيء في كتاب المقادير المعبر عنه بالإمام. (١)

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة :

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في نهاية هذا المقطع تأكيد الله جل شأنه على إحياء الموتى وبعثهم، ليُجازوا بما قدموا من عمل أُحصي عليهم في الدنيا بكل دقة، ودُونَ في كتاب جامع وواضح.

قصة أصحاب القرية

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلِّغُ الْمَعِيثِ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

بعد عرض قضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والحساب، في هذه الصورة التقريرية يعود السياق ليعرضها في صورة قصصية. تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبها معروضة كالعيان. (٢)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥٠ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٠.

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا قصة أهل القرية الذين كذبوا رسل الله إليهم، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار. « ولم يذكر القرآن الكريم من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. التي لا طائل من تتبعها. وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها. »^(١)

والمعنى: واضرب -أيها الرسول- لمشركي قومك الرادئين لدعوتك مثلاً يعتبرون به وهو قصة أهل القرية، حين ذهب إليهم المرسلون، إذ أرسلنا إليهم رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة غيره، فكذب أهل القرية الرسولين، فعززناهما وقويتهما برسول ثالث، فقال الثلاثة لأهل القرية: إنا رسل الله مرسلون هدايتكم؛ فرد عليهم أهل القرية بأنه ليس لكم فضل علينا، وما أنتمم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ بل الله لم ينزل شيئاً من الوحي والرسالة، وما أنتمم إلا قوم تكذبون في دعوى النبوة.

فأجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشد الانتقام وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جلياً لا غموض فيه، فإن آمنتكم فلکم السعادة، وإن كذبتكم فلکم الشقاوة.^(٢)

قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ «الْمُبَيِّنُ» لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت.^(٣)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٠ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر ٧ / ٤٧٧.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٣٢٧.

قال لهم أهل القرية: إننا نشاء منكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيوان، وترك عبادة آلهتنا. قال المفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسول أنهم دعوهم إلى دين غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه، ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه، كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه. ثم توعدوا الرسول بالرجم والعذاب الأليم^(١).

وهكذا أسفر الباطل عن غشمة؛ وأطلق على الهداة تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد في التعبير والتفكير! ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسول يقضي عليهم بالمضي في الطريق: (٢)

قالت الرسول لهم: ليس شؤمكم بسبينا، وإنما شؤمكم بسبيكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم، لأننا ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءتم بنا، وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟ ليس الأمر كما زعمتم، بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام. وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتفريع. (٣)

من هداية الآيات:

- * استحسان ضرب المثل. وهو تصوير حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما هنا في قصة أصحاب القرية.
- * تشابه حال الكفار في التكذيب والإصرار في كل زمان ومكان.
- * لجوء أهل الكفر بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد.
- * حرمة التطير والتشاؤم في الإسلام. (٤)

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣ / ١٢٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٠.

(٤) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥١.

الرجل المؤمن يدعو قومه لا اتباع المرسلين

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بَصِيرًا لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَأْتِي ضُلَالٌ مُبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنْ يَأْمُرْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرُونَ عَلَى أَعْيُنِ الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا رجل سمع دعوة رسل الله، فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقاله لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يطق عليها سكوتاً؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره، وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويحسدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأليم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين. (١)

قال ابن كثير: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وطلب من قومه أن يتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله جل شأنه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٢٩٦٣.

والذين لا يطلبون أجره على دعوتهم، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله. (١)
وقد تلطّف هذا الرجل المؤمن في الإرشاد لقومه كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار
لنفسه ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٢) وفي هذا الكلام نوع تقريع على
ترك عبادة خالقهم. والمعنى: أي شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي؟ وإليه
مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله.

وكيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً؟ بل هي
في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن ينزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع
شفاعتهم، ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟. إني إن
عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي.

وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه، فقال: إني آمنت بربكم الذي خلقكم،
فاسمعوا قولي، واعملوا بنصيحتي. (٢)

ويوحى سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه. وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا
صراحة. إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه؛ ويرفعه لنرى هذا
الشهيد الذي جهر بكلمة الحق، متبعاً صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد
والتنكيل. نراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة. تليق بمقام المؤمن الشجاع
المخلص الشهيد:

قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين..

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء.
وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١١.

الحق. ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين. (١)

قال أبو السعود: وإنما تَمَّتْ علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء. (٢)

هذا حال الرجل المؤمن ومصيره، فماذا عن مصير المكذبين الجاحدين؟ « ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صاح بهم جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أخذت أنفاسهم حتى صاروا كالنار الخامدة. ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم. ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل! » (٣)

ويا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسول الله المنكرين لآياته، ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبه واستهزؤوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان، وهؤلاء المكذبين الهالكين أحقاء بان يتحسروا على أنفسهم أو يتحسروا عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ بهم مبلغاً عظيماً حيث إن كل من يتأتى منه التلفيف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسول تحسّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة.

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها. ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم حين بعد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٤.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٤.

الحين؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة وسيئون الأدب مع الله: ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون. (١) وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين. فما لهؤلاء لا يتعظون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسول، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم.

« ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون، على مدار السنين وتطاول القرون.. لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر. ولكن العباد البائسين لا يتدبرون. وهم صائرون إلى ذات المصير. فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف؟! » (٢).

هذا وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها. قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين، بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب. (٣).

من هداية الآيات:

- * بيان كرامة الرجل المؤمن الذي أدى ما عليه في نصيحة قومه.
- * بيان ما يلاقي دعاة التوحيد والدين الحق في كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.
- * وجوب إبلاغ دعوة الحق مهما كان حجم التضحيات.
- * بشرى المؤمن عند الموت، لا سيما الشهيد، فإنه يرى الجنة رأي العين.
- * مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل القرية بصيحة واحدة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٦.

(٢) المرجع السابق ٥ / ٢٩٦٧.

(٣) البحر المحيط ٧ / ٣٣٥.

* طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقلة من اعتبر بغيره.

* تقرير المعاد والحساب والجزاء. (١)

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة :

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتام الوضوح، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في هذا المقطع التأكيد على هذا المعنى، من خلال سوق نموذج الرجل المؤمن، وإكرام الله له بدخول الجنة مثوبة وجزاء. ومن خلال التأكيد على أن كل العباد يوم القيامة مجموعون لميقات يوم معلوم، حيث قال جل شأنه هنا: ﴿ وَإِن كَلِّمْنَا جَمِيعًا لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (٣٢).

بعض آيات من قدرة الله عز وجل

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٣٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْآيَةُ الَّتِي نَسَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْآيَةُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤٤﴾

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥٣ - ٣٥٤ بتصرف.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما تقدم في الآيات قبل هذه تقرير عقيدة البعث والجزاء في قوله ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ذكر هنا الدليل العقلي على صحة إمكان البعث فقال: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ أي على صحة البعث. (١)

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا طرفا من آيات الله تعالى في كونه، لتكون دلالة لهؤلاء المشركين على وحدانية الله تعالى وقدرته سبحانه على البعث والنشور، وهذه الأدلة منها ما هو أرضي ومنها ما هو سماوي، ومنه ما هو بحري، وكلها تدل - أيضا - على فضله ورحمته.

وأول هذه الآيات: إحياء الأرض الميتة التي لا نبات فيها، أحيها الله بإنزال الماء، وأخرج منها أنواع النبات مما يأكل الناس والأنعام، ومن أحياء الأرض بالنبات أحياء الخلق بعد المات. (٢)

قال القرطبي: تبهّم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم على توحيده وكمال قدرته، بالأرض الميتة أحيها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحبّ يأكلون وبه يتغذون وجعل - سبحانه - في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب وجعل فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة. (٣)

« والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجربها؛ إنما هي يد الله التي تجري المعجزات، وتبث روح الحياة في الموات. وإن رؤية الزرع النامي، والجنان الوارفة، والثمر اليانع، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور، وتنضج العود المستشرف للشمس والضياء، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار، وتفتح الزهرة وتنضج

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥٥.

(٢) التفسير الميسر ٧ / ٤٩٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٥.

الثمرة، وتهيئها للجني والقطاف. (١).

ولما امتنَّ سبحانه على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم وكدهم، ولا بحولهم وقوتهم، فهلا شكروا الله على ما أنعم به عليهم؟ (٢)

تنزهه وتقدس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال، من جميع الأشياء مما تُخرج الأرض من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء الغريبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) [الذاريات: ٤٩].

وعلاوةً أخرى لهم على كمال قدرة الله: الليلُ يزيل عنه الضوء، ويفصله عن النهار، فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل في الكون هو الظلام، والنور عارض وهذا ما أكدته العلم الحديث، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويكشف ويزول، فيظهر الأصل وهو الظلمة. (٣)

ومشهد قدوم الليل، والنور يختفي والظلمة تغشى.. مشهد مكرور، يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة [فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهرًا، قرب القطبين في الشمال والجنوب] وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير.

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبير فريد. فهو يصور النهار متلبسًا بالليل؛ ثم ينزع الله النهار من الليل، فإذا هم مظلومون. ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٧.

(٢) يراجع: مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤.

الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته. فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس؛ فإذا هذه النقطة نهار؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام، وكأنها نور النهار ينزع أو يسليخ فيحل محله الظلام. فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير. (١)

وآية أخرى لهم الشمس تسير بقدره الله في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزمين تستقر فيه، ولوقتٍ تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم.

قال ابن كثير: وفي قوله تعالى: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا أبا ذرٍ أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش..) الحديث. (٢)

والثاني: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور وينتهي هذا العالم إلى غايته، وذلك الجري والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه. (٣)

والقمر قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازل دق واستقوس، وصار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس. (٤)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٨.

(٢) رواه البخاري ٣ / ١١٧٠ رقم ٣٠٢٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٢.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥.

قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكبٌ نهاري.

وأما القمر فقدّرهُ منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئلاً قليلاً من النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم، قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر. (١)

ولا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصالحة العباد، قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهراً لا ليل فيها، ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضياؤه فتكون الأوقات كلها ليلاً. وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء. (٢)

قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت. والغرض من الآية: بيان قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر، كما قال قتادة: « لكل حدٌ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه » حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ۗ ﴾ [القيامة: ٩]. فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي. (٣)

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٣.

(٢) يراجع: تفسير الطبري ٢٣ / ٦.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦.

وعلاوة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح عليه السلام، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال في التسهيل: وإنما خصّ ذريتهم بالذكر، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة. ^(١)

« والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها، وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار. والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط، يدركون هول البحر المخيف؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار. ويمسسون معنى رحمة الله؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء. وذلك حتى يقضي الكتاب أجله، ويحل الموعد المقدر في حينه، وفق ما قدره الحكيم الخبير: ومتاعاً إلى حين. ^(٢)

وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان. ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم، ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق، ولا ينقذهم إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتعنا لهم إلى انقضاء آجالهم.. ^(٣)

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء التي هي القوة الدافعة للإنسان على فعل الخيرات وترك الشرور والمنكرات.

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣ / ١٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٠.

(٣) صفوة التفاسير ٣ / ١٦ بتصرف يسير.

- * وجوب شكر الله تعالى على نعمه، ومنها نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد بالغذاء والماء والهواء.
- * ذكر القرآن لأمر الفلك التي لم يعرف عنها الناس اليوم إلا النذر اليسير آية عظمى على أنه وحي الله وأن من أوحى إليه هو رسول الله قطعاً.
- * بيان فضل الله على البشرية في إنجاء ذرية قوم نوح الكافرين ومنهم كان البشر وإلا لو أغرق الله الجميع المؤمنين الذرية والكافرين الآباء لم يبق في الأرض أحد.
- * حماية الله تعالى للعباد ورعايته لهم وإلا لهلكوا أجمعين.. ولكن أين شكرهم؟^(١)

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في صدر هذا المقطع التأكيد على هذه العقيدة من خلال لفت الأنظار إلى آية إحياء الله تعالى للأرض الميتة، والتنويه بذلك على أن من يقدر على إحياء موات الأرض فهو كذلك يقدر على إحياء موات الإنسان.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥٥ - ٣٥٨.

إعراض الكفار عن الحق وتعاميهم عن الهدى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما ذكّرهم الله تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن تعاميمهم عن الحق وإعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات.

التفسير الإجمالي

إن هؤلاء الكفار أمرهم عجيب: لقد ساق الله لهم الآيات الظاهرة التي يعرفها كل مخلوق، في الليل والنهار، والشمس والقمر، والأرض الميتة، وحمل ذرياتهم في ظهور آبائهم فما اتعظوا وما تذكروا.

والآن يخوفهم الله عاقبة أمرهم بعد عرض الآيات عليهم لعلمهم يتوبون فيرحمون ولكنهم مع كل ذلك معرضون! ^(١)

بل إنهم إذا قيل لهم: احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حلّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا وجواب الشرط محذوف تقديره: أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوف والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ فاكتمى بهذا عن ذلك. ^(٢)

ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين، أنهم ما تأتتهم آية من الآيات

(١) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣ / ٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٦.

التي تدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق في دعوته، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضاً تاماً، شأنهم في ذلك شأن الجاحدين من قبلهم. (١)

وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستبعب لتحويل ما اجترؤوا عليه في حقها. (٢)

والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية، التي من جملتها الآيات الناطقة ببداية صنع الله وسوايح آلائه، أو الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات وغيرها من تعجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرد به بالألوهية. (٣)

وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين قالوا للمؤمنين تهكماً بهم: أنفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمرونا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله. فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق، لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟

وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغني بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للابتلاء. والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحد في مشيئته ولا في حكمه ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (٣٣) [الأنبياء: ٢٣].

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤١.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٢٥٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٢٥٥.

من هداية الآيات:

- * بيان عتو الكافرين وسخريتهم من المؤمنين، وذلك لظلمة الكفر على قلوبهم. (١)
- * إعراض الجاحدين عن كل آيات الله تعالى الدالة علىه والناطقة بوحديته.
- * حرص الكافرين الدائم على إلقاء الشبه المضللة تبريراً لعنادهم واستكبارهم.

إنكار المشركين البعث واستبعادهم قيام الساعة

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَانِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بَنِيَّ إِنَّا كُنَّا بِمَا نَعْمَلُونَ فَاعْتَدْنَا وَحَدَّ الْوَعْدِ الْوَعْدَ الْأُولَىٰ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَظْلِمُنَا نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزُنُنَا إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

هذا المقطع من الآيات مناسب لما قبله، إذ هو بيان لاستمرار حال الكافرين المتقدم من الإعراض والجحود والعناد.

التفسير الإجمالي

تخبر الآيات الكريمة هنا عن إنكار المشركين للأخرة، واستبعادهم لقيام الساعة، فهم يرددون: متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً؟

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ٣٦٠.

«وعد الله تعالى لا يستقدم لاستعجال البشر؛ ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره. فكل شيء عند الله بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم. إنها تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه، وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبین.»^(١)

واسمع الجواب - على طلبهم العذاب واستعجالهم له - من جهته تعالى: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ﴾ وهي النفخة الأولى التي يموت بها أهل الأرض، ولكن هل هم ينتظرون ذلك، لا ينتظرون، بل هم مكذبون، ولكن لما كان لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها^(٢) فتأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم.

وفي الحديث: (لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يُليط حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها).^(٣)

ثم يُنفخ في الصور فإذا هم ينفضون من القبور. ويمضون سراعاً، وهم في دهش وذعر يتساءلون: من بعثنا من مرقدنا؟ قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.^(٤)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٢٩٧٠.

(٢) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي / ٣ / ٨.

(٣) رواه البخاري / ٥ / ٢٣٨٦ برقم ٤٣٥٩. ومسلم ك: الفتن وأشراف الساعة ب: قرب الساعة رقم ٢٩٥٤. و(لقحته) هي الناقة الحلوب. (يليط) يصلح ويطين. (أكلته) لقمته. (فلا يطعمها) فلا يأكلها

ويحول بينه وبين أكلها قيام الساعة فجأة وبأسرع من دفع اللقمة إلى الفم.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير / ٣ / ١٦٥.

ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً، فيدركون ويعرفون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون!

ثم إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشئيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش. يثوب: فإذا هم جميع لدينا محضرون.. وتنتظم الصفوف، ويتهيا الاستعراض في مثل ملح البصر ورجع الصدى. وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع:

فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون..^(١).

من هداية الآيات:

- * تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مبادئها ونهاياتها.
- * الساعة لا تأتي إلا بغتة.
- * تقرير العدل الإلهي يوم الحساب والجزاء ليطمئن كل عامل على أنه يجزي بعمله لا غير^(٢).

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء هذا المقطع بأكمله لتأكيد هذه الحقيقة، وبيان أن أمر البعث والجزاء هين على الله القدير سبحانه، فالأمر لا يتعدى إلا نفخة في الصور، يُبعث بها كل الخلق من قبورهم، ثم يحشرون إلى ساحة العدل والجزاء، حيث لا يظلم أحد شيئاً، ولا يجزي إلا بما كسبت يده.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٢.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٦٠.

جزء الأبرار المتقين

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكِنُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكَّهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما أخبر سبحانه عن مآل المجرمين، أخبر عن حال الأبرار المتقين، فقال: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ...

التفسير الإجمالي

بعد الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة، جاء الحديث عما أعده الله تعالى بفضله وكرمه للمؤمنين.

وتصور هذه الآيات الكريمة حال أصحاب الجنة يوم القيامة؛ فهم في ذلك اليوم مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالخور العين، وبالأكمل والشرب والسماع للأوتار.

يقول أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال. (١)

هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السرر المزينة بالثياب والستور، لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه، ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا شَتَّهِيَهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]. ولهم سلام كريم من ربهم الرحيم. وفي الحديث الشريف: (بيننا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه،

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٣٤٢.

فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم^(١).

والمأمل في هذه الآيات الكريمة يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا في تعب، كما تشير إلى وحدتهم، وإلى حسن المكان، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه، وإلى تلذذهم بالنعيم، وإلى تلقيهم لأجمل تحية.. هذا هو حال المؤمنين، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم.

من هداية الآيات:

- * تقرير المعاد.
- * بيان نعيم الجنة.
- * سلام الله تعالى على أهل الجنة، ونظرهم إلى وجهه الكريم^(٢).

جزاء المجرمين الأشقياء

﴿ وَامْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْ يَبْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) رواه ابن ماجه في سننه ب: فيما أنكرت الجهمية ١/ ٢١٦.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦١.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد أن بين سبحانه حال السعداء في الآيات السابقة ذكر هنا حال الأشقياء، للمقابلة بين الصورتين، والمفارقة بين الحالين.

التفسير الإجمالي

يصدر الله جل شأنه أمره القاطع لأهل النار أن ينزاحوا بعيداً عن أهل الإيمان، لينالوا نصيبهم من الخزي والإهانة والعذاب. قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة. (١)

ثم يوبخ الكفرة المجرمين ويقرعهم حين يسألهم: ألم أوصكم وأمركم يا بني آدم على السنة رسلي ألا تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي؟ وأن لا تستمعوا لوسوسته، وأن لا تتبعوا خطواته، لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء، فكيف يطيع الإنسان عدوه؟ وأمركم بأن تعبدوني وحدي، بتوحيدي وطاعتي وامثال أمري.. هذا هو الدين الصحيح. والطريق الحق المستقيم. (٢)

ولقد أضلَّ الشيطان خلقاً منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحق. قال الطبري: أي صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبدوه أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبخ آخر للكفرة الفجار.. (٣)

ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب، فقال هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها، قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيث والتقرير. أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانة وتحقير

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٤٦.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٢١، الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٧.

(٣) تفسير الطبري ٢٣ / ١٦.

مثل قول الله جل شأنه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (١) [الدخان: ٤٩].^(١)

ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فقال في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها عن الكلام، وتنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة.

روى الطبري عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيججده، ويقول: أي ربّ وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا، فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه، وتكلمت أعضاؤه ثم تلا: ﴿أَلَيْوَمَ نَخْتَمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾»^(٢).

وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: هل تدرون مما أضحك؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال من مخاطبة العبد ربه.. يقول: يارب، ألم تجرني من الظلم؟ قال يقول: بلى. قال فيقول: فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتين شهودا. قال: فيختم على فيه؛ فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنتطق بأعماله. قال: ثم يُخلى بينه وبين الكلام. قال فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل.^(٣)

وجعل - سبحانه ما تنطق به الأيدي كلاما، وما تنطق به الأرجل شهادة، لأن مباشرة المعاصي - غالباً - تكون بالأيدي، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدي من سيئات، وقول الحاضر على غيره شهادة بها له، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله.^(٤)

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣ / ٣٢٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٣ / ١٧.

(٣) رواه مسلم ك: الزهد والرفاق ٤ / ٢٢٨. رقم ٢٩٦٩.

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٨.

قال الجمل: أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً، أو قهراً، والإقرار مع الإيجاب غير مقبول. فقال: تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم، أي باختيارها بعد إقرار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم.^(١)

ولو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق، وهو تهديد لقريش. ولو نشاء لمسخناهم مسخاً يُقعدهم في مكانهم إذا مسخوا في مكانهم لم يقدرُوا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا.

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديد الجاحدين على استمرارهم في كفرهم، وبيان أنهم تحت قدرة الله - تعالى - وفي قبضته، وأنه - سبحانه - قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار، ومن مسخ للصور، ومن غير ذلك مما يريد - سبحانه -^(٢).

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتناول الأعمار، فقال: ومن نُظِّل عمره نقلبه في أطوار متكسفاً في الخلق، فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً. قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيرُ الشبابَ هَرَمًا، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً.

أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم^(٣).

« والشيوخوخة نكسة إلى الطفولة. بغير ملاحاة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال

(١) الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٢٢.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٩، بتصرف يسير جدا.

(٣) () التسهيل في علوم التنزيل ٣ / ١٦٦.

الشيخ يتراجع، وينسى ما علم، وتضعف أعصابه، ويضعف فكره، ويضعف احتماله، حتى يرتد طفلاً. ولكن الطفل محبوب اللثغة، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة. والشيخ مجتوى لا تقال له عشرة إلا من عطف ورحمة»^(١).

من هداية الآيات:

- * تقرير المعاد وبيان موقف الجاحدين منه.
- * تأكيد عداوة الشيطان للإنسان.
- * عجز الإنسان يوم القيامة عن كتمان شيء من سيء أعماله وفسادها.
- * التحذير من عقوبة الله في الدنيا بالمسخ ونحوه.
- * مظاهر قدرة الله تعالى في رد الإنسان بعد القوة إلى حالة الضعف الأولى.^(٢)

إثبات وجود الله ووحدانيته

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٧١﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّاءٍ عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٣.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٦٣.

التفسير الإجمالي

ينفي الله - سبحانه - هنا أنه علم رسوله ﷺ الشعر. وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم. فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله.. ثم ينفي لياقة الشعر بالرسول ﷺ: وما ينبغي له فللشعر منهج غير منهج النبوة. الشعر انفعال. وتعبير عن هذا الانفعال. والانفعال يتقلب من حال إلى حال. والنبوة وحي. على منهج ثابت. على صراط مستقيم. يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله. ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال.

والنبوة اتصال دائم بالله، وتلق مباشر عن وحي الله، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله. بينما الشعر - في أعلى صوره - أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأما حين يهبط عن صورته العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد، وفورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس. هذه - في أعلى صورها - أشواق تصعد من الأرض. وتلك في صميمها هداية تنزل من السماء^(١).

قال القرطبي: هذا ردٌ على الكفار في قولهم إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر، والقرآن الكريم ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أعذبه أكذبه» فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزه عن مماثلة كلام البشر؟!^(٢)

وما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال، لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٢٩٧٥.

(٢) تفسير القرطبي / ١٥ / ٥٠.

وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به، وتجب كلمة العذاب على الكافرين لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به. (١)

قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم - لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم، - أمواتٌ في الحقيقة.. (٢)

ثم ذكّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلّ وعلا من آثاره، فحثهم - جل شأنه - أن ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته يد القدرة الإلهية - من غير واسطة، وبلا شريك ولا معين - مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟!

وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدي، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته - تعالى - وحده دون أن يشاركه في ذلك مشارك، أو يعاونه معاون. كما يقول القائل: هذا الشيء فعلته بيدي وحدي، للدلالة على تفرده بفعله. (٣)

وهذه الأنعام هم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بهاله وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده!! (٤)

ومن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم وهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار، وهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها ﴿ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْهِ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لَشَدِيدِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]. أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٢٣.

(٢) تفسير البيضاوي ٢ / ١٣٦.

(٣) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٥٢.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٧٠.

والغرض من الآيات تعديداً للنعم وإقامة الحجة عليهم..

يقول صاحب الظلال - عليه رحمة الله - : آية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم، ليست غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير.. إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها. وذلكها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها، ويتنفعون بها منافع شتى.. وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره؛ ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها. وجعلها مدللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان.

وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً. وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وما يملكون أن يذلوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلواً لهم! أفلا يشكرون؟^(١)

ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغي والضلال حيث عبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكما، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء، ولا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعاة ولا بنصرةٍ أو إعانة، بل هؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذب عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أي نفع.

قال القرطبي: المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، والكفار يغضبون لهذه الأصنام، ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.^(٢)

فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر، فنحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهره من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٥ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٥٦ بتصرف يسير.

كل شيء شهيد.

من هداية الآيات:

- * تقرير النبوة المحمدية، وأن القرآن ذكر، وليس شعراً كما يقول المبطلون.
- * الحكمة من نزول القرآن هي أن ينذر به الرسول الأحياء من أهل الإيمان.
- * بيان خطأ الذين يقرؤون القرآن على الأموات ويتركون الأحياء لا يقرؤونه عيهم، وعظماً لهم وإرشاداً وتعليماً وتذكيراً.
- * وجوب ذكر النعم وشكرها بالاعتراف بها، وصرها في مرضاة واهبها وحده عليها
- * بيان سخف المشركين في عبادتهم أصناماً يرجون نصرها وهم جند معبأ لنصرتها من أن يمسخها أحد بسوء. (١)

إقامة الدليل القاطع على عقيدة البعث والنشور

﴿ أَوْلَئِىرَ الْإِنسَٰنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا ونَسَى خَلْقَهُ. قَالِ مَن يُعِى الْعَظْمُ وَهَى رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلًى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحٰنَ الَّذِى يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

ارتباط هذه الآيات بما قبلها واضح؛ ففي الآيات السابقة يسلي الله تعالى نبيه ﷺ وينهاه عن الحزن بسبب قول الجاحدين الكذب على الله ونبيه وكتابه. وهنا يسوق له نموذجاً من هؤلاء

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٥.

المنكرين للبعث، القائلين على الله بغير حق؛ وكأن الله تعالى يسليه ويصبره، ويقوي قلبه ويثبتته سابقا ولاحقا.

سبب النزول:

جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل، ففتته، فقال: يا محمد: أبيعث هذا بعد ما أرمم؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات: ﴿أَوْلَئِذَا الْإِنْسَانُ أُنْشِئَ مِنْ نُطْقَةٍ﴾ إلى آخر السورة. (١)

التفسير الإجمالي

تقيم الآيات الكريمة هنا الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور الذي هو قضية السورة الأساسية:

وتبدأ الآيات بالاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى التوبيخ والتفريع: أُولم ير الإنسان المنكر للبعث ابتداء خلقه فيستدل به على معاده، أنا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة؟ ثم مرّت بأطوار عجيبة متعددة حتى كبر، فإذا هو كثير الخصام، واضح الجدال؟ يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور!

وضرب لنا المنكر للبعث مثلا لا ينبغي ضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، ونسي ابتداء خلقه، قال: مَنْ يحيي العظام البالية المتفتتة؟

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها، قل لهم: يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية، الله - تعالى - الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئا مذكورا، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي. تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري. ٢ / ٧٢٧. رقم الحديث ٧١٩. والحديث صححه الألباني رحمه الله انظر: صحيح السيرة النبوية للألباني / ١ / ٢٠١.

بعد هلاكه. وهو - سبحانه - بكل شيء في هذا الوجود عليم علماً تاماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، سواء أكان هذا الشيء صغيراً أم كبيراً، مجموعاً أم مفروقاً. ^(١)

الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر الرطب ناراً محرقة، فإذا أنتم من الشجر توقدون النار، فهو سبحانه القادر على إخراج الضد من الضد. وفي ذلك دليل على وحدانية الله جل شأنه، وكمال قدرته، ومن ذلك إخراج الموتى من قبورهم أحياء.

قال أبو حيان - رحمه الله -: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبداع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار، ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء ^(٢) ولقد أحسن القائل:

جمعُ النقيضين من أسرار قدرته هذا السحابُ به ماءً به نارُ

أوليس الذي خلق السموات والأرض وما فيها بقادر على أن يخلق مثلهم، فيعيدهم كما بدأهم؟ بلى، إنه قادر على ذلك، وهو الخلاق لجميع المخلوقات، العليم بكل ما خلق ويخلق لا يخفى عليه شيء.

إنما أمره سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له: « كن » فيكون، ومن ذلك الإماتة والإحياء، والبعث والنشور. فتنزه الإله العظيم الجليل، وتقديس عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء، المتصرف في شؤون خلقه بلا منازع أو ممانع، وقد ظهرت دلائل قدرته، وتمام نعمته، وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء... ^(٣)

وهكذا يختم الله جل شأنه السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال قدرته وعظمة ملكه وسلطانه.

(١) التفسير الوسيط لسيد طنطاوي / ١ / ٣٥٥٥.

(٢) البحر المحيط / ٧ / ٣٤٨.

(٣) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء / ٨ / ٣٥ - ٤١.

من هداية الآيات:

- * تقرير عقيدة البعث والجزاء بإيراد أربعة براهين قاطعة.
- * مشروعية استعمال العقليات في الحجج والمجادلة.
- * تنزيه الله تعالى عن العجز والنقص وعن الشريك والولد وسائر النقص.
- * تقرير أن الله تعالى بيده وفي تصرفه وتحت قهره كل الملكوت فلذا لا يصح طلب شيء من غيره إذ هو المالك الحق وغيره لا ملك له. (١)

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء هذا المقطع بأكمله لتأكيد هذه العقيدة، والتدليل عليها بعدة أدلة وهي:

- خلق الإنسان من نطفة.

- خلق النار من الشجر الأخضر.

- خلق السموات والأرض.

وأخيراً.. فهذه سورة يس، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أنني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أنني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يجرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٦٧.

أهم الدروس المستفادة من سورة يس

احتوت سورة يس على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

- الرسول هو خاتم الأنبياء أرسله الله بالدين الحق على الصراط المستقيم.
- الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم. وما سواه اعوجاج وتفرق.
- العناد والجحود يقيدان صاحبهما، ويحولان بينه وبين فعل الخير وقبول الحق.
- الإحصاء الدقيق من الله تعالى لكل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان.
- القرآن الكريم هو منهج الرسول الذي يجب اتباعه.
- وجوب إبلاغ دعوة الحق مهما كان حجم التصحيات.
- بشرى المؤمن عند الموت، لاسيما الشهيد فإنه يرى الجنة رأي العين.
- طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقل من اتعظ بغيره.
- الإيمان بالبعث والجزاء يعطي الإنسان قوة دافعة لفعل الخير وترك الشر.
- الله تعالى يعرفنا نعمه لشكره عليها، ونصرها في مرضاته وطاعته.
- التأكيد على عداوة الشيطان للإنسان.
- بعث الخلق وحسابهم هين على الله تعالى وأدلتة شاخصة للناظرين.

سورة الصافات

بين يدي السورة:

١- أسماؤها:

سُميت سورة (الصافات) بهذا الاسم من باب تسمية الشيء باسم بعضه، على حكم عاداته سبحانه في كتابه الكريم، ولافتتاحها بالقسم بالصافات، وهي الملائكة التي تقف صفوفاً للعبادة، أو تصفُ أجنتها في الهواء امتثالاً للطاعة، وانتظاراً لوصول أمر الله تعالى إليها. كما تسمى سورة (الزينة)، ونقل السيوطي عن الجعبري تسميتها بسورة (الذبيح)، غير أنه يحتاج إلى مستند من الأثر^(١).

٢- فضائل السورة:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: إن كان رسول الله ﷺ ليأمرنا بالتخفيف، وإن كان ليؤمنا بالصافات. قال يزيد: في الصبح^(٢). كما وردت عدة أحاديث في فضل سورة (الصافات)، وفي فضل بعض آياتها؛ كالعشر الأول منها^(٣)، وفي آخر آية فيها، لكنها ضعيفة الإسناد، وهذا شأن كثير من أحاديث الفضائل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (مَنْ قرأ يس والصافات ليلة الجمعة، ثم سأل الله تعالى أعطاه سؤله)^(٤). وعن عبد الله بن أرقم ؓ عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قال دبر كل صلاة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ

- (١) الإتيان، السيوطي ١ /: ١٧٨، ومساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي ٢ /: ٤٠٨.
 (٢) إسناده حسن. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث، ٤٩٨٩، وسنن النسائي: كتاب الإمامة، باب الرخصة للإمام في التطويل، رقم الحديث: ٨١٧.
 (٣) عمل اليوم والليلة، ابن السنِّي: ص: ٢٣٦، رقم الحديث: ٦٣٧.
 (٤) عزاه في الدر المنثور لابن أبي داود في فضائل القرآن، وابن البخاري في تاريخه عن نهشل بن سعيد الورداني عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً. كتاب فردوس الأخبار، رقم الحديث: ٣٧/٤٥٦٠٥.

عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾، فقد اکتال بالجريب الأوفى من الأجر^(١). وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلًا قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيَقْلْ آخِرَ مَجْلِسِهِ أَوْ حِينَ يَرِيدُ أَنْ يَقُومَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾) (٢).

ومما ينبه إليه أن ورود أحاديث ضعيفة في فضائل سورة (الصافات) وغيرها لا يدعو إلى تركها، إذ من المعلوم أن الحديث الضعيف أنواع ودرجات، ومنه ما يكون بسبب الإسناد، كما أن من المعلوم جواز العمل بالضعيف إذا كان في فضائل الأعمال، ومن المسلم به جواز العمل بما أثر عن السلف خاصة إذا كان مما تواردت عليه الأخبار، وأثبتت التجربة أثره ونتائجه. وقد تكاثرت الأخبار في قراءة سورة (الصافات) على المسوس، وتحقق النفع بفضل الله تعالى وزال الأذى بتام تلاوتها، مما يبشر بفضلها، ويؤكد أهميتها، ويدلل على اختصاصها بهذا الأثر الباهر، والاعتماد في مثل هذا على التجربة لا على الإسناد، كما تبّه لذلك الحافظ المنذري في ترغيبه، تعليقاً على حديث ابن مسعود في صلاة الحاجة، الذي رواه الحاكم، ونقل عنه وعن عدد من السلف تجربتهم فيها فوجدوها حقاً^(٣).

كما تبّه العلماء أيضاً إلى أحاديث موضوعة في فضل هذه السورة^(٤).

(١) الجريب: مكيال قديم. والحديث ضعيف، قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جداً. انظر: مجمع الزوائد: ١٠٣/١٠، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢٥/٤، والترغيب والترهيب، المنذري: ٤٤٩/٢، ومساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٤١١/٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢٥/٤.

(٣) الترغيب والترهيب، المنذري: باب الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها ١/٥٣٧، رقم الحديث: ١٠١١.

(٤) تفسير البيضاوي ٥: / ١٣، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١: / ٣٩٨، وتفسير أبي السعود:

٣- عدد آيات سورة (الصافات) :

عدد آياتها إحدى وثمانون ومئة آية عند البصري وأبي جعفر، واثنان وثمانون ومئة آية في عدد الباقرين. وعدد كلماتها اثنان وستون وثمانمئة كلمة، وعدد حروفها ست وعشرون وثمانمئة وثلاثة آلاف حرف. والمختلف فيها آيتان؛ الأولى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الآية: ٢٢] لم يعدّها البصري، وعدّها الباقرين، والثانية: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ [الآية: ١٦٧] لم يعدّها أبو جعفر، وعدّها الباقرين^(١).

٤- أسباب نزولها :

لقد تعددت أسباب النزول لعدد من الآيات، وسيشار إلى كل سبب في موضعه من المقطع الخاص به.

٥- مرحلة النزول :

مكيّة بإجماع المفسرين^(٢)، وهي السورة السابعة والثلاثون حسب تسلسل المصحف العثماني، والسادسة والخمسون في تعداد نزول السور المكية، نزلت بعد سورة الأنعام في آخر العهد المكي، وقبيل الهجرة إلى المدينة، ثم نزلت بعدها سورة لقمان^(٣).

٦- محور سورة (الصافات) :

يعالج موضوع هذه السورة بيان أصول العقيدة والتوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء.

(١) البيان في عدد آي القرآن، الداني: ص: ٢١٢، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ٣٩٣/١، وجمال القرّاء، السخاوي: ٣٠٢/١.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ٣٩٣/١، وزاد المسير، ابن الجوزي: ٢٩٦/٦.

(٣) الإتيان، السيوطي: ٨١/١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٨١/٢٣، ونظم الدرر، البقاعي: ١٨٦/١٦.

٧. المناسبات في سورة (الصافات) :

أ. المناسبة في افتتاحية سورة (الصافات) بالقسم :

أما عن مناسبة هذا القسم فهو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله تعالى، واتخاذهم آلهة، بما أنهم - بزعمهم - بنات الله! إذ تروي تلك الأسطورة زعم القرابة بين الله سبحانه وبين الجن، وتستطرد الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله تعالى وبين الجنة وُلدت الملائكة، ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله تعالى^(١).

ب. المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وخاتمتها :

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله تعالى ونسبوه إليه، مما هو منزّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم، فحتمها بجوامع ذلك؛ من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون مما لا يليق به، مع وصف نفسه بصفات الكمال، ومدحه، وتسليمه على الرسل الكرام، والحمد لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب. والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يُخلُّوا به، ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. عن علي عليه السلام: (من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾^(٢).

ج. المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وخاتمة ما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة:

أولاً: وجود الشبه بين أول هذه السورة وآخر سابقتها سورة (يس) في بيان قدرة الله تعالى الشاملة لكل شيء في السماوات والأرض، ومنه المعاد، وإحياء الموتى، فلما ذكر سبحانه في سورة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٩٨١/٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣٢/٤، ومعالم التنزيل، البغوي: ٥٢/٤.

(يس) قدرته على المعاد، وإحياء الموتى، علل ذلك بأنه هو منشئهم، وأنه إذا تعلق إرادته بشيء كان، ذكر عز وجل هنا ما هو كالدليل على ذلك، وهو القَسَم على وحدانيته سبحانه، إذ لا يتم ما تعلق به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا إذا كان المرید واحداً، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثانياً: هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون الماضية، المشار إليهم وإلى إهلاكهم إجمالاً في سورة (يس) المقدمة في قوله سبحانه: ﴿الْمُرِيرُوا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ أَقْرُونِ أَنْتُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

ثالثاً: تفصيل هذه السورة ما أجمل في السورة السابقة (يس) من أحوال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة^(١).

د- المناسبة بين مقاطع سورة (الصافات) ومحورها:

إذا تتبعنا مقاطع السورة نجد أنها قد فصلت في محورها آيات سورة (البقرة) الأولى في حديثها عن التوحيد، وخاصة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، فجاءت سورة (الصافات) تفصّل في أركان الإيمان، حتى لم يبق ركن من هذه الأركان إلا وقد أصابه نوع تفصيل، وكل ذلك ضمن سياق السورة الرئيس، الذي انصبّ الكلام فيه على التوحيد^(٢).

هـ- المناسبة بين مقاطع سورة (الصافات) وبعضها مع بعض:

تعرّض صاحب الظلال لهذه المناسبة في تقديمه لسورة (الصافات)، حيث قال: هذه السورة المكية كسابقتها؛ قصيرة الفواصل، سريعة الإيقاع، كثيرة المشاهد والمواقف، متنوّعة الصور والظلال، عميقة المؤثرات، وبعضها عنيف الوقع، عنيف التأثير. وهي تستهدف كسائر السور المكية بناء العقيدة في النفوس، وتحليصها من شوائب الشرك في كل صورته وأشكاله.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٩: / ٨٩، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٣/ ٦٠، وتفسير المراغي: ٢٣/ ٤١.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٧٤٨.

ولكنها - بصفة خاصة - تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى. وتقف أمام هذه الصورة طويلاً؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى.. تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن. وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله تعالى وبين الجِنَّة وُلِدَت الملائكة. ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله!

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة؛ تكشف عن تهافتها وسخفها. ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة.. ويتلوها حديث عن الشياطين المردة، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملائكة الأعلى. ولا يتسمَّعوا لما يدور فيه؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة! كذلك يشبه نثار شجرة الزقوم التي يعذب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقييح والتفطيع!

وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافئة...

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تناوَلها السور المكيَّة. فثبتت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود.. وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذِّبين في ثانياً مشهد من مشاهد القيامة.. كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء.. ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت!..

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِسَاعِي مَجْنُونٍ ﴾ (٣١)، والرد عليهم: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧) [الصافات: ٣٦-٣٧].

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم. تعرض لسلسلة من قصص الرسل: نوح، وإبراهيم وبنيه وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس. تتكشف فيها رحمة الله تعالى، ونصره لرسله وأخذه للمكذِّبين بالعذاب والتنكيل..

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل. قصة الذبح والفداء، وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله تعالى في أروع صورها وأعمقها وأرفعها؛ وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء..
والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها، تتمثل بشكل واضح في:

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها.. وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ومفاجأتها الفريدة، وانفعالاتها القوية. والمشاهد التي تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقاً، سنلمسه عند استعراضه تفصيلاً في مكانه من السورة، وفي القصص ومواقفه وإيجاءاته. وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام، وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهزُّ القلوب هزاً عميقاً عنيفاً...، وهو ذو طابع مميّز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيجاءاتها المتلاحقة العميقة^(١).

و- المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وافتتاحية سابقتها :

لأول مرة في السياق القرآني نجد سورة (الصافات) افتتحت بقسَم مباشر، وقد سبقتها سورة (يس) بقسَم لكنه مسبوق بشيء مثل (يس)، إذ مطلعها: ﴿يَس ۝١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ [يس: ١-٢]، وسوف تتوالى السور بعد (الصافات) مبتدأة بالقسَم المباشر، بل ربما توالى مجموعة من السور على هذا النمط في الافتتاح؛ كالذاريات، والطور، والنجم، والفجر والبلد، والشمس، والليل، والضحي^(٢).

ز- المناسبة بين سورة (الصافات) وما بعدها :

جاءت المناسبة تحمل معنى التكامل والتداخل بين سورة (الصافات) وتاليها سورة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨٠.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٦٨٠.

(ص)؛ مع احتفاظ كل منهما بدوره في تفصيل محوره الرئيس .

فقد تابعت سورة (ص) من بدايتها محورَ التوحيد ذاته الذي تضمّنته سورة (الصافات):

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

ويتجلى الأمر أكثر إذا لاحظنا أن كلتا السورتين تفصّلان ما ورد في مقدمة سورة (البقرة)

حيث الحديث عن المتقين والكافرين والمنافقين؛ فسورة (الصافات) تستعرض صفات الكافرين في معرض الكلام عن التوحيد، وسورة (ص) تتناول صفات المتقين في سياق الإنذار.

وكما فصّلت سورة (الصافات) في الآيات الأولى من سورة (البقرة) مع امتداد معانيها في

سورة (البقرة) كلها، كذلك فإن سورة (ص) تفصّل آتي سورة (البقرة) في وصف الكافرين مع امتداد معانيها في سورة (البقرة) أيضاً.

ويظهر التناسب والتكامل أكثر حين يتجلى الخصوص والعموم بين السورتين؛ فحين

تتحدث سورة (الصافات) عن (إلياس)، فإن سورة (ص) تذكر اسم خليفته (اليسع).

كذلك حين تتكرر كلمة ﴿ الْمُخْلِصِينَ ﴾ مراتٍ في سورة (الصافات)، تأتي سورة (ص)

لتذكّرنا بالطريق الذي أحلّصوا فيه: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص: ٤٦] ^(١).

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٧٥٥.

المقطع الأول: (إعلان وحدانية الله تعالى) الآيات: (١-١٠)

﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ① فَأَلزَجَرْتِ زَجْرًا ② فَأَتَلَيْتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَا الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ ﴾

أقسم الله تعالى بطوائف من مخلوقاته، واختلف المفسرون في معناها؛ فجمهور السلف على أنها أصناف من الملائكة يتصفون بصفات ثلاث: فهم الملائكة يتمون صفوفهم للعبادة ويصفون أجنحتهم في الهواء انتظاراً لأمر الله تعالى عبادة وطاعة وذكراً له، والملائكة تسوق السحاب وتحركه، والملائكة تتلو القرآن وتذكر. وذهب بعضهم إلى أن المراد بالصافات نفوس الغزاة تصف الصفوف في سبيل الله تعالى، أو في الصلاة، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر. وقيل: الزاجرات: آيات القرآن المتضمنة للنواهي الشرعية، والتاليات: القارئات، أراد بني آدم يتلون الكتب ويسبِّحونه ويكبرونه، ولا يضير التأنيث اللفظي هنا، فيجوز تأنيث المفرد باعتبار أنه ذات ونفس، فيطلق ويراد به الطائفة والجماعة. والتأنيث المعنوي هو الذي لا يحسن أن يطلق عليهم. واللفظ يحتمل التعميم، ومذهب الجمهور أرجح، حيث أن الملائكة أسوة في الطاعة وقودة في التأسي، يؤيد ذلك حديث حذيفة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفُوفُنَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ)^(١). وحديث جابر بن سمرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ: يَتَمُّونَ الصَّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ)^(٢).

وجواب القسم أن الله تعالى واحد لا شريك له، وهو المعبود بحق، فيجب إخلاص

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٢.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، رقم الحديث: ٤٣٠.

العبادة إليه. وإنما أقسم الله تعالى جواباً لكفار مكة الذين قالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق؟ فهو خالق السماوات والأرض وما بينها من مخلوقات، ومالك ذلك كله، وهو ربُّ مشارق الشمس ومغاربها. وخصَّ المشارق هنا بالذكر واكتفى بها عن المغارب لدلالاتها عليها. وقد صرح بها في مواضع أخرى، فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (المعارج: ٤٠)، أي مطالع الشمس ومغاربها. وقال تعالى أيضاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن: ١٧)، على اعتبار مشرقَي الصيف والشتاء ومغربيهما. وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]. فالمراد به الجهة؛ فالمشرق جهة، والمغرب جهة. وخصَّ الجمع بهذه السورة لمناسبة جموع أولها.

ثم بين سبحانه بعضاً من مظاهر خلقه تأكيداً لوحدانيته، وإثباتاً لقدرته؛ فقد جمل الدنيا وزينتها^(١) بالكواكب تبدو في السماء متلائة كالجواهر المنيرة، كما يتجلى فيها قوة الحفظ والحرز من الشيطان العاتي الخارج عن الطاعة المتجرد للشر. وإنما خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها التي تباشر أبصارنا، كما أن الحفظ من الشياطين إنما هو فيها وحدها، فلا يمكنون من التسمُّع إلى الملائكة في السماء إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شره وقدره مبالغة في نفي السماع^(٢). وظاهر الأحاديث أنهم يستمعون إلى الآن لكنهم لا يسمعون شيئاً منذ بعثة النبي ﷺ لأنهم يُرمون بالكواكب، ويُرجمون بالشهب من كل جهة يصعدون إلى السماء منها إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، فيمنعون من الوصول إلى ذلك، ولهم في الآخرة عذاب مستمر موجه.

- (١) قرأ الجمهور: ﴿زِينَةَ الْكَوَاكِبِ﴾؛ بالكسر على الإضافة، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم بتنوين الجر على البدل، وكلاهما بمعنى واحد. المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٣٦/١٢.
- (٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بالشديد، وقرأ الجمهور بالتخفيف (يسمعون). والتسمُّع طلب السماع. فنفى طلب السماع على قراءة التشديد، ونفى السماع على قراءة التخفيف. والثاني أرجح، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٢). المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٣٦/١٢، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦٥/١٥.

وطرد الشياطين هو الغالب عليهم، إلا من شدَّ فخطف نبأً، أو اختلس كلمة يسمعها من السماء، فيلقبها إلى الذي تحته، ويلقبها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب المنتفض من السماء قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب؛ وهو شعلة ساطعة من النار تكاد تثقب لشدة ضوئها، فتتبع الشيطان فتحرقه أو تقتله أو تحبله، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن نبي الله ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فحرفها، وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقبها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)^(١).

قال صاحب الظلال: والمهم أن هذه الشياطين التي تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ومن التسمُّع لما يدور فيه هي التي يدَّعي المدَّعون أن بينها وبين الله نسباً، ولو كان شيء من هذا صحيحاً لتغيَّر وجه المعاملة. ولما كان مصير الأنسباء والأصهار - بزعمهم - هو المطاردة والرجم والحرق أبداً!^(٢).

ويقول الإمام الرازي في تفسيره: دلَّت التواريخ على أن حدوث الشهب كان حاصلًا قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل، ذكروا ذلك، وتكلموا في سبب حدوثه، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ، امتنع على مجيء النبي ﷺ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ، لكنها كثرت في زمان

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، رقم الحديث: ٤٨٠٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٩٨٤ / ٥.

النبي ﷺ، فصارت بسبب الكثرة معجزة^(١).

وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه أملاً في نيل المراد، كراكب البحر يشاهد الغرق المرة بعد المرة، ثم يعود طمعاً في السلامة.

ولعل سائلاً يسأل كيف يحرق الشهاب الشيطان، وقد خلق من نار؟ ويُجاب أنه ليس من النار الصرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، كذلك فالأقوى يحرق الأضعف فالنار القوية إذا استولت على الضعيفة أهلكتها، كالحديد يحرق بعضه بعضاً.

المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) ومحورها :

تألف السورة بشكل واضح من مقدمة تستمر حتى نهاية الآية العاشرة، تتحدث عن التوحيد، وأدلتها، وعن حفظ الوحي.

ثم يأتي مقطعان كل منهما مبدوء بقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ .

المقطع الأول: ويبدأ من قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (١١) ويستمر حتى نهاية [الآية: ١٤٨].

والمقطع الثاني: ويبدأ من قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبِّكَ أَلْبَتَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴾ (١٤٩) ويستمر إلى نهاية السورة.

ويندمج الكلام في المقطع الأول عن التوحيد، واليوم الآخر، والرسول، كمواضيع متلازمة، إذ يرتبط الإيمان بالله تعالى بالإيمان باليوم الآخر، بل إن أكثر كفر الكافرين سببه الكفر باليوم الآخر، ويرتبط الإيمان بالله تعالى بالإيمان بالرسول، إذ هم الذين يعرفونه حق المعرفة ويعرفون عليه حق التعريف، ومن ثم يقول تعالى في السورة: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٥١) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ (١٦) ﴿

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٢٤.

ويندمج الكلام في المقطع الثاني عن الله عزَّ وجلَّ والملائكة والرسل والمؤمنين.
ومن ثمَّ فإنَّ السورة إذ تعرض التوحيد تعرض معه قضايا الإيمان كلها، لأنَّ التصور
السليم عن موضوع التوحيد مرتبط بالتصور السليم عن قضايا الإيمان كلها^(١).

دروس وعبر من المقطع الأول

- * لا يجوز للمسلم الحلف إلا بالله تعالى، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، لقول
النبي ﷺ: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)^(٢). والله تعالى أن يقسم بما يشاء، على
ما يشاء، في أي وقت يشاء، وقد أقسم هنا بالملائكة، وقَسَمَ اللهُ تعالى بمخلوقاته يومئذٍ إما
إلى التنويه بشأن المقسم به وعظمته المقرر ضمناً لعظمة قدرة الخالق. وإما لكونه مشرفاً
عند الله تعالى، وإما بياناً لفضله، وإما لفتناً لنظر العباد إلى ما فيه من فوائد.
- * تفيد الآيات فضيلة الصف لله تعالى أو في سبيل الله تعالى، وفضيلة الأجر في الله تعالى، أو
في سبيل الله تعالى، وفضيلة تلاوة القرآن والذكر.
- * يحمل جواب القسم معنى إثبات توحيد الله تعالى، وأنه لا إله إلا هو سبحانه، ولا ربَّ
سواه، ولا معبود بحق غيره، وقد تضمن هذا الجواب الدليل والبرهان الذي يثبت هذه
الوحدانية، فهو ربُّ المشارق والمغارب، خالقٌ لها بقدرته، مالكٌ لها بإرادته، قادرٌ على
إيجادها وتسييرها بعظمته وسلطانه. وحرِيٌّ بهذه الصفات أن تدعم معنى الوحدانية التي
جاء القَسَمُ يؤكدُها: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.
- * بيان الحكمة الإلهية من خلق الكواكب في السماء الدنيا، وأنها زُيِّنَتْ بها لمنفعتين هما: تحصيل
الزينة والتجميل، والحفظ من أذى الشيطان العاتي المارد.
- * تقرير أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء لاستراق السمع، فترمي وقتاً ولا ترمي وقتاً،

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٤٦٧٩/٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم الحديث: ٢٦٧٩.

وتُقَدَّف من جانب ولا تُقَدَّف من جانب، وحين يتلقَّى الشيطان الكلمة اختلاصاً من أهل السماء، ويلقيها إلى الذي يليه، وهكذا دواليك، لتصل إلى الكاهن فيضيف إليها تسعاً وتسعين كلمة كذباً وافتراءً، فيصدقها الجاهلون. فلما كانت بعثة النبي ﷺ صاروا يُرْمُونَ دائماً واصباً من كل جانب، حيث مُلئت السماء بالحرس والشهب والنيازك الراجمة، ولم يعد مجال للشياطين تكذب على الناس في ادِّعاء استراق السمع، واختلاس الكلام، كما كان يحدث قبل البعثة.

- * ذكُرُ أصناف الملائكة يدعو المسلم للتمثُّل بأخلاقهم، والتحلي بخصالهم في الدأب على الطاعة، والصف والانتظام للعبادة، والذكر والتلاوة.
- * ذكُرُ صفات الشياطين يدعو المسلم للتحرُّز من أذاهم، والتحصُّن ضدَّ شرهم، وتجنُّب مسالكهم.

المقطع الثاني: (إثبات المعاد؛ الحشر والنشر والقيامة) (الآيات: ١١-٢١)

قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُ فِي صُعُقَانٍ وَإِنَّا لَنَاصِرُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَنْوِيلُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴿

مناسبة هذا المقطع لسابقة:

جاءت افتتاحية السورة في المقطع الأول تتناول الحديث عن إثبات ما يدل على وجود الخالق وقدرته وحكمته في خلق طوائف من مخلوقاته، وما يدل على وحدانيته في خلق السماوات والأرض وما بينهما، مما يدعو إلى التطرُّق لقضية إنكار البعث التي يثيرها المشركون، وقد جاء

الرُّدُّ القرآني هنا على منكري البعث، بالدليل العقلي والنقلي يثبت هذه الحقيقة ويؤكدُها، حيث أنه لا يقاس خلق الإنسان في العظمة والقدرة إلى خلق العوالم المختلفة من سماوات ومجرات وأكوان وعوالم مختلفة، فهي لا شك أكبر وأعظم من خلق الإنسان، كما أن إعادة خلق الإنسان ثانية أسر من الخلق الأول الذي يحمل معنى الإبداع والإيجاد من عدم.

التفسير:

الاستفتاء: طلب الفتوى، وهي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما. وهي: إما إخبار عن علم يختص به المخبر، أو إخبار عن رأي يُطلب من ذي رأي موثوق به. والمعنى: فاسألهم عن رأيهم. فلما كان المسؤول عنه أمراً محتاجاً إلى إعمال نظر أطلق على الاستفهام عنه فعل الاستفتاء^(١). وحيء بـ: (مَنْ) تلياً للعلاء من المخلوقات، ويُتمل: مَنْ خلقنا من الأمم السابقة الهالكة.

والاستفتاء نوع من السؤال، وهو هنا للتوبيخ والتقريع، والمحاجة والتغليظ. ومما لا جدل فيه أنهم يقرُّون بالجواب في أن تلك المخلوقات أشدُّ خلقاً، وأصعب إيجاداً منهم، فكيف ينكرون البعث وهم يعايشون ما هو أعظم منه؟ ثم بيّن الحق سبحانه مدى هذا التفاوت في بيان أصل خلقهم لأبيهم آدم من طين لزج رخو يلتصق باليد لِضَعْفِهِ.

قال الطبري: إنما وصفه باللزوب لأنه تراب مخلوط بهاء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء، والتراب إذا خلط بهاء صار طيناً لازباً^(٢).

ثم ثكاثروا تناسلاً؛ فإذا كانوا في خلقهم على هذه الهيئة من الضعف فكيف يستبعدون المعاد؟

ثم ينتقل في الخطاب القرآني من أسلوب السؤال إلى أسلوب التقرير بذكر (بل) للإضراب

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٩٤/٢٣.

(٢) جامع البيان، الطبري: ٢٨/٢٣.

الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم العجب^(١). أي لا حاجة لاستفتائهم، فهم أهل

(١) في قوله تعالى: ﴿عَجِبْتَ﴾ قراءتان سبعتان. قرأ الجمهور بفتح التاء، على أن المخاطب رسول الله ﷺ، وقد حصل العجب منه لما رأى إعراضهم، فيكون الخبر مستعملاً في حقيقته، أو على استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة، والمعنى: اعجب لهم، أو على تقرير همزة الاستفهام، أي: بل أعجبت. وعلى العموم، فالمعنى: أن حالهم هذه حرية بالتعجب، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]. وقرأ حمزة والكسائي بضمها على أن الله تعالى هو المتعجب، ومعناه من الله تعالى أنه صفة فعل، فيكون المراد أن الله تعالى أسند العجب إلى نفسه، ويُعرف أنه ليس المراد حقيقة العجب المستلزمة للروع والمفاجأة بأمر غير مترقب، بل المراد التعجب على معنى: المجازاة على عجبهم، فأطلق على ذلك العقاب فعل (عجبتُ)، كما أُطلق على عقاب مكرهم المكر في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. والعجب من الله قد يكون بمعنى الإنكار والذم والغضب والمؤاخذه، كما في هذا الموقف، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا، كناية عن لازمه، وهو استعظام الأمر المتعجب منه، لأنه أبلغ من التصريح. وقد تكرر في كلام النبوة؛ فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: (إن الله عز وجل يعجب من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، وقال مرة أخرى: ليضحك من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، ثم يدخلان الجنة)، يعني ثم يُسلم القاتل الذي كان كافراً، فيقاتل فيستشهد في سبيل الله. رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب اجتماع القاتل والمقتول في سبيل الله في الجنة، رقم الحديث: ٣١١٤، وعن أبي هريرة ؓ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: (من يضم أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيات طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلاً يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما: أنزل الله: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. البخاري: كتاب المناقب، باب: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، رقم الحديث: ٣٥١٤. وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: (عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل). البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، رقم الحديث: ٢٧٨٨. قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنها قراءتان مشهورتان في قرأة الأمصار، فبأبيتهما قرأ القارئ فمصيب. ثم علل ذلك بقوله: إنها وإن اختلف معنيهما، فكل واحد من معنييه صحيح؛ قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب =

عناد، وأنت يا محمد تتعجب من قدرته تعالى على هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم للبعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث. تتعجب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث لأنك موقن بقدره الله تعالى فيما أخبر عنه من البعث بعد الفناء، وهم على النقيض من ذلك يهزؤون من إمكانية البعث، أو أنهم يسخرون من عجبك فيما تريهم من معجزات، ومن آثار قدرة الله تعالى على البعث، وبيالغون في السخرية والاستهزاء.

وقد نزلت الآية في أبي الأشد بن كلدة وأمثاله، وكُنِّي بأبي الأشد لشدة بطشه وقوته^(١).

وإذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون لاستكبارهم، وإذا عاينوا معجزة تدل على صدقك كانشقاق القمر، وتكليم الحجر والشجر، بالغوا في السخرية، وتنادوا للتهكم والاستهزاء.

وقد نزلت الآية في ركانة، وهو من مشركي مكة، لقيه الرسول ﷺ في جبل خالٍ يرعى غنماً له، وكان من أقوى الناس، فقال له: ياركانة! أرايت إن صرعتك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها، فلم يؤمن، وجاء إلى مكة قائلاً: يا بني هاشم! ساحروا بصاحبكم هذا أهل الأرض^(٢)، فنزلت فيه وفي نظرائه.

وقالوا: ما هذا الذي يأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر فلا يؤبه له، ولا ننخدع به، ثم تساءلوا منكرين: أنبعث أحياء بعد أن متنا وصرنا تراباً وعظاماً بالية؟ وهل يُبعث أيضاً أسلافنا الأقدمون؟ وهو أشد غرابة، فأجابهم الله تعالى بقوله: قل لهم أيها الرسول: نعم تبعثون

= ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسخر المشركون بما قالوه. جامع البيان، الطبري: ٢٣/٢٨. وللأوسي تأويل لطيف في قراءة الضم، فيقول: وعندي لو قدر القول بـ: (بل) كان أحسن أي: بل قد عجب، والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب، ولذا قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب، وهو في الله بمعنى يليق لذاته عز وجل، هو سبحانه أعلم به، فلا يعينون المراد، والخلف يعينون. روح المعاني، الأوسي: ٢٣/٧٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦٨/١٥، وروح المعاني، الأوسي: ٢٣/٧٥.

(٢) سنن الترمذي، كتاب اللباس: باب العمائم على القلائس، رقم الحديث: ١٧٠٦، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وسنن أبي داود، كتاب اللباس، باب اللباس في العمائم، رقم الحديث: ٣٥٥٦.

أحياء مرة أخرى، بعد أن تصيروا تراباً، وأنتم ذليلون حقيرون، والأمر سهل جداً في قدرة الله تعالى، فلا يتطلب أكثر من نفخ إسرائيل في الصور بأمر الله تعالى للخروج من الأرض، فإذا هم قيام من قبورهم أحياء، وحين ينظرون إلى أهوال يوم القيامة يقولون: يا ويلنا^(١)، أي: لنا الويل والهلاك.

قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة^(٢). فيقرؤون بالويل والهلاك، حيث حلّ موعد الجزاء والعقاب على ما قدموا من كفر بالله تعالى وتكذيب الرسل، فتجيهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: هذا يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

علمنا من خلال بيان محور هذه السورة حديثها عن أصول العقيدة والرسالة والبعث في يوم القيامة. وقد أردف في هذه الآيات الحديث عن قضية إنكار البعث التي يثيرها المشركون وذلك بالردّ القرآني على منكري البعث، وباستفهام إنكاري يوصل إلى حقيقة أن البعث أمر لا شبهة فيه، ليثبت بالبرهان والحجة القول بالحق والحشر والنشر والقيامة، ببيان أن الذي خلق هذه العوالم والتي هي أصعب في الخلق من الناس قادر على إعادة الحياة فيهم بالأولى، كما ذكر ذلك في قوله تعالى في السورة السابقة: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، وكما بين في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وإذا كانت هذه الخلائق أشد وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها، ويستبعدون وقوعها، وهي لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى؟.

(١) رأى أبو حاتم الوقف هاهنا، وجعل ما بعده من قول الله أو الملائكة. المحرر الوجيز: ابن عطية: ٣٤٣/١٢.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج: ٣٠١/٤.

دروس وعبر من المقطع الثاني

* الإيمان باليوم الآخر ركن أساس من أركان الإيمان، يستلزم التسليم بقدرة الله تعالى على البعث والنشر والحشر. وفي الاستدلال على إمكانية البعث تذكر الأمور التالية:

أ- قدرة الله تعالى المطلقة في خلق ما يشاء، فقد خلق الإنسان، وخلق ما هو أصعب منه وأشقُّ؛ كالجبال، والسماء، والكواكب، والبحار، فخالق هذه الكائنات العظيمة لا يعجزه إعادة خلق الإنسان. قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ب- صفة الخلق لازمة للخالق، وهي قديمة أزلية أبدية، لا تنفك عنه، فهو سبحانه كان ولا يزال قادراً على كل شيء، ولا يعجزه شيء، والآيات القرآنية تقرب لأذهاننا هذا المعنى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَجَدَّةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

ج- من المسلم به عقلاً أن الخلق بمعنى الإيجاد من العدم هو الذي يحمل معنى التحدي والإعجاز، والصنع والإبداع، وهو الذي يُشار إليه في الخلق الأول للإنسان، وتأتي مرحلة إعادة الخلق ثانية يوم القيامة أمراً ميسوراً مقبولاً متوافقاً مع المسلمات والبدهيّات.

د- عدم الانتفاع بالإيمان عند معاناة العذاب، فالدنيا دار سعي وعمل، والآخرة دار جزاء وحساب. قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

هـ- تقرير البعث، وبيان طريقة وقوعه.

* تعبد الله تعالى عباده بهذا الشرع الحكيم من خلال الدعوة إليه على بصيرة وعلم، مصداقاً لقوله: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي اَدْعُوْا اِلَى اللّٰهِ عَلٰى بَصِيْرَةٍ اَنَا وَمَنْ اَتَّبَعَنِيْ وَسُبْحٰنَ اللّٰهِ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وبناءً عليه فطلب العلم النافع فريضة، والجهل في الدين مرفوض، خاصة فيما يتعلق بمعرفة الأحكام الشرعية تحريماً وتحليلاً. ومن هنا يجب سؤال

أهل الذكر، واستفتاؤهم فيما يجهله الإنسان من قضايا شرعية، لقوله تعالى: ﴿ فَشَلُّواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

* خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ مِنْ تَرَابٍ (طين لازب - لاصق باليد -) بصريح النص القرآني، وفي خَلَقَ ابن آدم من الطين دلالات وإشارات، إذ هو امتداد لهذا السَّنَنِ الإلهي في مردِّ أصل الخَلْقَةِ إلى التراب، حين يعلم أن تكوينه من الدم المتولد من الغذاء، والغذاء بنوعيه الحيواني والنباتي ينتمي إلى تراب الأرض في مصدر تكوينه. إذ من الأرض ينبع الماء، وتخرج الثمار والحبوب والأعشاب - مصدر بقاء الحيوان والنبات - فكأنَّ مردَّ الإنسان إلى جذره ونشأته من تلك الأرض - التي يُعتبر الترابُ والطينُ أساسَ تكوينها - فيه إشارةٌ إلى أهمية تواضع الإنسان وعدم غروره، حين يعلم أن أصله من التراب، ومصيره الحتمي في النهاية إليه. قال تعالى: ﴿ وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ٥٥].

* الإنسان عدوٌ ما يجهل، ولكن العاقل هو من يُقيم المحاوراة والمحاكاة للأشياء، ويتعد عن السخرية بالحقائق، والاستهزاء بالمسلّمات، خاصة إذا ظهرت له الأدلة والبيّنات، بمعنى أنه لا يبقى الإنسان أسيرَ هواه، يتعنّت في قبول الحق والإذعان إليه، بل هو حرٌّ في أفكاره منصفٌ في آرائه، محايدٌ في مواقفه.

* في تسمية يوم القيامة بيوم الفصل إشارة إلى أنه يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس، حيث فيه يُفصل بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر. وكلُّ يُجَازَى على عمله؛ ففريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير. وهذا منتهى العدل الإلهي، حين يُفصل بين العباد بالحق، ويُعطى كلُّ ذي حق حَقَّهُ بلا بخس، وإلا لما كان لهذه الحياة الدنيا معنى إذا انتهت بدون حساب ولا جزاء. فمن مستلزمات عدل الله تعالى - وهو سبحانه الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرّماً - أن ينشر الميزان بالعدل، ويُقيّم الحساب بالقسط. قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

المقطع الثالث: (مسؤولية المشركين في الآخرة وأسبابها) الآيات: (٢٢-٣٧)

قال الله تعالى: ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَيُّومٍ مُسْتَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَان لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذٰئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَآ الْهَيْتَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن أثبتت الآيات السابقة الدلالة على وجود الله وعلمه وقدرته، وذكرت بمشاهد ليوم القيامة، تتابع في سياقها الحديث عن أحوال المشركين، وكيف يُساقون إلى النار في ذل وهوان، لا يجدون النصير ولا المعين، ثم تُصوّر مشاهد من تحاصمهم فيها، وتلاوم الأتباع والمتبوعين، كلُّ يلقي التبعة على الآخر.

التفسير:

ينتقل السياق من الخبر إلى خطاب الله تعالى الموجّه للملائكة الموكّلين بالتنفيذ في موقف الحشر أن يجمعوا للحساب المكذبين بيوم الدين، وهم الأصناف الثلاثة: الظالمون المشركون وأشباههم، وقرناؤهم من الشياطين، فيُضَمُّ كل شكل إلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه، أو نساؤهم الكافرات، ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان. ووجه حشرها مع عابديها مع كونها جمادات لا تعقل زيادة في تبييت عابديها، وحسرتهم وتحجيلهم، وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر.

وتؤمر الملائكة أن يعرفوهم طريق النار ويدلّوهم عليها، زيادة في التهكّم والازدراء.

والجحيم طبقة من طبقات جهنم يقال إنها الرابعة. كما تؤمر أيضاً بحبسهم في الموقف للحساب والسؤال عن الأقوال والأفعال من الخطايا، وإنكار كلمة التوحيد، وظلم الخلق. وفي الآية تقديم وتأخير على قول بعضهم؛ فالوقوف قبل السَّوق إلى الجحيم، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى الجحيم، وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشرون للسؤال.

واختلَف في مضمون السؤال؛ فقليل: عن شرب الماء البارد على طريق الهزء، أو عن لا إله إلا الله، أو عن أعمالهم. قال ابن عطية: السؤال متَّجه عام في الكفر وغيره، لحديث أنس بن مالك ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَفُّهُمْ لِئَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢١) ما لكُرَّ لَا تَنَاصُرُونَ (٢٥)﴾ (١). وحديث أبي برزة الأسلمي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه) (٢).

ثم يُساءلون توبيخاً وتقريعاً: ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله كما كنتم في الدنيا متناصرين؟ وفيه إشارة إلى جواب أبي جهل، حيث قال يوم بدر: ﴿تَحْنُ جَمِيعٌ مُنْصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، بل هم اليوم جميعاً منقادون لا حيلة لهم.

وتشهد ساحة القيامة تلاومهم وخصامهم، فيتساءلون تأنيباً وسخطاً وتقريعاً، كلُّ يُلقي التبعة على الآخر، فيسأل الأتباع رؤساءهم عن سبب إغرائهم، وحملهم على الضلال، وقسرهم عليه، وذلك حين يأتونهم من جهة الخير فيصدونهم عنه.

وفي لفظ اليمين استعارةٌ لمعانٍ خمسة:

- (١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الصافات، رقم الحديث ٣١٥٢: قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.
- (٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم الحديث ٢٣٤١: قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح. والمحرف الوجيز، ابن عطية ١٢: / ٣٤٤.

١- أنها استعيرت مجازاً لجهة الحق والدين والخير، فعبرَ عنها باليمين، إذ هي الجهة التي يُتيمَن بها، وبكل ما فيها ومَن فيها. فاليد اليمنى أشرف العضوين، وبها تُبَاشَرُ أفضلُ الأشياء؛ من مصافحة، ومناولة، وكتابة، وغيرها. والمعنى: أنكم تأتوننا من قبل الدِّينِ وناحية الخير فتصدوننا عنه، وتلبسون الحق علينا. وقد رجَّحه الطبري، واستحسنه القرطبي^(١).

٢- ومنها أنها استعيرت مجازاً لجهة القوة والشدة، حيث يقع بها البطش والقهر. والمعنى أنكم كنتم تغفوننا بقوتكم بحكم السيطرة والرئاسة، وتحملوننا على طريق الضلال، وتقسروننا عليه.

٣- ومنها أنها استعيرت مجازاً لجهة التمويه والإغواء، وهي جهة الرشد والصواب، فكأنهم شبهوا أقوال المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة، فكأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمَدَ به. والمعنى: أنكم كنتم تموهون في هذه الغوايات.

٤- ومنها أنها استعيرت مجازاً بالحلف، فاليمين هنا بمعنى القَسَمِ. والمعنى: يحلفون لنا ويأتوننا إتيان مَن إذا حلف لنا صدقناه^(٢).

فيردُّ الرؤساء يذكر ونهم رفضهم الإيمان وإعراضهم عنه، وأن اختياركم للطغيان طواعية منكم لا جبراً، ولم نتعدَّ أمر الدعوة إليه لنجبركم عليه، بل كانت استجابتكم رغبة منكم لا قسراً.

فلزِمنا جميعاً وعيدُ الله تعالى بذوق العذاب، فدعوناكم إلى الغيِّ والضلال، فاستجبتم لنا.

ثم بعد هذا الجدل بين الطرفين يقرِّر الحق تبارك وتعالى مآلهم، وأنه حتمٌ لكل مجرم، تابِعاً

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣ /، ٤٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥ /، ٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥ /، ٧٥، والمحزر الوجيز، ابن عطية ١٢ /، ٣٤٨، والبحر المحيط، أبو حيان ٤ /، ٩٨.

كان أو متبوعاً أن يُلقى في النار.

ثم يخبر المولى سبحانه عن سبب عذابهم، وهو أنهم كانوا إذا دعوا إلى كلمة التوحيد أنكروها، وأبوا إلا الشرك. كذلك أنكروا الرسالة حين اتهموا النبي ﷺ بالسحر والجنون. ولا يخفى ما في اتهامهم ذاته من الخلط، إذ كيف يُسوَّى بين الشاعر في حذقه وفهمه، والمجنون في غيِّه وإطباقه؟ فيكذبهم بإثبات الحق في شهادة التوحيد، وصدق النبي ﷺ في رسالته التي جاءت خاتمة الرسالات، مؤكدة لمضامينها، ومؤيدة لأصولها، نافياً عنه أيَّ هيئة من الشعر، أو صفة من الجنون.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المحور الرئيس للسورة يصب في موضوع واحد هو موضوع التوحيد، والمواضيع الأخرى التي تتحدث عنها السورة كلها تتفرع عن هذا الأصل، وفي هذا المقطع يتفرع الحديث عن قضيتين اثنتين من قضايا التوحيد هما: قضية اليوم الآخر، وقضية بعثة الرسل.

فحين دعي الكافرون إلى إعلان التوحيد استكبروا، وتمسكوا بشركهم وكفرهم بدعوة الرسل واتهامهم لهم بالجنون، وهذا يؤكد أن أصل البلاء ومشكلته الأساس الشرك، حيث ينبثق عنه الكفر باليوم الآخر، والكفر بالرسل.

دروس وعبر من المقطع الثالث

* اليمين أشرف العضوين وأمتنهما، وكانوا يتيمنون بها، وبها يصفحون ويباشحون ويناولون ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سمّوها الشؤمي، كما سمّوا أختها اليمنى. وتيمّنوا بالسنانح؛ وهو المارٌّ من اليسار إلى اليمين، وتطيّروا بالبارح، وهو عكسه. وكان الأعسر معيباً عندهم، وعضدت الشريعة ذلك؛ فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأرادها بالشمال. وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء^(١). وجعلت

(١) عن عائشة رضي الله عنها ذكرت: (أن رسول الله ﷺ كان يحب التيامن ما استطاع في طهوره ونعله =

اليمينُ لكاتب الحسَنات، والشمالُ لكاتب السيئات، ووَعَدَ المحسَنُ أن يُؤتى كتابَه بيمينه، والمسيءُ أن يؤتاه بشماله. وفي الآية استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين أي: من قِبَل الخير وناحيته، فصَدَّه عنه وأضَلَّه.

وجاء في بعض التفاسير: مَنْ أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قِبَل الدُّنْيَا، فَلَبَسَ عليه الحق، وَمَنْ أتاه من جهة الشمال أتاه من قِبَل الشهوات، وَمَنْ أتاه من بين يديه أتاه من قِبَل التَّكْذِيبِ بالقيامَة وبالثواب والعقاب. وَمَنْ أتاه من خلفه خَوَّفَهُ الفقرَ على نفسه، وعلى مَنْ يَخْلَفُ بعده، فلم يَصِلْ رَحِمًا، ولم يُؤدِّ زكاة^(١).

* مهمة الداعية تبليغ الدعوة، وعرضُ كلمة التوحيد على الناس، ويدلُّ لذلك أن رسول الله ﷺ عرض كلمة التوحيد على عمه أبي طالب، كما في حديث البخاري^(٢).

* ذهب ابن عطية إلى أن النبي ﷺ في عَرَضِهِ قَوْلَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ على عمه أبي طالب جرت السِّتَةُ في تلقين الموتى المحتضرين، ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها. ويُستدلُّ له بما أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَقِّنُوا موتاكم لا إِلَهَ

=وترجله. قال شعبة: ثم سمعت الأشعث بواسط يقول: يحب التيامن؛ فذكر شأنه كله، ثم سمعته بالكوفة يقول: يحب التيامن ما استطاع). سنن النسائي، كتاب الطهارة، باب بأي الرُّجْلين يبدأ بالغسل، رقم الحديث: ١١١.

(١) الكشاف، الزمخشري ٤ /: ٤٣.

(٢) عن ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: (أي عم! قل: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ كلمة أحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزلوا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه، فنزلت: ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّنَا هُمْ أَنْتَهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١٣) ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم الحديث: ٣٥٩٥.

إلا الله^(١) (٢).

* كل إنسان مسؤول عن عمله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] والمسؤولية فردية تكليفية، لا يُعفى منها أحد يوم الحساب، في وقفة فردية بين يدي الله تعالى ليس بينهما ترجمان، مروراً على الصراط، وهو الجسر الممدود فوق نار جهنم، لا يتجاوزه إلا بعد إكمال مراحل الحساب. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۗ ثُمَّ نُجِى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۗ﴾ [مريم: ٧١-٧٢]. وفي الصحيح أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: (مَنْ حوسب عُذْب). قالت عائشة: فقلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)؟ قالت: فقال: (إنها ذلك العَرْض، ولكن مَنْ نوقش الحساب يهلك)^(٣).

* كلمة التوحيد نادى بها جميع الرسالات السماوية، وأكدتها رسالة الإسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وبالتالي فأصول الدين واحدة عند جميع الأنبياء، تتجلى في الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والشرائع متعددة متنوعة، وينحصر تباين الشرائع السماوية في أمور العبادة والمعاملة، حيث تميز دعوة كل نبي بخصائص تنفرد بها. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

* الشرك بالله أشد أنواع الظلم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش: (إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله، رقم الحديث ١٥٢٤ .:

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٢ / ٣٤٤ .:

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب مَنْ نوقش الحساب عُذْب، رقم الحديث ٦٠٥٥ .:

بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية) أبوا وأنفوا من ذلك^(١). كذلك استكبر المشركون عن هذه الكلمة يوم الحديبية، وفي كل مناسبة يعرض النبي ﷺ عليهم قبول هذه الكلمة فإنهم يأبون قبولها ظلماً وعناداً. وذلك منتهى الظلم وأقبحه^(٢).

المقطع الرابع: (جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين) الآيات: (٦١-٣٨)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَدَائِبُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُحِزُّونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ۝٤١ فَوَكَهَهُمْ مَكْرُمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ۝٤٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَهَيْئًا لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ۝٥٢ أِهَذَا مِمَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهَذَا لِمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ قَرَاءُهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِينَ ۝٥٦ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَمَا تَحْنُ بِمِثَابِنٍ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَذَا لَمَوْءِقُورُ الْعَظِيمِ ۝٦٠ لِيُمِثِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

يتتابع الحديث هنا في نقلة بلاغية من الغيبة إلى الحضور، موضحاً عدم الفائدة من حوار دعاة الضلال وأتباعهم، فقد شملهم العذاب جميعاً بمقتضى قانون العدل الإلهي المطلق فالجزاء من جنس العمل، والعدل هو أساس الجزاء يوم الحساب، فلا تجاوزات ولا اعتبارات، فمن آمن وعمل صالحاً فهو ناجٍ من السعداء في نعيم خالد، ومن جحد وأشرك فهو خاسر من

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة (ص)، رقم الحديث: ٣١٥٦. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٧٦.

الأشقياء في جحيم دائم، والآخرة هي الفيصل في ذلك، والحجة فيها على الفريقين. ووعدُ الله تعالى لا يُخلف.

التفسير:

يخاطب الحق تبارك وتعالى عمومَ البشر بإعلان عهده ووعدِهِ في حق الكفار الجاحدين أن العذاب مصيرهم، والجحيم وعيدهم، جزاءً عادلاً على كفرهم ومعاصيهم، وعقوبة ماثلة لشركهم، ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. بخلاف المؤمنين الصادقين؛ فجزاؤهم أضعاف ما أخلصوا وأحسنوا؛ فهم ناجون لا يذوقون العذاب، ولا يُناقشون الحساب، بل يتجاوز المولى عنهم ويكرمهم برزق معلوم الخصائص؛ من حُسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة. وخصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو سبيل التفكُّه والتلذذ، لا للتغذي والتقوُّت، لاستغنائهم عن الحاجة لذلك بمقتضى خلودهم في الجنة. وهم ينعمون في غاية من الإكرام، فيتكئون على سرر متقابلين تواصلًا وتحببًا، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وفي أحيان ترفع عنهم ستور، فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أن أعظم أحيانهم فيها متحيزون في قصورهم^(١).

ويبين أبو حيان في (بحره) مظاهر الرزق والإكرام، فيقول: ذكر أولاً الرزق، وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً الإكرام، وهو ما تتلذذ به النفوس، ورزقٌ يهانةً تنكيدٌ، ثم ذكر المحل الذي هم فيه وهو جنات النعيم، ثم أشرف المحل وهو السرر، ثم لذة التأنس بأن بعضهم يقابل بعضاً، وهو أتم السرور وأنسه، ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم، بل يُطاف عليهم بالكؤوس، ثم وصف ما يُطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد، ثم ذكر تمام اللذة الجسمانية وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق، وهي أبلغ الملاذ، وهي التأنس بالنساء^(٢).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٥٢/١٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان: ١٠٠/٩.

وبعد بيانه صفة الطعام وتعريفه بهيئة المسكن وحالمهم فيه، ذكر صفة الشراب؛ فهو يقدم لهم في آية من عيون تجري^(١) بالخمير التي لا تُسكر، وهي شديدة البياض، لذيدة الطعم، طيبة الرائحة، لا تذهب بالعقول، ولا تُسبب صداع الرأس، ولا وجع البطن، كما هي صفة خمر الدنيا. وفي ذلك إيحاء إلى مفاسد الأخيرة مما اتصفت به من العول؛ وهو اسم عام في الأذى، واشتهرت بالإسكار، وذهاب العقل، والاعتصار، والاختزان.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو مدمنها لم يتب، لم يشربها في الآخرة)^(٢).

ثم يتم وصف حالهم في النعيم ببيان صفة زوجاتهم؛ فهنَّ عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، ولا يُردن غيرهم عفةً وحياءً، ذواتُ عيون واسعة حسان. قال الطبري: يعني بالعَيْن: النَّجَل من العيون عظامها. وهي جمع عيناء. والعيناء المرأة الواسعة العين عظيمنتها وهي أحسن ما تكون من العيون، وشبههن في بياضهن بياض البيض داخل القشر قبل أن تمسه الأيدي. وتشبه العرب الشيء بالحسن والنظافة ببيض النعام المغطى بالريش، كما تشبه النساء بها فيسمين ببيضات الخدور^(٣). وفسر المكنون بالمصون عن الكسر كناية عن أنهن عذارى.

ثم يجيء الخطاب بصيغة الماضي لصدق الإخبار به، فكأنه قد وقع. والقريظة هي التفرغ على الأخبار المتعلقة بالآخرة، فتمضي الآيات تتحدث عن أهل الجنة يتجاذبون أطراف الحديث في مُتَعِ نفسية، بعد بيان ألوان من المُتَعِ المادية في الجنة، فيسأل بعضهم بعضاً متذاكرين ما مرَّ بهم

(١) اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ (٥٧)؛ فقراءته عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض قرأة الكوفة: (يُنْفَوْنَ) بفتح الزاي، بمعنى: (ولا هم عن شربها تنزف عقولهم)، وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفة: (ينزفون) بكسر الزاي، بمعنى: (ولا هم عن شربها يُنْقَدُ شراهم). جامع البيان، الطبري: ٥٥-٥٤/٢٣.

(٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٥٧٣٠.

(٣) تفسير النسفي ٤: /٢٠.

من أحداث في الدنيا، وما عانوا فيها، فيقول مؤمن منهم متذكراً أحد أصحابه من قراء السوء في الدنيا من المستهزئين بالبعث والمنكرين له، محتجاً على إعادة الحياة والحساب والجزاء مستخفاً به. ثم يطلب من جلسائه مطالعته في النار ورؤيته في عذابه يُجأزى عليه. ثم يخاطبه بعد أن عاينه يتلظى في عذابه، ورآه في وسط الجحيم^(١)، فيذكره موبخاً بمحاولاته في إغوائه في الدنيا وسعيه في إهلاكه، حين كان ينكر الإيمان بالبعث ويسخر منه مقرأً بفضل ربه عليه في ثباته على الإيمان الذي حماه وعصمه من حضوره معه في هذا المآل الذي لا يُحسد عليه. - (أحضر) لا تستعمل مطلقاً إلا في الشر. - ثم يعود المؤمن يسائل جلساءه من أهل الجنة مبتهجاً مسروراً، وباستفهام تقرير يعبّر عن ابتهاجه وسروره، وتحدثاً بنعمة الله تعالى عليه، وبمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة في العذاب: نحن مخلّدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟ والحال أن هذه حال المؤمنين أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى^(٢). بخلاف الكفار في النار، فإنهم يتمنون فيها الموت كل ساعة. وقيل لحكيم: ما شرُّ من الموت؟ قال الذي يُتمنى فيه الموت^(٣).

ثم تأتي خاتمة الموقف الحوارية بتقرير قاعدة العدل الإلهي؛ وهي أن الخلود في دار النعيم والنجاة من النار، هي حقيقة الفوز العظيم. فليعدّ العقلاء العاملون عدّتهم بمواصلة عملهم

(١) ورد في الآثار أن لأهل الجنة كوى وطاقت يشرفون منها على أهل النار إذا شاءوا على جهة النعمة والعبارة، لأن لهم في عذاب أهل النار وتوبيخهم سروراً وراحة. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٨٣/١٥، وروح المعاني، الألوحي: ٩٣/٢٣.

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة! فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رأه، ثم ينادي: يا أهل النار! فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رأه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا، وهم لا يؤمنون). صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، رقم الحديث: ٤٣٦١.

(٣) تفسير النسفي ٤ / ٢١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١٩/٢٣.

وإخلاصهم لله تعالى فيه بكثرة الصالحات، واجتناب السيئات لتحقيق هذا الفوز العظيم، فهو الخير الحقيقي. وأما خير الدنيا فنسبي مؤقت، لا يرقى إلى الكمال والتمام مهما تنامي وتسامى. ويحتمل أن يكون تقرير هذه القاعدة خلاصة حوار هذا المؤمن مع جلسائه، أو أن يكون ردَّ الله تعالى على هذا الموقف، وخطابه للنبي ﷺ وأمته، فالدنيا دار عمل بلا جزاء، والآخرة دار جزاء بلا عمل، كأنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون^(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

الحديث عن جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة جزء أساس في العقيدة، يرتبط بالمحور العام للسورة في تناول قضية التوحيد الكبرى، قضية الإيثار بالله تعالى، وما يتصل بها من الإيمان بيوم القيامة ومشاهده وأحواله. وفي هذا المقطع يتجلى المشهد في وصف حال أهل الجنة وإكرامهم، من خلال تحقق صفة العبودية والإخلاص فيهم، ثم يتتابع الحديث ليبين لنا جزاء المنكرين للبعث، فينقل حواراً لهم حول المال الذي صاروا إليه، ليقرر حقيقة ترتبط بالمحور الأساس للسورة، مؤكداً قانون العدل الإلهي القائم على أن الجزاء من جنس العمل.

دروس وعبر من المقطع الرابع

* في وصف خصال خمر الآخرة تنزيه لها عن صفات خمر الدنيا، وتلميح وإيحاء إلى مفسادها فتتصف خمر الدنيا بالغول، وذهاب العقل، وتسبب الصداع والفساد والسُّكر، وتؤدي إلى العريضة والهذيان، وتوجع البطن، وتفسد الدم وجهاز الهضم، فهي بحق أمُّ الخبائث^(٢).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٦٤/١٢.

(٢) عن عثمان ؓ يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أمُّ الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني، فلم يرُّم حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا =

- * الحذر من رفاق السوء، والتحفظ من قرناء الشر، ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزينونه من المهالك المادية والمعنوية، فالصاحب ساحب، والصديق عنوان صديقه وعلامة عليه، ورحم الله من قال: قل لي من تُصاحب أقل لك من أنت.
- * لا حرج من التحدث بنعمة الله تعالى، إظهاراً لفضل الله تعالى، وشكراً له عليها. يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ولا شك أن لذكر الأشياء المحبوبة لذة.
- * الكفار مخاطبون بأصول الدين، ومكلفون بإعلان التوحيد، ومجازون على أعمالهم السيئة المناقضة لأصول التوحيد؛ من تمجيد وتعظيم آلهتهم، وتكذيب الرسول ﷺ.
- * من فضل الله تعالى على عباده أن الحسنه تضاعف عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف مضاعفة، وأن السيئة لا تُجْازى إلا بمثلها وقدرها، وهو باب مفتوح للعبد للتزود من الخير.
- * نعيم الجنة وعذاب النار حقٌّ محتمٌّ، وعدل محققٌ، ومؤكَّد الوقوع، ولا ينافي عذاب الكافرين رحمة الله تعالى وعفوه وكرمه، إذ قضت حكمته سبحانه أن عفوه سبق غضبه، وأن عذابه لا محالة على من كذَّب وتولَّى، والجزاء من جنس العمل، فهو شديد العقاب على من تحدَّى أمره، غفورٌ رحيمٌ لمن تاب وأناب.
- * الحياة في الآخرة أبدية خالدة في الجنة والنار، والناس في الآخرة ثلاث فئات؛ مؤمنٌ حقاً يدخل الجنة فلا يخرج منها أبداً، وكافرٌ حقاً يدخل النار فلا يخرج منها أبداً، وفاسقٌ عاص يدخل النار فيعذب على ذنوبه، ويمكن فيها مدة عذابه، ثم يخرج منها، ليخلد في الجنة أبداً.
- * الحوار بين أصحاب الجنة والنار ثابت بالنص في سورة الأعراف^(١)، كلاهما يطَّلَع على حال

= الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيوان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه. سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر: رقم الحديث: ٥٥٧٢.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا =

الآخر، وقد بلغ العلم في تقنيته الحديثة اليوم مبلغه في تحقيق ذلك، من خلال الفضائيات ووسائل الاتصال المختلفة وهي من صنع البشر، فكيف بقدرة الله تعالى القادر على كل شيء؟

* الوفاة مرحلتان؛ معنوية مؤقتة، وتتمثل بالنوم، وحقيقية دائمة، وتتمثل بالموت، وهو انتقال من نهاية مرحلة دار الممر وهي الحياة الدنيا، إلى مرحلة دار المستقر وهي الحياة الآخرة، وهي التي لا موت فيها^(١)، حيث يُمثل للموت فيها بكبش يُذبح على بابي الجنة والنار، في إشارة إلى نهاية الموت، كما سبق في حديث البخاري.

= قَالُوا نَعْرَ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلَهُمْ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿الأعراف: ٤٤-٥٠﴾.

(١) في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَلِئِ اللَّهِ فِضْنَ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

المقطع الخامس: (جزاء الظالمين، وألوان عذاب جهنم) (الآيات: ٧٤-٦٢)

قال الله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقْوِمِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَائِمُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا بآبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّرْعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنَادِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنَادِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد هذا العرض لقصة المؤمن مع قرينه، وما آل إليه حاله من استحقاق جزاء إنكاره وجحوده، يجري التعقيب القرآني على هذا الحدث بالإشارة إلى مغزاه عظة واعتباراً، ليظهر التمييز بين نعيم المؤمن وجزاء الكافر، وكما تنوعت ألوان نعيم المؤمنين في الجنة فيما سبق، تنوع هنا ألوان العذاب في الجحيم، ليقم الله تعالى الحجة على خلقه حين أهملوا عقولهم، وجحدوا بربهم، وأنكروا الحساب، فها هو الجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

التفسير:

تساؤلاتٍ تحمل في طيها التقرير لا الاستفهام، تهدف في مضمونها إلى التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه، ومآل الكافر وخسارته، وتقرر لقريش وكفار مكة المستهدين بالخطاب حقيقة لا بد من إدراكهم لها، وهي أن عطاء الله تعالى للمؤمنين في الجنة لا يحد، وإكرامه في وفادتهم حقٌ وصدق، وقد جاء التفضيل بين شيئين ليس بينهما اشتراك على سبيل التقرير والتوبيخ، فهو حين يقارن بهذا العطاء عذاب الكافرين، فإنما يهدف إلى التهكم والسخرية بهم إذ المعادلة بين النزّلين مقارنةً للثرى بالثريا، فأني لطعام الزقوم أن يعدّ إكراماً؟ واعتبر النزّل - وهو الطعام المهيأ للضيف - إكرام أهل الجنة، وأشار إليه باسم الإشارة المفرد البعيد، ليدل على بُعد المرتبة وسموها، حيث الشيء النفيس الشريف يُتخيّل عالياً، والعالي يلازمه البعد عن

المكان المعتاد، وهو السفلى.

والزُّقُوم طعام أهل النار، جعله الله تعالى فتنةً وابتلاءً لأهل الضلال. فحين سمع الكفار ذكراً شجرة الزُّقُوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزُّقُوم؟ إنه الزيد والتمر، ثم يأتيهم به ويقول: تزقّموا، هذا الذي يخوفنا به محمد ﷺ^(١).

والزُّقُوم في الدنيا شجر من أحبب الشجر في الصحاري، خشن، منكر الصورة، كريه الرائحة، صغير الورق، مسموم، فيه لبن، إذا أصاب جلد الإنسان تورّم ومات منه في الغالب، وكأنه مشتق من الزُّقمة، وهو اسم الطاعون.

أما زقُوم الآخرة في النار فهو شجرة تنبت في قعر جهنم، تتفرع أغصانها بين دركاتها وعبر عن ثمرها بالطلع، تشبيهاً بطلع النخلة، وشبهه برؤوس الشياطين في تناهي القبح والبساعة، فهي وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، إلا أنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر^(٢)، والعرب تشبه القبيح بالشیطان، وجميل الصورة بالملك، فقد قال تعالى مخبراً عن صواحب يوسف: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]. وفي الحديث الصحيح: (ولكأن نخلها رؤوس الشياطين)^(٣).

(١) جامع البيان، الطبري: ٤١ / ٢٣.

(٢) في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾، قال رسول الله ﷺ: (لو أن قطرة من الزقُوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي: كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم الحديث: ٢٥١٠.

(٣) إشارة إلى حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (سُحِرَ النبي ﷺ، حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفيتته فيه؟ قلت: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن

ومن معاني التزُّمِ البُلُغُ على جهد لكرهاتها وتنتهاها، فتزيد العقوبة حين يشتد جوعهم فلا يجدون مفرّاً من أكلها كرهاً واضطراباً، ثم بعد ملئ البطون منها تزداد الحاجة للريِّ بعد أن يغلبهم العطش، فلا يجدون بُدّاً من شرب الماء الحار، فيكون حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول، فيصبُّ لهم الماء الحار في الحميم، ويمزج لهم، ليجمع بين مرارة الزُّقُوم وحرارة الحميم تغليظاً لعذابهم، وتجديداً لبلائهم، ويكون موضع الأكل والشرب في الحميم خارج الجحيم، فيردُّون الحميم لشربه كما تردُّ الإبل إلى الماء، ثم يعودون إلى الجحيم.

ومبرّر لون هذا العذاب أنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاقتدوا بهم، وقلّدوهم دون تعقُّل وتدبُّر، بل كانوا يتسابقون في التقليد مسرعين في رعدة دون حجة أو برهان.

وهذا يؤكد أن ظاهرة الكفر قديمة، وأتباعه كثيرون، رغم إرسال الرسل، وإنذار الكافرين إلا أنها سنّة الله تعالى في خلقه أن يُعرض الكفار عن دعوة المرسلين عناداً واستكباراً، ولا يتبعهم إلا الخُلَّص من المؤمنين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ مما كان يلاقيه من صدِّ قريش عن دعوته. فله في قصص الأنبياء من قبل في دعواتهم لأقوامهم الأسوة والقُدوة في الصبر والتحمل، ولقريش العبرة والعظة فيما حلَّ بالكفار والمكذّبين بالرسل من هلاك ودمار وعقاب.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يتصل الحديث في هذا المقطع بمحور السورة في تناول قضية التوحيد، والحديث عن مشاهد الآخرة، من خلال تتابع الكلام عن جزاء الكافرين في جهنم، وما أعد الله تعالى لهم من عقوبة جزاء كفرهم وشركهم، لكنه يعلل ذلك المآل بسبب تقليدهم للآباء والأجداد في مسيرة

=الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان، قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحنّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً، وأمر بها فدفنت). صحيح البخاري، كتاب الطب، باب السحر، رقم الحديث: ٥٣٢٤.

الكفر والإلحاد، فلم يفتحوا قلوبهم، كما لم يعملوا عقولهم لتجنب ضلال السابقين، واتباع الحق الذي جاءت به الرسل في دعواتهم، ففي النهاية قامت الحججة عليهم، واستحقوا العقاب بما كسبت أيديهم، دون اعتبار بمن سبق، أو اتعاض بما وقع.

دروس وعبر من المقطع الخامس

* قياس عالم الآخرة على عالم الدنيا قياس مع الفارق، فالدنيا عالم الشهادة والمحسوس، وكل ما جاء في الآخرة من أخبار إنما ترجع إلى عالم الغيب الذي تعبّدنا الله تعالى بالإيمان به، وجعله الفيصل بين المؤمن والكافر. وبالتالي فكل أحوال الآخرة يعتقد المؤمن بصدقها، ويؤمن بوقوعها، ويسلم بحدوثها، إذا أيقن أن الله تعالى قادر على كل شيء، وأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وأنه عزّ وجلّ عدل لا يظلم أحداً، حين ذلك يجد في كل أهوال النار وألوان عذابها ما يُطمئن قلبه، ويُسكن فؤاده في عدل الله تعالى وحكمته، ويستشعر قدره بقدرة الله تعالى في جميع ذلك، وإمكانية حدوثه.

* التقليد الأعمى شوّم على المقلّد وعلى من يتبعه، وقد عابه القرآن على المشركين مراراً، وذمّهم حين عطّلوا عقولهم، وحجّروها في الاتباع الأعمى، فلا سعادة للإنسان إلا بالنظر والتفكير والبحث عن الحقيقة، ليصلها عن قناعة وتدبر ويقين.

* الترهيب والترغيب أسلوبان ناجعان من أساليب الدعوة، والمقارنة والموازنة ضربان مهمّان لكل ذي عقل يميز بين أمرين، ليتخذ اختياره عن حكمة ومعالجة، إذ بضدّها تميّز الأشياء، ولا تدرك الحقائق إلا بمقارنتها بأضدادها. ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

* لا ينبغي للعاقل أن يغترّ بكثرة المشركين، فكثرة العدد لا تبرر ضلال الضالين، ولا خطأ الخاطئين، والهدى والضلال ليسا من آثار العدد كثرة وقلة، ولكنها حقيقتان ثابتتان مستقلتان متباينتان في الوجهة والغاية، والخير والشر، والحسن والقبح، والحق والباطل. ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِيبِ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ [المائدة: ١٠٠]. فلا حجة ولا اعتبار للقلَّة والكثرة فيهما.

* ضرب الأمثلة بقصص الأمم السابقة فيه تذكير وسلوان للنبي ﷺ، وتهوين وتخفيف مما كان يعانیه ويلاقیه من تكذيب قومه، وصدِّهم عن دعوته. وفيه درس ومثال له وللدعاة من بعده في أخذ العظة والعبرة بما حلَّ بالأمم الماضية حين كذبوا أنبياءهم، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار، وهو لون من ألوان التوجيه والتربية في الصبر والتحمل والتجمل.

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* تشبيه المحسوس بالمتخيَّل أسلوب قرآني بليغ في الدلالة على المشبَّه به.

* الحسن والقبح ضدَّان يتقلَّبان في الأشياء والمخلوقات لحكمة، وقد خلقها الله تعالى فتنة وابتلاءً للإنسان، كي يتخير الحسن المليح، ويتجنب السيء القبيح. فالزُّقوم شجرة خبيثة، ذكرها الله تعالى في القرآن مقرونةً بالفتنة واللعن، وهي في الدنيا والآخرة من المستقبَّح الكريه^(١)، بخلاف طوبى فهي من الألفاظ الطيبة، وقد استعملها القرآن في التودد والتجمل، وأشار إليها النبي ﷺ في مقام الحمد والثناء^(٢)، وهي شجرة الإنعام والإكرام لأهل الجنة^(٣).

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرِّزْيَا أَلْحَىٰ أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال: (هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: والشجرة الملعونة في القرآن؟ قال: هي شجرة الزقوم). صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب المعراج، رقم الحديث: ٣٥٩٩.

(٢) عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، رقم الحديث: ٢٢٧٢.

(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ (أن رجلاً قال له: يا رسول الله! طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها). إسناده ضعيف دون قوله: (طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني) فحسن لغيره. الموسوعة الحديثية =

المقطع السادس: (قصة نوح عليه السلام ودعاؤه) الآيات: (٧٥-٨٢)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذرين على سبيل الإجمال أتبع التذكير من جانب النظر في آثار ما حلَّ بالأمم المرسل إليهم، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرة بتذكير من جانب الإخبار عن الرسل الذين كذبهم قومهم وآذوهم، وكيف انتصر الله تعالى لهم، ليزيد رسوله ﷺ تشبهاً، ويُلقم المشركين تبيكياً، وفي تقديم قصة نوح عليه السلام على غيره من الرسل إشارة إلى أنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى الناس، وهو الأسوة الأولى، والقُدوة المثلى، وفيه نوع تفصيل لما أُجمل فيما قبل، يتضمن سوء عاقبة بعض المنذرين كقوم نوح، ثم يعقب ذلك الوجه الآخر في الاستجابة للمرسلين، كما في بيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصوا لله تعالى كقوم يونس^(١).

مناسبة هذا المقطع لما بعده من المقاطع:

ذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم، لأن في كل قصة منها خاصية لها شبه بحال الرسول ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته، ففي القصص كلها عبرٌ بالغة، وأسوة وإنذار، وتهديد وتحذير لمن كفر من أمته، وتسليية للرسول ﷺ، ويجمعها كلها مقاومة الشرك ومقاومة أهله.

وقد اختير هؤلاء الرسل الستة لأن نوحاً القُدوة الأولى، وإبراهيم هو رسول الملة الحنيفية،

=لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ١١٦٧٣.

(١) تفسير النسفي ٤ /: ٢٤، وتفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور ٢٣ /: ١٢٩.

التي هي نواة الشجرة الطيبة - شجرة الإسلام - وموسى لشبّه شريعته بالشرعية الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان. فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول، ثم ذكر ثلاثة رسل تفرّعوا عنهم، وثلاثتهم على ملة رسل من قبلهم؛ فأما لوط فهو على ملة إبراهيم، وأما إلياس ويونس فعلى ملة موسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

التفسير:

جاء دعاء نوح عليه السلام حين أيس من إيمان قومه، بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ [نوح: ٥-٦]. وقد تضمن هذا النداء المبارك لنوح عليه السلام الاستغاثة بالله تعالى، والدعاء على قومه، وسؤال النجاة، وطلب النصرة. قال تعالى على لسانه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، وقال أيضاً: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر: ١٠]، وقال أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كُنتَ بِنِيءٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]. وفي جميعها وقعت الإجابة على أكمل ما أراد نوح عليه السلام، وأهلك قومه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في بيتي فمرّ بهذه الآية: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]، قال: صدقت ربنا، أنت أقرب من دعا، وأقرب من دُعي، وأقرب من بُغي، فنعم المدعو، ونعم المعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير)^(١).

ويشير فعل المدح (نعم) إلى جملة من مظاهر الإنعام، وصيغة الجمع في ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كُنتَ بِنِيءٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، دليل العظمة والكبرياء. ثم يأتي بيان هذا الإنعام في الإجابة مفصلاً بعد أن ذُكر مجملًا؛

فابتدأه بإنجاء الله تعالى إياه، ثم إنجاء أهل دينه، وهم من آمن معه وهم ثمانون، نجّاهم

(١) روح المعاني، الألويسي، ٢٣ / ٩٨.

الله تعالى من الكرب العظيم؛ وهو الغرق، وتكذيب الكفرة، وأذى قومه، وركوب الماء وهوله، والخبر الثقيل على القلب، والحزن، والغم الشديد. والمعني به الطوفان، وهو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه، وإنجاء نوح منه هو سلامته من الوقوع فيه، لأنه هول في المنظر، وخوف في العاقبة، والواقع فيه موقنٌ بالهلاك، ولا يزال الخوف يزداد به حتى يغمره الماء، ثم لا يزال في آلام من ضيق النفس، ورعدة القُرِّ، والخوف، وتحقيق الهلاك حتى يغرق في الماء.

أما النعمة الثانية: فهي جعل ذريته أصولَ البشر والأعراف والأجناس، وجعل عمران الأرض بها، وهي نعمة دائمة لأنهم يدعون له، ويذكر بينهم، وهم وحدهم دون غيرهم الباقون على قيد الحياة. والآية تفيد الحصر، وهو أن كل من سواه وسوى ذريته ممن كفر بدعوته قد فنوا؛ ومنهم زوجته وولده الرابع كنعان الذي أبى الاستجابة لأمره، وقد أشار القرآن الكريم إليهما في آيات معروفة^(١).

قال ابن عباس: ذريته بنوه الثلاثة: سام وحام ويافت. فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافت أبو الترك والصقلب والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سام أبو العرب، ويافت أبو الروم، وحام أبو الحبش)^(٢).

فنوح آدم الأصغر، والأب الثاني للبشر، لأن ذريته هم ركاب السفينة، وهم الأحياء فقط، والذين بقوا من نسله بعد هلاك قومه. قال ابن عباس: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح. وهو شيخ الأنبياء، بل أول الرسل إلى الأرض، كما في حديث الشفاعة: (اذهبوا إلى غيري، اذهبوا

(١) قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَنَّاتُهُمَا فَتَرَّيْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ. فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِنَنَّ مَا تَلَيْسَ لَكَ بِهِ. عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

(٢) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصافات، رقم الحديث: ٣٨٦٦. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

إلى نوح، فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟^(١)

وأما النعمة الثالثة: فهي إبقاء الثناء الجميل والذكر الحسن فيمن يأتي بعده من الأمم، فقد ذكر لنبي إسرائيل في معرض الاقتداء به، في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]. بل إنه لم يبعث نبيّاً بعده إلا أمر بالاعتداء به، كما في قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. أما تعيين هذا الثناء فيحمل معنى التحية والتعظيم والسلام الدائم في أوساط العالمين؛ من إنس، وملائكة، وحن غابر الدهر. قال الطبري عن هذا السلام: هذه أمانة من الله تعالى لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء^(٢). وقال ابن عطية: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة^(٣).

أما مبررات هذه الإنعامات السابقة فتمثل في:

- ١- مجازاته على إحسانه، فهكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى. وثناء الله تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه.
- ٢- وبسبب كونه محسناً، هو كونه من عباد الله المؤمنين، وفيه دلالة على أن الإيمان بالله تعالى وطاقته أعظم الدرجات، وأشرف المقامات، وفي ذلك إشارة إلى عظمة رتبة الإيمان وفضله، ومكانته ومنزلته.

٣- إغراق كفار قومه بالطوفان، وإهلاكهم، وفي ذلك عظة وعبرة، وهذا يقتضي أنه تعالى أغرق قوم نوح وأُمَّته ومكذِّبيه، فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكراً، ولا أُنثى، ولا يُعرفون إلا

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، رقم الحديث:

٣٠٩٢

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣: ٦٨.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٢: ٣٧١.

بهذه الصفة القيحة.

وليس في الآيات نص على أن الغرق عمَّ جميع أهل الأرض، لكن قال به جماعة من العلماء وأسندت به أحاديث أنه لم يبق إلا مَنْ كان معه في السفينة، وعلى هذا يكون الناس اليوم من ذريته.

ومن المعلوم أنه لم يكن الناس في عهد نوح بهذه الكثرة، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلغت جميعهم، لطول المدة واللبث فيهم. وكان الجميع عبدة أوثان وكفرة لم ينسبهم الحق إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ؟

قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم. علل مجازة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، ليرتك جلاله محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه^(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تأتي قصة نوح هذه لتخدم في سياقها محور السورة العام من خلال دعوته عليه السلام قومه إلى التوحيد، فقد أظهر من الجهد ما تميَّز به في الدعوة؛ من خلال طول المدة والمكث في قومه إضافة إلى صبره على أذاهم وإعراضهم عنه، فهو مثال عالٍ لمن يليه من الرسل في الدعوة إلى الإيمان ونبذ الشرك، كما أنه نموذج رائع في أمانة حمل الرسالة، وقدوة حسنة في الدعوة، والصبر على أذى الأتباع، وحيث كان مستحقاً لرتبة الظفر والإنجاء، لذلك نال هذا الإكرام الجميل والثناء الحسن في العالمين.

(١) الكشاف، الزمخشري ٤ / ٥٠.

دروس وعبر من المقطع السادس

* من مقتضيات الإيمان الصحيح بالله تعالى الإنجاء من المهالك، والإسعاد في الدنيا والآخرة، وبقاء الأثر والسمعة الطيبة والذكر الجميل أبد الدهر، وعلى عكس ذلك فمن مقتضيات الكفر بالله تعالى الإيقاع في أنواع العذاب الأليم، والشقاء في الدنيا والآخرة، وسوء السمعة، ومحل العظة والعبرة. والسعيد من اتعظ بغيره. والشقي من كان عبرة وأثراً يذكر لغيره.

* الدعاء مخُّ العبادة، وللدعاء آداب وأحكام فصلَّها العلماء، وما ينبئ إليه أهمية الدعاء، والحذر من دعوة المظلوم. فقد أثبتت الآثار أنه ليس بينها وبين الله حجاب، يرفعها الله تعالى إلى سبع سماء، ويقول الحق تبارك وتعالى: وعزّي وجلالي لأُصِرَّنَّكَ، ولو بعد حين^(١).

* الإيمان بالله تعالى والانقياد لطاعته أعظم الدرجات، وأشرف المقامات، وفي هذا إيحاء لفضل الإيمان والإحسان، وإكرام الله تعالى لأوليائه المؤمنين، وحسن عاقبة أهله المحسنين. وبالمقابل الإشارة إلى خطر الكفر، وسوء عاقبة أهله، وإهانتهم وإهلاكهم.

وذكر القرطبي في تفسيره عن سعيد بن المسيب قال: وبلغني أنه من قال حين يمسي: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٩٧]، لم تلدغه عقرب. ذكره أبو عمر في التمهيد^(٢).

وفي الموطأ: عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: (من نزل نزلًا فليقل: أعود بكلمات

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ وعزّي لأُصِرَّنَّكَ ولو بعد حين). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية، رقم الحديث: ٣٥٢٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الصيام، باب الصائم لا ترد دعوته، رقم الحديث: ١٧٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥ / ٩٠.

الله التامات من شر ما خلق، فإنه لم يضره شيء حتى يرتحل^(١).
وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رجلاً من أسلم قال: ما نمت هذه الليلة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أي شيء؟ قال: لدغتنى عقرب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك^(٢).

المقطع السابع: (قصة إبراهيم عليه السلام ١-). الآيات: (١٠١-٨٣)

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّ مِنْ شَيْعِنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥﴾ أَيفَكَاءَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٧﴾ فَتَنظَرُ نَظْرَةً فِي النَّجْمِ ٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا يَأْسِينُ ٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ٩٤﴾ قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ ٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي قصة إبراهيم هذه عقب قصة نوح عليها السلام، يربط بينهما الحديث عن وحدة الهدف والرسالة؛ فكلاهما رسول دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك، وفي ذلك بيان للصلة الوثيقة بين الأنبياء في رسالاتهم، فكلهم يؤوبون إلى أسرة واحدة، وطريقهم واحد يفيض بالحق من مشكاة واحدة - مشكاة النبوة -، كما تجمع بينهما وحدة المآل الواحد، وهو الحماية

(١) الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من الكلام في السفر، رقم الحديث: ٣٤.

(٢) الموطأ، كتاب الشعر، باب ما يؤمر به من التعوذ، رقم الحديث: ١١. وانظر: الجامع لأحكام القرآن،

القرطبي: ٩٠/١٥.

والإنجاء، فحين تتحدث القصة الأولى عن إنجاء الله تعالى لنوح من الغرق، تأتي هذه الثانية لتخبر عن إنجاء الله تعالى لإبراهيم من النار.

التفسير:

في الآيات تذكير للنبي ﷺ بإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وكيف أنهم سلسلة واحدة متتالية في حمل الرسالة وأداء الأمانة، يشايح بعضهم بعضاً، ويشابهه في التصلب للدين ومصابرة المكذبين. فإبراهيم ممن سار على ملة نوح في أصول الدين والتوحيد، وإن اختلفت شرائعها، أو اتفق أكثرهما. وقد كان بينهما ألفان وستمئة وأربعون سنة تعاقب خلالها نبيان؛ هما هود وصالح عليهما السلام. وقد أقبل إبراهيم على ربه بقلب مخلص موحد، خال من شوائب الشرك، نافر من الشرك وجميع النقائص؛ كالغل، والحسد، والكبر، فلم يلعن شيئاً قط. كما أنه جمع مكارم الأخلاق: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وهو منزّه عن كل خلق ذميم، واعتقاد باطل. يقول النبي ﷺ: (بعثت بالحنيفية السمحة)^(١).

وقد حاور أباه وقومه في دعوتهم ومنهجهم، وأقام عليهم الحجة حين أنكر عليهم ما يعبدون من الأصنام، وبين لهم وجه الإفك - وهو أسوأ الكذب الذي لا يثبت ويضطرب - في اتخاذ تلك الأوثان آلهة من دون الله، وحاججهم بأسلوب استفهام تويخي تقرير يمحمل معنى التحذير والوعيد، أي: أكذباً ومحالاً تريدون آلهة غير الله، حيث جعلتموها بكذبكم

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه، قال: فمرّ رجل بغار فيه شيء من ماء، قال: فحدّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلّى من الدنيا، ثم قال: لو أني أتيت نبي الله ﷺ فذكرت ذلك له، فإن أذن لي ففعلت، وإلا لم أفعل، فأثاه فقال: يا نبي الله! إنني مررت بغار فيه ما يقوّتني من الماء والبقل، فحدّثتني نفسي بأن أقيم فيه، وأتخلّى من الدنيا، قال: فقال النبي ﷺ إنني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكنني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولقمام أحدكم في الصف خير من صلواته ستين سنة). إسناد حسن في المتابعات والشواهد. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٢٢٩١.

بألستكم آلهة، وهي أحجار وأصنام؟ وما ظنكم حين تلقون ربكم أنه فاعل بكم، وقد عبدتم معه غيره؟

ثم أراد إبراهيم أن يقيم عليهم الحجة في أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، فاختار طريقة التفكير والنظر في النجوم، إذ هم يستعملونها في رعيهم وفلاحتهم، ليوهمهم من خلالها أنه عليل، كي يخلوا بينه وبينها، والحق أن نظر إبراهيم في النجوم إنما كان من قبيل التورية، فإنه أراد شيئاً وفهموا منه شيئاً آخر، تمهيداً لخطته التي بيّتها في أن يكاد أصنامهم حين يخرجون لعيدهم غداً، فيتخلف عن الخروج، دون أن يطلعوا على ما بيّت عليه النية. وبه يتبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها فذلك غير جائز، ولم يكن كاذباً في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

واختلف في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ فقالت فرقة: هي كذبة في ذات الله تعالى، أخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأن الكوكب أعطاه ذلك، وعلى هذا التأويل يجيء الحديث عنه ﷺ قال: (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله في سارة: هذه أختي)^(١).

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات؛ ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألتني فأخبرتني أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حججه فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فاتته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده مهياً، قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر). قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم الحديث: ٣١٠٨.

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعارض الجائزة. وفي الحديث: (إن في المعارض مندوحة عن الكذب)^(١). فهو حين أخبرهم أنه سقيم أراد أنه سقيم النفس من أموركم وكفركم، وهذا يدل على أنه لم يكن سقيماً، وإنما عرّض لهم، وهكذا هي المعارض.

وهذا التأويل لا يرده الحديثُ وذكرُ الكذبات، لأنه قد يقال لهذا كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، وقد رُخص بالكذب تعريضاً في المكيدة في الحرب، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإخبار بصدّ ما في النفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وتسميته بالكذب في الحديث الصحيح إنما هو بالنظر إلى ما فهم القوم منه، لا بالنظر إلى قصده عليه السلام كما أن جعله ذنباً في حديث الشفاعة لما يتبين له أنه كان خلاف الأولى. وكذا يقال في: ﴿بَلْ فَعَلَهُ وَالصَّحِيحُ أَنْ الْكُذْبُ حَرَامٌ إِلَّا إِذَا عُرِّضَ بِهِ، وَوَرِيٌّ عَنْهُ.

قال ابن كثير: ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُذمُّ فاعله، حاشا وكلا ولا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً. وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي، لحديث: (إن لكم في المعارض مندوحة عن الكذب)^(٢).

وقال القرطبي: فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم، عدّ هذا ذنباً، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]^(٣).

ثم إن إبراهيم عليه السلام بحجته هذه استطاع الانفراد بالألّهة ليحقق هدفه فيها، وقد تركوا

(١) بوبّ البخاري له في كتاب الأدب من صحيحه، كما أخرجه أيضاً في كتاب الأدب المفرد من حديث مطرف، قال: صحبت عمران بن حصين إلى البصرة، فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر، وقال: إن في معارضض الكلام مندوحة عن الكذب. الأدب المفرد: باب المعارض، رقم الحديث: ٨٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٩٣.

عندها طعاماً لُتْبَارِكَه، فبادرها السؤال تهكماً واستهزاءً، مستفهماً المانع من عدم أكلها الطعام، وهو بهذا يعزز وجه الاحتقار لها، لأنها منحطة عن رتبة عابديها، إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها، وليقينه في أنها جمادات لا تعقل، لكنه يتابع خطته فيميل عليها خفية بقوة وشدة فيحطمها إلا كبيرها، حيث تركه، لعل لسان حال المشاهد يعيدهم لرشدتهم إن هم أنصفوا التفكير، وعقدوا المقارنات.

وحين عادوا من عيدهم فوجئوا بالخبر، فأتوا مسرعين^(١) يسألون عمَّن كسرها، وحين أيقنوا الفاعل عاتبوه، فقالوا: نحن نعبدها وأنت تكسرها!. فردَّ عليهم عتابهم بتلويهم وتأنيبهم بسؤالهم عن عبادتهم لما يصنعونه وينحتونه بأيديهم. والنحت حقيقة في الخشب، مجاز في الحجر. والله تعالى المستحق للعبادة وحده، لأنه خلقكم، وخلق ما تعملون وتصنعون.

وتحتمل (ما) إعرابين؛ المصدرية، والصلة. بمعنى: (والله خلقكم وعملكم)، أو (والله خلقكم والذي تعملون). وفي كليهما دليل على أن الله تعالى خلق الإنسان، وخلق أفعال العباد وأعمالهم المكتسبة. وهذا يؤيد مذهب أهل السنَّة، وفيه ردُّ على القدرية والجبرية، وإبطال لقولهم: أن الإنسان خالق لأفعال نفسه.

روى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: (إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعتة فهو الخالق وهو الصانع سبحانه)^(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله خالق كل صانع وصنعتة)^(٣).

(١) في قوله تعالى: ﴿يَرْفُونَ﴾ قراءتان سبعيتان: قرأ الجمهور: ﴿يَرْفُونَ﴾ من زَفٍّ، أي: أسرع، وقرأ حمزة: ﴿يَرْفُونَ﴾ من أَرْفٍ، بمعنى: دخل، أي: شرعوا في الزيف. المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٧٨/١٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٤٤/٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد. انظر: فتح الباري، العسقلاني، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٥٤٠/١٣.

(٣) ذكره الثعلبي، وأخرجه البيهقي من حديث حذيفة. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٩٦/١٥.

ولما غلبهم إبراهيم في الحجة، وأقامها عليهم، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة وتواطؤوا على قتله، فتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن ينواله مكاناً واسعاً، ويضرموا فيه النار المستعرة، ويطرحوه فيها انتصاراً لأصنامهم. فأرادوا به سوءاً بحيلهم ومكرهم، فأنجاه الله تعالى، وجعلها برداً وسلاماً عليه، وجعلهم أذلة مقهورين في إبطال كيدهم.

ولما نجَّ الله تعالى إبراهيم من إحراق النار، وأيس من إيمان قومه، قرَّر هجرهم ومفارقتهم وأعلن هجرته من بلد قومه الذين آذوه إلى حيث أمره ربه بالمهاجرة إليه، كي يتمكن من عبادته وطمعاً في أن يهديه الله تعالى لما فيه صلاح الدين والدنيا. وإبراهيم أول مَنْ سَنَّ مبدأ المهجرة في سبيل الله، فكانت المهجرة من بلاد بابل إلى بلاد الشام المباركة.

وفي أثناء المهجرة دعا ربه أن يرزقه الذرية الصالحة لتكون عوناً على الطاعة، وأنساً في الغربية، وعضواً عن قومه، وكان وقتئذٍ وحيداً، فكانت البشارة بغلام انطوت فيه ثلاث خصال: أنه غلام ذَكَر، وأنه سيبلغ أوان الحلم وسن الرشد، وأنه يكون حليماً، أي في كِبَره، لأن الصغير لا يوصف بذلك، والحليم من لا يتسرع في الأمور ويتحمل المشاق. وأَيُّ حِلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ حِلْمِهِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ أَبُوهُ الذَّبْحَ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِي أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

وجمهور المفسرين على أن الغلام إسماعيل، فإنه أول ولد بُشِّرَ به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم ستَّ وثمانون سنة، وولِدَ إسحاق وعمر إبراهيم تسعٌ وتسعون، كما أن قصة الذبح جرت بمكة وإسماعيل هو غلامه الذي هاجر معه إليها صحبة أمه، ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)^(١). ويعزُّز ذلك أن البشارة التالية بعد تمام قصة الذبح كانت لإسحاق في قوله

(١) فتح الباري، العسقلاني، كتاب التعبير، باب رؤيا إبراهيم عليه السلام ١٢: / ٣٩٥. ورواه الحاكم في المستدرک عن معاوية بن أبي سفيان أن أحد الأعراب قال للنبي ﷺ: (يا ابن الذبيحين، فتبسّم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه). قال الحاكم: وقد ذكر الواقدي هذا القول بأسانيده، وعدّدهم، ثم قال: وقد كنت أرى مشائخ الحديث قبلنا، وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه، وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل، =

تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٣)

ومال جماعة من أهل العلم ومنهم الطبري إلى أن الذبيح المبشر به إسحاق، ونقل ذلك عن طائفة من السلف وبعض الصحابة، ولا دليل لذلك من كتاب ولا سنة، إنما هو تلقى عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم في ذلك، وحرّفوا كتابهم الذي فيه أن الله تعالى أمر ذبح ابنه الوحيد البكر، فاعتبروا إسحاق وحيداً حين ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة. ولا يخفى ما فيه من تحريف. وقد ردّ ابن كثير ذلك بأدلة وآثار عن السلف، واستنتاجات عدّة، وأخذاً بما في نصوص التوراة^(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

من خلال استعراض قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، ودعوته إياهم إلى التوحيد وإقامة الحجة والبرهان عليهم، حين مجادلتهم في أمر الأوثان التي يعبدونها، وتغلبهم عليه بإلقائه في النار انتصاراً للآلهة، يظهر لنا مدى الصراع الطويل بين الحق والباطل، وهو مما يؤكد أن قصة إبراهيم هذه لها ارتباط وثيق بمحور السورة الأساس، المتعلق بالدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وهي امتداد وتأسيس لأركان الإيمان ومستلزماتها. وتعميق وتثبيت لبنود العقيدة الصحيحة. كما أنها مثال وأسوة لحال النبي ﷺ في ثباته على دعوة التوحيد، وإبطال الشرك وفيما لقي من المشركين، وإيلاء إلى أنه يهاجر من أرض الشرك، وأن الله تعالى يهديه في هجرته ويهب له أمة عظيمة، كما وهب إبراهيم أتباعاً فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

=وقاعدتهم فيه قول النبي ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)، إذ لا خلاف أنه من ولد إسماعيل، وأن الذبيح الآخر أبوه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب، والآن فإني أجد مصنفي هذه الأدلة يختارون قول من قال: أنه إسحاق. المستدرک، الحاكم: ٢/ ٦٠٩٤٦٠٤.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ١٩.

دروس وعبر من المقطع السابع

- * مشروعية الدعاء بالولد، واستحباب الدعاء لمن رُزق بالمولود، كما اشتهر عن الحسن البصري رحمه الله تعالى تهنته بكلام حسن، حين دخل عليه رجل وعنده رجل وُلِدَ له غلام، فعلمه أن يقول: (بُورِكَ لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ رُشدَه، ورُزِقَت بِرَّه) ^(١).
- * وجوب الهجرة على المؤمن إذا لم يتمكن من إقامة شعائر دينه على الوجه المرضي في أرضه فيجب عليه الهجرة منها إلى أرض أخرى يتمكن فيها من إقامة هذه المشاعر، ولا يخفى ما للهجرة في سبيل الله تعالى من أجر وفضل ومثوبة، وقد توافرت النصوص تحثُ عليها وتباهي بها. وإن أول هجرة كانت في الأرض هي هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام من العراق إلى الشام.
- * أصل الدين واحد، وهو دين الإسلام الذي نادى به الرسالات السماوية كلها، في دعوتها إلى الإيِّان بالله تعالى وتوحيده، والإيِّان بالرسول واليوم الآخر، والحضُّ على أصول الأخلاق والفضائل، ونبذ الشرك والضلال، إلا أن الأنبياء أرسلوا بهذه الدعوة إلى أقوامهم خاصة، وكانت رسالة النبي ﷺ عامة لجميع بني البشر.
- * التعريض والتورية والإيِّام جائز، إذا كان في ذلك مصلحة شرعية؛ كما في الحرب والإصلاح بين المتخاصمين وغيره من الحالات التي نصَّ عليها الفقهاء. ومنه الحديث: (إن في المعارض لمدوحة عن الكذب) ^(٢). أما تعمُّد الكذب وتقصُّده فهو الممنوع والحرام وقد توعدَّ الله الكاذبين باللعن والويل والعذاب الأليم ^(٣).

(١) قال علي لابن عباس رضي الله عنهم حين وُلِدَ له غلام: شكرت الواهب، وبُورِكَ لك في الموهوب. الكشاف، الزمخشري: ٥٤/٤.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) قال الله تعالى: ﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكٰذِبِينَ﴾ =

- * وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه، لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)^(١).
- * طلب البلاء لا يجوز، والواجب سؤال الله تعالى العافية منه، لكن إن قُدِّرَ ذلك للمسلم فعليه الصبر، واحتساب أجره على الله تعالى، والرضا بأمره سبحانه.
- * إبراهيم الخليل كان أمة مستقلة في فكره، ودعوته، ومنهجه، وصبره، وعبادته، وطاعته وسلامة قلبه، وخشوعه، وأبوته، يؤيد ذلك قول الحق تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وهو أبو الأنبياء، وصاحب الملة الحنيفية السمحة، وخليل الرحمن، وإمام كل مهاجر، وقدوة كل مؤمن، وأسوة كل مسلم، في الإيمان والتوكل والرضا والصبر، والاستسلام لأمر الله تعالى.
- * استدل أهل السنة والجماعة على أن أفعال العباد خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، واكتساب للعباد والله تعالى هو الخالق للإنسان وخالق لأفعاله، وفي هذا إبطال لمذاهب القدرية والجبرية القائلين بأن الإنسان خالق لأفعال نفسه. قال ﷺ: (إن الله خالق كل صانع وصنعه)^(٢).

= [المطففين: ١٠]، وقال أيضاً: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

- (١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ربه مرفوعاً. كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم الحديث: ٧٠.
- (٢) سبق تخريجه.

المقطع الثامن: (قصة إبراهيم- قصة الذبيح) الآيات: (١٠٢-١١٣)

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبُنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا بَتِ أَيْمَنُ الْمَوْلَىٰ مَا مَنَعَكَ أَفْعَلَ مَا تُومِرُ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَيَّنَّهُ أَنْ يَتْرَهُهُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَ الرُّبُوبُ إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْبَتَأُ الْمَيْمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَيْنِ إِزْهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي هذه الآيات تقصُّ محنة الذبح والفداء، امتداداً لنظيراتها في المقطع السابق، والتي تناولت محنة الإلقاء في النار، وكتلتها غاية في الشدة والابتلاء. وحيث كوفئ إبراهيم الخليل عند اجتيازه المحنة الأولى البشارة بالسلامة بالسلامة، أتبعه هنا بما يدل على حصول ما بُشِّر به، وبلوغه سنَّ القدرة والعمل، ثم أتبعه بقصة الذبح لإسماعيل والفداء، ثم بشَّره بإسحاق نبياً من الصالحين.

التفسير:

تتجلى هذه القصة بأروع مثال في التضحية والفداء، وذلك حين كبر إسماعيل، وبلغ سنَّ من يمشي ويقدر على الكسب، أخبره أبوه بما رآه في المنام من أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق. وقد أخبره بذلك ليستعدَّ لتنفيذ أمر الله تعالى، ويكسبَ المثوبة بالانقياد لأمره، وليعلم صبره لأمر ربه، فلم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر؟ فدعاه إلى نظر العقل لا البصر، وإعمال الرأي ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾. حيث أمرُ الذبح أمرٌ ابتلاءٍ لإظهار عزمه، وعلوِّ مرتبته. وكان قد سأل ربه أن يهبه من يرثه، فبعد الإجابة أمره بذبحة يديه، وهو أحب النفوس إليه مقابل ذلك الامتثال، وهو معنى البلاء الممين. ويأتي جواب الابن ﴿ أَفْعَلَ مَا

تَوَمَّرُ ﴿٥٤﴾، فلم يقل: اذبحني، للجمع بين الإذن وتعليقه، أي: أذنت لك أن تذبحني لأن الله تعالى أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه، وامثال أمر الله تعالى فيه.

وفي تحديد ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ مبالغة في اتصافه بالصبر، يفيد أنه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به. وهو تأكيد لوصفه السابق بالحلم، ولما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

فلما سلما أمرهما إلى الله تعالى، انقياداً لحكمه، وتفويضاً إليه في قضائه، - وكان استسلام إبراهيم بالتهيؤ للذبح، واستسلام إسماعيل بطاعة أبيه بلغه عن ربه - ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي وضعه بقوة على وجهه، ووجهه إلى القبلة حتى لا تأخذه العاطفة. وفي الحديث: (فتله رسول الله في يده)^(١) تشبيه شدة التمكين، كأنه ألقاه في يده. والجبين ما اكتنف الجبهة، وهو أحد جانبيها. ويتناقل المفسرون أخباراً تحتاج لتمحيص في طلب إسماعيل من أبيه شد الرباط، وصرف النظر عن وجهه..

وحين أضجعه للذبح جاءه النداء أن قد حصل المقصود من رؤياك، وتحقق المطلوب، فقد صدقت الرؤيا بقلبك معتقداً، وعملت بحسبها حين آمنت بها، فوفيتها حقها من العمل. وفي الحديث: (إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن)^(٢).

والرؤيا اسم لما يرى من قبل الله تعالى في المنام، والحلم اسم لما يرى من قبل الشيطان، كما

(١) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوتر بنصيبك منك أحداً، قال: فتله رسول الله ﷺ في يده). صحيح البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إذا أذن له أو أحله ولم يبين كم هو، رقم الحديث: ٢٢٧١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب القيد في المنام، رقم الحديث: ٦٤٩٩.

في الصحيحين: (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان)^(١).

وفي الآيات تعداد لنعم خمسة أنعم الله تعالى بها على إبراهيم؛

أولها: الإحسان إليه، فقد جازاه بالعبودية عن الذبح حين صبر محتسباً الأجر من الله تعالى وكذلك يجزي كل محسن على طاعته، ويفرّج همّه وكربه ومحتته.

ثانيها: افتداء الذبح، وذلك بتقديم الكبش العظيم السمين، ووصفه بالعظم لأنه متقبّل يقيناً، وفي وصفه أقوال وأخبار تحتاج لتمحيص أيضاً.

ثالثها: الثناء الحسن عليه، فقد بقي له في الأمم المتلاحقة ذكراً جميلاً، فأحبّه أتباع الملل كلها من يهود ونصارى ومسلمين ومشرّكين، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٥].

رابعها: البشارة بإسحاق، فقد وهبه الله تعالى إياه بعد إسماعيل، وجعله نبياً صالحاً، وفي ذكر هذه البشارة بعد قصة الذبح ما يؤكد أن الذبح إسماعيل.

خامسها: مباركة إبراهيم وإسحاق، فقد أمدهما بالنعم والبركات الدنيوية والأخروية من كثرة الولد والذرية، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل إسماعيل، وإن من ذريتهما محسن فاعل للخير، وظالم لنفسه بالمعاصي.

وفي هذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب والانتماء، وإنما الانتفاع بالأعمال، وأن لا يعيب الأصول ولا ينقصهم سوء بعض ذريتهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَأُزْرٌ وَزَرٌّ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فالظلم في أعقاب إبراهيم

(١) عن أبي سلمة أن أبا قتادة الأنصاري وكان من أصحاب النبي ﷺ وفرسانه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليصق عن يساره، وليستعد بالله منه، فلن يضره). صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب الحلم من الشيطان، رقم الحديث: ٦٤٨٨.

وإسحاق لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تُجسّدُ قصةُ الذبح والفداء هذه مثالَ التضحية والانقياد لله تعالى في أمره ونهيه، والذي تجلّى في موقف إبراهيم الخليل من أمر ربه في الرؤيا، حيث قام يلبي الأمر وينفّذه امتثالاً والتزاماً، وهذا عنوان الطاعة لله تعالى والاستسلام لأمره، وهو حال المؤمن مع ربه حين أعلن الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، ونفي الشرك عنه، فإن من مقتضى الإيمان الطاعة لله تعالى فيما أمر ونهى. وهذا ما يبرز قيمة معنى التوحيد لله تعالى، والذي تمحورت السورة حوله في الدعوة إلى العبودية الحقّة لله الواحد الأحد، ونبد الشرك. وهو الذي هتفت به دعوة إبراهيم، وتميّزت به ملّته: ﴿مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]. والأنبياء هم الأسوة لكل مسلم في هذه الطاعة قولاً ودعوة وسلوكاً ومنهجاً. وهكذا كان إبراهيم الخليل مثال الطاعة والولاء، وكان ولده إسماعيل الذبيح رمز التضحية والفداء.

دروس وعبر من المقطع الثامن:

* الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البرّ الفاجر، والفاجر البرّ، وفساد الأعداب لا يعدّ غضاضةً على الآباء، ومناطُ الفصل هو خصال الذات، وما اكتسب المرء من الصالحات. أما كرامة الآباء فتكملة للكمال، وباعت على الاتسام بفضائل الخلال. وإنما يُعاب المرء بسوء فعله، ويعاقب على ما اجترحت يده، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

* لا يقال إن أمر إبراهيم بذبح ولده معصية، والمعصية لا تجوز، لأن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للإيمان، إنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعاصي عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح إبراهيم لابنه صار طاعة وابتلاءً في حقّه، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)، ولما تعلق بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

- * الأضحية سنةٌ ومعروف عند جمهور الفقهاء، واجبة عند الحنفية؛ على المقيم الواجد، وهي في فحول الغنم من الضأن أفضل من الإبل والبقر.
- * رؤيا الأنبياء وحي^(١)، وكان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة^(٢) لكن الشريعة لم تُوحَ إلى رسول الله ﷺ إلا في اليقظة ورؤية جبريل، دون المنام، وهي وحي له دون التشريع؛ كالكشف له على ما يقع، وما أعدَّ له ﷺ ولبعض أمته؛ كالإذن بالهجرة وتأويل البقرة بشهداء أحد، وهو ما يؤكد أن الإسراء والمعراج يقظة بالروح والجسد، إذ فيه شريعة الصلاة.
- * من نذر ذبح ولده لزمه الفداء بكبش عند الحنفية.
- * الحكمة من القصة أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، فلما سأل ربه الولد وهبه له، فتعلقت شعبة من قلبه بمحبته لولده، فأمر بذبح المحبوب ليظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وقدم محبته على محبة ولده^(٣).
- * سبب تسمية الأيام بالتروية وعرفة والنحر أن إبراهيم الخليل حين رأى في المنام أنه يذبح

(١) أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ نام حتى نفخ ثم صلى، وربما قال: اضطجع حتى نفخ، ثم قام فصلى، ثم حدثنا به سفيان مرة بعد مرة عن عمرو عن كريب عن ابن عباس قال: بئْتُ عند خالتي ميمونة ليلة فقام النبي ﷺ من الليل، فلما كان في بعض الليل قام النبي ﷺ فتوضأ من شنٍ معلق وضوءاً خفيفاً، يخففه عمرو ويقلله، وقام يصلي، فتوضأت نحواً مما توضأ، ثم جثت فقامت عن يساره، وربما قال سفيان عن شماله فحوّلني فجعلني عن يمينه، ثم صلى ما شاء الله، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، ثم أتاه المنادي فأذنه بالصلاة، فقام معه إلى الصلاة، فصلى ولم يتوضأ، قلنا لعمرو: إن ناساً يقولون: إن رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحي، ثم قرأ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾. صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء، رقم الحديث: ١٣٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب أول ما بُدئ به رسول الله، رقم الحديث ٦٤٦٧.:

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣ /: ٣٤٣.

ولده رَوَى في نفسه - أي فَكَرَ - أهذا الحلم من الله، أم من الشيطان؟ فسَمِّي يوم التروية لكنه رأى مثله في الليلة الثانية، فلما أصبح عرف أنه من الله تعالى، فسَمِّي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهَمَّ بنحره، فسَمِّي يوم النحر^(١).

* اختلف أهل السنَّة والجماعة والمعتزلة في نسخ حكم الذبح؛ فذهب أهل السنَّة إلى أن القصة نُسخَ فيها العزمُ على الفعل، وذهب المعتزلة إلى عدم النسخ، إذ لا يصح النسخ إلا بعد وقوع الفعل^(٢).

* الله تعالى يخلق الآثار عند المسببات بمشيئته وقدرته، والمؤثر الفاعل هو الله تعالى وحده، ولكن جعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً، بحيث يصحُّ تخلفها، فلم يشأ للمدبة أن تذبج وتفرم، ومن خاصيتها ذلك، كما لم يأذن للنار قبلها أن تحرق، ومن خاصيتها ذلك. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة^(٣).

المقطع التاسع: (قصة موسى وهارون عليهما السلام) الآيات: (١١٤-١٢٢)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْتَوَاهُمْ الْعُقَلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَارِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى ما مَنَّ به على إبراهيم من فداء ولده، وما مَنَّ به على إسماعيل من نجاته

(١) البحر المحيط، ابن حيان ٩ / ١١٦، وحاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٣٤٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧ / ١٥١، والمحزر الوجيز، ابن عطية ١٢ / ٣٨٩.

(٣) عون المرید لشرح جوهرة التوحيد، تتان وكيلاني ١ / ٥٥٧.

من الذبح، وما منَّ به على إسحاق من بشارته بالنبوة، أتبعه هنا بذكر ما منَّ به أيضاً على موسى وهارون بنجاتهما وقومهما من الكرب العظيم. وفي ذلك إشارة إلى أن الله تعالى ينصر رسله ويغضب لهم؛ إما باستجابة دعوة، أو جزاءً على سلامة طوية قلب سليم، كما في دعوة إبراهيم وإما رحمةً منه ومنَّةً على عباده المستضعفين. وقد تجلَّتْ المنة الكبرى على موسى وهارون بالنبوة فهي أعظم درجة يُرفع إليها الإنسان، وتتمثل في إيصال المنافع، فإن الله تعالى أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإبراهيم وإسرائيل، كما كان في إنجاء موسى وهارون وقومهما كرامةً أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمةٌ إزالة الضرِّ، فحصل لموسى وهارون نوعاً الإنعام؛ وهما إعطاء المنافع، ودفع المضار.

التفسير:

يقسم الله تعالى تحدثاً بنعمته على عباده، وامتناناً بفضلِهِ. وتحدث الله بالامتنان على عباده من عظيم الشرف لهم؛ فقد امتنَّ على موسى وهارون بوجوه إنعام كثيرة تنحصر في نوعين: إيصال المنافع، ودفع المضار. أما إيصال المنافع فعلى قسمين: منافع الدنيا؛ وتمثل في الوجود، والحياة، والعقل، والتربية، والصحة، وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منها. وأما منافع الدين فالعلم والطاعة. وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة. وقد فصلها في مواطن عديدة من باقي السور، واكتفى هنا بالرمز إليها^(١).

وأما دفع المضار فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَجِيئُهُمَا وَقَوْمُهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

﴾ وفي تفسير (النجاة من الكرب) معانٍ منها:

١- النجاة من الغرق، فقد أغرق الله تعالى فرعون وقومه وأهلكه، ونجَّى موسى وهارون ومنَّ معها من بني إسرائيل، وذلك حين تراءى الجمعان، فقال أصحاب موسى: إنا لمدركون، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق، فاجتازه وبنو إسرائيل، ثم مدَّ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧: ١٥٥.

البحرُ أمواجه على فرعون وجنده حتى هلكوا.

٢- نجاتهم من إيذاء فرعون وتعذيبه لهم، فقد كان يستذلهم بسلطانه عليهم، ويسترقهم باستعباده لهم، فيقتل الآباء، ويذبح الأبناء، ويستحيي النساء، ويُسغّلهم في أحسّ الأشياء والصناعات والمهن.

٣- خلاصهم من استعباد القبط لهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

ثم فصل أقسام تلك المنة وعددها، فهي:

١- النصر والغلبة، فكانوا هم الغالبين عليهم في كل الأحوال بظهور الحجة، وفي آخر الأمر بالدولة الرفيعة.

٢- أنزل عليهم الكتاب العظيم وهو التوراة، حيث شملت جميع العلوم التي يُحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. وقد أوتي موسى الكتاب أصالة، وهارون بالتبعية لأخيه موسى.

٣- أرشدهما إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام وشرع الله تعالى الذي بعث به كافة رسله. وقد كانت شريعة التوراة زمن موسى هي الصراط المستقيم، وطريق الشرع والنبوة الواضح الجلي المؤدي إلى الله تعالى. وقد نسخت بالقرآن الكريم، فأصبح القرآن صراطاً مستقيماً إلى يوم الدين ناسخاً لجميع الشرائع قبله.

كما لا يمنع من جواز المقصود بالصرط المستقيم أن يُراد به أصول الديانة التي لا تختلف فيها الشرائع؛ من دعوة التوحيد، وكليات الشرائع، التي أشار إليها قول الحق سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

٤- أبقينا عليهما من بعدهما في الأمم المتلاحقة ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً عطراً دائماً مستمراً

إلى يوم الدين.

٥ ﴿ سَلَّمْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (١٣٠) ، يحتمل العطف على ما سبق، على أنه تفسير وتفصيل لما ترك في الآخرين، فهم يسلّمون، أو أنه كلام مستقل؛ أي سلام من الله والملائكة والإنس والجنّ أبداً خالداً على موسى وهارون.

ثم يختم القصة ببيان سبب هذه المنّة والإنعام، أي: مثلُ هذا الجزاءِ نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كلَّ من أحسن عمله، فأطاع الله تعالى، وانقاد إليه.

ثم بيّن علة الإحسان أنهما من زمرة عباد الله تعالى المؤمنين إيماناً صالحاً كاملاً. فالفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأكمل الفضائل، ولولا ذلك لما حَسُنَ ختمُ فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين^(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تتناول هذه القصة ثلاث قضايا ترتبط بمحور السورة؛

أولاً وأهمها: وحدة الرسالات، حيث إن الدين عند الله الإسلام، الذي أرسله الله تعالى إلى الأمم جميعاً، يدعو إلى التوحيد والهدى والإيمان به سبحانه، وينهى عن الشرك والضلال والكفر، ويقيم دعوة الحق، ويأمر بالخير والمعروف، وينهى عن الشر والمنكر.

وثانيها: نجاة عباد الله المخلصين من العذاب في الدنيا والآخرة،

وثالثها: إن الإيمان بالله تعالى أصل كل حسن وخير، وهذا ما نلاحظه في التعقيب المتكرر

لتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون، وقيمة الإيمان الذي يُكرّم من أجله المؤمنون^(٢).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧ / ١٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٩٧ والأساس في التفسير، سعيد حوى ٨ / ٤٧٢٧.

دروس وعبر من المقطع التاسع

- * بيان إكرام الله تعالى لأتباعه ورسوله عليهم السلام، وأعظم هذا الإكرام درجة النبوة والرسالة.
- * بيان فضل الله تعالى على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون، ونصرهم عليه، وخلاصهم من الرق الذي لحق بهم، واستعباد فرعون لهم.
- * الإسلام هو دين الله تعالى القويم الذي لا اعوجاج فيه، جاءت به الرسل جميعاً، وهو الدعوة إلى التوحيد، والإرشاد إلى طريق الحق والصواب. ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩].
- * التوراة كتاب سماوي نزل على موسى يدعو بني إسرائيل إلى طريق منير، وهو بليغ في بيانه الشامل لمصالح الدنيا والآخرة، إلا أنه نُسخَ وسائر الكتب السماوية الأخرى بالقرآن الكريم.
- * قضت حكمة الله تعالى وستته في خلقه أن يجزي المخلصين في العبادة، المحسنين في العمل بخلاصهم من الشدائد، وسلامتهم من المحن، فالجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.
- * في قصة موسى وهارون عبرة حية ومثل كامل للنبي ﷺ في رسالته، وإنزال القرآن عليه، وهدايته وانتشار دينه وسلطانه بعد خروجه من دياره وهجرته، وتكبد المشاق في سبيل الدعوة ونصرة هذا الدين، وفي هذا تثبيت وتصديق له في طريق الدعوة، وتأكيد للمنهج الرباني الذي كتبه الله تعالى، وجعله سنته في خلقه، ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَكُمْ أَلِهَةٌ وَإِنَّ رَبِّيَ اللهُ وَجَعَلَهُ سُنَّةً فِي خَلْقِهِ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَعْلِيكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]. فالقصص القرآني غاية في الأهمية لأخذ العظة والاعتبار لإنارة الدرب، وشق السبيل، وإزاحة العقبات، وشحذ الهمم. ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

المقطع العاشر: (قصة إيلياس عليه السلام) الآيات: (١٢٣-١٣٢)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٢﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ لَمُخْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

قدّم الحق سبحانه وتعالى الكلام عن ثلاثة رسل هم في الأصل أصحاب شرائع وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، ثم أتبعهم الخبر عن ثلاثة أنبياء، وما لقوه من قومهم، وذلك كله شواهد لتسليية الرسول محمد ﷺ، وزواجر من الموعظة لكفار قريش. وابتدأ ذكر هؤلاء الثلاثة بإلياس عليه السلام في بيان جهده في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، ومقاومة الشرك وعبادة الأصنام ثم أتبعه بلوط ويونس عليهما السلام، وهم سواء في مرتبة الدعوة إلى دين الله تعالى، وفي أنهم لا شرائع مستقلة لهم. وتأكيذ إرسالهم بحرف التأكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ للاهتمام بالخبر، لأنه قد يغفل عنه، إذ لم تكن هؤلاء الثلاثة شريعة خاصة^(١).

التفسير:

اتفق المفسرون على أن إيلياس^(٢) عليه السلام نبي من بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، ومن سبط هارون عليه السلام، لكنهم اختلفوا في اسمه لاختلاف الروايات في تعيينه؛ فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: إسرائيل هو يعقوب، وإلياس هو إدريس. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو عم

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٦.

(٢) قرأ جمهور القراء ﴿ إِيْيَاس ﴾ بهمزة قطع، وقرأه ابن عامر بهمزة وصل، فحذفها في الوصل مع (إن)، وسببه أنه اسم أعجمي استعملته العرب، فلم تضبط فيه همزة قطع ولا وصل. حاشية الصاوي على الجلالين: ٣٤٤ / ٤.

الْيَسَعُ. وذهب الطبري إلى أنه إلياس بن ياسين. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن نسي بن فنحاص، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقييل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: (بعل) معبود الكنعانيين، بسبب مصاهرة بعض ملوك يهوذا للكنعانيين، لذلك قام يخوفهم عقاب الله تعالى، فدعاهم إلى إفراد الله تعالى بالعبودية، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم، ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله تعالى عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سأله أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم، فجاء الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله تعالى أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه الیسع بن أخطوب عليهما السلام^(١).

وذهب ابن عاشور إلى أن إطلاق وصف الرسول على إلياس لأنه أمر من جانب الله تعالى بتبليغ ملوك إسرائيل أن الله تعالى غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام. فإطلاق وصف الرسول عليه مثل إطلاقه على وصف رُسل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة (يس) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]^(٢).

والمقصود بقومه بنو إسرائيل. واختلف في تحديد البعل إلى ثلاثة أقوال؛ أقواها: أنه صنم الكنعانيين، وهو أعظم أصنامهم، ويقال له: بعل بك، وإليه نسبت مدينة (بعلبك) المشهورة في بلاد الشام (وهي اليوم بلدة في لبنان). والثاني: أتدعون بعلاً يعني: رباً، وهي لغة أهل اليمن، قاله عكرمة وفتادة. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً ينشد ضالة، فقال له آخر: من بعل هذه؟ أي: من ربه؟ فقال له آخر: أنا بعلمها، فقال ابن عباس: الله أكبر، أتدعون بعلاً؟ ومنه سُمِّيَ الرجل بعلاً، قال تعالى على لسان امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْحًا﴾ [هود: ٧٢]. قال النحاس: القولان صحيحان، أتدعون صنماً عملتموه رباً؟. والثالث: أنه اسم امرأة كانت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢١/٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٦٦/٢٣.

أتتهم بضلالة، فكانوا يعبدونها، ذكره ابن إسحاق.

﴿ وَتَذُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ من حيث قيل للإنسان على التجوّز أنه يخلق وجب أن يكون تعالى أحسن الخالقين، إذ خلقه اختراعاً وإيجاداً من عدم، وخلق الإنسان مجاز. وجيء هنا بذكر صفة الله تعالى دون اسمه العلم تعريضاً بتسفيه عقول الذين عبدوا بعلأ، بأنهم تركوا عبادة الربّ المتصف بأحسن الصفات وأكملها، وعبدوا صنماً، فكأنه قال: أتدعون صنماً بشعاً جمع عنصري الضعف؛ وهما المخلوقيّة، وقبح الصورة، وتطلبون الخير منه، وتركون من له صفة الخالقيّة، والصفات الحسني^(١)؟

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ فهو سبحانه وتعالى المستحق للعبادة، وحده لا شريك له، وهو الذي صوركم وأنشأكم ويربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم، ﴿ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ إسحاق ويعقوب وإبراهيم^(٢).

وكان تكذيبه من قبل قومه المشركين فيما جاء به من عند الله تعالى، من الأمر بالتوحيد وترك الأصنام، والإيمان بما جاءت به الرسل، وهم بسبب هذا التكذيب لمجموعون لعذاب الله تعالى، ومجازون على ما قدّموا من سوء الأعمال. ﴿ فَأَتَتْهُمْ مُخْضَرُونَ ﴾ أطلق الإحضار اكتفاءً منه بالقرينة، ولأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً، أو حيث استعمل في القرآن، لإشعاره بالجبر^(٣).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٩٤/١٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٦٧/٢٣.

(٢) في الآية ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ ﴿١٣١﴾ قراءتان سبعيتان؛ قرأ الجمهور بالرفع في الأسماء الثلاثة على الابتداء، والاستئناف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على البدل، أو عطف البيان. وعلى القراءتين الوصل أولى من الوقف على ﴿ الْخَالِقِينَ ﴾، لأن ما بعده مترجم عنه. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١١٧/١٥.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ١٠/٥، وتفسير أبي السعود: ٥٥٠/٧، وروح المعاني، الألوسي: ١٤١/٢٣.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١٢٨) ﴿الموحدين من قومه فإنهم نجوا من العذاب.

وتركنا على إلیاس الثناء الحسن الجمیل إلى یوم الدین، فقد استحق التکریم والجزاء الحسن لأنه من عبادنا المؤمنین.

﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِلَى يَأْسِينَ﴾ (١٣٠) أي: سلام على إلیاس وذويه من آل بيته وأنصاره الذين أتبعوه وأعانوه، وهم أهل جبل الكرمل الذين استجدهم إلیاس على سدنة (بعل) فأطاعوه وأنجدوه.

وفي تحليل كلمة ﴿إِلَى يَأْسِينَ﴾ لغات شتى وأقوال كثيرة وروايات عديدة لأهل اللغة والتفسير والقراءة، لا تخرج عن الإطار العام في تحديد المراد من وقوع السلام على إلیاس عليه السلام، وهو اسم أعجمي، والعرب تضطرب في الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها، لأنها ليست من لغتهم، فهم يتصرفون في النطق بها على ما يناسب أبنية كلامهم^(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تناول هذا المقطع الحديث عن إلیاس عليه السلام بما يخدم محور السورة ويرتبط به؛ من حيث كون إلیاس من الأنبياء الذين صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي كونه دعا إلى التوحيد، وذلك دعوة جميع الأنبياء والرسول، وفي كونه من المؤمنین، فهو نموذج إيماني يقتدي به المؤمنون في كل زمان ومكان، كما يرتبط استنكاره عبادة البعل وتركهم أحسن الخالقين باستنكار إبراهيم عليه السلام عبادة أبيه وقومه الأصنام، واستنكار كل رسول عبادة قومه الوثنيين^(٢).

دروس وعبر من المقطع العاشر

* بيان فضل الإحسان، ومجازاة أهله بحسن الجزاء.

* بيان فضل الإيثار، وأنه سبب كل خير وكمال.

(١) فتح القدير، الشوكاني: ٤ / ٤٠٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥ / ١١٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨، والأساس في التفسير، سعيد حوي: ٨ / ٤٧٢٧.

* في تأخير عذاب قوم إلياس إلى يوم القيامة بيان أن مهمة النبي تقتصر على الدعوة والتبليغ ولا يلزمه أن يشاهد عقاب المكذبين، ولا أن يأتي قومه بالعذاب، ولو طالب به المدعون قال تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٥]. فقوم إلياس لم يعذبهم الله تعالى في الدنيا، بل ترك عذابهم إلى يوم القيامة.

* حُصَّ إلياس عليه السلام في هذه القصة لأنها ختام القصص المسلم فيها على أهلها ولتكريم رسل الله تعالى، فالسلام عليهم من قبله، ولبيان جزاء المحسنين، وقيمة إيمان المؤمنين، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات، لذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام^(١).

* تناقل بعض المفسرين خبر رفع إلياس إلى السماء كالمسيح عليهما السلام، وهذا يحتاج إلى توثيق، والحق إنما هو نقل عما في التوراة ولا نص فيه، إذ الرفع إلى السماء للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام حصراً، بنص القرآن الصريح: ﴿ وَمَا قُلُّوهُ وَمَا صَلَّوهُ وَلَٰكِن شِئَهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لَأَفِي شَكِّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قُلُّوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء ١٥٧-١٥٨].

* احتج المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ على أن العبد خالق لأفعال نفسه فقالوا: لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين، كما في قول الله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ وقد فصل العلماء في المسألة، وأثبتوا مذهب أهل السنة فيها^(٢).

* أسلوب إلياس عليه السلام في اتباع الحكمة في الدعوة، فقد عاب قومه على عبادة غير الله تعالى، ثم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨، ونظم الدرر، البقاعي: ١٦ / ٢٨٦.

(٢) سبق البحث فيها، وانظر: عون المرید لشرح جوهرة التوحيد، تتان وكيلاني: ١ / ٥٧٨.

صَّحَّ بالتوحيد، ونفي جميع الشركاء عنه، وهذا درس لكل داعية أن يدرك أمراض المدعويين ويستوعبها، ثم يقدم العلاج الناجع بما يُلائم طبيعتهم، ويحقق هدف الدعوة فيهم، فربما يفلح في أسلوب مع فئة ولا يجدي ذات الأسلوب مع فئة أخرى، فلكل قوم خاصية وطبيعة ومزاج يختلف عن غيرهم، وهذا يؤكد أهمية تعرف الداعية على طبائع المدعويين.

* ذكر المفسرون أن إلياس أُعطي معجزات جمة؛ منها: تسخير الجبال، وإعطاؤه قوة سبعين نبياً، وكان على صفة موسى عليهما السلام في الغضب والقوة^(١).

المقطع الحادي عشر: (قصة لوط عليه السلام) الآيات: (١٣٣-١٣٨)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَتْهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ الْأَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه :

لا يزال السياق العام للقصص القرآني في هذه السورة يتتالي، فهذه قصة لوط هي الخامسة تلي قصة إلياس عليها السلام في ذكر إنعام الله تعالى على من اصطفى من عباده، وكيف أن دعوات الأنبياء جميعاً تلتقي في وحدة الهدف والمنهج، فكلهم دعوا إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك، إلا أن موقف المدعويين يكاد يتشابه في الرد والصد والأذى، فكما أن قوم إلياس كذبوه كذلك قوم لوط كذبوه، والنتيجة واحدة، وهي عذاب الله تعالى وانتقامه، بيد أنه في قوم إلياس تأخر إلى يوم القيامة، فهم في الآخرة محضرون للعذاب بسبب تكذيبهم، وما قدموه من سوء الأعمال، أما قوم لوط فكان العذاب والرد في الدنيا، فقد عاجلهم الله تعالى العقوبة، ودمرهم عن بكرة أبيهم، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأمطرهم حجارة من سجيل، وفي ذلك عبرة لمشركي العرب ممن يكذب دعوة النبي محمد ﷺ.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣/ ٣٤٥.

التفسير:

اختلّف في صلة قرابة لوط بإبراهيم عليهما السلام؛ فذهب بعضهم إلى أنه ابن أخيه، وهو الأرجح، وذهب آخرون إلى أنه ابن أخته، وكان قد هاجر معه إلى العراق، ومن المسلم به أن قوم لوط كانوا أقرب زمناً لقوم إبراهيم، إذ كان لوط معاصراً لإبراهيم، لذا يغلب ورود قصة لوط عقب قصة إبراهيم في القرآن.

واختصّ لوط بإرساله إلى القرى التي كان يسكن إحداها في أرض سدوم، ولم يكن له في قومه نسب، لأنه ليس من القبيلة، بخلاف صالح وهود، حيث تربطها بقبيلتها رابطة الأخوة والنسب، كما لم تكن له شريعة سوى أنه جاء ينهى الأقوام الذين حلّت بهم فاحشة اللواط، وكانوا قد تناهوا في الخبث والمنكر، ولم يسبق النهي عنها في شريعة إبراهيم. فاجتهد في نصحهم وتحذيرهم، لكنهم لم يستجيبوا له، بل استمروا في منكرهم، فهدّدهم بعقاب الله تعالى، فهدّدهم بالطرده من الأرض، والإخراج من القرية، فأهلكهم الله تعالى، ونجّاه وابنتيه وأهله.

ويمثّل إهلاك ودمار المكذبين من قومه أشدّ إهلاك وأفظعّه، حيث قلب قراهم، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأرسل عليهم صيحة، وقذفهم بالحجارة من فوقهم، فأهلكهم بذلك^(١) وخسف بهم الأرض، وأصبح مكان الخسف بحراً ميتاً لا حياة فيه، كما جعل محلهم من الأرض بحيرة متنتة اشتهرت بـ: (بحيرة لوط)، وهي قريبة من شرقي الأردن، فغدت قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمرُّ بها المسافرون ليلاً ونهاراً ليتعظوا ويعتبروا بهم كيف دمر الله عليهم، ويعلمون أن للكافرين أمثالها^(٢).

وألحقت زوجته العجوز بالكافرين، إذ كانت كافرة، وهي: إما مستترّة بالكفر، وإما معلنة له، وكان نكاح الوثنيات عندهم جائزاً. ويحتمل لفظ: ﴿الْعَاقِرِينَ﴾ معنى الماضين والباقيين

(١) جامع البيان، الطبري: ٩٧/٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢.

وكلاهما قائم فيها، فهي في الباقيين في العذاب، ومن الماضين الذين قد هلكوا^(١). وإنما بقيت في العذاب لرضاها بفعل القوم، وتواطؤها معهم على ضيوف لوط.

ثم يأتي الخطاب لقريش وأهل مكة من العرب، والهدف من القصة عظمتهم وتبليغهم واعتبارهم، حيث إنَّ من عاداتهم المرور والعودة بالليل والنهار في طريق سفرهم، وكانت متاجرهم إلى الشام على مداخن قوم لوط في سدوم، فيمرون على منازلهم في الطريق ويرجعون، فدعاهم القرآن للعبرة والعظة بما يروونه من آثار العذاب ومظاهر الهلاك في سدوم.

ويأتي الاستفهام الإنكاري التوبيخي والتقريعي، أي: أفليس لكم عقول تتدبرون بها؟ وتنفكرون فتعلمون أن من سلك من عباد الله في الكفر به، وتكذيب رسله مسلِكَ هؤلاء الذين وصف صفتهم من قوم لوط نازلٌ بهم من عقوبة الله تعالى مثل الذي نزل بهم على كفرهم بالله تعالى وتكذيب رسله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى وتكذيب محمد ﷺ^(٢). أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مثل ما أصابهم^(٣)؟

وإنما لم يختم قصة لوط ويونس من بعدها بالسلام كما ختم به من قبلهم، لأن الله تعالى سلّم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام^(٤).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تلتقي مناسبة هذا المقطع مع محور السورة في قضية التوحيد، من حيث أنها تخدم هذا المحور في مجالين؛ أمر إنجاء عباد الله تعالى المخلصين من العذاب في الدنيا، وأمر إهلاك المكذبين للرسول، فالرسول الذين بُعثوا بالتوحيد أيدهم الله تعالى بنصره، فقد نجّاهم ومن

(١) فتح القدير، الشوكاني: ٤ / ٤١٠.

(٢) جامع البيان، الطبري: ٢٣ / ٩٧.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان: ٩ / ١٢٣، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣ / ١٤٢، وصفوة التفاسير، الصابوني: ٤٣ / ٣.

(٤) تفسير النسفي: ٤ / ٢٨.

تبعهم من عذاب الدنيا، ثم عذب مَنْ خالفهم في الدنيا قبل الآخرة، ليكون إهلاكهم عبرةً وعظةً لمن بعدهم بل ليبقى هذا الهلاك باقياً إلى قيام الساعة، شاهداً على انتقام الله تعالى منهم، ونصره لعباده المؤمنين. وقد سُبقت هذه القصة بنماذج متكررة، كلها تدعو إلى العبرة والعظة، في الإشارة إلى هذين الأمرين: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات: ٧٣-٧٤].

دروس وعبر من المقطع الحادي عشر

* وجوب النظر والتفكير والتأمل والتدبر في الأحداث الكونية، وقصص الأمم السابقة للاهتمام إلى معرفة سُنن الله تعالى في الكون والحياة، وللعظة والعبرة بما حلَّ بالأمم الماضية.

* الكفر قاطع للسبب القريب، والإيمان واصل للسبب البعيد، والشفاعة لا تنفع إلا إذا أذن الله تعالى بها، ورضي عن المشفوع له، حتى لو كان الشافع أقرب قريب. وهذا لوط لم يشفع لزوجته في النجاة من الهلاك الذي أصاب المفسدين، وذلك لكفرها وفسادها، حيث حجبها طغيانها عن الدخول في حكم أهلها، فكانت باقية في العذاب، ماضية فيه.

* ذهب جمهور السلف والخلف إلى أن امرأة النبي لا يمكن أن تخون أبداً، وما بغت امرأة نبي قط، والمراد بالخيانة التي أشارت إليها الآية في امرأتى نوح و لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ إنها هي في الدين، وحاشا أن تكونا على فاحشة. فالكفر قد يقع وهو خيانة، وهي هنا في امرأة لوط، ومثلها في امرأة نوح، حيث لم تؤمنا بالله تعالى فلم تتبعاهما، فكان مصيرهما النار. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

* في رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته، وفي تدمير المكذبين الضالين إشارةً تنتهي بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط صباح مساء، ولا تستيقظ قلوبهم، ولا

تستمع لحديث الديار الخاوية، ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة^(١).

* هلاك قوم لوط ودمارهم لأنهم كذبوه ولم يؤمنوا به، ونجاته وأهله منهم دليل باهر على نبوته، وأنه من المرسلين الذين دعوا إلى التوحيد، والذين بعث النبي محمد ﷺ مصدقاً لهم في دعوته. كما أنه بيان يؤكد أن النصر والغلبة للرسول وأتباعهم المؤمنين وإن كانوا قلة، والدمار والهلاك والخسران للمكذبين والكافرين مهما كانوا عليه من الكثرة والقوة، وتلك سنة الله تعالى في خلقه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١].

* عاقبة قوم لوط تحذير لقريش ولأهل مكة، ودعوة لهم أن يصدقوا رسولهم، فهم أجدر من قوم لوط بالأخذ، لأنه منهم، ويعرفون شرف أصله، وكريم قوله وفعله، ما لا يعرفه أولئك من رسولهم^(٢).

* شأن قصة لوط شأن بقية القصص التي سبقت، فيها شبه بحال الرسول محمد ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته. ففي القصص كلها عبرة وأسوة وتحذير، ويجمعها كلها مقاومة الشرك، ومقاومة أهله^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨.

(٢) نظم الدرر، البقاعي: ١٦ / ٢٩٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣ / ١٢٩.

المقطع الثاني عشر: (قصة يونس عليه السلام) الآيات: (١٣٩-١٤٨)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَمَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَامْنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي قصة يونس عليه السلام بسياقها تبين لنا عاقبة الذين آمنوا بربههم، وصدقوا نبيهم، وذلك في خاتمة مطاف قصص خلّت، جمعتها وحدة المآل في الحديث عن عاقبة الذين كفروا بربههم وكذبوا رسلهم، ليكون أمام المسلمين مثالين حيين لعاقبتين متباينتين، فيختاروا أيّاً شاؤوا فقد سبق البيان لنهايات أمم خالفت أمر ربها، وعصت أنبياءها؛ فمنهم من عاجله العذاب في الدنيا، ومنهم من ينتظره في الآخرة، أما هنا فإن قوم يونس قد متّعهم الله تعالى بحياتهم وآجالهم بعبوه وغفرانه، حين آمنوا، واستغفروا، وأعلنوا توبتهم. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسَسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

التفسير:

يونس بن متى نبي من بني إسرائيل ينسب إلى أمه، ذكره القرآن باسمه، كما وصفه بذي النون وصاحب الحوت. واختلف في رسالته؛ هل كانت قبل التقام الحوت إياه، أو بعده؟ والراجح أنه أرسل قبل ذلك إلى قومه في نينوى، وبقي مستمراً على الرسالة. وتختلف الروايات في قصة أبقه، وتذهب مذاهب شتى، والحق أن القرآن لم يبين ممّ أبق، ولو كان فيه فائدة لذكرها، إلا أن مقام الأنبياء في العصمة والتبليغ يستلزم تحيّر الاستنتاج الأقرب لمنزلتهم والأليق برتبهم، وهو ما رجّحه الرازي وغيره من المفسرين؛ من أن يونس عليه السلام كان قد وعد

قومه بالعذاب حين لم يؤمنوا، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم، فَعُدَّ أَبْقَاً، فكان فعله خلافَ الأولى، على مبدأ: حسنات الأبرار سيئات المقربين، لكنهم لما رأوا مخايل العذاب تابوا، فتاب الله تعالى عليهم، وصرف عنهم العذاب، فلحقت بيونس غضبة من قومه، وخافهم أن يقتلوه إذ لم تقم له بيّنة، فهرب إلى السفينة، وعُبر عن ذهابه بالإباق من حيث هو عبد الله، فرَّ من غير إذن مولاه، وسُمِّي إباقاً مجازاً^(١).

ثم إن السفينة لم تُجر، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب فاقترعوا، فوقع عليه ثلاثاً، فرموه في البحر فالتقمه الحوت، وأوحى الله تعالى إليه أن خذه ولا تتخذش لحماً، ولا تكسر عظماً.

ثم إن الله تعالى استنقذه من بطن الحوت بعد مدة اختلّف فيها، ولا مرجح لرواية، سوى أن أمر المكوث في ذاته معجزة لهذا النبي طالّت مدته أم قصّرت، حين كتبت له السلامة والنجاة والحفظ في هذا الالتقام. لكن مما يؤكد طول المدة أنه خرج منه سقيماً. وجعل علة استنقاذه تسيّحه، وعليه فإن ركوبه السفينة كان باجتهاد منه، وليس بمعصية لربه، لظنه إن بقي معهم قتلوه، كما أن مؤاخذته بحبسه في بطن الحوت على مخالفة الأولى، فإن الأولى له انتظار الإذن من الله تعالى.

ويرغب الألويسي عن معنى النبذ الذي فسّره الراغب في مفرداته بمعنى: الإلقاء والطرح لقلّة الاعتداد به، معللاً أن الله تعالى رحيم بأنبيائه، وله سبحانه في كل شيء اعتداد بهم عظيم فيبقى المعنى على عمومته من الطرح والرمي أماماً أو وراء^(٢).

واختلفوا في التسيّح إلى معانٍ؛ سبحانه الله، أو صلاة التطوع، أو الصلاة وقت الرخاء لكن يجمعها معاً الدعاء الذي صرّحت الآية به، وهو الذي أخبر به النبي ﷺ بقوله: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾)

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧ / ١٥٨، والكشاف، الزمخشري: ٤ / ٦٣، وفتح القدير، الشوكاني ٤ / ٤١١.

(٢) روح المعاني، الألويسي: ٢٣ / ١٤٥.

فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له^(١).

وقد أوحى الله تعالى إلى الحوت أن يلقيه في البر، ولولا ذلك لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. فألقاه في مكان خالٍ ليس فيه شجر ولا نبت ولا بناء، وكان عليل الجسم ضعيفاً البدن، كهية الصبي حين يولد، أو الفرخ الذي ليس له ريش، يؤذيه أي شيء يمر عليه. لكن عناية الله تعالى أنقذته بشجرة اليقطين (القرع، أو الدباء)؛ فهو أسرع الأشجار امتداداً ونباتاً وارتفاعاً، تتمثل فيه خصال مميّزة؛ من يرد الظل، ونعومة الملمس، وعظم الورق، وأن الذباب لا يقربُه، كما أنه يتميّز بجودة تغذية ثمره؛ فيؤكل نيئاً ومطبوخاً، بلبه وقشره. وقد كان رسول الله ﷺ يحبّه ويتبّعهُ من حواشي الصحيفة^(٢)، وحين سئل: إنك تحبُّ القرع؟ قال: (أجل، هي شجرة أخي يونس). كما كان في ظلِّ ساقه معجزة له على خلاف العادة في القرع، كما كانت تأتيه وعلةٌ صباح مساء يشرب من لبنها حتى قوي^(٣).

ثم لما استكمل عافيته، ردّه الله تعالى إلى قومه الذين تركهم مغاضباً، وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب، فأمنوا واستغفروا، وطلبوا العفو من الله تعالى، فسمع لهم، ولم ينزل بهم العذاب، وكانوا مائة ألف أو يزيدون، وظاهر التخيير يفيد الشك، وهو محال على الله تعالى وأمثله كثيرة في القرآن الكريم، وأقرب الوجوه: أو يزيدون في تقديركم، أي: في مرأى الناظر بمعنى: أنهم إذا رأهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة. كما يكون: (أو) بمعنى: (بل). وعن أبي بن كعب ﷺ قال: (سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةٍ ﴾).

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم الحديث: ٣٤٢٧.

(٢) عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول: (إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيتُه يتبّع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحبُّ الدباء من يومئذ). صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب من تبع حوالي القصعة، رقم الحديث: ٤٩٦٠.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان: ٩ / ١٢٤، وتفسير النسفي: ٤ / ٢٩، وحاشية الصاوي على الجلالين: ٣ / ٣٤٧.

أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٣٧﴾ فَتَأْتُوا فَمَتَّعْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٣٨﴾، قال: عشرون ألفاً^(١).

قال أبو حيان: وإذا صحَّ بطل ما سواه^(٢).

وقد دعاهم إلى ربه ثانية بعدما شاهدوا أمارات نبوته، وعلامات العذاب، فكشف الله تعالى عنهم العذاب الذي أظلمهم، وامتَّعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم.

ولأنه حَدَّثُ لم يُعْهَدْ مثيلُه من الرسل، ولأجله يقول النبي ﷺ: (ما ينبغي لأحد أن يكون خيراً من ابن مَتَّى)^(٣)، وهنا يحتمل أن يكون المرادُ العبدُ القائل، أو أنه يريد رسولَ الله ﷺ نفسه. وفي رواية أخرى: (ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن مَتَّى)، كما قال ﷺ أيضاً: (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب)^(٤).

والمعنى: نفي الأخرية في وصف النبوة، أي: لا يظنُّ أحدٌ أن فعلة يونس تسلب عنه النبوة^(٥).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

سرد الحدث في قصة يونس عليه السلام يخدم محور السورة، من حيث أن يونس نبي مرسل، وقد بُعث النبي محمد ﷺ لتصديقه في الدعوة إلى التوحيد، كما أن فيها درساً من دروس التوحيد

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصافات، رقم الحديث. ٣١٥٣:

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٦٠ وفي ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٩٩، والبحر المحيط، أبو حيان: ١٢٥/٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، رقم الحديث: ٤٤٣٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا﴾، رقم الحديث: ٤٢٣٧، وفتح الباري، العسقلاني: ٨/ ١١٦، ٤٠٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٧٨.

الخالص، في أن الإيمان وحده هو سبيل النجاة من عذاب الله تعالى، فلا ينجو أحد من محاسبة الله تعالى، إلا أن الله سبحانه يكتب لرسله النصر والتأييد، فيونس عليه السلام لم يصبر على أذى قومه، وأبق إلى الفلك، فوقع في تلك الشدائد، مما يجسد العزيمة والإصرار للسير في طريق الدعوة بجدية وثبات، والتشبث بثواب المنهج بمصادقية وإخلاص، لتتحول المبادئ والقيم إلى نتائج وحقائق ملموسة، ولترجم الأفكار والأقوال إلى حقائق وأفعال، تتمثل في صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذى قومه، والثقة التامة بمطلق موعود الله سبحانه وتعالى في نصره وتأييده. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. كما أن فيها تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من ثقل الرسالة، وأثراً من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه يونس. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّىٰ أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ، لِيُبْذَلَ بِالرَّاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

دروس وعبر من المقطع الثاني عشر

- * في الآيات حثٌّ على إكثار المؤمن من ذكر الله تعالى بما هو أهله، وإقباله على عبادته، وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة، لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد. وفيها تعظيمٌ لشأن الالتجاء إليه، في إشارة إلى حديث: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)^(١). فمن أقبل على الله تعالى في السراء أخذ بيده في الضراء.
- * في مقارنة قوم يونس بفرعون نجد أن قوم يونس آمنوا لما عاينوا العذاب، لذا نفعهم

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا غلام، أو يا غليم! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً). حديث صحيح. الموسوعة الحديثية لسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٨٠٣.

إيمانهم، أما فرعون فلم يؤمن إلا بعد حصول العذاب بالفعل، فلم ينفعه إيمانه، كذلك قوم يونس أخلصوا في الإيمان، وفرعون لم يخلص، إنما كان عند الغرغرة لدفع الشدة، ولو رُدُّوا لَعَادُوا. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].^(١)

* القرعة طريق من طرق القضاء عند التباس الحق، أو استواء عدد في استحقاق شيء، وهي اقناع لفصل التنازع، ويصار إليها عند التساوي في الحق وفقدان المرجح، وإنما جُعِلَتْ تطبيقاً لأنفس المتخاصمين، ورفعاً للإشكال، وقد كانت في شرع من قبلنا، فجاء الشرع وعمّمها في كل مشكل تستوي فيه الحقوق، ويعسرُ التعيين، دفعاً للضغائن، وحسماً لداء التشهي؛ فتشريع بين الزوجات في السفر، والقسمة، والعتق، وبين الخلفاء وغيرهم إذا استوت فيهم الأهلية للولاية، والحاضنات، وسائر ما يشاكله. ولا تجوز على إلقاء الأدمي في البحر، إنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته^(٢).

* عدمُ ختم قصة يونس ومن قبله قصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص من السلام تفرقةً بينهما وبين أرباب الشرائع الكبرى، وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاءً بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين آخر السورة^(٣).

* في قصة يونس عليه السلام درس رباني في التربية، محفوف بالمعجزة، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً، بدون إذن صريح من الله تعالى له، يجدد له فيه وقت الخروج وإن كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكن مثل هذا الاجتهاد إن قبل من الصالحين العاديين فإنه لا يقبل من المرسلين المقربين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللوم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣/ ٣٤٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٧٥، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٢٦.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٥/ ١١، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٥٥٢.

والتأديب الرباني^(١).

* سبب نجاة يونس أنه كان من المسبِّحين الذَّاكِرِينَ، كما أنه أعلن توبته في بطن الحوت الذي جعله الله تعالى مَقْرَأً لِحَمِيَّتِهِ، فحين ناداه في أعماق ظلمات ثلاث؛ ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت مسبِّحاً تائباً، جاءته الإجابة بقبول التوبة والنجاة، قال تعالى: ﴿وَذَا التُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْرَضًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨-٨٧]، وهذا يؤكد أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، قال الحسن البصري: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرخاء، فذكره الله تعالى به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأً. وإليه يشير الحديث الذي رواه الضياء عن الزبير بن العوام رضي الله عنه موقوفاً: (من استطاع منكم أن يكون له خبءٌ من عمل صالح فليفعل)^(٢). فيجتهد العبد ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويستترها عن خلقه ليصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه^(٣).

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، حبنكة ص: ٤٩٢.

(٢) حديث صحيح، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير رقم الحديث: ٨٤٠٥. والخبء: الشيء المخبوء أو المدخر. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ٦ / ٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥ / ١٢٦، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٣ / ١٤٣.

المقطع الثالث عشر: (مناقشة عقائد المشركين) الآيات: (١٧٠-١٤٩)

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَن هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوَآءَ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ ۗ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

سبب النزول:

١- قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

[الصافات: ١٥٨]:

أخرج جوير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزلت هذه الآيات في ثلاثة أحياء من قريش: سليم وخزاعة وجُهينة: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا ﴾.

ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا: إن قريشاً وأجناس العرب: جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا: الملائكة بنات الله.

وعن مجاهد قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق ؓ: فمن

أمهاتهم؟ قالوا: بنات سرة الجن، فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٥]:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٤، والمحرم الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٤٠٦، وزاد المسير، ابن

الجوزي: ٦/ ٣٢٥، ومعالم التنزيل، البغوي: ٤/ ٤٩.

أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلون متبددين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافِرُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾، فأمرهم النبي ﷺ أن يصفوا^(١).

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تعتبر قصة لوط عليه السلام خاتمة قصص الأنبياء عليهم السلام في السورة، والتي كانت في مجملها توطئة لمناقشة المشركين في افتراءاتهم الباطلة. فلما انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة، فكان في استفتاح الخطاب لهم خير مثال لقريش، أنهم إن آمنوا كما آمن قوم يونس آمنوا من عذاب الله تعالى، كما جرى لهؤلاء. ومن هنا حسن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾.

مناسبة الاستفتاء هنا لسابقه في بداية السورة:

يأتي طلب الاستفتاء هنا في مناقشة عقائد المشركين وتفنيدها وتقييدها؛ من زعمهم أن الله تعالى ولداً، ووصفهم الملائكة بالأنوثة، ونسبتها إليه سبحانه، وغيره من الشكيات، مما هو مخجلٌ بقضية التوحيد الكبرى، يشابه تماماً طلب الاستفتاء الذي تقدم بداية السورة من إبراز حقيقة الإيمان بالله تعالى، وتحديد الصلة بين الله سبحانه وعباده، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة.

كما أن في استفتاح المقطع هنا بالاستفتاء في طلب الرد على مثبتي الولد، يناسب الرد على منكري البعث في الاستفتاء الأول بداية السورة؛ من حيث اتحاد الجملتين في: السائل والمسؤول، والأمر^(٢).

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٣ /: ١٤٧٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٢ /: ٤٠٥ وروح المعاني، الألوسي ٢٣ /: ١٤٩ وصفوة التفاسير، الصابوني:

التفسير:

تناولت الآيات الكريمة أسطورتين وأدعائين للمشركين على غاية من الخطورة والقبح تتعارضان مع تنزيه ذات الله تعالى وتعظيمه وتمجيده؛

أما الأسطورة الأولى: فهي ادعاء أن الله تعالى البنات، ولهم البنون. ويتكرر طلب الاستفتاء هنا على جهة التوبيخ والتقريع، والإنكار والتأنيب لهؤلاء المشركين على بهتانهم هذا، وافترائهم على الله تعالى، وقسمتهم الجائرة، وتسفيه عقولهم في جعلهم لأنفسهم البنين وهو النوع الجيد الذي يستحبونه، وجعلهم لله تعالى البنات التي يكرهونها، ويستنكرون ذكرها، ويتدونها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْزَوِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُوبٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

ويحاورهم في صحة هذا الادعاء، وأنى لهم أن يحكموا على الملائكة بالأنوثة، وهو مما لا يثبت إلا بالدليل العقلي القائم على الحسِّ والمشاهدة، أو النقل المستند إلى النص الثابت القاطع وكلاهما مستحيل الثبوت، فلما افتقروا إلى إثبات ادعائهم بالمنطق والبرهان قامت عليهم الحجة، وثبت في ادعائهم هذا وقوعهم في الكفر من زوايا ثلاث؛

الأولى: حين أثبتوا التجسيم لله تعالى، فالولادة مختصة بالأجسام، وهي من أحوالها.

والثانية: حين آثروا أنفسهم بالأفضل، وجعلوا لله تعالى الأقل. فقد استحوذوا أرفع الجنسين لهم، ونسبوا دونه لله تعالى.

والثالثة: حين وصفوا الملائكة المقربين بالأنوثة، وقد كانوا يتعيرون بأبي الإناث. فاستهانوا بمن هو مكرم عند الله تعالى، حين أنثوهم.

لذا كرر الله تعالى هذا النوع من كفرهم في كتابه غير مرة، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٢٧]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَفَأَصْفَكَ زُيُجُكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَلَمْ أَدَّكُمْ

وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ صَبْرِي ﴿٢٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

ويتكرر الإنكار على حكمهم الجائر هنا حين يسألهم المبرر لاختصاص الله تعالى بالبنات وتفضيلهم بالبنين، وهذا يستدعي إعمال العقول ومحاورتها في تدبر ما يفترونه، والنظر والتفكر فيما يدعون، ثم يسألهم إن كان لديهم حجة واضحة وبرهان ساطع، يستند إلى وحي السماء فليذكروه، وليأتوا به.

ونخلص إلى أن تعدد هذه الأسئلة إنما يحمل معنى التوبيخ والتقريع، والتبكيك والإنكار تسفيهاً لأرائهم، واستخفافاً بأحكامهم، حين لا تستند إلى مصداقية عقل، ولا منهجية فكر ولا حجة دليل، فضلاً عن أنها تتسم بالإفك الشديد، والبهتان العظيم، والافتراء الشنيع.

أما الأسطورة الثانية: فهي أدعاء صلة النسب بين الله تعالى وبين الجنَّة، وهو افتراء نادت به فرقة من زنادقة قريش حين قالوا: إن الله وإبليس أخوان، فالله إله الخير، وإبليس إله الشر فادَّعوا أن الله نكح سروات الجن، - أي أشرافهم - . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

واستحسن القرطبي قول الحسن: أنهم أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه^(١).

وفي تعيين الجنَّة قولان: الملائكة أو الجن، وإنما سُميت الملائكة بالجنَّة لاجتنابهم واستتارهم عن الأبصار، وهو ما يرجحه الرازي، لأنه أبطل قولهم: الملائكة بناتُ الله، ثم عطف عليه فوجب أن يكون مغايراً^(٢). وعلى أي من القولين؛ فالشياطين تعلم ضدَّ ذلك، وأنها ستحضر أمر الله تعالى وثوابه وعقابه، كما أن الملائكة تعلم أن هؤلاء الكفرة سيحضرون عذاب الله تعالى وعقابه.

ثم نزه الله تعالى نفسه عما يصفه الظالمون الملحدون مما لا يليق به، لكن عباد الله المخلصين

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥: / ١٣٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧: / ١٦١.

المتبعين للحق المنزل على الرسل ناجون، فلا يحضرون إلى العذاب، ولا يُساقون إليه، والاستثناء هنا منقطع.

ثم تحدّى الله تعالى المشركين، وأثبت مدى عجزهم عن إضلال أحد أو فتنته، فقال لهم: إنكم وأهتكم التي تعبدونها من دون الله تعالى لا تقدرون على فتنه أحد عن دينه أو إضلاله، إلا من هو أضلُّ مكنم ممن هو داخل في أهل الجحيم، ممن سبق في علم الله تعالى، وهم المصرون على الكفر.

قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون على أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عزَّ وجلَّ عليه أن يضلَّ^(١).

ثم يأتي ردُّ الملائكة على هذه الأسطورة بإقرارهم أن لكل منا مقامه لا يتعداه، وهو ما يُشار إليه من بيان درجتهم في الطاعة، وربتهم في العبودية لله تعالى، بيّنه حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء، وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم على أو إلى الصعدات تجأرون إلى الله، قال: فقال أبو ذر رضي الله عنه: والله لوددت أني شجرة تعضد)^(٢).

كما أنهم عباد لهم وظائف؛ فهم يصفون للصلاة، ويعظمون ربهم ويسبحونه، وينزهونه عن اتخاذ الولد، أو أن يكون له صهر، أو زوجة.

يؤيد هذا المعنى ما روي في حديث الإسراء من استقبال الملائكة للنبي ﷺ وجبريل في استئذان دخول السماوات، وفي تأخر جبريل عند سدره المنتهى، حيث لا يستطيع التقدم عن

(١) البحر المحيط، أبو حيان: ١٢٦/٩، وفتح القدير، الشوكاني: ٤/٤١٤.

(٢) حسن لغيره. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢١٥١٦.

مكانه، حيث لكلٍ مقام معلوم^(١).

ويحتمل أن يكون هذا قولَ المسلمين الذين يصفون للعبادة، واقفين إليه صفوفاً بالصلاة وإنما وصف وقوفهم بالصلاة تشبهاً بنظام الملائكة. يؤيد ذلك حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْتِبَتُنَا لَنَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ)^(٢)، وحديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد، فقال: أَلَا تَصِفُّونَ كَمَا تَصِفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصِفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ: يَتَّمُونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاصُونَ فِي الصَّفِّ)^(٣). قال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، إنما يريد الله تعالى بكم هَدْيَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ رَبِّهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾^(٤) تأخر يا فلان، تقدّم يا فلان، ثم يتقدّم فيكبر^(٥).

قال الزهراوي: إن المسلمين إنما اصطَفُوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية، ولا يصطف أحد من أهل الملل غير المسلمين^(٥).

ثم تختتم آيات المقطع بذكر مقالة بعض المشركين قبل البعثة النبوية، حينما يُعَيَّرُونَ بجهلهم فكانوا يتمنون وجود كتاب مقروء بينهم، يذكر الناس بما يجب عليهم؛ كالتوراة والإنجيل كي يُخلصوا فيه العبادة، ويؤمنوا، لكنهم لم يوفوا بتمنيهم إذ تحقّق، فقد كفروا بنبیهم المرسل وبكتابه المنزل، وسوف يرون عاقبة كفرهم، حين تمنّوا أمراً، فلما جاءهم كفروا برّبهم، وكذبوا

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٩١/٢٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٣٨/١٥.

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٢.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، رقم الحديث: ٤٣٠.

(٤) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/٢٥.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/٤٠٩، والبحر المحيظ، أبو حيان: ٩/١٣٠، وكتاب التسهيل لعلوم

التنزيل، ابن جزري: ٣/٣٨٦.

رسوله، واستهواهم الحسد. وهذا وعيد أكيد، وتهديد شديد.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يخدم هذا المقطع محورَ السورة من حيث أنه يناقش المشركين في قضايا التوحيد الكبرى والتي تنال أصول العقيدة والدين، فيقرر بعد الحوار والمناقشة تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بذاته سبحانه من ألوان الشرك والكفر؛ كنسبة الولد إليه، ووصف الملائكة بناته، مطالباً إياهم بالدليل العقلي والمنهجي المطلوب في قضايا العقيدة، وذلك بالنظر والتفكير، وإعمال العقل لا إهماله، ولما استحال وقوع ذلك عرفاً وعقلاً وشرعاً، ثبت يقيناً تنزيه ذات الحق سبحانه عن كل نقيصة وحاجة، واستحق التسييح والثناء، والعبادة والولاء، وهو مقتضى محور السورة العام الداعي إلى التوحيد والإيمان.

دروس وعبر من المقطع الثالث عشر

- * الحق والباطل ضدان أزليان، وصراعهما باق أبداً الدهر، والباطل مهما تعالى فهو لا ريب زاهق، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١) [الإسراء: ٨١]، إلا أن إبطاله لا يكون بالتشهي ولا التمني، إنما بالدليل الواضح، والآية البيّنة، لذا كانت مشروعية دحض الباطل بأقوى الحجج، وأصح البراهين.
- * تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بذاته العلية من صفات النقص والعجز مما يتصف به المخلوقون، وإبطال كل فرية نادى بها المشركون من حاجته للولد والزوجة، أو فكرة أن الملائكة بنات الله، ووجود نسب بين الله تعالى والجن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
- * لا يُقَرُّ الكفار على حمل أحدٍ على الضلال، إلا إذا سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار لإصراره على الكفر، وعدم استعداده للإيمان، وفي ذلك تقرير لعقيدة القضاء والقدر في أن من كتب الله تعالى عليه النار فسوف يصلها. وفيه أيضاً ردٌّ على القدرية القائلين بالجبر في حكم الله تعالى وقدره. قال الرازي: وهذا دليل لأهل السنة على أنه لا تأثير لإغواء

الشیطان ووسوسته، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره، لأن قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَنتَرُ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ (١٦٢) تصريح بأنه لا تأثير لقولهم، ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ (١٦٣) يعني إلا من كان كذلك في حكم الله تعالى وتقديره، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى^(١).

* تسوية صف الصلاة شعار يميّز المسلمين في الالتزام والخضوع والانظام والخشوع، وهو حين يتمثل في ضبط اصطفا فهم في الصلاة فإنه رمز وعنوان لتعميم هذا المظهر المنضبط في سائر أحوال المسلمين الاجتماعية، وفي ذلك ردّ على كل دعوى يثيرها المشككون حول هذا الدين، مما يبيده بعض أتباعه من مظاهر الفوضى والاضطراب في الأحوال العامة للمجتمع، جهلاً وسفهاً. فالإسلام دين الضبط والنظام، والاستقامة والالتزام. عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سووا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)^(٢).

* تقرير طبيعة الملائكة، وأنهم عباد الله تعالى خلقوا من نور، ودأبهم الطاعة والتسبيح، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتزاوجون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وقد اختصت الآيات بذكر ثلاث صفات رئيسة لهم؛ فلكل منهم رتبة ودرجة لا يتجاوز حدّه فيها، كما أنهم يصفون للعبادة والطاعة والخدمة وأداء ما كلفوا من وظائف، فهم يؤدونها في حدود رتبهم دونما تقصير أو تجاوز، كما أنهم في تسبيح وتعظيم وتمجيد وتنزيه لله تعالى عما لا يليق به من صفات النقص. وفي هذا دلالة على أن الإنسان مطالب بالتمثل بأخلاق الملائكة في الطاعة والخدمة والتسبيح لله تعالى، وأنه مهما تقدّم في الرتبة فلن يبلغ درجة الملائكة الذين جبلوا على العصمة، لكن الإنسان في جهاده وصبره يستطيع أن يحقق درجات مميزة في العبودية، وهو الذي رُكِّب فيه نوازع الخير والشر.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ١٦٢/٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، رقم الحديث: ٦٨١.

* يلحظ المتتبع للآيات الكريمة الدعوة المتكررة للمسلم في أهمية دور العقل، وإعماله في الملاحظة والحوار الحرّ، والمقارنة واستنتاج الحقائق، وعدم تهميشه بقبول نظريات خرافية أو أفكار ضالة منحرفة، تنزل بمستوى معتنيها إلى حضيض البهيمية، كما في قول الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ۞

المقطع الرابع عشر: (نصر جند الله تعالى) الآيات: (١٨٢-١٧١)

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْئَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُورٌ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِئِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ۞

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٦]:

أخرج جووير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: يا محمد! أرنا العذاب الذي نخوفنا به، عجله لنا، فنزلت: ﴿ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾، وهو صحيح على شرط الشيخين^(١).

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

التهديد الخفي في نهاية المقطع السابق عند قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هو اللائق بالكفر بعد التمني والعود، وبمناسبة هذا التهديد يقرر الله تعالى وعده لرسله بالنصر والغلبة، والوعد واقع، والكلمة قائمة.. فقد ذهبت عقائد المشركين وسطوتهم ودولتهم، وبقيت عقائد الرسل

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٣/ ١٥٦.

تسيطر على قلوب الناس.. والوعد سُنَّةٌ كونية ماضية كما تمضي الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان.. ولكنها مرهونة بتقدير الله تعالى، يحقّقها متى يشاء^(١). ويختتم المقطع هذه السورة بتسجيل وعد الله سبحانه لرسله أنهم هم الغالبون، وبتنزيهه تعالى عما يصفون، والتوجّه بالحمد لله ربّ العالمين.

التفسير:

لما هدّد الله سبحانه المشركين بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أردفه بما يقوّي قلب رسوله ﷺ بوعد النصر والتمكين، فجاءت الآيات تحمل المؤانسة والبشرى لنبيّه ﷺ وأوليائه بأنّ وعدنا وقضاءنا وحكمنا في الأزل قد سبق ومضى في أم الكتاب بنصرِ رسلنا على من ناوأهم، وجحد رسالتهم، وظفرهم بإرادتهم، والمراد بالنصر والغلبة علوّهم على عدوّهم؛ سواء كان ذلك في الدنيا بالغلبة وظهور الحجة والبرهان في مقام الحجاج، والقهر وهزيمة الأعداء بالرمح والسنان في ملاحم القتال، أو في الآخرة بالسعادة والعلوّ والفوز والنجاح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]. وجندُ الله تعالى في السماء هم الملائكة، وفي الأرض الغزاة.

ومضمون الكلمة هو تحقيق موعود الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وسُمّيت كلمة وهي كلمات، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، وشبّها بالكلمة في سرعة الدلالة، وإيجاز اللفظ^(٢).

وفي نعتِ الرسلِ بالنصرة، والجندِ بالغلبة جزيٌّ للكلام مجرى الغالب، في أكثر الأحوال، وباعتبار العاقبة المحمودة لهم على كل حال، لقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، ولا ينافي ذلك أنهم يُغلبون نادراً، ابتلاءً ومحنة، أو بسبب تقصير منهم. قال الحسن: المراد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٠١.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣١، والتحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٩٥.

النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل من أصحاب الشرائع أحد قط في الحرب، وإنما قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ غيلةً، أو في غير الحرب^(١).

ويكفي في نصرتهم إعلاء كلمتهم، وتعجيز الخلق عن معارضتهم، وحفظهم من القتل في الحروب، ومن الفرار منها، ولا ريب أن نصر أهل الحق يقابله هزيمة أهل الكفر والعصيان والضلال.. وقد تكون الغلبة بقوة الحجة والدولة والاستيلاء بالدوام والثبات، فالمؤمن وإن صار مغلوباً أحياناً بسبب ضعف الدنيا فهو الغالب^(٢).

وجاء الأمر بالتولي عنهم تحقيقاً لتأنيسه ﷺ وتسلية له، وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بما يقولون، وترك النكد عن إعراضهم.

واختُلف في تعيين لفظ: ﴿حِينَ﴾ إلى أقوال: حتى تنقضي مدة إمهالهم، أو حتى مجيء عذابنا ونزوله بهم، أو حتى نأمرك بقتالهم، على اعتبار الآية هنا محكمة، أو حتى موتهم، أو حتى يوم القيامة، أو أمر بالموادعة أو المهادنة إلى حد معلوم، وهو يوم بدر، أو فتح مكة، على اعتبار الآية منسوخة بآية السيف والقتال^(٣).

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٦) تأمل أحوالهم، فهو وعد للنبي ﷺ، كناية عن تحقق وقرب وقوعه، ووعد للكافرين بما سيحل بهم يوم بدر.

﴿أَفِعْدَابَيْنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦) قرر الله تعالى نبيه على جهة التوبيخ لهم على استعمال عذاب الله تعالى، وهو استفهام إنكاري للتهديد، وقد مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومهم بعض نصائحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشن عليهم الغارة، وقطع دابرهم،

(١) روح المعاني، الألوبي: ١٥٦/٢٣.

(٢) روح المعاني، الألوبي: ١٥٦/٢٣، ومفاتيح الغيب، الرازي: ١٦٤/٧.

(٣) جامع البيان، الطبري: ١١٥/٢٣، ومفاتيح الغيب، الرازي: ١٦٤/٧، ولباب التأويل في معاني

التنزيل، الخازن: ٢٩/٤، وزاد المسير، ابن الجوزي: ٣٢٦/٦.

وكانت عادة مغازيتهم أن يغيروا صباحاً، فسُمِّيت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر. وما فصحت هذه الآية، ولا كانت لها الروعة التي تحسُّ بها، ويروك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. ومنه الحديث: (محمد والخميس)^(١).

والساحة: الفناء، والعرب تكثفي بذكر الساحة عن القوم، كما تعبرُ بالنزول بالساحة فيما يردُّ على الإنسان من خير أو شر، وسوء الصباح يستعمل في ورود الغارات والرزايا^(٢).

ومقصدُ تكرار الأمر بالتوَيُّ والإبصار المبالغةُ في التأكيد والتهديد والتهويل، ووقوع الميعاد بعذاب يحلُّ عليهم، بعد أن أُنذروا فلم ينفعهم الإنذار. ومن المفسرين مَنْ ذهب إلى أن الأمر بالتوَيُّ في الآية الأولى ذكْرٌ لأحوالهم في الدنيا، وفي الثانية ذكْرُه في الآخرة، فلا تكرار^(٤).

ولمَّا اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله تعالى، ونسبوا إليه مما هو منزَّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما حوَّلوه في العاقبة من النصر عليهم، جاءت الخاتمة بجوامع ذلك؛ من تنزيه ذاته تعالى عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين على ما سبق ذكره من نعمه على المسلمين من هدي ونصر وفوز بالنعيم المقيم، وما قيَّض لهم من حُسْن العواقب^(٥).

(١) عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً، وكان إذا جاء قوماً بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمسأحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس، رقم الحديث: ٢٧٢٦.

(٢) الكشاف، الزمخشري: ٧٠/٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/١٤٠، والبحر المحيط، أبو حيان: ٩/١٣١.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/٤١٠، والبحر المحيط، أبو حيان: ٩/١٣١، ومعاني القرآن، الفراء: ٣٤٦/٢.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان: ٩/١٣١، ولباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن: ٤/٢٩.

(٥) الكشاف، الزمخشري: ٧١/٤، وتفسير النسفي: ٣٢/٤.

ومعنى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) تنزيهه عن كل سوء، والعزّة تكون صفة ذات، نحو قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، وتكون صفة فعل، نحو قوله تعالى: ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ ربُّ الغلبة والقدرة التي يتعاضد الخلق فيما بينهم، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ، وفيه إشارة إلى كمال القدرة، وأنه القادر على جميع الحوادث. وفسرها بعضهم هنا بالملائكة^(١).

﴿ وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٨١) ومعنى السلام على المرسلين؛ إما تحيتهم، أو سلامتهم من أعدائهم، فيكون تكميلاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَمُنْصُورُونَ ﴾ (١٧١)^(٢).

قال الطبري: ﴿ وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٨١) أي: وأمنةً من الله تعالى للمرسلين الذين أرسلهم إلى أمهم الذين ذكرهم في هذه السورة، وغيرهم من فزع يوم العذاب الأكبر، وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قبل الله تبارك وتعالى. وفي الحديث: (إذا سلّمتم على المرسلين فسلّموا عليّ، فإنما أنا بشرٌ من المرسلين)^(٣).

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٨٢) ربُّ الثقلين الجن والإنس خالصاً دون سواه، لأن كل نعمة لعباده فمنه، فالحمد له سبحانه، خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمه^(٤).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته، أو حين ينصرف منها: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥ / ١٤١، ولباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن: ٤ / ٢٩.

(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزري: ٣ / ٣٨٨.

(٣) أخرجه ابن سعد وابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة مرفوعاً، وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين)، وفي رواية: (فإنما أنا أحدهم). المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢ / ٤١١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥ / ١٤٢، وفتح القدير، الشوكاني: ٤ / ٤١٧، والأساس في التفسير، سعيد حوى: / ٤٧٤٧.

(٤) جامع البيان، الطبري: ٢٣ / ١١٦.

﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴿١﴾.

وعن علي عليه السلام: (من أحب أن يكتال بالميال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخرُ كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (٢).

وعن عبد الله بن أرقم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قال دبر كل صلاة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾، فقد اکتال بالجرىب الأوفى من الأجر) (٣).

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِيَالِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيَقُلْ آخِرَ مَجْلِسِهِ، أَوْ حِينَ يَرِيدُ أَنْ يَقُومَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (٤).

وقد ورد في السنّة المطهرة حديثُ كفاة المجلس بروايات منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جلس في مجلس فكثّر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان

(١) رواه أبو زكريا يحيى بن يحيى النيسابوري عن هشيم عن أبي مروان العبدى عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤١/١٥.

(٢) تفسير النسفي: ٣٢/٤، ومعالم التنزيل، البغوي: ٥٢/٤.

(٣) الجريب: مكيال قديم. والحديث ضعيف، قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جداً. انظر: مجمع الزوائد: ١٠/١٠٣، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/٢٥، والترغيب والترهيب، المنذرى: ٢/٤٤٩، ومساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٢/٤١١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/٢٥، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلًا، وذكره الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤١/١٥.

في مجلسه ذلك)^(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يعتبر المقطع الأخير الخاتمة في السورة، من حيث تعزيز ما بحث فيه من قضايا تتصل بالمحور العام للسورة، وهو قضية التوحيد الكبرى، فجاءت آيات هذا المقطع تبني على ما مرَّ في السورة، وتؤكد ما مضى فيها من معانٍ؛ مختمة ما ابتدأت به من وصف الملائكة بأنهم الصافون المسبحون، وجاء الختام بوعد قاطع وكلمة قائمة، استهدفت بخطابها جميع الرسل تذكُّرهم النصر والغلبة لهذا الدين وأنبيائه وأوليائه، والخذلان والهوان لأعدائه، وهكذا اكتمل بناء قضية التوحيد والإيمان، كما جاء ختام السورة مناسباً لموضوعاتها، ملخصاً للقضايا التي عالجتها؛ فاختمت الكلام بالتنزيه والتسييح لذات الربِّ العظيم، والمدح والتسليم على جميع الأنبياء والمرسلين، والشأن والحمد لله ربِّ العالمين.

دروس وعبر من المقطع الرابع عشر

- * وعُدَّ الله لرسله وأوليائه المؤمنين بالنصر لا يُخَلَف، فقد تكفَّل سبحانه به، وأخذ عهداً على نفسه في محكم التنزيل، لكن للنصر شروط ومقدمات، وأسباب وعلامات، فلا يُنال بالتمني، وإنما بالإيمان الصحيح بالله تعالى، والعمل بالتنزيل، والتزام دين الإسلام في الحياة سلوكاً ونظاماً، دستوراً ومنهجاً، عندها يتحقَّق النصر الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال أيضاً: ﴿إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]. وقد أنجز الله وعده.
- * للنصر أحوال؛ فقد يكون بالغلبة في قوة الحجة والبرهان في ميادين الجدل، وقد يكون

(١) وفي الباب عن أبي برزة وعائشة، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، رقم الحديث: ٣٣٥٥.

بالغلبة على الأعداء في قهرهم وهزيمتهم، أو بالدولة والاستيلاء، أو بالدوام والثبات. هذا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة بتحقيق السعادة والفلاح، والفوز برضوان الله تعالى في الجنان.

- * الغرض من ذِكْر التسييح والسلام والثناء في ختام السورة تعليمٌ للمؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يُجْلُوا به، ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.
- * فصلّ الفقهاء الحكمَ فيمن حلف بعزّة الله تعالى؛ فإن أراد صفته الذاتية فحنث فعليه الكفارة، لأنها يمين، وإن أراد العزّة التي خلقها الله تعالى، وجعلها بين عباده فلا كفارة عليه إن حنث، لأنها ليست بيمين^(١).
- * يستحب ذِكْرُ كفارة المجلس عند انتهائه بالتسييح والدعاء المشهور، لحديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله! إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فيما مضى، فقال: كفارة لما يكون في المجلس)^(٢).
- * تقرير النبوة المحمدية.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥: /١٤١.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في كفارة المجلس، رقم الحديث ٤٢١٧.

الخاتمة

مجمل ما حوته السورة من موضوعات:

- ١- التوحيد ودليله في الآفاق والأنفس.
- ٢- خلق السماوات والأرض، ووصفه سبحانه لذلك.
- ٣- إنكار المشركين للبعث، وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار، وهم يَطَّلَعُونَ عَلَيْهِمْ.
- ٤- وصف الجنة ونعيمها.
- ٥- قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وإسماعيل.
- ٦- دفع فرية قائلها المشركون وتوبيخهم عليها إذ قالوا: الملائكة بنات الله.
- ٧- تنزيه الله تعالى عن ذلك.
- ٨- بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوي العقول الضعيفة المستعدة للإضلال.
- ٩- وصف الملائكة بأنهم صافقون مسبِّحون.
- ١٠- مدح المرسلين وسلام عليهم.
- ١١- حمد الله وثناؤه على نفسه بأنه رب العزة ورب الخلق أجمعين، وفي هذا تعليم لنا كي نختم مجالسنا وأعمالنا ب: سبحانه ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

سورة ص

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية :

تسمى السورة الكريمة «سورة ص»، وهو حرف من حروف الهجاء، للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية .

ب - فضل السورة :

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواه الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَثْنِ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلَتْ بِالْمَفْصَلِ) ^(١).

ج - مكية السورة :

سورة ص مكية، وترتيبها في المصحف الشريف الثامنة والثلاثون (٣٨). نزلت بعد سورة القمر. من الجزء «٢٣»، الحزب «٤٦».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٨٨. ^(٢)

محور السورة: سورة «ص» مكية، وهدفها نفس هدف السورة المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١ / ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١ / ٨٥.

المناسبات في السورة الكريمة :

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :

المناسبة بين مطلع سورة ص وخاتمتها واضحة جداً، ففي بداية السورة. حديث عن القرآن ذي الذكر ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ١﴾، وفي نهايتها تأكيد على أن القرآن الكريم ما هو إلا ذكر للعالمين ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٨٧﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها :

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة ص، وخاتمة السورة التي قبلها: (الصفات)؛ ففي نهاية سورة الصفات تهديد للكفار بالهزيمة في الدنيا، وبعذاب الله تعالى في الآخرة، ﴿أَفِيعَادِيْنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِئِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٨ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٩﴾، وفي أول (ص) حديث عن إهلاك القرون السابقة المكذبة، ولم ينفعهم ندمهم حين ندموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاَتٍ حِينٍ مَّناصٍ ٢﴾.

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها :

هناك ارتباط بين مضمون سورة (ص) والسورة التي قبلها (الصفات)،

فمجيء (ص) بعد الصفات كـ (النمل) بعد الشعراء، وكـ (طه والأنبيا) بعد (مريم) وكـ (يوسف) بعد (هود) في كونها متممة لها، بذكر من بقى من الأنبياء، ممن لم يُذكروا فيها؛ فإنه سبحانه ذكر في الصفات: نوحا وإبراهيم، والذبيح، وموسى، وهارون، ولوطاً، وإلياس، ويونس. وذكر هنا: داود، وسليمان، وأيوب. وأشار إلى بقية من ذكر. فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء والنمل بعد مريم والشعراء. (١)

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/١٦٦، بتصرف يسير.

موقف الكافرين من القرآن وعجبهم من رسالة الإسلام

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شِقَاقٍ ٢ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا
وَلَاتَ جِینَ مَنَاصٍ ٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ٤ أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ
إِلَهُهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥ وَأَنْطَلَقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُورًا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ
٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلَمَةِ الْأُخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلِقُ ٧ أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ
ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ٨ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ١١ ﴾

سبب النزول:

جاء في سبب نزول هذه الآيات، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: أريد منهم كلمة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية، كلمة واحدة، قال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله، قالوا: لها واحدًا؟ إن هذا شيء عجاب، فنزل فيهم: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ﴾. (١)

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن - المعجز، ذي الشرف الرفيع، وذو الشأن والمكانة السامية، المنزل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة، على أن القرآن حق، وأن محمدًا نبي مرسل.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٢٧. رقم الحديث ٢٠٠٨. وابن حبان في صحيحه ١٥ / ٧٩ رقم ٦٦٨٦. والنسائي في السنن الكبرى ٦ / ٤٤٢ رقم الحديث ١١٤٣٦. وأخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٣٣٦٥. رقم الحديث ٣٢٣٢. وقال الترمذي: حديث حسن. وأخرجه الحاكم في المستدرک ٢ / ٤٦٩ رقم الحديث: ٣٦١٧. وقال الحاكم: حديث صحيح.

ولكن الكافرين في حميةٍ وتكبرٍ عن الإيمان، وفي خلافٍ وعداوةٍ للرسول ﷺ. قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخللٍ وجده فيه، بل الذين كفروا به مستكبرين عن الحق، معاندين لله ولرسوله، ولذلك كفروا به. (١)

والتعبير بـ « في » في قوله: ﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عنادٍ ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف. (٢)

كم أهلكتنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسولهم. والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين، فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة، ولكن ليس الحين حين فرار أو مهرب ونجاة. (٣)

قال ابن جزري: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، أي مفر ونجاة من ناص ينوص إذا فرّ، ولات بمعنى ليس، وأصلها: لا النافية، زيدت عليها علامة التأنيث. (٤)

وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ، واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر، وقال كفار مكة: إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات، مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله. وإنما وضع الاسم الظاهر: ﴿ الْكُفْرُونَ ﴾ مكان الضمير: « وقالوا » غضباً عليهم، وذمّاً لهم، وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق. (٥)

أزعم أن الربَّ المعبود واحد؟ لا إله إلا هو؟ إن هذا الذي يقوله محمد - إنَّ الإله واحد -

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٤٦ بتصرف يسير.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٩٨.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٤ / ٢٨١ بتصرف يسير.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ١٧٩.

(٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥١.

شي بليغ في العجب، قال ابن كثير - رحمه الله -: أنكر المشركون ذلك - قَبَّحهم الله - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربت قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابَّ ۝ ﴾^(١).

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشراً قصة قديمة، معادة، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات. وتكرر إرسال الرسل من البشر؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض: وعجبوا أن جاءهم منذر منهم..

وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم. بشراً يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون؛ ويحس ما يعتلج في نفوسهم، وما يشتجر في كيانهم، وما يعانون من نقص وضعف، وما يجدون من ميول ونزعات، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل، وما يعترضهم من عوائق وعقبات، وما يعترهم من مؤثرات واستجابات.. بشراً يعيش بين البشر - وهو منهم - فتكون حياته قدوة لهم؛ وتكون لهم فيه أسوة. وهم يحسون أنه واحد منهم، وأن بينهم وبينه شهاً وصلته. فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه، ويدعوهم لاتباعه. وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج، فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته.^(٢)

وانطلق أشرف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد، فإن هذا أمرٌ مدبرٌ، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه.

ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٩٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٠٨.

بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أن الله واحد؟ قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدرکنا عليه آباءنا، وما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء. (١)

ويصور التعبير القرآني مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة.. أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ كأنه الأمر الذي لا يتصوره مُتصور! إن هذا لشيء عجاب.. حتى البناء اللفظي (عُجاب) يوحي بشدة العجب وضخامته وتضخمه! كما يُصور طريقتهم في مقاومة هذه الحقيقة في نفوس الجاهير، وتثيبتهم على ما هم عليه من عقيدة موروثه متهافته. وإيهاهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيء!

وانطلق الملاء منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد.. فليس هو الدين وليست هي العقيدة، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة. شيء ينبغي أن تدعه الجاهير لأربابه، ولمن يحسنون فهم المخبات وإدراك المناورات! وتنصرف هي إلى عاداتها الموروثة وأهتها المعروفة، ولا تعني نفسها بما وراء المناورة الجديدة! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها. فلتطمئن الجاهير، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآهتهم!

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة، والبحث وراء الحقيقة، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطيرة. ذلك أن اشتغال الجاهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة، وخطر على الكبراء، وكشف للأباطيل التي يغرقون فيها الجاهير. وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجاهير في الأباطيل! (٢)

ثم أنكروا اختصاصه عليه السلام بالوحي من بينهم وتساءلوا: هل تنزل القرآن على محمد دوننا

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٠٩.

مع أن فينا من هو أكثر منه مالا، وأعلى رياسةً؟ قال الزمخشري: أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم.^(١)

وإنكارهم للذكر ليس عن علم، بل هم في شك منه، فلذلك كفروا، وسبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به.

وهؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأي في شأنك - أيها الرسول الكريم - وفي شأن ما جئتهم به، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل، وإنما هم في شك من هذا القرآن الذي أيدناك به، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وتارة بالشعر، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك.^(٢)

وهل عند هؤلاء الجاحدين خزائن رحمة تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا؟

يقول البيضاوي: يريد أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه الغالب الذي لا يغلب، الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء هل لهم شيء من ملك السماوات والأرض؟ وهو إنكار وتوبيخ إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبروا شؤون الكون؟ وهو تهكم بهم واستهزاء.^(٣)

قال الزمخشري: تهكم بهم غاية التهكم، فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيق بالنبوة من غيره، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم،

(١) الكشاف ٤ / ٥٦.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٠٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ١٤٦.

وينزلوا الوحي على من يختارون، وهو غاية التهكم بهم.^(١)

وما هم إلا جندٌ من الكفار، متحزبين على رسل الله، وهم عما قليل يُهزمون ويُولون الأدبار، فلا تبال بما يقولون، ولا تكثر بما يهدون. والآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال تعالى: ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ ۗ ﴾ [القمر: ٤٥].

من هداية الآيات:

- * لله تعالى أن يقسم بما يشاء، بخلاف العبد لا يقسم إلا بربه تعالى.
- * بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء وعداء للنبي ﷺ.
- * بيان جهل المشركين في استنكارهم للتوحيد.
- * تحدي الله تعالى للمشركين إظهاراً لعجزهم، ودعوته لهم إلى النزول إلى الحق وقبوله.
- * إخبار القرآن الكريم بالغيب وصدقه في ذلك.^(٢)

تذكير الكفار بما نال أسلافهم من العذاب

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ۗ ﴿١٣﴾ وَنَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۗ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۗ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلًّا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۗ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً ۗ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۗ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۗ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا جانبا مما أصاب السابقين من دمار، حين كذبوا رسلهم، لكي

(١) الكشاف ٤ / ٥٧.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٩٤.

يعتبر المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، ولكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم.

فقد كذب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون، منهم قوم نوح، وقوم هود، وهم قبيلة « عاد ». وفرعون الجبار، ذو الملك الثابت بالأوتاد، أو ذو الجموع الكثيرة، وقد سمي بذئ الأوتاد لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد. (١)

وكذبت ثمود، وهم قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب. أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم، فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذب رسول الله الذي أرسل إليه، فثبت ووجب عليهم عقابي، وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون، ليس لها من رجوع ولا توقف ولا تكرار. بل إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة، وهي المسافة بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر، قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تتنى ولا تردد. (٢)

وقال كفار مكة - على سبيل الاستهزاء والسخرية - : عَجَّلْ لَنَا يَا رَبَّنَا نَصِيئَنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي وَعَدْتَهُ لَنَا قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ، وَإِنَّمَا قَالُوا هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِهْزَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

من هداية الآيات:

* تسلية الرسول ﷺ، وحمله على الصبر على أذى قريش وتكذيبها وعنادها.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥٢.

(٢) الكشاف ٤ / ٥٩.

- * تهديد الجاحدين إذا أصرروا على التكذيب بأشد أنواع العقوبات.
- * بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه. (١)

قصة داود عليه السلام

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَا الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَنْتَ نَبِيُّ الْخَصَمِ إِذْ سُورُوا بِالْمِحْرَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَوَيْ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَىٰ نَجْمِهِ وَإِنْ كَثِيرٌ مِّنَ الْخَاطَلِ لِيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّوَابٍ ﴿٢٥﴾ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكَذَلِكَ أَنْتَ تَصْبِرُ وَيُؤْوِلُ أَمْرُكَ إِلَىٰ أَحْسَنَ مَالٍ. (١)

التفسير الإجمالي

يأمر الله جل شأنه نبيه الكريم ﷺ بالصبر على أذى قريش وتكذيبهم، ويسليه بما وقع

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٦ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٣٩٠.

لنبي الله داود، ذلك النبي الشاكر الصابر، ذو القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وكان دائم الرجوع والإنابة إلى الله جل شأنه.

إننا سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصبح، وتسيحُ الجبال حقيقةً وكان معجزةً لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿يَجِئَالُ أُوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]. وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كلُّ من الجبال والطيْر رجَّاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس.

قال ابن كثير - رحمه الله -: كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور، يقف في الهواء ويسبح معه، وكذلك الجبال الشاخحات كانت تُرجع معه وتسبح تبعاً له. ^(١)

كان مُلك داود عليه السلام قوياً عزيزاً، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان. ^(٢) وقد قوى الله ملكه وثبته بالهيبه والنصرة وكثرة الجنود، وأعطاه النبوة والفهم والإصابة في الأمور بالكلام البين الذي يفهمه من يخاطب به.

ويشاء الله تعالى أن يبلى نبيه داود، ليعلمه درساً عملياً في أصول القضاء بين الناس.

« وبيان هذا الابتلاء أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفوجئ نبي الله داود ذات يوم بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه. ففزع منهم. فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه. قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض. وجئنا للتقاضي أمامك فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط.. وبدأ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٩٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥٤.

أحدهما فعرض خصومته: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: أكفلنيها [أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتني] وعزني في الخطاب [أي شدد علي في القول وأغلظ].

والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم:

قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخطاء - [أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض] - ليبغي بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم..

وأدرك داود أن هذا الذي حصل إنما هو اختبار له، فقد كان عليه ألا يستثار، وألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء: وظن داود أنها فتنه.. وهنا أدركته طبيعته.. إنه أواب.. فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب.. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب..

وقد خاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوفاً كبيراً تنتزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً، وهي لا تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾. (١)

قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحاً، ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠١٥ بتصرف.

الله، وما حكى القصاص مما فيه غضُّ من منصب النبوة طرحناه. (١)
وقد غفر الله تعالى لنبيه هذه الهفوة وسامحه وعفا عنه، وإنَّ له لقربةً وكرامة بعد المغفرة
وحسن مرجع في الآخرة.

ويحكي الله تعالى خطابه لنبيه داود عليه السلام بما امتن عليه به من النعمة والفضل فيقول: يا
داود إنا استخلفناك على الناس لتديب شئونهم ومصالحهم، فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله
التي أنزلها عليك، ولا تتبع هوى النفس في الحكم بين العباد فيضلك اتباع الهوى عن دين الله
القوميم، وشرعه المستقيم.

إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم
وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إيمانهم بيوم الحساب، لأنهم لو آمنوا به لأعدوا الزاد ليوم
المعاد.

وجعله تعالى داود خليفةً في الأرض يدلُّ على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر
من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة. (٢)

من هداية الآيات:

- * مشروعية الأسوة والافتداء بالصالحين.
- * منة الله تعالى على نبيه داود بالصوت البديع وتسخير الجبال والطير تسبح تسيحه.
- * تقوية قلب الرسول ﷺ وتثبيت فؤاده وحمله على الصبر. بعرض مثل هذه القصص.
- * حرمة إصدار القاضي أو الحاكم الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً.

(١) البحر المحيط ٧ / ٣٩٣ بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق.

- * وجوب المسارعة بالتوبة عند الوقوع في الذنب.
- * وجوب الحكم بالعدل، ولا عدل في غير الشرع الإلهي.
- * حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار. (١)

الحكمة من خلق الأكوان وإنزال القرآن

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾
 أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ
 أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما ذكر سبحانه إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر، وأعقبها بذكر قصة داوود تسلياً للنبي ﷺ ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور. (٢)

التفسير الإجمالي

تشير الآيات الكريمة هنا إلى دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته، في هذا الكون المنظور، وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً، وأنه لا بد من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء.

فالله جل شأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقاً مشتملاً على الحكم الباهرة.. ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أنه سبحانه خلق هذه الكائنات من أجل الباطل واللغو واللعب.. وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم، كفرهم بالحق، ووجودهم ليوم

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٦، بتصرف يسير.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥٧.

القيامة وما فيه من حساب و ثواب وعقاب، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول ﷺ من هدايات وإرشادات. (١)

إِنَّ خَلْقَ الْكُونَ عِبْتًا لَا لِحِكْمَةٍ هُوَ ظَنُّ الْكُفَّارِ الْفَجَّارِ، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ فَوَيْلٌ لِلْكَفَّارِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، ثُمَّ وَبِخَهُمْ تَعَالَى عَلَى هَذَا الظَّنِّ السَّيِّئِ فَقَالَ: هَلْ نَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَصْلِحِينَ كَالْكَفْرَةِ الْمَفْسُودِينَ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْأَخْيَارَ الْأَبْرَارَ كَالْأَشْرَارِ الْفَجَّارِ؟

والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضاً وعدٌ ووعد.

قال ابن كثير: بين تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء يُثاب به المطيع، ويعاقب به الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بدَّ من جزاء ومعاد، فإننا نرى الظالم والباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة.. (٢)

ثم بين تعالى الغاية من نزول القرآن الكريم، وهي العمل والتفكير، فقال: هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيمٌ جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدينية، أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بها فيها من الأسرار العجيبة، والحكم الجليلة وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة.

قال الحسن البصري: والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: والله لقد قرأتُ القرآنَ فما أسقطتُ منه حرفاً، وقد أسقطه اللهُ كلُّه، ما يُرى للقرآن عليه

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦١٧ بتصرف يسير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٢.

أثرٌ في خُلُقٍ ولا عمل، اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه. (١)

من هداية الآيات:

- * تقرير البعث والجزاء.
- * إبطال ظن من يتوهم أن الحياة الدنيا خلقت عبثاً وباطلاً.
- * تنزيه الربِّ تعالى عن العبث والظلم.
- * فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر والتذكر.
- * بركة القرآن لا تفارقه أبداً وما طلبها أحد إلا وجدها. (٢)

قصة سليمان عليه السلام

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءَ حَيْثُ أَسَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّتَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليها السلام. أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح سليمان، وأنعمنا به عليه، وأقرنا به عينه، وأعطيناه النبوة، نعم العبد سليمان، إنه كان

(١) الكشاف ٤ / ٧٠.

(٢) يراجع: أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٠٠ بتصرف يسير.

كثير الرجوع إلى الله والإنابة إليه. (١)

واذكر حين عُرض على سليمان عشية يوم من الأيام -أي بعد العصر- الخيل الأصيلة السريعة الجري. التي تقف على ثلاث قوائم وترفع الرابعة؛ لنجابتها وخفتها.

قال الرازي: وُصفت تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون، وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، والثاني: الجياد وهي الشديدة الجري، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها. (٢)

قال المفسرون: عُرضت على نبي الله سليمان آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأجريت بين يديه عشياً، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار، فقال سليمان: إنني آثرت حب المال عن ذكر ربي حتى غابت الشمس، رُدُّوا عليَّ الخيل التي عُرضت من قبل، فشرع يمسح سوقها وأعناقها. (٣)

وقد ابتلى الله تعالى نبيه سليمان بابتلاء آخر، ولعلَّه ما رُوي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل: إن شاء الله - فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده: لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون). (٤)

« وقد أورد بعضُ المفسرين - في بيان فتنة نبي الله سليمان - آثراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة». (٥)

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨ / ١٨٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٠٤.

(٣) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨ / ١٨٨. وقيل إن المراد أنه شرع يذبحها. ويقطع أرجلها تقريباً إلى الله، لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله.

(٤) الحديث متفق عليه. رواه البخاري ٣ / ١٠٣٨ رقم ٢٦٦٤، ومسلم ٣ / ١٢٧٥ رقم ١٦٥٤.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٣ بتصرف.

ثم رجع سليمان إلى ربه بالتوبة والندم، وقال رب اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكاً واسعاً لا يكون لأحدٍ غيري، ليكون دلالة على نبوتي، إنك واسع الفضل كثير العطاء. فذلنا الريح لطاعته، إجابةً لدعوته، أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد. وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان. وآخرين من الشياطين - وهم المردة - موثقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان. وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعطٍ من شئت وامنع من شئت، لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة. وإنَّ له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة.

من هداية الآيات:

- * الولد الصالح هبة إلهية لوالده، فليشكر الله تعالى من وُهب ذلك.
- * من فضل الله تعالى على العبد أن يوفقه إلى التوبة الفورية التي تعقب الذنب مباشرة.
- * جواز استعراض الحاكم القائد قواته تفقداً لها، وإظهارها لفضل الله ونعمته.
- * إطلاق لفظ الخير على الخيل فيه تقرير أن الخيل إذا ربطت في سبيل الله كان طعامها وشرابها حسناً لمن ربطها في سبيل الله.
- * مشروعية التوبة من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً.
- * مشروعية التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنی.
- * بيان إنعام الله تعالى على عبده سليمان، وتسخير الله له الريح والجن. وهذا لم يكن لأحد غيره من الناس.^(١)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٠١، ٤٠٣ بتصرف.

قصة أيوب عليه السلام

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابِي ۖ ﴿٤١﴾ أَرْكُضُ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۖ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۖ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضَعْفَتَا فَأَضْرِبْ بِهِنَّ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهٗ أَوَّابٌ ۖ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

جاءت قصة نبي الله أيوب - عليه السلام - تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء. وفي عرضها تأسية للرسول ﷺ وللمؤمنين، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء في مكة؛ وتوجيهه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة، تفيض من خزائن الله على عباده الصابرين.

وقصة أيوب هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، وداود وسيان كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار.

فكان الله - تعالى - يقول لنبيه ﷺ: اصبر على سفاهة قومك، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليان، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تتظم لأحد، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره.^(١)

والمعنى: اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر. حين نادى ربه متضرعاً إليه قائلاً: إني مسني الشيطان بتعب ومشقة، وألم شديد في بدني. وفي هذا النداء من أيوب لربه، أسمى ألوان الأدب والإجلال، إذا اكتفى في تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئاً معيناً، أو يطلب شيئاً معيناً.

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٦ / ٢٠٦.

وإنما نسب ذلك إلى الشيطان تأدباً مع الله تعالى، وإن كانت الأشياء كلها خيراً وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء عدد سنين. وقلنا له: اضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماء صافية، وقلنا له: هذا ماءً تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده. والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداها واغتسل من الأخرى فشفي، أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم. (١)

قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته وباله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا. (٢)

وقال أبو حيان: الراجح أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شئت منهم، رحمةً من الله به لصبره وإخلاصه، وعبرة لذوي العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج. (٣)

وقلنا له خذ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرّ يمينك ولا تحنث وكان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه.

وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبان خفيفة فيها مئة عود ويضربها بها ضربة واحدة، ويبرّ في يمينه، وهذا رحمة من

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٤٠١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢١٥.

(٣) البحر المحيط ٧ / ٤٠١ بتصرف يسير.

الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه. (١)
وهذا المخرج من الفرج لمن اتقى الله وأطاعه كنبى الله داوود عليه السلام الذي اختبره الله فوجده صابراً على الضراء. نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة.
الإسرائيليات الواردة في قصة أيوب عليه السلام:

نحب أن نشير هنا إلى أن قصة نبي الله أيوب عليه السلام ورحلته مع المرض قد حشيت بكم كبير من الإسرائيليات، وهي بعيدة كل البعد عن الهدف الأساسي للقصة، ومجافية لما هو ثابت من عصمة الأنبياء - عليهم السلام - ونشير فيما يلي إلى بعضها:

الإسرائيليات في طبيعة مرض أيوب عليه السلام:

قيل: إنه ابتلي بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره. وقال الحسن وقتادة: كانت الدواب تختلف في جسده كثير. وقال السدي: تساقط لحم أيوب، حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه، وتأتيه بالرماد يكون فيه. وقيل: إن الناس كانت لا تستطيع أن تدنو من أيوب لتتن ريمه. (٢)

والحقيقة أن هذه الأقوال بعيدة عن الصواب؛ لأن الأنبياء عليهم السلام مع أنهم أشد الناس بلاء معصومون من الأمراض والعيوب المنفرة. كما أن هذه القوال التي أوردها أصحابها ليس لها حظ من الإسناد الصحيح. وغاية ما يمكن أن يقال في مرض نبي الله أيوب عليه السلام: أن الله تعالى ابتلاه في جسده ابتلاء كبيراً، بعد أن ابتلاه في ماله وأولاده، وأن هذه المحنة طالت عليه حتى جعلته يلجأ إلى الله تعالى في كشف ما نزل به من ضر.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٦١.

(٢) يراجع تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٩.

الإسرائيليات في مدة هذه المحنة:

اجتهد المفسرون كذلك في تحديد قدر الزمن الذي مرضه أيوب.

قال الإمام ابن كثير: مكث أيوب في البلاء ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة. (١)

وقال الإمام النسفي: سبع سنين وأشهرًا، أو ثلاث سنين (٢).

الإسرائيليات في تفاصيل المحنة:

كما جاء في تفاصيل المحنة أخبار كثيرة مستمدة من الإسرائيليات نورد بعضها فيما يلي:

قالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من ذلك. فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بها تصيب فتطعمه.

وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين، كانا صديقين له وأخوين فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه، واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برئ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتم؟ فقالا: نحن فلان وفلان. فرحب بهما وقال: مرحبا بمن لا يجفوني عند البلاء. فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئًا وتظهر غيره فلذلك ابتلاك الله؟.

فرفع رأسه إلى السماء فقال: هو يعلم، ما أسررت شيئًا أظهرت غيره، ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع. فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه برأت. قال: فغضب وقال: جاءكما الخبيث فأمركما بهذا. كلامكما وطعامكما وشرابكما علي حرام. فقاما من عنده.

(١) المرجع السابق نفس الموضوع.

(٢) (٣) تفسير النسفي ٣/ ٨٩.

وخرجت امرأته تعمل للناس، فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصًا، وكان ابنهم نائمًا فكهروا أن يوقظوه، فوهبوه لها، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي عليه، فانطلقني به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء. فلما سعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي عليه لا يقبل من أهله شيئًا غيره، فقالت: رحمه الله يعني أيوب، فدفعت إليه القرص ورجعت.^(١)

ثم إن إبليس أتاه في صورة طيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابًا فليذبحه باسم صنم بني فلان، فإنه يبرأ، ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب فقال: قد أتاك الخبيث يعني الشيطان لله عليّ إن برأت أن أجلك مائة جلدة.

فخرجت تسعى عليه، فحُظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع، حلقت من شعرها قرنًا فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعامًا طيبًا كثيرًا، فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعموني، فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد، فحلقت أيضًا قرنًا فباعته من تلك الجارية، فأعطوها أيضًا من ذلك الطعام، فأتت به أيوب. فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو، فحسرت عن خمارها، فلما رأى رأسها مخلوقًا جزع جزعًا شديدًا، فعند ذلك دعا الله عز وجل فقال: ﴿أَيُّ مَسْفِيٍّ أَضُرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفي رواية أخرى ساقها ابن كثير أيضا قال: كان لأيوب عليه السلام أخوان، فجاء يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا. فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع مثله من شيء قط. فقال: اللهم

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ١٩٠.

إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبهان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميص قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك، ثم خر ساجدًا فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه. (١)

وهذه الروايات السابقة لا تعدو إلا أن تكون مجرد تصورات وأقاويل، معظمها مستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام، وليس وراءها أثر مستيقن. والواجب إزاء هذه الأمور أن نقف عند حدود النصوص القرآنية ولا نتعدها، اللهم إلا إذا كان هناك نص نبوي صحيح. أما غير ذلك فهو في الحقيقة ضرب في التيه، بدون نتيجة تذكر، أو فائدة ترجى.

من هداية الآيات:

- * تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإلهي.
- * قد يتلى الله تعالى من محبه من عباده ليزيد في علو مقامه ورفعة شأنه.
- * فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
- * وجوب الكفارة على من حنث في يمينه. (٢)

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ١٩٠.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٠١.

قصة إبراهيم وذريته:

إسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل عليهم السلام

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِيَّاهُمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكُفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَثَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأُبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَرْمِ الرَّابِ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُم مِّن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

واذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأس بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين. قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة. إِنَّا خصصناهم بخصلة خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية. (١)

قال مجاهد: جعلناهم يعملون للأخرة، ليس لهم همٌّ غيرها، وهم عندنا المختارون المجتوبون على سائر الناس، لأنهم أخيار أبرار. واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضاً: إسماعيل واليسع وكلٌّ من خيرة الله. (٢)

فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله. هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكراً جميلاً لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبداً. وإن لكل متقٍ لله، مطيع لرسوله، لحسن مرجع ومنقلب، ثم فسره بقوله: جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم.

قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وحيوهم

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ١٠٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٦.

بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال، وأجل هيئة متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة وهم متكئون على الأسرة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا. (١) قال ابن كثير: أي مهمها طلبوا وجدوا، ومن أي أنواع النعيم شاءوا أتتهم به الخدام. (٢)

قال الصاوي: والاقْتِصَارُ على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذية لأنه لا جوع في الجنة. (٣)

وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن. أتراب أي في سنٍّ واحدة. ويقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا. وهذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبداً.

يقول صاحب الظلال: يبدأ هذا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء وفي السَّمات والهيئات: منظر المتقين لهم ﴿لِحُسْنِ مَتَابٍ﴾ ومنظر الطاغين لهم ﴿لِشَرِّ مَتَابٍ﴾ فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب ولهم كذلك متعة الحوريات الشابات، وهنَّ مع شبابهنَّ ﴿قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ﴾ لا يتلعلن ولا يمددن بأبصارهن، وكلهن أتراب. وهو متاع دائم، ورزق من عند الله ما له من نفاذ. (٤)

من هداية الآيات:

* فضيلة القوة في العبادة والبصيرة في الدين، وفي الحديث: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير...». (٥)

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٢١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٧.

(٣) حاشية الصاوي ٣ / ٣٦١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٥.

(٥) رواه الإمام مسلم ٤ / ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

- * فضل ذكر الدار الآخرة وتذكرها دائماً، لأنها تساعد على الطاعة.
- * فضل التقوى وأهلها، وبيان ما أعد للمتقين يوم الحساب.
- * نعيم الآخرة لا ينفد، وأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
- * فضيلة الائتساء بالصالحين والاقتران بهم في الخير فهم أولوا القوة في العبادة والبصيرة في الدين. (١)

عقاب الطاغين الأشقياء

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَيَسَّ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَدِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بِهِمْ إِنَّمَا صَلَّوْا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا الذي سبق وصفه للمتقين. وأما المتجاوزون الحد في الكفر والمعاصي، فلهم شر مرجع ومصير، وهو النار يُعذبون فيها، تغمرهم من جميع جوانبهم، فبئس الفراش فراشهم. (٢)

هذا هو العذاب الأليم، فليذوقوه حميم، وهو الماء الحار المحرق، وغساق وهو ما يسيل من صديد أهل النار. قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي هذا حميم وغساق فليذوقوه. (٣)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٥ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٢٠٢٠.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ١١٣.

وليس عذابهم مقصوراً على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب، تشبه في شكلها وفي فظاعتها وفي شدتها الحميم والغساق، كالزمهري، والسموم، وأكل الزقوم.. لهم من كل ذلك وغيره أنواع وأصناف..

ثم حكى سبحانه ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار، فقال: تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتيكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحباً بهم إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم.

قال الرازي: والاقترامُ ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يحتفون به: مرحباً، أي أتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء. (١)

قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلّوهم: بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحباً، قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم: لا مرحباً بكم أي لا تلقون هنا رحباً ولا خيراً - وهذه تحية أهل النار - كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

فعند ذلك يقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ وهذا على قول القائل: «تحية بينهم ضربٌ وجيع»، فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحيات والسلام ثم يعلل الأتباع ذلك بقولهم: أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

قال فوج الأتباع: ربنا من أضلنا في الدنيا عن الهدى فضاغف عذابه في النار. (٢) وهذا

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٢٢.

(٢) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٢٠٦.

كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. والضعف زيادة المثل. وشيبه هذه الآية أيضا قوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين.

قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً؟ وهذا ضربٌ مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم، ثم قالوا يؤنبون أنفسهم قائلين: أ جعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟^(١)

إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتحاصمهم، هو الحق الذي لا بد أن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن تحاصمهم في جهنم، وعن أقوالهم وهم فيها.

وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تحاصماً لأن قول الرؤساء: ﴿لَا مَرَجًا لَّهُمْ﴾ وقول الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرَجًا لَّكُمْ﴾ من باب الخصومة.^(٢)

من هداية الآيات:

- * ذم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الظلم والكفر وبيان جزاء أهله يوم القيامة.
- * بيان ما يجري من خصام بين أهل النار للعتة والاعتبار.
- * محاصمة الأتباع من اتبعوهم في الضلال ومطالبتهم بمضاعفة العذاب لهم.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٦ / ٢٢٣.

* تذكر أهل النار فقراء المسلمين الذين كانوا يعدونهم متخلفين ورجعيين لأنهم كانوا لا يأتون الفجور والشرور مثلهم. (١)

بيان مهمة الرسول ﷺ، وإثبات الوجدانية

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوجدانية، والمعاد والجزاء، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسول من رب العالمين، أندركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن، وليس لكم رب ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء، خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام، الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد.

قال الرازي: لما ذكر أنه سبحانه (قهار) وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار»؛ فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان، وكونه عزيزاً مشعر بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب، وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له - برحمته - جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار. (٢)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٧ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦٦ / ٢٢٤.

قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ جليل، وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون، لا تلتفتون إليه، ولا تعلمون قدره.

من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليّ؟ قال ابن جزي: والقصد الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ، لأنه أخبر بأمر لم يكن يعلمها قبل ذلك والإشارة إلى اختصاص الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. حسباً تضمنته قصته في مواضع من القرآن الكريم.

ما يوحى إليّ إلا لأنني رسولٌ مرسلٌ إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير المنذر المخوف من عذاب الله.

من هداية الآيات:

- * تقرير التوحيد بأدلته.
- * تقرير النبوة والوحي بشواهد من نبأ الملائكة الأعلى. (١)
- * تقرير عظمة القرآن الكريم وجلاله مع غفلة الناس عنه.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٩.

قصة خلق آدم ﷺ وإكرام الله له

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ اِنِّيْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ﴿٧١﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِيْ فَقَعُوْا لَهٗۙ سٰجِدِيْنَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجْمَعُوْنَ ﴿٧٣﴾ اِلَّا اِبٰلِيْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يٰٓاِبٰلِيْسَ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَيَّ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِيْنَ ﴿٧٥﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِنْ طِيْنٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ﴿٧٧﴾ وَاِنَّ عَلٰیكَ لَعْنَتِيْ اِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِيْ اِلَى يَوْمِ يُعْتَبٰرُوْنَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ ﴿٨٠﴾ اِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا اَعُوْبُهُمْ اٰجْمَعِيْنَ ﴿٨٢﴾ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِيْنَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلٰٓئِكَةَ جِهَنَّمَ مِيْنَكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ اٰجْمَعِيْنَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُسْكَلِفِيْنَ ﴿٨٦﴾ اِنْ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَاَهُۥۙ بَعْدَ حِيْنٍ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

شرع تعالى في ذكر قصة آدم ﷺ فقال: اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم. ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين، وبين وصفه في آيات أخرى بأنه خلق من تراب، أو من صلصال من حمأ مسنون، فإن المادة التي خلق منها آدم وإن كانت واحدة، إلا أنها مرت بمراحل متعددة، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة. فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكراماً له وإعظاماً، وهذا سجود تحية لا سجود عبادة^(١).

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته، للإشعار بأن هذه الروح لا يملكها إلا هو تعالى، وأن مردكنها وكيفية هذا النفخ، مما استأثر - سبحانه - به، ولا سبيل لأحد إلى معرفته. فسجد جميع الملائكة خضوعاً وتعظيماً لأمر الله بالسجود له، لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين.

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٢٧.

قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن، فخانته طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه. (١)

قال له ربه: ما الذي صرفك وصدك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أب وأم؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب - سبحانه - الناس بما يعرفونه.

استكبرت الآن عن السجود أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له، لاستنكافه عن السجود. قال اللعين: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل، لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خير من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟

وقد علل اللعين فعله بأنه مخلوق من النار وهي في ظنه أفضل من الطين. « ولا شك أن هذا التعليل من إبليس في نهاية سوء الأدب، لأنه بعدم سجوده قد عصي رب العالمين، وفضلاً عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضي صحة المدعى، لأن النار ليست خيراً من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل، إذ النار يطفئها الطين. » (٢).

فصدر إليه الأمر الإلهي: اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خير وكرامة وأنت مبعث عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة.

قال اللعين: رب أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور. قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٩.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٣٨.

إنك من المهملين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك. (١)
قال اللعين: أقسم بعزتك لأضلنّ بني آدم أجمعين، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك
وعصمتهم مني.

قال تعالى: أقسم بالحقّ ولا أقول إلا الحقّ، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك، وهذا قسم
أقسم الله به، وجملة « والحقّ أقول » اعتراضية لتأكيد القسم. (٢)

ثم تختتم السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول، ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع
الرسل الكرام.

قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون
حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن. ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء،
ولتعلمنّ خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيدٌ وتهديد.

إنها الدعوة الخالصة للنجاة، بعد كشف المصير وإعلان النذير، الدعوة الخالصة التي لا
يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا
يأمر إلا بما يوحى منطق الفطرة القريب. وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون.

وإنه للنبا العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم، وليعلمن نبأه بعد حين. نبأه في الأرض -
وقد علموه بعد سنوات من هذا القول - ونبأه في اليوم المعلوم، عندما يحق وعد الله اليقين. (٣)

من هداية الآيات:

* تقرير عداوة إبليس الشديدة لآدم عليه السلام وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر
الصفات.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٦٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٢٩.

- * ذم الكبر والحسد وحرمتها.
- * بيان أن من كتب الله سعادتهم لا يقوى الشيطان على إغوائهم وإضلالهم.
- * لا يجوز أخذ الأجرة على بيان الحق والدين.
- * ذم التكلف المفضي إلى الكذب والتقول على الله وعلى الرسول والمؤمنين.^(١)
- * أنباء القرآن تظهر كل حين، يصدقها الواقع، ويراها البر والفاجر.
- وأخيرا.. فهذه سورة ص، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أي وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أي حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يجرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة ص

- * احتوت سورة ص على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:
- * تسلية الرسول ﷺ، وتقوية قلبه، وتثبيت فؤاده، وحمله على الصبر بعرض مثل هذا القصص الوارد في سورة ص.
- * بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه. وذلك في كل عصر ومع كل رسول أو مصلح.
- * منة الله تعالى على نبيه داود بالصوت البديع، وتسخير الجبال والطير تسبيحه بتسبيحه مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.
- * حرمة إصدار القاضي الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً.
- * وجوب المسارعة بالتوبة عند الوقوع في الذنب صغيراً كان أو كبيراً.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤١١.

- * وجوب الحكم بالعدل، ولا عدل في غير الشرع الإلهي.
- * حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار.
- * تنزيه الله تعالى عن العبث والظلم.
- * تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإلهي
- * قد يتلى الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علو مقامه ورفعة شأنه.
- * فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
- * نعيم الآخرة لا ينفد، وأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
- * تقرير عداوة إبليس الشديدة لآدم وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر الصفات.
- * تقرير قدر القرآن الكريم وعظمته، مع غفلة العباد عنه.

سورة الزمر

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية :

سُميت سورة الزمر بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

ب - فضل السورة :

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواه الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِثْنَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِثْنَيْنِ، وَفُضِّلَتْ بِالْمُفْضَلِ) ^(١).

ج - مكية السورة :

سورة الزمر مكية، ماعدا الآيات « ٥٢، ٥٣، ٥٤ » فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف التاسعة والثلاثون (٣٩). نزلت بعد سورة سبأ. من الجزء: « ٢٤ ». الحزب: « ٤٦، ٤٧ ».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٧٥. ^(٢)

محور السورة: سورة الزمر مكية وقد تحدثت عن « عقيدة التوحيد » بالإسهاب حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيس للسورة الكريمة، لأنها رأس الإيمان، وأساس العقيدة السليمة وأصل كل عمل صالح.

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١ / ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. ١٨٦ / .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَّةِ الْأَخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ ﴾ (٧)

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣) لَوَازِدَ اللَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤).

* في السورتين حديث عن جزاء المتقين في سورة (ص) قوله تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِن لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَتَابٍ ﴾ (٤١) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴾ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَمِهِمْ كَثِيرًا وَسَرَابٍ ﴾ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ أَنْبَارٌ ﴾ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٥٣) إِنْ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (٥٤).

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٧٤).

* في السورتين حديث عن مصير المجرمين: ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿ هَذَا وَابٍ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسْرُ الْمُهَادُ ﴾ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴾ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا بِيَوْمِ إِتْمَمَ صَلَاةِ النَّارِ ﴾ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَثَمُوهُ لَنَا فَيَسْرُ الْقَرَارُ ﴾ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ (٦١).

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَلَّوْهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٧١) قِيلَ

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴿١﴾

وفي المناسبة بين السورتين يقول السيوطي - رحمه الله - : ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم، وذكر في صدر الزمر قصة خلق زوجته، وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق، ثم ذكر أنهم ميتون، ثم ذكر وفاة النوم والموت، ثم ذكر القيامة، والحساب، والجزاء، والنار، والجنة وقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فذكر أحوال الخلق، من المبدأ إلى المعاد، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها. ^(١)

القرآن تنزيل الله والعبادة لا تكون لسواه

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الكريم «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ﷺ، والتأكيد على أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من الله جل شأنه، الغالب على كل شيء، الحكيم في كل تصرفاته وأفعاله.

وليس هذا القرآن قولاً مفترى، كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم، واستحبوا العمى على الهدى.

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١٦ / ١.

وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلاً ملتبساً بالحق الذي لا يحوم حوله باطل أو ما يشبه الباطل، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه. ^(١) فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك.

ألا الله - وحده - الدين البريء من كل شائبة. والمشركون الذين اتخذوا من دونه نصراء يقولون: ما نعبد هؤلاء لأنهم خالقون، إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله - تقريباً - بشفاعتهم لنا عنده. إن الله يحكم بين هؤلاء المشركين وبين المؤمنين الموحدون فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الشرك والتوحيد. ^(٢)

وهو جل شأنه لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه، مبالغاً في كفره. وفي الآية إشارة إلى كذبهم وافتراءهم في دعوى اتخاذهم الأولياء تقرباً بها إلى الله.

لو شاء الله اتخاذ ولد - على سبيل الفرض والتقدير - لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولدًا على سبيل التبني - إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف - ولكنه لم يشأ ذلك لقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

يقول صاحب الظلال: وهذا فرض جدلي لتصحيح التصور. فالله لو أراد أن يتخذ ولدًا لاختار ما يشاء من بين خلقه؛ فأرادته مطلقة غير مقيدة. ولكنه - سبحانه - نزه نفسه عن اتخاذ الولد. فليس لأحد أن ينسب إليه ولدًا، وهذه إرادته، وهذه مشيئته، وهذا تقديره، وهذا تنزيهه لذاته عن الولد والشريك. ^(٣)

قال في التسهيل: نزه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولدٌ لكان من جنسه، ولا جنس له لأنه واحد. ووصف نفسه

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي / ١ / ٣٦٤٠ بتصرف.

(٢) المنتخب / ٢ / ٣٠٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٣٠٣٧.

بالتقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكاً له. (١)

من هداية الآيات:

- * تقرير النبوة المحمدية.
- * تقرير التوحيد.
- * بطلان الشرك والتنديد بالمشركين.
- * تقرير البعث والجزاء يوم القيامة. (٢)

من آيات الله في الآفاق والأنفس

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَقِيرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأُنزِلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ نَمِينَةً أَرْوَجُ بِخَلْقِكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما أثبت سبحانه هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد، وأثبتت له الكمال

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٣/ ١٩١.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٢.

المطلق، دل عليها بقوله: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾^(١).

التفسير الإجمالي

تسوق هذه الآيات الكريمة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السماوات والأرض، وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

فالله تعالى خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع، يُغشي الليل على النهار، ويُغشي النهار على الليل، وكأنه يلفُّ عليه، لَفَّ اللباس على اللباس.

وتكويرُ الليل على النهار تغشيتُهُ إياه حتى يُذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤].^(٢)

وسخر سبحانه الشمس والقمر، أي ذلّلها لمصالح العباد، كلُّ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة، حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم. إنه جل شأنه كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان.

وقد صُدّرت الجملة الشريفة: ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفْوَ ﴾ بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإنني أنا الغالب على أمري، الستار لذنوب خلقي، فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحداً.^(٣)

ومن تلك اللفتة إلى آفاق الكون الكبير، ينتقل إلى لمسة في أنفس العباد؛ ويشير إلى آية

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٢٢٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٣٥.

(٣) حاشية الصاوي ٣ / ٣٦٦.

الحياة القريبة منهم في أنفسهم، وفي الأنعام المسخرة لهم.^(١)

فالله تعالى خلقكم أيها الناس من نفس واحدة، هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية، ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل.

وأوجد لكم سبحانه من الأنعام المأكولة - وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز - ثمانية أزواج، من كل نوع ذكراً وأنثى. قال المفسرون: والإِنزَالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه.^(٢) يخلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً، أي: نطفاً ثم علقاً ثم مُصغراً ثم عظماً ثم لحماً، ثم أنبت الشعر، إلى غير ذلك من تقلب الأحوال إلى إخراج الأطفال.^(٣)

ذلكم الخالق المبدع المصور هو الله رب العالمين، ربكم ورب آبائكم الأولين، له الملك والتصرف التام في الإيجاد والإعدام. لا معبود بحق إلا الله، ولا رب لكم سواه، فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

ثم بعد أن ذكرهم بآياته ونعمه، حذرهم من الكفر والجحود لفضله وإحسانه فقال: إن تكفروا أيها الناس بعد ما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغن عنكم، وعن إيمانكم وشرككم وعبادتكم، ولا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر.

وقد أشار سبحانه إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر، بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه. وإن كان واقعاً بمشيئته وقضائه. وإن تشكروا ربكم يرضى هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم. لا لانتفاعه بطاعتكم.^(٤)

ولا تحمل نفسٌ ذنب أخرى، بل كلُّ يؤخذ بذنبه، ثم مرجعكم ومصيركم إليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٠.

(٣) زاد المسير، لابن الجوزي ٥ / ٢٥٤.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٤٦.

تعالى، فيحاسبكم ويميزكم على كسبكم وسعيكم. وهو سبحانه يعلم ما تكنه السرائر، وتخفيه الضمائر. وفيه تهديدٌ للجاحدين، وبشارةٌ للمطيعين.

من هداية الآيات:

- * بيان آيات الله تعالى في الكون، وإيرادها أدلة على التوحيد.
- * بيان إفضال الله سبحانه على العباد في خلقهم ورزقهم.
- * بيان أن الكفر أعجب من الإيمان؛ إذ أدلة الإيمان لا تعد كثرة، وأما الكفر فلا دليل عليه البتة، ومع هذا أكثر الناس كافرون.
- * بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
- * بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
- * بيان إحاطة علم الله بالخلق وأحوالهم ظاهراً وباطناً. (١)

مقارنة بين المؤمن والكافر

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَإِنَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ءَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة الكافر والشاكر، أتبعه هنا بتفصيل بعض أحوالهما والمقارنة بينهما.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٤ بتصرف يسير.

التفسير الإجمالي

يخبر تعالى هنا أن طبيعة الإنسان - الذي لم يهذب الإيمان - الكفران لنعم الله؛ فإنه في حال الضر شديد التضرع لله، مع الإنابة إليه، فإذا ذهب الضر وانتهت الشدة وجاء الرخاء أعرض عن ربه، ونسي حاله الأول، وأضاف إلى هذا الجحود الكفران لربه ولي نعمته وكاشف ضره.

وهذه الحالة صورتها آيات عديدة في كتاب الله تعالى نذكر منها ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٩-١٠].

* قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْفُرُ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥١].

* قوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا وَإِن نُّصِيبَهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

فالإنسان الكافر إذا أصابته شدة من فقر ومرض وبلاء تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة مقبلاً إليه مخبثاً مطيعاً، ثم إذا أعطاه نعمة منه وفرَّج عنه كربته نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه، وطغى، وجعل لله شركاء في العبادة، ليصد عن دين الله وطاعته.

فيا أيها الجاحد الكافر تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذذ فيها وأنت على كفرك، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها.

يقول صاحب الظلال - رحمه الله -: «إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر

ويسقط عنها الركام؛ وتزول عنها الحجب، وتتكشف عنها الأوهام؛ ففتحها إلى ربها، وتنب إلى وحده؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره. وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء. فأما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء، ويخوله الله نعمة منه، ويرفع عنه البلاء، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه. وتطلعه إليه في المحنة وحده، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محتته.. ينسى هذا كله ويذهب يجعل الله أنداداً. ^(١)

أهذا الكافر المتمتع بكفره خير، أم من هو عابد لربه طائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمل رحمة ربه؟ قل - أيها الرسول - هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئاً من ذلك؟ لا يستون. إنما يتذكر ويعرف الفرق أصحاب العقول السليمة. ^(٢)

قال الإمام الرازي: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؟

وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية. وفي الكلام حذف تقديره: أمّن هو قانتٌ كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر. ثم مثل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم. ^(٣)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤١.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٣٤.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٥٠.

من هداية الآيات:

- * تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.
- * وعيد الضالين عن سبيل الله المضلين عنه بالنار.
- * تقرير أفضلية المؤمن المطيع على الجاحد العاصي.
- * فضل العالم على الجاهل لعمله، ولولا العمل بالعلم لاستويا في الحسنة والانحطاط. (١)

إرشاد للمؤمنين ووعيد لعبدة الأصنام

﴿ قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ
 إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا
 شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾
 لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا
 الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ
 فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا
 يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِيْعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله. وأضافهم سبحانه إلى نفسه
 ﴿يَعْبَادِ﴾ تشریفاً لهم بالإضافة إليه بالضمير الدال على اللطف وشدة الخصوصية، وإعلاماً

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٥ بتصرف يسير.

لهم بأنه حاضر لا يغيب عنهم بوجه. (١)

لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وهي الجنة، دار الأبرار. وأرض الله فسيحة، فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرض لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله. إنها يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن. قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنها يغرف غرفاً. (٢)

قل يا محمد أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق، فهو كالترغيب للغير. وأمرت أيضاً أن أكون أول المسلمين من هذه الأمة.

قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأسلم وجهه لله، وآمن به ودعا إليه. (٣)

وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم. قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم. (٤)

قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصي أمره، والثالث إخبار بامثاله الأمر مع إفادة الحصر، كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه. (٥)

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٢٣٧/٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢١٥ / ٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٢ / ١٥.

(٤) حاشية الصاوي ٣٦٨ / ٣.

(٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٧٣ / ٣.

وهذا الإعلان من النبي ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده، ويخلص له الدين وحده؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه.. هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. فالنبي ﷺ في هذا المقام هو عبد الله. هذا مقامه لا يتعداه. وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد، وهذا هو المراد. (١)

فيا أيها الجاحدون اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام، فسوف ترون عاقبة كفركم. وهذه صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد.

وإن الخاسرين حقاً هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران.

قال ابن عباس: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخداماً في الجنة، فإن أطاع الله أعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرِم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله. (٢) ألا فانتبهوا أيها القوم، فإن ذلك هو الخسران الواضح الذي ليس بعده خسران!

ثم لما ذكر خسراتهم في الدنيا، ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال: تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم. ومعنى الظلل أطباق من نار جهنم وتسميتها ظلالاً تهكم بهم، لأنها محرقة، والظلة تقي من الحر.

ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم. يا أوليائي خافوا عذابي، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. (٣)

ولما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤٤.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٥٦.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٤.

والعصيان، ليكون الوعد مقروناً بالوعد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب.
والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد ورجعوا
إلى طاعة الله وعبادته، لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم. (١)
قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان، والمراد به الشيطان، وُصف به
للمبالغة. (٢)

فبشر عبادي المتقين، الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه.
وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها: أن المراد بالقول الذي يتبعون أحسنه.
ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة.
والمراد بالأحسن الواجب والأفضل، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن.

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ
تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وكما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا
عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَإِنَّ صَبْرَكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فيكون المعنى: الذين
يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسناً فيأخذون بما هو أشد حسناً. (٣)

ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة، فهم
يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة، فيتبعون الطيب منها، وينبذون غيره.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ إنما
أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة.. وأراد أن يكونوا نقادا في الدين
مميزين بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب ومندوب

(١) المرجع السابق، نفس الموضوع.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤ / ٣٠٥.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٧.

اختاروا الواجب... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثواباً عند الله. (١)

وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء.

وعن ابن عباس: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه.

ويبدو أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنها - هو أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة. (٢)

وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصروه وعملوا بما فيه. وأحسنُ الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

وإنما وضع الظاهر ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ بدل الضمير ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تشريفاً لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه. أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه. وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة. (٣)

أفمن وجبت عليه كلمة العذاب؛ باستمراره على غيئه وعناده، فإنه لا حيلة لك - أيها الرسول - في هدايته، أفقتدر أن تنقذ من في النار؟ لست بقادر على ذلك.

لكن الذين اتقوا ربهم - بطاعته وإخلاص عبادته - لهم في الجنة غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري من تحت أشجارها الأنهار، وعدها الله عباده المتقين وعداً متحققاً، لا يخلف الله الميعاد. (٤)

(١) الكشاف ٤ / ٩٣.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٧.

(٣) صفة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٥.

(٤) التفسير الميسر ٨ / ٢٤١ وما بعدها.

من هداية الآيات:

- * بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم.
- * وجوب التقوى والصبر على الأذى في ذلك.
- * تقرير التوحيد بأن يعبد الله وحده.
- * فضل الإسلام وشرف المسلمين.
- * تقرير البعث والجزاء وبيان شيء من أهوال الآخرة وعذاب النار فيها.
- * كل خسران في الدنيا إذا قيس بخسران الآخرة لا يعد خسراناً أبداً.
- * فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه.
- * إعلام من الله تعالى أن من وجبت له النار أزلاً لا تمكن هدايته مهما بذل الداعي في هدايته وإصلاحه ما بذل.
- * بيان ما أعد الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى من نعيم الجنة وكرامة الله لأهلها. (١)

من دلائل وحدانية الله وقدرته

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما وصف الله تعالى الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤١٧ - ٤١٩.

الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها. (١)

التفسير الإجمالي

ألم تر أيها الإنسان العاقل أن الله بقدرته أنزل المطر من السحاب أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها. قال المفسرون: وهذا دليل على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً،

قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره. (٢)

ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك. (٣) أي في الأصناف والكيفيات والطبائع والطعوم وغير ذلك مع اتحاد الماء الذي جمعه من أعماق الأرض بعد أن تفتت فيها وصار تراباً. (٤)

ثم يبس هذا الزرع فقراه بعد خضرته مصفراً، ثم يصبح فتاتاً وهشياً متكسراً. إنَّ فيما ذكر لعظة وعبرة، ودلالة على قدرة الله ووحدانته لذوي العقول المستنيرة.

والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بدَّ من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرتة، ثم تكون عاقبته الموت.

والمقصود من هذه الآية الكريمة، التحذير من الانهالك في الحياة الدنيا ومتعتها، حيث

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٤٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٦.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٢٤٣.

شبهها - سبحانه - في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذي يبدو مخضراً وناضراً... ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال. (١)

وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥ ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله جل شأنه: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَسْحَقُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ عَرُورٌ ۝٢٠ ﴾ [الحديد: ٢٠].

قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير. (٢)

من هداية الآيات:

- * أهمية ضرب الأمثال للعتظة والتذكير.
- * دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته شاخصة وناطقة في خلقه وكونه.
- * لا ينتفع بآيات الله الكونية أو المتلوة إلا أصحاب العقول الرشيدة، والفطر المستقيمة.

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.

حال المؤمنين مع القرآن، ولمحة من عذاب الكافرين في النيران

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَشَهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهَهُ سُوَّةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه - فيما تقدم - بعض دلائل وحدانيته وقدرته الموصلة إلى الإيمان به، بين هنا أنه لا ينتفع بهذه الآيات الكونية إلا من شرح الله صدره ويسر له أمر الهدى.

سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: نزل على النبي ﷺ القرآن، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا؟ فنزل: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا ﴾. (١)

التفسير الإجمالي

أفمن وسَّعَ اللهُ صدره، فسعد بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على بصيرة من أمره وهدى من ربه، كمن ليس كذلك؟ لا يستونون. فويل وهلاك للذين فَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وأعرضت عن ذكر الله، أولئك في ضلال بين عن الحق. (٢)

قال الطبري - رحمه الله -: وترك الجواب اجترأ بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره:

(١) المستدرک ٢ / ٣٧٦ رقم ٣٣١٩ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أبو

يعلى في مسنده ٢ / ٨٧. والحديث وصححه الذهبي.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٤٤.

كمن ألقى الله قلبه وأخلاه من ذكره، حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى؟^(١)
فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله
تذكرة لعباده. أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر.

ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء
فقال: ﴿زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾، وهو القرآن العظيم، متشابهاً في حسنه وإحكامه وعدم
اختلافه، تشبى فيه القصص والأحكام، والحجج والبيانات.

تتشعر من سماعه، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثراً بما فيه من ترهيب ووعيد،
ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشاراً بما فيه من وعد وترغيب، ذلك التأثير بالقرآن هداية من
الله لعباده.

والله يهدي بالقرآن من يشاء من عباده. ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن؛ لكفره
وعناده، فما له من هاد يهديه ويوفقه.^(٢)

قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرؤوا آيات الوعد والوعيد
والتخويف والتهديد، تشعر جلودهم من الخشية والخوف. وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت
جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويأملون من رحمته ولطفه.^(٣)

قال الجمل: «فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت القلوب بها ثانياً؟
قلت: ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب، فكأنه قيل: تشعر
جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر، فإذا ذكروا الله تعالى وذكروا رحمته وسعته، استبدلوا

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ١٣٤.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٤٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.

بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة لينا في جلودهم»^(١).

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء في رحمته ومغفرته، إذ إن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح.^(٢)

ذلك القرآن الذي تلك صفته هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه. ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشدٌ ولا هاد بعد الله.^(٣)

أفمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمنٌ من العذاب؟

قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

وتقول خزنة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي.

كذب من قبلهم من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهة لا تخطر ببالهم. فأذاقهم الله الذل والصغار والهوان في الدنيا. ولعذاب الآخرة الذي أعد لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذبوا.^(٤)

(١) الفتوحات الإلهية ٣ / ٥٦٧.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٥٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٧.

(٤) المرجع السابق، ٣ / ٧٨.

من هداية الآيات:

- * بيان أن القلوب قلبان قلب قابل للهداية وآخر غير قابل لها.
- * بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
- * فضيلة أهل الخشية من الله إذ هم الذين يفعلون لسماح القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.
- * تقرير البعث والجزاء بذكر شيء من أحوال يوم القيامة.
- * العذاب على التكذيب والمعاصي منه الدنيوي، ومنه الآخروي.
- * لو علم الناس عذاب الآخرة علماً يقينا ما كذبوا ولا كفروا ولا ظلموا، فالجهل سبب الهلاك والشقاء دائماً. (١)

ضرب الأمثال للتذكير، وعربية القرآن

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ولقد ضربنا لهؤلاء المشركين بالله في هذا القرآن من كل مثل من أمثال القرون الخالية تخويفاً وتحذيراً؛ ليتذكروا فينزعجوا عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله. وجعلنا هذا القرآن عربياً واضح الألفاظ سهل المعاني، لا لبس فيه ولا انحراف؛ لعلهم يتقون الله بامثال أوامره

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٢١ وما بعدها.

واجتناب نواهيه. (١)

ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله، ولمن يوحد فقال: ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجلٌ من المماليك اشترك فيه ملاكٌ سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجادبون في حوائجهم، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحيرٌ موزع القلب، لا يدري مَنْ يرضي؟ ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقي من سيده إلا إحساناً. هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى.

قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد. (٢)

ويقول صاحب الظلال رحمه الله:

« يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزع؛ ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح.

هل يستويان مثلاً؟ إنها لا يستويان. فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين. وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي

(١) التفسير الميسر ٨ / ٢٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٧٧.

الجميع ! وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. « (١)

ولما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم الآية بالحمد. والمعنى: الحمد لله على إقامة الحججة عليهم. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله.

إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يتخلد أحد في هذه الدار ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين. (٢)

من هداية الآيات:

- * مشروعية ضرب الأمثال للمبالغة في الإفهام والهداية.
- * بيان مثل المشرك والموحد، فالمشرك في حيرة وتعب، والموحد في راحة وهدوء بال.
- * تقرير أن كل نفس ذائقة الموت.
- * بيان أن خصومة ستكون يوم القيامة ويقضي الله تعالى فيها بالحق لأنه هو الحق. (٣)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٨ وما بعدها.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٣.

وعيد للمشركين ووعد للمؤمنين

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۗ ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴿

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين. (١)

التفسير الإجمالي

يؤكد الله تعالى في هذه الآيات الشريفة على أنه لا أحد أظلم من كذب على الله بنسبة الشريك له والولد، وكذب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم.

أليس في جهنم مقام وماوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقريرى أي بلى لهم ماوى ومكان.

والذي جاء بالصدق في قوله وعمله من الأنبياء وأتباعهم، وصدق به إيماناً وعملاً، أولئك هم الذين جمعوا خصال التقوى، وفي مقدمة هؤلاء خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ والمؤمنون به، العاملون بشريعته من الصحابة، رضي الله عنهم، فمن بعدهم إلى يوم الدين. (٢)

لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور، والقصور، والملاذ، والنعيم ذلك الذي ينالونه هو

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٩.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٥.

ثواب كل محسن، أحسن في هذه الحياة.

قال بعض المفسرين: «الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدق به» هو أبو بكر ﷺ والاختيار أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ويدل عليه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع. (١)

هؤلاء الذين صدقوا الأنبياء عليهم السلام سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة، فلا يعاقبهم بها، ويثيبهم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه، فضلاً منه وكرماً. قال المفسرون: العدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات، ثم يكون الجزاء. والفضل هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان.

أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداً ﷺ من شر من يريد به سوء؟

قال أبو السعود: هذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفن عن شتم آلهتنا، أو ليصينك منها خبل أو جنون. (٢)

وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سب آلهتنا وتعييننا لنسلطنها عليه فتصيبه بخبل وتعتره بسوء، فأنزل الله هذه الآية، وإضافته إليه تشريف عظيم لنبه ﷺ. (٣) ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع. ومن أشقاه الله وأضله فلن يهديه أحد كائناً من كان.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١٠.

(٣) البحر المحيط ٧ / ٤٢٩.

ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووقفه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله. وهو تعالى منيع الجنب لا يُضام من لجأ إلى بابه. وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأولياته، لأنه غالب لا يُغلب، ذو انتقام من أعدائه. وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعد للمؤمنين.

من هداية الآيات:

- * التنديد بالكذب على الله تعالى والتكذيب به، وبما جاء به رسوله ﷺ من الدين.
- * بيان جزاء الكاذبين على الله والمكذبين بما جاء به رسول الله عن ربه.
- * الترغيب في الصدق في الاعتقادات والأقوال والأعمال.
- * فضل التقوى والإحسان وبيان جزائهما عند الله تعالى يوم القيامة.
- * تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.
- * تقرير مقتضى الولاية، وهو النعمة من أعدائه تعالى لأولياته وإن طال الزمن.^(١)

ضلال المشركين وتهديد الله لهم

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسُوفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ساق الله تعالى فيما سبق البراهين على أنه سبحانه المتصرف في المعاني بتصرفه في القلوب

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٢٤.

باهداية والإضلال، وكان التقدير: فلئن أقررتم بهذا الاستفهام الإنكاري ليقولن: بلى! عطف عليه بيان أن الخالق للذات كما أنه المالك للمعاني والصفات، فقال مفسداً لدينهم باعترافهم بأصلين: القدرة التامة له، والعجز الكامل لمعبوداتهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾^(١).

التفسير الإجمالي

يقيم الله جل شأنه هنا البرهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان. أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمّن خلق السماوات والأرض ليقولنَّ اللهُ خالقهما، لوضوح الدليل على تفردّه تعالى بالخالقية.

قال الرازي: إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم، فإن من تأمل في عجائب أحوال السماوات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله.^(٢)

قل لهم يا محمد تويخاً وتبكيثاً: أخبروني - بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله - عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضّر؟

ولو أراد الله بي نفعاً من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فسيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة^(٣)، الله سبحانه كافيني فلا ألتفت إلى غيره، وعليه وحده يعتمد المعتمدون.

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٥٧ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٥٩.

والغرض الاحتجاجُ على المشركين في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحدانية.

فاعملوا - أيها الجاحدون - على طريقتكم من المكر والكيد والخداع، إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله، وإظهار دينه فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذلل ويخزي الإنسان وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع، وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟^(١)

وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعارٌ بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده وفي خزي أعدائه دليل غلبته ﷺ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر.^(٢)

من هداية الآيات:

- * تقرير التوحيد وإبطال التنديد.
- * مظاهر ربوبية الله الموجبة لألوهيته.
- * وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه.
- * تقرير إنجاز الله وعده لرسوله ﷺ والمؤمنين.^(٣)

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨١.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١٠.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٦.

مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْفَكَ دَمًا فَلَنْفْسِهِ مِمَّنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتُمْ إِذْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَاءَ قُلُوبِ الْأَوْلَادِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشُّفْعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهِدَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما ذكر الله تعالى فيما سبق فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبيانات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد، وكان النبي ﷺ يشق عليه كفر قومه أردفه بكلام يرفع عنه هذا الهم. (١)

التفسير الإجمالي

إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول - القرآن بالحق هداية للعالمين، إلى طريق الرشاد، فمن اهتدى بنوره، وعمل بما فيه، واستقام على منهجه، فنفخ ذلك يعود على نفسه، ومن ضل بعد ما تبين له الهدى، فإنها يعود ضرره على نفسه، ولن يضر الله شيئا، وما أنت - أيها الرسول - عليهم

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٦٧ بتصرف.

بوكيل تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، ما عليك إلا البلاغ. (١)

قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال. (٢)

ثم أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام. فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموت، فلا يردها إلى البدن. ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي. (٣)

قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت، في كونه لا يبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وفي الآية عطف والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها. (٤)

قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه سبحانه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه. (٥)

إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون.

ولكنهم لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم، حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله.

(١) التفسير الميسر ٨ / ٢٥٩.

(٢) حاشية الصاوي ٣ / ٣٧٤.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٢.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ١٩٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٦٠ بتصرف يسير.

قال ابن كثير: هذا ذمٌ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله - وهي الأصنام - والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات. (١)

قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ والاستفهام هنا توبيخي.

قل لهم: الشفاعة لله وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه هو المتصرف في الملك والملكوت.

قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك الملك كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. (٢)

ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلاً بعمله.

ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعالهم القبيحة وهي أنه إذا أُفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إله إلا الله نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين. وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسرون.

قال الإمام الرازي: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإنك إذا ذكرت الله وحده وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم. وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم.

وذلك يدل على الجهل والحقاقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأس الجهالات والحقاقات، فنفرتهم عن ذكر الله واستبشارهم بذكر الأصنام

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٢ / ١٥٤.

من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحُمق الشديد. (١)

قل: يا الله يا خالق ومبدع السماوات والأرض يا عالم السرِّ والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مشاهد بالأبصار أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين.

قال أبو حيان: لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام، أمر رسوله أن يدعوهم بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه. وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام. (٢)

ولو أن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فديةً لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة. وظهر لهم من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم. (٣) قال أبو السعود: وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها. (٤)

وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به في الدنيا. (٥)

من هداية الآيات:

- * تسلية الرسول ﷺ، وحمله على الصبر والثبات في أصعب الظروف.
- * مظاهر قدرة الله في الموت والحياة مما يقتضي الإيمان به وبلقائه وتوحيده.

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٦.

(٢) البحر المحیط، لأبي حيان ٧ / ٤٣٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٣.

(٤) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١١.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٤.

- * إبطال حجة المشركين في عبادة الأوثان من أجل الشفاعة لهم إذ الشفاعة كلها لله رب العالمين.
- * بيان خطأ من يطلب الشفاعة من غير الله، إذ لا يملك الشفاعة إلا هو سبحانه.
- * بيان سفه المشركين وضلالهم في غضبهم عند سماع التوحيد، وفرحهم عند سماع الشرك.
- * مشروعية اللجوء إلى الله تعالى عند اشتداد الكرب.
- * بيان عظم العذاب وشدته يوم القيامة، وأن المرء لو يقبل منه فداء لا فتدى منه بها في الأرض من أموال ومثله معه.
- * التحذير من الاستهزاء بأخبار الله تعالى ووعدته ووعيدته. (١)

الإنسان بين السراء والضراء

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَتَّوْلَاءٍ سَيَّصِبُ بِهِمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفرعون إلى الله تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا حولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٨ وما بعدها بتصرف يسير.

ويسبب جهده وجده، فإن كان مالاً قال إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني، وهذا تناقض عظيم، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله، وأسنده إلى كسب نفسه، وهذا تناقض قبيح. (١)

وهذه الكلمة القبيحة التي يقولها الكافر: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قالها الكفار من قبل، كقارون وغيره، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]. فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحطام.

فناهم جزاء أعمالهم السيئة والذين ظلموا من هؤلاء المشركين - كفار قريش - سيناهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك. (٢)

قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدن صناديدهم. (٣) وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً.

ثم ردّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال: أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسّع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين؟

فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة. إن في الذي ذكر لعبراً وحججاً لقوم يصدّقون بآيات الله.

قال القرطبي: وخصّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات ويتنفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقثيره قد يكون إعظاماً. (٤)

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٧٠.

(٢) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٤ بتصرف.

(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ١٥٦.

(٤) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٦٧.

من هداية الآيات:

- * بيان تناقض أهل الكفر والجهل والضلال في كل حياتهم، لأنهم يعيشون على ظلمة الجهل والكفر.
- * تقرير ما من مصيبة إلا بذنب جلي أو خفي كبير أو صغير.
- * بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الأفراد أو الجماعات لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود لسنن التربية الإلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.
- * أهل الإيثار هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات، لا يرون الآيات ولا يعقلونها.
- * تهديد الله تعالى للظالمين ووعيده الشديد بأنه سيصيبيهم مثل ما أصاب غيرهم جزاء ظلمهم وكسبهم الفاسد. (١)

دعوة للرجوع إلى الله

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَسْبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءِائِي فَاكْذَبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٣١ بتصرف يسير.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما صور الله تعالى - فيما سبق - الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة. عاد يفتح أبواب رحمته على مصاريحها بالتوبة. ويُطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي مهما يكونوا قد أسرفوا في المعصية. ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين. (١)

سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تدعوا إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملناه كفارة؛ فنزلت هذه الآية: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (٢).

التفسير الإجمالي

قل -أيها الرسول- لعبادي الذين تمادوا في المعاصي، وأفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام: لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته، لكثرة ذنوبكم. إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر؛ إنه سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة.

وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله: ﴿قُلْ يٰعِبَادِي﴾ (٣).

وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخباراً بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها، ورجع عنها، مهما كثرت. (٤)

ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح، من قبل حلول نقمته تعالى بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٥٨.

(٢) رواه البخاري ١ / ١١٣ رقم ١٢٢.

(٣) التفسير الميسر ٨ / ٢٧١، صفوة التفاسير ٣ / ٨٥ بتصرف.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٧.

والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم وهو القرآن الكريم، فيه سعادتكم وفلاحكم، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتأنهوا.
لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان: يا حسرتي وندامتني على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه.

قال الإمام الشوكاني: واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتغالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي.. ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة.. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾

فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك. ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيألفها من بشارة ترتاح لها النفوس.. وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.^(١)
وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه:

في هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة: منها إقباله عليهم، ونداؤهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة تشريف، ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة، في قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، ومنها: إضافة الرحمة لأجل أسائه الحسنی، ومنه: إعادة الظاهر بلفظه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ﴾ ومنها: إبراز الجملة من قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ مؤكدة بيان، والفصل، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة.^(٢)

قال مجاهد: يا حسرتا على ما ضيعت من أمر الله، وإنَّ الحال والشأن أنني كنت من

(١) فتح القدير ٤ / ٣١٠.

(٢) الفتوحات الإلهية ٣ / ٦١٢.

المستهزئين بشريعة الله ودينه.

لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين.

قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجلَّ^(١). أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب: لو أن لي رجعةً إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأحسن سيرتي وعملي.

بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين^(٢). قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا^(٣). ولو ردَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى: ﴿لَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس في الآخرة، تصوير مؤثراً بليغاً، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذي ينفعه في ذلك اليوم الهائل الشديد.

من هداية الآيات:

- * بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.
- * دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنباء إليه والإسلام الخالص له.
- * تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجري في ساحته من أهوال.
- * وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت.
- * الترغيب في الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٧.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٦.

(٣) حاشية الصاوي ٣ / ٣٣٧.

- * إبطال مذهب الجبرية الذين يرون أنهم مجبورون على فعل المعاصي وغشيان الذنوب كقول أحدهم: لو أن الله هداني لفعلت كذا أو تركت كذا. (١)
- * رحمة الله تعالى بالخلق، حيث أعذر إليهم وحذرهم.

أحوال الناس يوم القيامة، ودلائل ألوهية الله ووحدانيته

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِنَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَنْعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لِجَحْطَنَّ عَمَّاكَ وَلِتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَنَعٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن تلقين الله - تعالى - لنيبه ﷺ الجواب الذي يرد به على المشركين.

ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله - بنسبة الشريك له والولد - وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافتراءهم. أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن؟ بلى إنَّ لهم منزلاً ومأوى في دار الجحيم. (٢)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٣.

(٢) صفة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٦.

ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال: وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم، وهو الجنة دار الأبرار، لا ينالهم هلع ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون.

ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال: الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه هو القائم بتدبير كل شيء بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره.

والذين كذبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة، أولئك هم الخاسرون أشد الخسران.

قل يا محمد أتأمروني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون؟

قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية. (١)

ولقد أوحى إليك ربك وإلى الأنبياء قبلك لئن أشركت يا محمد ليبطلن ويفسدن عملك الصالح، ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك.

وهذا على سبيل الفرض والتقدير. وإلا فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشا له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد. (٢)

قال أبو السعود: والكلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل، وإقنات الكفرة،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٧.

والإيذان بغاية شناعة الإِشْرَاقِ وقبحه. (١)

أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحداً سواه. وكن من الشاكرين لإِنْعَامِ رَبِّكَ.
وما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، قال أبو حيان: أي ما عظموه حق
تعظيمه، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره، إذ أشركوا معه غيره، وساواوا بينه وبين الحجر
والخشب في العبادة.!

وما عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تعظيمه، والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية
العظمة والجلال. فالأَرْضُ مع سعتها وبسطها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه، والسموات
مضمومات ومجموعات بقدرته تعالى.

أخرج الترمذي وصححه، عن ابن عباس قال: مرَّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول
يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه - أي على إصبع -، والأرضين على ذه - أي على
إصبع -، والماء على ذه - أي على إصبع - والجبال على ذه - أي على إصبع -، فأنزل الله: ﴿ وَمَا
قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية. (٢)

والسلف يقولون: إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى - . إلا أنهم لا يقولون
إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف، ولا اليمين مجاز عن القدرة، بل ينزهون الله - تعالى -
عن الأعضاء والجوارح، ويؤمنون بما نسبه - تعالى - : إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذي أَرَادَهُ
- سبحانه - وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام.

وفي الصحيح عن ابن مسعود قال: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا
نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود / ٤ / ٣١٤.

(٢) سنن الترمذي / ٥ / ٣٧١. رقم ٣٢٤٠. وقال الألباني: صحيح. يراجع: صحيح الترمذي / ٣ / ٩٩ رقم

عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَسَائِرِ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِّقَوْلِ الْخَبْرِ ثُمَّ قرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرَهُ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحٰنَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ (٢).

من هداية الآيات:

- * اسوداد الوجه يوم القيامة علامة الكفر والخلود في جهنم.
- * ابيضاض الوجوه يوم القيامة علامة الإيمان والخلود في الجنة.
- * تقرير البعث والجزاء بوصف أحواله وما يدور فيه.
- * بيد الله كل شيء فلا يصح أن يُطلب شيء من غيره أبداً، ومن طلب شيئاً من غير الله فهو من أجهل الخلق.
- * التنديد بالشرك وبيان خطورته إذ هو محبط للأعمال بالكلية.
- * وجوب عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ووجوب حمده وشكره إذ كل إنعام منه وكل إفضال له. فله الحمد والمنة. (٣)

(١) صحيح البخاري ١٥ / ١٤.

(٢) صحيح البخاري ١٥ / ١٦.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٥.

نفختا الصور وأهوال الآخرة

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِنْتُبُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها :

لما جاء الحديث فيما سبق عن قدرة الله تعالى وعظيم قدره، أتبعه هنا ببيان كمال هذه القدرة، وتمام هذه العظمة.

التفسير الإجمالي

تذكر الآيات الكريمة هنا بعض أهوال الآخرة وأحوالها، كما تعرض لبعض مظاهر القدرة التي يتنافى معها عقلاً وجود من يستحق العبادة معه سبحانه وتعالى.

والنافخ في الصور أي البوق إسرافيل قطعاً إذ هو الموكل بالنفخ في الصور فإذا نفخ هذه النفخة صعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فهذا استثناء دال على أن بعضاً من المخلوقات لم يصعق في هذه النفخة، ثم نفخ في الصور نفخة ﴿ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ وهذه النفخة تسمى نفخة القيام لله رب العالمين لأجل الحساب. (١)

وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلّى الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد، وأحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب، وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أمهم وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال السدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله. (٢)

وقضى بين العباد جميعاً بالقسط والعدل وهم في الآخرة لا يُظلمون شيئاً من أعمالهم، لا

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٣ / ٤٣٦.

(٢) يراجع: مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٩.

بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب.

قال ابن جبير: لا يُنقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم، بل جوزي كل إنسان بما عمل من خير أو شر. وهو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة. (١)

من هداية الآيات:

- * تقرير البعث والجزاء بيان أحواله.
- * بيان عدالة الله في قضائه بين عباده في عرصات القيامة.
- * فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها. (٢)

مآل الأشقياء والسعداء

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَاقٌّ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كَفَرْتُمْ سَوَّيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَاقٌّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُهُ مِنَ الْغَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى - فيما سبق - أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال: ﴿ وَوُفِّيَتْ

(١) صفوة التفاسير، للصابوني ٣ / ٨٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٧.

كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ ﴿ بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب، ثم كيفية أحوال أهل الثواب، وختم السورة. ^(١)

التفسير الإجمالي

بعد الفراغ من الحكم على أهل الموقف، وذلك بأن حكم تعالى فيهم بحسب عملهم فوق كل عامل بعمله، من كفر ومعاصٍ، أو إيمان وطاعة، قال تعالى مخبراً عن مصير الفريقين: وسيق الذين كفروا بالله ورسله إلى جهنم جماعات، حتى إذا جاؤوها فتح الخزنة الموكلون بها أبوابها السبعة، وزجروهم قائلين: كيف تعصون الله وتجدون أنه الإله الحق وحده؟ ألم يرسل إليكم رسلاً منكم يتلون عليكم آيات ربكم، ويحذرونكم أهوال هذا اليوم؟ قالوا مقرين بذنبهم: بلى قد جاءت رسل ربنا بالحق، وحذرونا هذا اليوم، ولكن وجبت كلمة الله أن عذابه لأهل الكفر به. ^(٢)

قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. ^(٣)

قيل لهم ادخلوا جهنم لتصلوا سعيرها ماكين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات راكبين على النجائب، قال القرطبي: سوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين،

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٩٠.

(٢) يراجع: التفسير الميسر ٨ / ٢٨٩، أيسر التفاسير للجزائري ٣ / ٤٣٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٨٥.

كما يفعل بالوافدين على الملوك، فشتان ما بين السوقين. (١)

حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها كقوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٥٠]. قال الصاوي: والحكمة في زيادة الواو هنا « وفتحت » دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها. (٢)

وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار طهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود.

قال البيضاوي: وجواب « إذا » محذوف، للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم، ما لا يحيط به الوصف والبيان. (٣)

قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سعدوا، وطابوا، وسرّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم. وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة. (٤)

قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله: ﴿نَلِكِ الْجَنَّةِ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

وملّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد، فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

وترى الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدين به من كل جانب، يسبحون الله ويمجدونه،

(١) المرجع السابق، نفس الموضوع.

(٢) حاشية الصاوي ١٣ / ٣٨١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ١٤٧.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٢.

تلذذاً لا تعبداً. وقُضي بين العباد بالعدل. وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه. (١)

قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له سبحانه بالحمد. (٢)

وهكذا تنتهي جولات هذه السورة الكريمة ومقاطعها وآياتها بهذا الختم الرائع المؤثر، وبهذه الكلمات القوية المعبرة. وتنتهي القضية الكبرى بالقضاء العادل. وتختتم السورة الكريمة بالحمد لله رب العالمين.

من هداية الآيات:

- * بيان إهانة أهل النار بسوقهم إليها بعنف وإذلال.
 - * التنديد بالاستكبار عن عبادة الله تعالى.
 - * بيان إكرام الله تعالى لأوليائه، إذ يُحملون على نجائب رحالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية وسلاماً. تحية احترام وإكرام، وسلام أمان من كل مكروه.
 - * بيان نهاية الموقف باستقرار أهل النار من الكفار والفجار في النار، واستقرار أهل الجنة من المؤمنين الأتقياء الأبرار في الجنة دار الأبرار.
 - * ختم كل عمل بالحمد فقد ابتداء الله الخالق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وختم القضاء بين خلقه بالحمد، وقيل الحمد لله رب العالمين. (٣)
- وأخيراً.. فهذه سورة الزمر، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أنني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان. ولكن حسبي أني حاولت

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٢.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٩ بتصرف يسير.

واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يجرنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الزمر

احتوت سورة الزمر على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

- * بيان إفضال الله تعالى على العباد في خلقهم ورزقهم.
- * بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
- * بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
- * بيان إحاطة علم الله بالخلق، وعلمه بأفعالهم وأحوالهم ظاهراً وباطناً.
- * الكشف عن طبيعة الإنسان قبل أن يهذه الإيمان وهو أنه إنسان متناقض لا خير فيه ولا رشد له، فلا يرشد ولا يكمل إلا بمعرفة الله.
- * فضل العالم على الجاهل لعمله، ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسة والانحطاط.
- * بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم أكبر المصائب الحرمان من الجنة. وأعظم الخسران خسران النفس والأهل يوم القيامة.
- * فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه.
- * بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
- * فضيلة أهل الخشية من الله؛ إذ هم الذين يفعلون لسماح القرآن فترتعد فرائضهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.
- * تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين، وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.
- * بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الناس لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود

- لسنن التربية الإلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.
- * أهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل، لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات لا يرون الآيات ولا يعقلونها.
- * بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.
- * دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنابة إليه والإسلام الخالص له. تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجري في ساحته من أهوال وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت والموت أدهى وأمر حيث لا تقبل توبة بعد الموت أبداً.
- * فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها.

سورة غافر

بين يدي السورة

أسمها وفضائلها.. محور السورة

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين.

أسماء السورة

وسورة غافر وتسمى كذلك سورة المؤمن، (فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير وآية الكرسي حفظ بها - وكذا ترجمها البخاري)^(١).

عدد آيات السورة

وهي من السور المكية وقيل: إن بعض آياتها مدنية وضعفه أغلب القراء، وآياتها (٨٥) خمس وثمانون آية في الكوفي، وعند البصريين اثنتان وثمانون آية، وفي الحجازي أربع وثمانون آية، وكذا في المصحف الشامي^(٢).

واختلاف عدد آيات السور بين القراء ناجم عن أن بعض القراء يصل الحروف المستقلة بالآية التي تليها من حيث أن آخرين يعتبرونها آية مستقلة، كما أن في ثانيا بعض السور تعتبر بعض الوقفات آيات مستقلة عند بعض القراء.

قلت أن سورة غافر من السور المكية، والسور المكية لها صفات تميزها عن السور المدنية إن كان في البناء اللغوي أو الموضوعات.

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٧٥ برقم ٢٨٧٩.

(٢) البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص: ١٤٤٥.

وإن أجملنا القول فإن السور المكية سور دعوة لتكوين مجتمع ليس له مثال في الواقع فيلزم أن ترسم صورة ذهنية واضحة المعالم في عقل المدعو لذلك المجتمع، في بنائه الفكري، في عقيدته، في أهدافه، في المنهج الذي يعتمدونه في حياتهم ويسرون عليه في تحقيق أهدافهم، في علاقة أفرادهم ببعضهم وفي علاقتهم أفراداً ومجتمع بمن يخالفهم في الفكر والعقيدة.

كما أن الخطاب في السور المكية موجه للمشركين بغية هدايتهم وفي اعتبار الداعية أن بعضهم يحكمه العقل والمنطق وآخرين يخالفون عناداً ومغالطة وتكبراً، فتكون عبارة القرآن المكي قصيرة وتحمل معان كبيرة مهمة ومجمل.

فيكون هذا هو واقع السور المكية فنجد بعض الذين اسلموا أو كلهم يتجه إلى الدعوة ويُقبل عن عقل سليم ودراية، والذي يرفض غالباً ما يكون مغالطاً يدفعه التكبر وما هو فيه من مركز اجتماعي يحقق له مصالح اجتماعية واقتصادية وشهوات نفسية لا يريد التفريط بها.

ولذا فإن السور المكية تؤكد على وحدانية الله رباً وإلهاً وخالقاً وفاعلاً في الكون وأن هناك حياة بعد الموت، وأن الله أرسل رسلاً يعلمون الناس ما لهم وما عليهم بما يريد الله منهم، وسيحاسب من أرسل إليهم الرسل فيعاقب عاصيهم ويكافئ بالحسن طائعهم فيما أعد لهم في الحياة الآخرة. وهذه هي الأسس الرئيسية للعقيدة.

مرحلة نزولها

وسورة غافر المكية هي أول سبع سور تبدأ بحرفي ﴿حَم﴾ فتسمى ذوات الحاميم أو آل الحاميم أو الحواميم وقد وردت هذه الأسماء في أحاديث وأخبار عن الرسول ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم فلا عبرة لمن كره هذه الأسماء أو بعضها. وكان ترتيبها في النزول ٦٠، فتكون قد نزلت بعد ٥٩ سورة، وقد قرأ بعضها أبو بكر الصديق ؓ حينما أذى المشركون رسول الله ﷺ بأن خنقه ابن أبي معيط خنقاً شديداً فقال ﷺ وهو يكفهم عن الرسول ﷺ ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. وهذه الحادثة بعد وفاة أبي طالب أي يقرب من السنة الثامنة للبعثة أو قبل الهجرة بثلاث سنين تقريباً.

وقد وردت أحاديث في فضائل الحواميم جملة، ومنها في حديث طويل عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله أعطاني..... وفضلني بالحواميم والمفضل ما قرأهن نبي قبلي) ^(١).

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (الحواميم ديباج القرآن) ^(٢).

وروى أبو داود والترمذي عن المهلب بن أبي صفرة قال حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: (إن بيتهم الليلة فليكن شعاركم: حاميم لا ينصرون) ^(٣).

وهناك أحاديث غير ما ذكرنا في فضائل الحواميم جملة أما الأحاديث الخاصة في سورة غافر فلم يصح إلا ما روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعان بمطلعها على هداية شخص وهو: روى ابن أبي حاتم عن يزيد قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقد عمر فقال: ما فعل فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب فقال فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك فيني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿ غَافِرِ الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ ﴾ ^(٤) ثم قال لأصحابه ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جعل يقرأه ويردده ويقول: ﴿ غَافِرِ الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ قد حذرني عقوبته ووعدي أن يغفر لي. ورواه أبو نعيم وزاد فلم يزل يردددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزاع فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أختاً لكم زلة فسدوا ووثقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه) ^(٥).

(١) أخرجه محمد بن نصير وابن مردويه - فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، ج: ٤، ص: ٦٢٦.

(٢) فتح القدير ج ٤ / ص ٦٢٦.

(٣) فتح الجواد الكريم في اختصار تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير.

(٤) فتح الجواد الكريم ج ٤ / ص ٧٦ عن الدر المنثور والحلية.

سورة غافر

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

ذكر سيد قطب رحمه الله أن السورة تمثل الصراع بين الحق والباطل وأيده الصابوني وأضيف أنه الصراع العقلي ففي مكة ليس لديهم سلاح إلا العقل والمنطق.

والذي اراه أنها يتمثل بها السند العقلي الذي يعتمده المسلمون في الدفاع عن عقيدتهم كما أنها تذكر حجج المشركين أو واقعهم.

ولذا فإن محور السورة هو السند العقلي الذي يعتمده كل من الفريقين المتخاصمين في الدفاع عن عقيدته، وأدب الحوار بين المختلفين.

فكما سنرى أن جميع آيات السورة تدور حول هذا المحور وتتجلى بها حجج المتجادلين. وعليه فإن محور السورة هو:

الصراع العقلي بين الحق والباطل وأدب الحوار

واستدلال المؤمنين بالسنن الكونية والتاريخ الإنساني في مصارع الطغاة ومصير الظلمة أعماً وأفراداً وإبراز نصر الله لدعاته والمؤمنين بشريعته وعقيدته المدافعين عنها أن في المحاجة أو الوسائل المتاحة في كل عصر. وفي كل مجتمع بما يناسبه، وفي السورة يبرز دعاء الملائكة للمؤمنين وتوسلهم إلى ربهم بغفران ذنوب مؤمني البشر وإدخالهم الجنة مع أزواجهم وذريتهم الصالحين.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

أن المسلم يتحرى رضاء الله وغفرانه عنه في الدفاع عن عقيدته والدعوة لها فيأتي بالحجج والبراهين التي بينها الله عز وجل في القرآن الكريم.

فيخاصم ويحاجج في سبيل رضاء الله وابتغاء غفرانه. فسميت سورة غافر أو سورة المؤمن إذ تتجلى صورة المؤمن وأدبه في حوار المشركين أو الذين يتنغي هدايتهم.

علاقة السورة (سورة غافر) بما قبلها

آخر سورة الزمر وعلاقتها بسورة غافر

والتي تليها سورة غافر والعلاقة بينهما واضحة حيث الكلام على أهل الجنة وكيف يدخلونها وصورة غافر تبين أن الله غفر ذنبهم وقبل توبتهم فقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يتلائم مع مقدمة سورة غافر كما أن الحديث قبل هذه الآيات عن الذين سيقوا إلى جهنم:

فيكون الحديث ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾ ﴾ فكانه يفرض سؤالاً عن سورة الزمر وهو: كيف كان؟ فيجاب هذا هو مصيرهم الذي أدى إليه عملهم والذي قرره الله لهم، وفي سورة غافر الدفاع العقلي عن عقيدة المسلمين ضد حجج المشركين فيكون آخر سورة الزمر أو موضوع سورة الزمر نتيجة لما قدمه المؤمنون من مقابلة المشركين بالحجج فهذه السورة تبين ما أوصل المؤمنين إلى الجنة وما أوصل المشركين إلى النار.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾ ﴾

وفي خاتمتها يذكر الله عز وجل أنهم لما رأوا بأسه قالوا: آمنا وهذه في الآخرة وهذا الايمان لا ينفع لأن الله عز وجل جاءهم بكل ما يؤدي إلى الايمان والتوبة في الحياة الدنيا فلما أصرروا على كفرهم كان مصيرهم إلى العذاب والنار فلا تنفع عندئذ التوبة ولا الإيمان.

المقدمة

﴿ حَمَّ ١ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾

ولقد ذكر في المقدمة أن الله قسم الناس إلى قسمين بناء على موقفهم من الدعوة؛ ذكر الله جل وعلا أنه قابل التوب وغافر الذنب لأن كل ابن آدم خطاء فمن عرف خطأه وعاد إلى الطريق المستقيم الذي رسمه له فيتجاوز عن خطئه ويقبل عودته وهو شديد العقاب للذين يصرون على كفرهم وعنادهم.

وهذه المقدمة للمتجادلين فالذي يظهر له الحق ويتوب إليه والذي يصر مستكبرا معاندا مغالطاً.

التفسير الاجمالي

تبدأ سورة غافر بمقدمة هي بمثابة مقدمة الكتاب فاختصر وصف ما في السورة ومنهجه وغايته.

﴿ حَمَّ ﴾ أرجح الآراء على أنها والحروف التي في أوائل السور دليل إعجاز أو صورة تحدي للمشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن المتكون من هذه الحروف والذي حمله نبي أمي عن ربه عز وجل.

هذا المنهج تنزيل من الله الذي لا يصل إليه مخلوق بقوة ولا بعقل ولا يمتنع عنه مخلوق بأي وسيلة، هذا الكتاب الذي يحوي هذا المنهج وهذا الطريق الحق الواضح نزله من يعرف ماذا يريد خلقه وما يصلح لهم وما يصلحهم. ﴿ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

هو الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يريد وهو الذي ركب به ما يطبع به وما يعصى به فهو الذي كلفه ويعلم أن أغلب أفراده لن يقوموا قياماً صحيحاً فيما كلفوا به ولا يؤدونه كما ينبغي فجعل لهم طريقاً يعودون به إليه ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ لمن استغفروا وقابل التوبة التي يعودون بها

إلى الله وإلى الطريق الذي يوصلهم إليه والتوبة: الرجوع من الفعل القبيح إلى الفعل الجميل ومن أركانها الندم على الفعل والإقلاع عنه والعزم على عدم العود والعمل الصالح وهو مع قبوله التوبة عن عباده النادمين على خطئهم هو شديد العقاب لمن أصر على ذنبه وعاند في أمر ربه وتمادى في طغيانه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وأنه قادر على معاقبتهم فهو ذو النعم وذو المقدره على المجازاة التي من جنس عمل العباد ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ صاحب المن والفضل والغنى والقادر عليها.

فلا متصرف بالكون سواء ولا تجب طاعة غيره ولا مقدره لأحد أن يضع طريقاً يصلح للعباد ويصلحون به سواء عز وجل فهو ذي الطول (النعم والمقدره) ولا إله غيره. وسيؤول الناس إليه حتماً يوم القيامة فلا مفر لهم من الحساب ولا طريق لهم عن المساءلة والوقوف بين يديه. (إليه المصير).

علاقة المقطع بمحور السورة:

فالسورة كلها تتكلم عن طريقين وعن فريقين كل يدافع عن طريقه ومنهجه وهذان المنهجان يؤديان إلى وجوب العقوبة واستجلاب الغفران.

فقد أجملت هذه المقدمة هذين الطريقين وغايتيهما والسييل إلى أي منهما ومصير متبعي الطريقين.

فمن هداية الآيات:

- * إن الله جل وعلا هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم فيكون تصديقاً لنبوة الرسول ﷺ.
- * وأنه تعالى رسم طريقين للإنسان أيها شاء وأعطاه الحرية في إتباع أحدهما وهذان الطريقان هما الصلاح والفساد ودلل عليهما بتأنيدهما وهو غافر الذنب لمن أراد لنفسه الصلاح وهو يقبل عودة عباده إلى الطريق السليم إن أسرفوا على أنفسهم وظلموها بالعصيان ثم استغفروا وهو شديد العقاب لمن تمادى في غيه حتى نهايته فمات كافراً.

* هذا التقرير من لطف الله عز وجل بعباده لأنه لم يغلق أمامهم طريق الصلاح إن تركوه فترة في حياتهم ثم عادوا إليه تائبين.

نشاط المشركين العقلي ضد الرسل

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَفَلُّهُمُ فِي الْإِلْهِدِ ④ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْجِ وَالْأَحْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ⑥ ﴾

علاقة المقطع بما قبله

آيات المقدمة قسمت الناس إلى قسمين وهذه الآيات بينت عقيدة أحد هذين الفريقين وكيف ينظرون إلى الدلائل التي تبين العقيدة الصحيحة ولقد وضع الله عز وجل في هذه الآيات قاعدة ثابتة وهي أن الذين يتصدون لنقاش آيات الله ومحاوله تكذيبها والتشكيك بها هم الكفار أصلاً والذين أغلقوا قلوبهم وعقولهم عن الحق وأنهم ليسوا بدعاً في البشر فإن جميع الرسل واجهوا هذا النوع من البشر، وقد بين الله للمسلمين أن تنعم هؤلاء ليس تكريماً لهم.

التفسير الإجمالي

يبدأ الصراع والمحااجة بذكر موقف المشركين وجدلهم الذي يريدون فيه التأكيد والمحاكة ولا يريدون فيه محاولة فهم الطرف الآخر والانصياع إلى حقه إن كان عنده حق وتصحيح توجهه إن كان عنده خطأ ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .. فيستخدمون مراكزهم الاجتماعية ونفوذهم وثرواتهم في صد الناس عن الإيمان، فبه الله نبيه ﷺ إلى هذه الناحية ﴿ فَلَا يَغْرُزُكَ تَفَلُّهُمُ فِي الْإِلْهِدِ ﴾ فإن تمتعهم بالدنيا وحياتهم أسبابها أو أسباب التمتع بها لن يعفيهم من سوء المنقلب وسوء المصير، وهذه المراكز وهذه الحثيات لا تجعلهم على الحق

ولا تؤهل باطلهم ليغلب الحق الذي جئت به. ﴿ مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

سبب نزول هذه الآية: انها نزلت في الحارث ابن قيس السهمي لانه كثيراً ما كان يحاول رد دعوى المؤمنين.

فقد مضت سنة الله في الذين كذبوا الرسل وعاندوا الحق وغالطوا في جدالهم وتكذيبهم ثم حينما أعييتهم الحيل ولم يجدوا ما يدفعون به الحق حاولوا قتل رسلهم ومنهم من قتل الرسل الذين جاؤوا بالحق، فبني إسرائيل قتلوا يحيى وزكريا، فإن من معاني الأخذ (الإهلاك) فهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه أي ليقتلوه.

ولكن الله يدافع عن رسله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر وأهلكهم ولم يصلوا إلى رسلهم الذين منعهم الله منهم. ولم يقصر إهلاكهم أو عذابهم على الدنيا ولكن الله أعد لهم عذاب الآخرة ومن الأحزاب هم الذين تضافروا لمحاربة أهل الحق وتحزبوا لباطلهم.

وقد أخذهم الله وعذبهم وأهلكهم بما يستحقونه ولم يظلمهم فقد حقت ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والحق هو الثابت الواجب الصحيح. فقد وجب لهم العذاب وهم أهل له، فهم أصحاب العذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين وهم أصحاب النار في الآخرة.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ نزلت في الحرث بن قيس السلمي^(١). كما بينا عن أبي هريرة رضي الله عنه: (الجدال في القرآن كفر)^(٢). وعنه قال رضي الله عنه: (مراء في القرآن كفر)^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق: من

(١) [الدر المنثور في التفسير المأثور] جلال الدين السيوطي ج ٧/ ص ٢٧٢

(٢) الدر المنثور ج ٧/ ص ٢٧٢

(٣) الدر المنثور ج ٧/ ص ٢٧٢

أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ﷺ).

علاقة المقطع بمحور السورة

ان هؤلاء المصيرين على الباطل يحاولون دعم باطلهم بالمنطق الأفلج والجدل العقيم وقد حرم الله هذا النوع من الجدل.

ومن الهداية في الآيات:

* إن الصراع بين الحق والباطل بين الصلاح والفساد محتم منذ أن خلق الله الأرض وأنزل عليها آدم ونزل معه إبليس.

* فتذكر الآية أن نوح عليه السلام وهو أول رسول إلى قومه وإلى المجموعة الإنسانية فإنهم كذبوه وجادلوه بالباطل وقالوا ﴿لَا نَدْرُكَ الْهَتَكُ﴾ التي تعبدونها من دون الله.

* فلا يضيق صدر المؤمن الداعية إن واجه دعاة الشر أو وقف أمامه دعاة الفساد. وحاربوه بكل الطرق وبجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة فإنهم سرعان ما يتنكروا للمبادئ التي يعلنون تمسكهم بها إذا تعارضت مع مصالحهم أو جاءت لصالح المسلمين.

إعانة المسلمين على التصدي للمشركين

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بسابقه

بعد أن بين الله سبحانه جدل المشركين ودفاعهم عن باطلهم طمأن المسلمين أن الملائكة تكون لهم عوناً في تصديهم للباطل وتفنيدهم ودعواته وأدعيائه.

وهم يستغفرون للمؤمنين ويطلبون لهم العون من الله ويطلبون لهم الجنة وهم ليسوا أي من الملائكة وإنما هم من الملائكة المقربين ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾

التفسير الاجمالي

الذين يحملون العرش هم الملائكة وهم من خلق الله المؤمنين به والذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] - والعرش خلق من خلق الله (ونحن لا نعرف ما العرش ولا نملك صورة له ولا نعرف كيف يحمله حملته ولا كيف يكون من حوله حوله. ولا يمكن أن يدخل في تصورنا وخيالنا... ولا جدوى من الجري وراء صورة ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله احداً من المتجادلين عليها)^(١).

ولكننا نعلم أن هناك خلق من خلق الله يحملون العرش، هؤلاء مؤمنون ويرجون الله إمداد مؤمني البشر وإعانتهم ويتقربون إلى الله لهذه الإعانة بالشاء عليه بقدرته وعلمه ورحمته

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٥/ ص ٣٠٧٠

هذه التي وسعت كل شيء واحتوته وعلمت ما يصلح له ويصلح به. وهي صورة من صور أدب الدعاء بتقديم الثناء لله بما هو أهله، فإنا ربنا إن هؤلاء عبادك وقد كلفتهم بالدعوة إلى دينك وإعلاء كلمتك فلا بد للعامل من الخطأ فأغفر له ولا تؤاخذ به على خطئه وأعنه على سلوك الطريق المستقيم واهده إلى أقرب الطرق إلى النصر والشهادة التي ينالون بها أعلى الدرجات في الآخرة لأنهم (اتبعوا سبيلك).

وياربنا أدخلهم جناتك التي بها مستقرهم واجمعهم مع صالحهم أهلهم فهي سعادة أخرى مع سعادتهم بجناتك. فإنك أنت الذي لا ينال أحد ما يريد لعباده ولا يصل إلى إرادته غيره وأنت الذي تضع الأمور بمواضعها التي هي أهلاً لها فإنك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ربنا وجنبهم ما يغضبك ووقفهم لفعل الخير وتجنب الشر فإن أعنتهم على طاعتك واجتناب معاصيك فإنهم نجوا مما يؤذيهم وأدركوا أمانهم ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فإن رحمتك وسعت كل شيء وعلمك أحاط بعملهم وبنيتهم فإنهم اتبعوا سبيلك وساروا على نهجك وجاهدوا لإعلاء كلمتك ورفع رايك وأنت أعلم بما في قلوبهم وبما يريدون، وهو انتصار الفريق المؤمن وإعانتهم على التغلب على الفريق الآخر وهو فريق المشركين المعاندين وتبقى السورة حول محورها والانقسام الواضح بين المتحاورين.

علاقة المقطع بمحور السورة

في هذه الآيات يشير الله عز وجل إلى أحد الفريقين وهم الذين يدافعون عن عقيدتهم التي رسمها لهم القرآن الكريم وإعانة الملائكة لهم في حوارهم ومنافحتهم عن عقيدتهم ومن الهداية في الآيات:

* وحدة المؤمنين واتحاد مشاعرهم ودفاع بعضهم عن بعض واعتبارها من دواعي الإيمان أو من دلائله مصداقاً لقوله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

* كما أن الآية تبشر المؤمنين في الأرض أن الملائكة تستغفر لهم وتكون لهم عوناً على اتباع الطريق السليم وتجنب ما نهى الله عنه.

مصير المشركين وندمهم

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتِنَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

علاقة المقطع بما قبله

بعد أن بين الله عز وجل في الآيات السابقة استغفار الملائكة للمسلمين أظهر التمايز بين الفريقين لأن الملائكة التي تستغفر للمؤمنين هم الملائكة المقربون ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ﴾ بين الله سبحانه في هذه الآيات مقته للكافرين الذين أصروا على كفرهم حتى بعد بيان الحق والعدل والصواب وبين الله لهم أنه أكثر بغضاً لهم من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة حينما يرون العذاب ويندمون على فعلهم في الدنيا واتباع شهواتهم.

التفسير الاجمالي

ثم حينما رأوا أنفسهم في النار ندموا أشد الندم وحقدوا على أنفسهم وحنقوا عليها لأنها سلكت كل السبل حتى تدفع الحق الذي جاء به الرسل، فيقال لهم يوم القيامة أن الله حنق عليكم وأبغضكم أكثر من بغضكم أنفسكم فإنه حينما أرسل رسله بالحق وتشهد لهم كل السنن الكونية والقوانين الإلهية وفطرة الإنسان ونزعاته الأصيلة ومع هذا كفرتم مع أنه هياً لكم جميع السبل ورغبكم أشد الترغيب بالإيمان فكفرتم فكان بغضه لكم ومقته أكبر من مقتكم أنفسكم الآن حينما رأيتم العذاب. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ

أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

فأخذوا يتوسلون بالله وقدرته فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ فلا تقصر قدرتك على أن تعيدنا إلى الحياة فنؤمن لك ونصدق رسلك، والله تعالى حينما أرسل الرسل بالمناهج الحق والقوانين التي ترفع الإنسان وتعليه أن يعبد شيئاً هو صنعه، وتتحرى كرامته أراد من الإنسان أن ينظر بعقله إلى هذه الدعوة ويفتح قلبه لها فيعرضها على المنطق الحق ويقبل منها ما يصح في عقله ولا يقف منها موقف المعاند المغالط تعمي بصيرته شهواته وتحجر مكانته الاجتماعية وأحواله على عقله فلا يسمع إلا نداء المركز والنفوذ ودوافع الشهوة والملذات الجسدية، فجعله في امتحان وبين له مصيره في الحالتين في حالة الإيمان وحالة الكفر. فيقولون أحييتنا من عدم وأمتنا وبعثتنا.

فلما كفر بكل القواعد الأخلاقية وخالف جميع حيثيات المنطق التي تكلمت عن غيبات فكذبها فلما رآها فلا فضل له في الإيمان بعد المشاهدة. ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا﴾

لأن الإيمان بوجود الله فطري فمشكلة الإنسان، في إشراك الماديات المحسوسة مع الله في الفعل في الكون. فإن شذوذ عقائد البشر أن يجعلوا فاعلاً في الكون مع الله شيئاً آخر.

وفي هذا اليوم في عالم المشاهدة علمتم أن الله هو الحاكم الوحيد في الكون وهو (العلي الكبير) وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب ودعى إلى الطريق المستقيم والشريعة السمحة التي فيها حياة النفوس وسعادة القلوب.

فلماذا أصررتم وعانددتم ولم تسمعوا للحق الذي حاوركم به المؤمنون الذين يريدون لكم الخير والفلاح.

علاقة الآيات بالمحور

إن الله غضب على هؤلاء الذين يسلكون كل السبل ويوردون جميع الحجج في الصد عن سبيل الله وعن شريعته فيجادلون بالباطل ويفرحون بالشرك وينضمون إلى المشركين أيًا كان نوع شركهم وتبدوا حججهم واهية لأن آيات الله واضحة لا ينكرها الا مغالط.

ومن الهداية في الآيات:

- * أن الله يحب الإيمان لعباده ويكره لهم الكفر وهو أشد فرحاً بإيمان العبد من العبد نفسه وفي الحديث: (الله أفرح بتوبة عبده من احدكم كان على راحلته وكان عليها طعامه وشرابه فضلت منه في الصحراء فبحث عنها حتى أيس فنام فاستيقظ فإذا هي عند رأسه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة الفرح)^(١).
- * وكما يكون هذا فرح الرب سبحانه وتعالى بتوبة العبد وإيمانه. يمقت العبد الذي يدعى للإيمان فيكفر ومقته أشد من مقت العبد نفسه.
- * وهذا مما يستدعي المبادرة إلى التوبة قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه التوبة.
- * وأن الله يقبل توبة المرء ما لم يغرغر لأن إيمانه عندئذ يكون إيمان مشاهدة، وليس إيمان غيب، فليبادر قبل أن يقول: أرجعوني أعمل صالحاً فيها تركت.

(١) رواه مسلم، السراج الوهاج من مطالب صحيح مسلم ابن الحجاج _ الحسيني القنوجي البخاري... ج ١١، ص: ٩.

من صفات الله تعالى التي تقتضي أن يفرد بالعبادة

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣)
 فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴿

علاقة المقطع بما قبله

بعد أن بين الله في الآيات السابقة مقتته وغضبه على الذين أصروا على الكفر بعد دعوة الرسل لهم إلى الايمان، بين في هذه الآيات أنه أوضح جميع الدلائل على وحدانيته وفاعليته في الكون وأنه سبب الرزق وهو الذي يختار الرسل الذين يبلغون دين الله لعباده ولم يعذب احداً إلا بعد أن يبين له الحق فيخالفه ويصر على الكفر فإنه تعالى لا يظلم نفساً ولا يجازيها إلا بما قدمت.

التفسير الاجمالي

فالله عز وجل وضع في الكون كل ما يدل على وحدانيته من سنن وما به حياة الناس وما لا يمكن أن ينصرف إلا بقدرة واحد أحد، فرد صمد، فهو الذي يبعث لكم من السماء ما فيه صلاح الأرض وحياتها ﴿ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ .. فهذا الماء الذي فيه حياة الأحياء ولو أنفق أهل الأرض كل ما لديهم من مال وقوة لا يستطيعون أن يوصلوا الماء إلى ما يصل إليه المطر الذي ينزل من السماء فيصل إلى الجبال وإلى الصحارى. ألم تكن هذه آية تدفع العقلاء إلى الإيـمان بوحدانية الله تعالى وتفردة في الكون بالفعل والتصرف؟ وغير المطر كثير الذي ينزل من السماء كما ثبت أن الحديد يتكون في السماء وينزل إلى الأرض، والأشعة الضوئية التي يكون النبات بها غذائه.

فهذه كلها آيات تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى للعقلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهم الذين لا يمحذون الحق ولا يغالطون في سبيل المنافع المادية وهؤلاء هم الذين يعودون إلى الله في كل شؤونهم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

وعلى هذا يكون التوجه إلى الله وحده ولو أن هذا سيغيظ الكافرين الذين يرون الإنسان فاعلاً في الكون بفعله دون إرادة الله أو يتوجهون إلى غير الله في الفعل الكوني كالطبيعة وغيرها.

فلا يضيركم أيها المؤمنون أن تغيظوا المشركين في توجهكم فمهما أعطيتهم لهم من أنفسكم فلن يجيدوا عن شركهم أو ما اكتسبوه من متاع الدنيا ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .. مجردين دعوتكم من أي شرك حتى للهوى والرغبة والسمعة هو الله الذي يحتل الرفعة والمكانة التي لا تنال ولا يتوصل إليها ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ .. وهذه المكانة هي التي يتفضل بها على عباده فيوحي إلى من يختاره منهم ليهدي النفوس الضالة ويرشد القلوب الحائرة ويبعث الروح في الكون المظلم فينيره ويوضح السبيل الصحيح والمنهج القويم الذي يرفع الإنسان ويعلي مكانته عن سائر المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْآلَمِ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا الوحي الذي هو روح النفوس وحياة القلوب فيه أيضاً الإنذار والتخويف من العذاب يوم القيامة ﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

فهو عز وجل صاحب العرش الذي يحكم به الكون وهو الذي يوحي إلى الرسل وسمى الله الوحي (الروح) لأن فيه روح الوجود وبه حياته وعنه تصدر آلاءه وكل ما يدل على الحياة.

يوحي إلى أنبيائه لينذر يوم التلاق يوم الحساب يوم إحصاء الأعمال حينما تلتقي الخلائق وتعرض عليهم أعمالهم فالمظلوم يعلم من ظلمه والظالم يعلم بم ظلم وتلتقي الملائكة والبشر والجن يعرضون جميعاً على الله عز وجل.

فهم ظاهرون عند الله وعند أنفسهم لا يخفى على الله منهم شيء، لانية ولا عمل وكيف يخفى عليه وهو الذي خلقهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١١]. فقد خلق قلوبهم ويعلم لأي شيء تتسع وخلق جوارحهم ويعلم صلاحياتها وما تقدر عمله. وجميع الخلائق وكل الوجود ينطق أن الحكم لله والملك لله والأمر والنهي لله والكون كله لله سبحانه، هو المتفرد فيما يفعل ويقدر هو ﴿الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾.. فهي صيغة مبالغة من الغلبة والإذلال فله يذل كل شيء.

وقال المفسرون يسأل نفسه ويجيب والأولى أن يصدر السؤال منه والجواب هو حال جميع الخلائق والوجود برمته فكلها يقول لسان حالها لله الواحد القهار. والقهار من أسماء الله الحسنى، بذاته وبدالاته.

فتجتمع الخلائق ويجتمع المكلفون وغيرهم فيحاسبهم على ما أرسل رسله لهم به ويحجمهم أنه وضع لهم منهجاً واضحاً وشريعة سمحة وأمرهم ونهاهم وأشار إلى سنته التي تدل على صدق الرسل بما جاؤوا به عنه.

ويتكلم من كان أعجم وينطق من لم يكن قد وضع للنطق أصلاً فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم والأرض التي ساروا عليها والماء الذي سقوا به زرعهم وأنفسهم وموطن سجودهم.

ويوضع الميزان ويستعد المحاسبون أو مسجلوا الأعمال وكل تعرض عليه صحيفة أعماله ويقرأها ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيلٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]. ولكن ما هي حجتها وعن أي شيء تجادل وتجاجج وشهود كل نفس أدوات العمل التي حملته فخاصم بلسانه وسار برجله وبطش بيده.. وهكذا وكل هذه شهود فما هي حجته...؟.

ويتضائل المتكبرون وتذل الجبابرة ويتبرأ القادة من جنودهم وخدمهم الذين كانوا يطيعونهم في معاصيهم. ويعصون الله لأجلهم.

فتجزى كل نفس بما كسبت فالفعل هو الذي يؤدي بصاحبه إلى رضا الله ورضوانه، أو

غضبه، وكل مكلف يحاسب عما كلفه الله به وكل مؤتمن يحاسب عن أمانته كيف أداها فإن الله لا يجزي بالحسنة إلا الحسنة وأن الله يرحم المذنبين التائبين بعد أن يريهم أعمالهم ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وبعد أن يراه بعينه ويعلم أن الله سجله عليه يغفر الله للمؤمنين التائبين ويغدق لهم العطاء أكثر مما يتوقعون.

أما الذين عاندوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وفتشوا عن الحجج التي يردون بها الأنبياء وفتشوا عن المبررات في كفرهم ونفاقهم، يعرض عليهم ربهم ما تكن صدورهم وما استحفظوا من نيات وأهواء ثم يعلمون أن الله لا يظلم أحداً بل يعفو عن كثير. ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .. فالأدلة واضحة والجنايات مسجلة والأعمال محصاة فما الذي يؤخر الحساب!!!؟. ولأي جانب من المتجادلين يكون الحق.

علاقة الآيات بالمحور

تشير الآيات في المقطع إلى أن الله بين جميع البراهين التي يحتاجها المؤمنون في الدفاع عن عقيدتهم وإفحام المشركين المخاضمين ﴿ سَتُرِيهِمْ عَائِنَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن الهداية في الآيات:

- * أن الله مصدر الرزق وهو مقدر الآجال وهذه لا تحكمها قيم الدنيا ولا يحددها الإيمان والشرك أو الطاعة والمعصية، فلا تنقصها المعصية كما لا تزيدها الطاعة.
- * وإذا كان ذلك، كذلك فلا يخشى أحد على رزقه أو على حياته في قول الحق والجهد في سبيل الله والسير على نهجه رضي من رضي وسخط من سخط.
- * لا يملك أحد من البشر له شيء.. فإن جاهد في الله لإعلاء كلمته فإنه سيعيش سعيداً ويموت كريماً وهي أفضل له من حياة الخنوع والخضوع وموت الجبناء.

تقرير يوم للفصل بين العباد وأحوال الناس فيه

﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٢٠﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَعَآثِرًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۝٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٢﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في المقطع السابق بين سبحانه وتعالى أنه لم يكن أخذه بالعقاب أو جزاؤه للمخلصين جزافاً أو تخميناً فإنه أرسل رسلاً يعلمون الناس ماذا يريد الله منهم ووضحوا لهم الطريق المستقيم والشريعة الحق والعقيدة السليمة.

وأنقذ بهم عباده من التخبط وظلم الطغاة وأنه الحاكم الأوحد في الكون وأن الكون ملكه وفي هذه الآيات ذكر الله عز وجل ان الله اعد لهم يوماً يحاسبهم فيه وأن هذا اليوم قريب وأنه تعالى قد أحاط بأعمالهم وخلجات نفوسهم ويعلم مايسرون وما يعلنون فسيجمعهم في هذا اليوم ويحاسبهم عن فعلهم.

التفسير الإجمالي

وتعود الحاجة والجدل ويصدره بالإنذار والتهويل والترهيب وتحذيرهم اليوم القريب وهو ﴿يَوْمَ النَّالِقِ﴾ فإنه يوم القيامة وسماه يوم الأرزفة لقربه فمعنى أرف أي قرب فهو قريب جداً.

ثم يذكر صورة من صورته حيث الناس تحبس أنفاسها من هول ما يرون ينتظرون الأمر الإلهي ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ من الخوف والشدة كأن القلوب ترك مكانها لتصل إلى

الخنجرة وهو تعبير عن شدة الخوف انتظار المجهول المخيف وقد جاء ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

﴿ كَظِيمِينَ ﴾ مملوءين غماً وكرباً ويمسكونه ويمسكونه مع عدم قدرتهم إخراجه لأن هذا اليوم لم يكن كأيام الدنيا الذي يجبس الإنسان غيظه وهو قادر على إخراجه، فعلى من كظم غيظه ومن أجل من هنالك ليس له أحد شافع أو منقذ مما هو فيه ولا متحمل جزء مما يجد ولا يمكن لأحد أن يشاركه كربه فإنه ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٧]. فلا صاحب ولا حبيب ولا نصير ولا شفيع يشفع لهم فيسمع صوته وتجاب شفاعته. ﴿ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴾. عن أي شيء تجادل وبم تحتاج فإن محاسبك ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ فليس لك مهرب وليست لك حجة من التي كنت تتوسل بها في الدنيا فقد غابت عنك حججك وانعقد لسانك.

ومع هذه القدرة العظيمة والمعرفة الدقيقة فإنه لا يظلمك ولا يمنعك حقدك بل سيقضي لك بالعدل والصواب ويقرر لك ما تستحق من الثواب أو العقاب. فحكمه العدل.

أما الآخرين الذين كانت هذه الجموع تتبعهم فإنهم لا يستطيعون تقرير شيء ولا حتى ما يخصهم شخصياً فإن الله تعالى وحده ﴿ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

كانت عقولهم معطلة ومنطقهم أفلج تدفعه الشهوات من ملذات الدنيا كالجاه والنفوذ والسيطرة على الأتباع فلم يعتبروا بمن سبقهم من الأمم التي خالفت أنبياء الله لهم ورسله إليهم وقد كانوا أشد قوة وأكثر إتباعاً - كأن الخطاب لأهل مكة - فإنهم يعلمون أن هناك إمبراطوريات ودول أشد منهم قوة وأكثر إتباعاً وأقرب ما يكون لديهم من الأمثلة التي شهدها بعضهم هي قصة الفيل والملك الذي جاء بجيش جرار بكل عدته وعتاده ومعهم الفيلة لهدم البيت ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ كَمَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ﴿ ٥ ﴾ [الفيل: ٥]. ألا يعتبرون بهؤلاء؟

لم يعتبروا بالأمم التي خالفت الرسل وقد قضت سنة الله فيهم فمن سننه إهلاك الظلمة

أماً وأفراداً وفي رحلاتهم إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم يمرون بمكان أهل الحجر ومدائن صالح وغيرهم ويرون آثارهم وكيف كانت قوتهم فأهلكهم الله تعالى بظلمهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ولم تكن تنفعهم قوتهم ولم تكن واقية لهم من عذاب الله وإهلاكه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ .. واتقاء عذاب الله بطاعة رسله وإتباع دينه والالتزام بأمره وتجنب محارمه ونواهيها وقد كانت لهم الفرصة لتجنب عذاب الله بإتباع رسله.

فإن الله تعالى أرسل الرسل وأيدهم بالدلائل القاطعة التي لا ينكرها عاقل ولا يجنبها سوي.

ومع كل هذه البراهين والأدلة على صدق الرسل وصلاحيه التشريع لحياتهم وسعادتهم ولم يكن في دين الله الذي أرسل به الرسل ما يتحرى مصلحة أحد بعينه ولا حتى الرسل أنفسهم.

فإن شريعة الله ودينه للإنسانية جميعاً بلا تفریق وكل ما فيها تدل على أنها تريد سعادة الإنسان وكرامته وفضيلته والمحافظة على الصورة الكريمة التي خلقه الله بها ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]. ومن نظر إليها نظرة فاحصة بعقل نير وفكر مستقيم فلا بد من أن يهتدي ويعتقد أنها تتحرى سعادته في الدارين.

ولكنهم كفروا بكل هذه البراهين وهذه الأدلة فحق لهم عقاب الله وعذابه ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

وعلى هذا يظهر السلوك الحق والمنهج الصدق وهو الذي يتلاءم مع كرامة الانسان وجمال صورته التي أكرمه الله بها.

علاقة المقطع بالمحور

بين تعالى في هذه الآيات أن دفاع المشركين عن أنفسهم غير مجد فإن الحاكم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأنه أنذرهم وحذرهم فلو أنهم حكموا عقولهم واستقبلوا حجج

المؤمنين بصدر رحب لأنقذوا أنفسهم مما هم في ﴿يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ لأن حجج المؤمنين تعتمد على كلام الله وسنة رسوله ﷺ

ومن الهداية في الآيات:

* أن الإنسان يجب أن يستحي من الله أكثر من الناس ويحسب حسابهم لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا لا يتهاى لأحد فليعلم أن الله يرى فعله الخير ويرى فعله الشر فليحسب حسابه في كل شيء.

* وعلى الأمم والطغاة أن يعتبروا بمن سبقهم مهما كانت قوة الأمة وجبروت الأفراد فلا يفلتوا من عقاب الله.

صور من مسيرة الدعاة وموقفهم وموقف أقوامهم منهم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمٰنَ وَقَرَّبُوا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٣٧﴾﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة دعاهم لتدبر ما حصل لمن سبقهم من الأمم وفي هذه الآيات أورد نموذجاً من هذه الأمم فقال لقد جاء موسى بالبراهين والأدلة على العقيدة الصحيحة ولا ينكرها إلا متكبر لا يريد أن يسمع الحق، فأعلن المؤمن ان العقل السليم والمنطق المستقيم ان تؤمن بما جاء به موسى والحذر كل الحذر من تكذيبه.

ولما كفروا بكل هذه الأدلة والبراهين أورد لهم نموذجاً وصورة لأمة كفرت بالرسول الذي أرسله الله إليهم وحينما أعجزهم البرهان وسقطت حججهم لجؤوا إلى المغالطة التي ليس لها دليل. واعتمدوا على القوة والنفوذ فقرروا قتل الدعاة ونبههم.

التفسير الاجمالي

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ ونعلم أن السحر تأثير خفي في النفوس فلا يستطيع مدعيه أن يبرهن على حقيقته ولا يستطيع نافية أن يبرهن على عدمه، فلما جاء موسى بالبراهين والأدلة القاطعة قالوا إنك تؤثر بالنفوس بعوامل غيبية خارقة للعادة فتخدع الناس بها. فتأثيرك خداع وإدعاؤك النبوة كذب وافتراء.

والنماذج التي أوردها القرآن الكريم تشمل جميع أصناف الناس ذوي القوة والتأثير فمؤثر وقوته بطغيانه ومؤثر بقوته وقوة أسياده ومؤثر بقوة ماله، فهارون الطاغية المتجبر وهامان منفذ الطغيان ومزاوول الظلم وقارون مسخر الناس بهاله.

هؤلاء هم أصحاب القوة وأمثالهم في جميع المجتمعات وفي جميع العصور فلما أعياهم بحجته وسطوع برهانه وقوة حقه ﴿فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ﴾.

ولم تكن لهم وسيلة إلا ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذه هي طريقة الطغاة في كل عصر وفي كل مكان، فلم تكن هنا طريقة لإيقاف سريان الحق والهدى بين الناس إلا قتل حملته إذ لم ينفع الجدل والمحااجة.

والابتلاء الآخر مع قتل الأبناء ﴿وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ كما قال الله ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

ولكن الله سبحانه وتعالى أقوى منهم وأعلم بمكرهم وإبطاله ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ

إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٣﴾ فِي ضِيَاعٍ وَتَجْبُطٍ وَهَوَانٍ وَتِيهِ.

ثم هناك وسيلة أخرى وهي قتل صاحب الفكرة والداعية الأول ورأس الأمر، فإن قتل خدعت الدعوة وانفض الناس وعادوا إلى ما كانوا عليه من العبادة والسلوك. ولكن الله تعالى ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. ويرد كيد الكافرين في نحورهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ .. وقال المفسرون أن قوله ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ دليل ضعفه واعتقاده أن النصر لموسى وللمؤمنين فلا يقول القوي الطاغية (اسمحو لي أقتل المخالفين لي الواقفين ضدي)، لأن الطاغية يفعل هذه الأفعال حتى لو خالفه أتباعه وحاشيته، وضعفه جاء من أنه رأى كثير من أتباعه وأهمهم السحرة آمنوا بموسى وهو وأتباعه لم تكن لهم حجة إلا المكابرة والمغالطة ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وهذه أهم عوامل ضعفه ومنعه من الإيثار تكبره وطغيانه ومنع أتباعه بطشه ومصالحهم الشخصية المبنية على وجوده على هذه الحالة.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أما إيمانه بأن رب موسى هو القوي ولكنه جاء بهذه الصيغة وهي التحدي والاستهزاء بقوة الخصم.

وهنا التعليل الأبدي للطغاة وذوي النفوذ ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ فخوف فرعون أن يغير موسى دين القوم ومنهجهم في الحياة وطريقتهم التي يتناولون فيها أمورهم، ويقول فرعون هذا يظهر الفساد والخلل في حياتهم الرتيبة أو السائرة على منهج معين.

يرى فرعون وجميع الطغاة والمنافقون أنهم على حق وأن منهجهم هو الأصلح للأمة وأن القوانين التي يضعونها للبلاد والعباد أحسن من شريعة الله وأن المصلحة والنجاح بطريقتهم وأن الذين يجاهدون في إصلاح المجتمع ويقدمون أرواحهم وما يملكون مقابل نشر الدعوة الحق (دعوة الله) ليسوا عقلاء ولا يعرفون مصالحهم ولا يدركون سعادتهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) .. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٣].

وما محاربة الدعاة في عصرنا إلا صورة من تلك التي استخدمها فرعون وجميع الطغاة، فالدعاة (رجعيون، ظلاميون، متخلفون. يريدون تدمير المجتمع)، يدخلون الدين في السياسة والسياسة في الدين. ولا يستحون حينما يعوقهم أمر من الشريعة أو يريدون تبرير موقف ما أو تصحيح مسار جاءوا به من يصفون المجاهدين بأنهم ضد الإسلام، وهذا رأي جميع طغاة الأمة.

يريد الطغاة أن يقولوا للناس أن الدين هو ما نعتقده والشريعة هي ما نقره وندخل الدين في السياسة بالطريقة التي نريد وليس لكم يا دعاة يا مجاهدين حقاً في الدفاع عن الدين وعن الشريعة.

ففرعون يخاف من موسى ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .. وفي بعض القراءات ﴿ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وبهذه القراءة يراد حصول الاثنین (تبدیل) الدين وظهور الفساد)، والحقيقة كأنها علة ومعلول فتبدیل الدين يؤدي إلى ظهور الفساد والفساد في رأي الطغاة هو ضرب مصالحهم في سبيل مصالح المجموع.

وأمام هذه المغالطات والهروب من الاعتراف بالصواب والحقيقة لا يسع الداعية إلا أن يركن إلى ربه ويستجير به مما يحاك ضده ومما يحاط به من عوامل النكوص والفشل ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١٧) .. فليس للدعاة إلا الله يلجؤون إليه يقيهم شر هؤلاء وقوتهم وبطشهم ونفوذهم وتقلبهم في البلاد.

ومن الملاحظ أن أهم عوامل الكفر ومجابهة الدعوة والإصلاح هو التكبر فإن ذا النفوذ يحز في نفسه أن يتبع رجل ليس له شأن وليس لديه ما يؤهله للقيادة خاصة وأن قيم القيادة لدى هؤلاء هو المال والنفوذ والسلطة.

فحينما أرسل الله تعالى، طالوت ملكاً ليقاتل بنو إسرائيل تحت رايته تلبية لطلبهم ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلما بعث طالوت ملكاً قالوا ﴿أَتَنَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

واعترض أهل مكة على الرسول ﷺ أنه لم يكن صاحب نفوذ ولا صاحب مال فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ .. وهذان الرجلان من القريتين (مكة والطائف) ذوي مال وجاه ونفوذ.

وإبليس حينما أمر بأن يسجد لآدم قال الله تعالى: ﴿أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ﴾ .. وأكثر المتكبرين لا يؤمنون أو لا يتيقنون أن وراءهم يوم يحاسبون فيه على ما فعلوا.

وصورة اخرى من صراع الحق والباطل والجدل حولها ونقاش موسى لفرعون وعجز فرعون رد حجة موسى ومؤمن قومه فركن إلى أسلوب آخر غير الجدل وهو القتل لصاحب الدعوة.

علاقة المقطع بالمحور

في هذا المقطع تتضح جلياً صورة من صور الصراع الفكري ويظهر موقف المؤمنين وحججهم وموقف المشركين وحججهم فيدعي فرعون أنه يدعوهم إلى الحق وأن موسى يريد أن يبدل دينهم ويفسد عليهم حياتهم .

ويرد المؤمنون ان الواقع الذي يعيشه الناس في ظل فرعون وجنوده هو الفساد وأن موسى والمؤمنين يريدون رفع هذا الفساد عنهم.

ومن الهداية في الآيات:

* أن جميع الطغاة يعتقدون أن الله لم يخلق أذكى منهم وأن كل ما يفعلونه صلاح وأن كل من عارضهم يريد للأمة الفساد وأنه موتور وأنه مفسد.

* فجميع الطغاة فرعون إذ يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ

الْفَسَادَ ﴿.. مع أنه لا فساد بعد الطغيان ولا سوء بعد كم أفواه الناس ومنعهم من قول الحقيقة التي تزجج الطاغية.

* ولذا فقد قال ﷺ: (سيد الشهداء الحمزة ورجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله)^(١)..

وعند ذلك يجب أن يلجأ الداعية إلى الله ويستعيذ به من الطغاة بعد أن يؤدي واجبه تجاههم

حجج من الوقائع والسنن تدعوا إلى الإيمان

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَنِي اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة يبين قرار فرعون بقتل موسى وهنا يتبين إذا كان فرعون قد أعلن كفره وأمر اتباعه بالاعتقاد بصحة رأيه فيما كان من المؤمن إلا أن يذكرهم بما حل بالأمم التي كذبت الرسل.

ولقد اقتنع بعض أتباع فرعون وأهله بصدق دعوة موسى عليه السلام وألزم نفسه بالحجج التي جاء بها موسى عليه السلام، فلما عزم فرعون قتل موسى ودرء ما أسماه فتنة بإزالة رأسها وهو النبي الكريم موسى عليه السلام، أخذت هذا المؤمن نخوته وغيرته على

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ابن حجر، كتاب المغازي.

دينه وعقيدته، ولكنه أراد إبعاد الخطر عن موسى عليه السلام بلطف ومن غير إظهار الانفعال والغضب فيكون هذا الأسلوب أقرب للإقناع.

التفسير الاجمالي

فقال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ دعوة لا تستوجب القتل بأي حال من الأحوال، كما أنه قدم الأدلة على عقيدته وعلى توحيده ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.. فإن كنتم ترونه مخطئاً فردوا أدلته وفندوا حججه وردوا دعواه بحجج أقوى تقنع الآخرين.

ويذكر جميع المفسرين قصة أبي بكر الصديق ﷺ، ومقارنته بمؤمن آل فرعون لحصول موقف للرسول ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ قريب الشبه من موقف مؤمن آل فرعون.

ولابد من الإشارة إلى أن أول رجل أسلم على يد رسول الله ﷺ وشهد الوحداية لله هو أبو بكر الصديق، وإيمان أبي بكر ليس كأبي إيمان، لأن أبا بكر الصديق ﷺ، كان من الرجال المهمين في المجتمع المكّي فهو ممن انتهى إليه الشرف في الجاهلية كما تشير المصادر فقد كانت له الاشناق في الجاهلية (يقدر ديات القتلى من كل قبيلة) كما أنه نسابة قريش ومن فرط ذكائه كان يعبر الرؤيا. فسخر هذه جميعاً لخدمة الإسلام وخدمة رسول الله ﷺ، فكان جهده ومكانته وماله (وكان ثرياً) في خدمة الدعوة من أول يوم أسلم وهو أول من أسلم من الرجال ذوي الشأن. فتخلى عن جميع هذه الحثيات في سبيل الله.

فقد أخرج البخاري وغيره من طريق عروة قال: قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي ببناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر الصديق ﷺ، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت، قال: أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس قالوا لا نعلم فمن؟ قال أبو بكر، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش فهذا يجنبه وهذا يتلته، وهم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا وينحي هذا ويتلته هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع (علي رضي الله عنه) بردة كانت عليه، فبكى حتى أخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم أمؤ من آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تحبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤ من آل فرعون ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه.

إذن.. لقد جاءكم بالبينات من ربكم فما هي حجتكم التي تردون على هذه الدلائل؟ ثم عقب على هذا الانهزام أمام الحجج، ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ حذف نون يكن للتخفيف كما يقول اللغويون، فإن كان كاذباً فلن يضركم كذبه أما إن يجلب عليه عار وسقوط في الدنيا أو عذاب الآخرة كما يعتقد هو ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ولكن صدقه سيؤدي إلى أخطار عليكم تجنبها ثم أن سلوكه وشخصيته واستقامته أقرب إلى الصدق منه إلى الكذب فإن ﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وأن الله ﴿لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].. فكيف وسلوكه وشخصيته وجميع تصرفاته تدل على الصدق وعلى انتهاج السلوك الصحيح وهذا كله من هداية الله وتوفيقه له.

فإذن لو أمنتكم له أو تركتموه يؤدي دعوته مع قومه - بني إسرائيل - خير لكم وأفضل من محاربتة.

لأن صدقه يعني تحقيق وعيده لكم فإذا بعض الذي يعدكم الهلاك والدمار فالأولى لكم ألا تتعرضوا له بسوء، قال المفسرون: بعض هنا تعني الكل ورجح آخرون منهم أن معنى بعض على حقيقتها وهي الجزء ولا حاجة إلى صرفها إلى المعنى المجاز أو المحتمل. وأن جزءاً من وعيده هو الهلاك فلا أقل من تركه وما هو عليه فإن لم تصدقه فاعتزلوه

﴿ وَإِن لَّمْ تُوْمِنُوا لِي فَأَعْرِضُوا ۝٢٨ ﴾ [الدخان: ٢١]. وفي الأثر أن رسول الله ﷺ قال: (ويح قريش أكلتهم الحرب فلو تركوني والناس، فإن ظفرت فعزي عزمهم وإن كانت الأخرى فهي ما يريدون). وحينما حاججه عتبة بن ربيعة حينما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن قال والله ما الذي سمعته شعر ولا سحر ولا كهانة فلو أنكم تركتموه والناس فإن أصاب عزا فلکم وإن كانت الأخرى فهو ما تريدون فقالوا له سحرك محمد.

ثم استمر مؤمن آل فرعون يحاجج قومه فقال: لكم الملك اليوم ولكم الغلبة فهل أتم على يقين من بقاء هذا العز وإذا كان بيده هلاك فأين تذهبون من حساب الله وعذابه، وبأس الله: عذابه.

وما حل بالأمر نعرفه فإن جاءتنا داهية مما أصابتهم فما أنتم فاعلين فأجاب فرعون جواب جميع الطغاة والمنافقون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ..

فأجابهم أنه لا يرى لهم إلا ما يراه لنفسه من العقيدة والمنهج والسلوك وأن عقيدته التي يراها لهم هي الطريق الصحيح والمنهج السليم والنظام الأمثل وأن موسى يريد أن يغير نظام حياتكم ويوردكم التعاسة والعذاب في الدنيا.

وفرعون في هذه المقولة كاذب أولاً لأنه كما مر بنا اعتقد بصحة دين موسى ﴿ وَحَدِّثْهُمْ بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ .. ولكن كبر في نفسه أن يطيع موسى وهو الوليد الذي تربى في بيوتهم وأنفقوا عليه حتى كبر وبعث، كما أنه كيف يكون سبيل الرشاد هو العبودية لفرعون يقتلهم كما يريد ومتى يريد ويسخرهم في أهوائه ومشاريعه من غير اعتبار لكرامتهم وإنسانيتهم. وحينما قيل للمنافقين ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]. وهناك دليل على صدق موسى وهو ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أي أن الله تعالى لا يجعل عمل وسلوك المسرفين وهم متجاوزي الحد في الآثام والمعاصي فلا يجعل سلوكهم منظم مقبول كموسى عليه السلام.

علاقة المقطع بالمحور:

وهذه الصورة الصادقة لقولة الحق وحجة المؤمنين تتمثل في جدل مؤمن آل فرعون مع قومه. ومن خلال قصة مؤمن آل فرعون يعلمنا الله عز وجل أدب الحوار والأسلوب المقنع الذي يقتضي اتباعه من قبل الدعاة ليكون سبيلاً لنصرة الدعوة وجذب اهتمام الناس وشحذ عقولهم وإيقاظ قلوبهم لتقبل الحق الذي عرضه الداعية.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الداعية لا يتقاعس عن قول الحقيقة والنصح للحكام والدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الذي يقبله الناس ويجدي في جلبهم إلى الحق أو جلب أكثرهم وأن الداعية عليه أن يعرض الدعوة بأسلوب غير متشنج ولا نزق وإنما ينتقي الألفاظ والحجج التي يرضاها الحاضرون ويقتنع بها أغلب السامعين.

فإن مؤمن آل فرعون قال: إنه لا يستوجب قتل من يخالفكم في العقيدة كما أن العقل والمنطق يقتضي رد حجته ومقابلة بيناته ببراهين تبطلها وإلا فالإيمان بها وترك العناد والتعالي.

* والاستدلال بالسنن الكونية وبتاريخ الدعوة ومصير الظلمة وعاقبة المغالطين، وعاقبة الدعاة إلى الله وسعادتهم بدعوتهم وسعادتهم بمصرهم.

* وترشدنا الآيات أن أسلوب الدعوة الترغيب الترهيب بأسلوب يبدو فيه الداعية أنه حريص على من يدعوهم وحريص على هدايتهم ونجاتهم من سوء العاقبة وهذه حقيقة الداعية فعلاً.

نماذج تطبيقية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَوَمَّرُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَتَوَمَّرُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تَكُونُ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُضِلٌّ لَّهُم مِّن هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات السابقة

في الآيات السابقة ظهر المؤمن وظهرت حجته في نبيه عن قتل موسى وفي هذه الآيات تهديد مؤمن آل فرعون قومه من عاقبة قتل موسى وعدم الإيمان بها جاء به وضرب لهم المثل بالأقوام السابقة التي كذبت الرسل.

وذكرهم المؤمن بدعوة يوسف عليه السلام وكأنهم ندموا على تكذيبه ولكنهم قالوا أن الله لن يبعث بعده رسولا فهاهو الدليل على ذلك... !!؟

فليس للمشركين حجة في التكذيب بالرسول الحالي الذي هو موسى عليه السلام.

التفسير الاجمالي

نقل مؤمن آل فرعون الحوار إلى ما يشبه التهديد أو هو تهديد مزين بالحرص على قومه وعلى عقيدته في آن واحد فقال: ﴿ يَتَوَمَّرُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ .. وهم جميع الذين خالفوا رسل الله إليهم وحاربوهم، ثم أخذ يبين لهم بعض الأمثلة من هؤلاء المعاندين والكفار الذين يعلمون أخبارهم وما حل بهم ﴿ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وقد علمتم شأنهم وما حل بهم من الهلاك وهكذا شأن أمثالهم، والله عز وجل لا يجازي أحداً إلا بما عمل والجزاء من جنس العمل فلا يظلم الله أحداً.

فإن سنتهم سنتهم فسيصيبيكم ما أصابهم فيقول لهم أنه حريص على أن لا يصل حالهم إلى

حال هؤلاء.

﴿ وَيَقَوْمٍ إِتِيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (٣٣) .. وفسر أهل القرآن التناد بتفسيرين، الأول: التناد من النداء: وفي هذا اليوم (يوم القيامة)، ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿ فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ .. وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾، أو ينادى عليهم وعلى جميع المكلفين فأهل السعادة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِمَ عَلَيْكُمْ طَبَقْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. وأما أهل الشقاء ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر: ٧٢] (١).

والمعنى الآخر قال المفسرون التناد بتشديد الدال فيكون يوم الفرار والتنافر حيث ينفر كل من صاحبه أو ينفر كل من مصيره فيرد إليه مرغماً وينفر الأتباع من أسيادهم والأسياد من أتباعهم ويتبرأ كل منهم من صاحبه أو أصحابه.

يؤيد هذا التفسير (يوم تولون مدبرين) إذ ليس لكم ما يمنعكم أو من يمنع عنكم العذاب الذي تجزون به في ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ ﴾ ولا عن عذابه من مهرب وهكذا أدى بكم ضلالكم وتخبطكم إلى هذا المصير فليس لكم من يعيدكم إلى الصراط المستقيم بعد أن أوغلتكم في الضلال والتخبط.

ويستمر مؤمن آل فرعون في الدعوة والتذكير ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .. فعاندتموه وكفرتم بما جاء وأعرضتم عن الهدى الذي أبانه لكم وبكل البراهين والأدلة حتى إذا هلك علمتم أنه على حق وربما تكونوا ندمتم على محاربتة ولكنكم لم تعتبروا إنما أخذتكم نفوسكم المريضة إلى أهوائها وعادت بكم إلى مخالفة رسل الله.

فقلتم لن يبعث الله رسولاً بعد يوسف حتى نكفر معه عن سيئاتنا فلما بعث الله موسى عليه السلام أنكرتم عليه وخالفتموه مع أن الدلائل التي جاء بها تساوي البراهين التي جاء بها

(١) تفسير الطبري ج ٣٤ / ص ٤٠ (بتصرف)

يوسف والنبيون.

وهكذا تجاوزتم حدود المعقول في التكذيب والريبة فأولاكم الله ما توليتم من الضلال والكفر فوصلتم إلى مصيركم المحتوم لأن الله تعالى لن يرغمكم على الهدى والمنهج القويم إن أحببت نفوسكم الضلال.

ولكن الله يبين طريق الصلاح والإصلاح ويميز طريق الضلال والفساد فيختار العبد ما يريد مع أن الله زين طريق الهداية وبنى العقول على قبوله والمنطق على جدواه.

ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ .. ولا يضل غيره فإن الذي يتجاوز الحدود المعقولة في عصيانه ويتردد في قبول الحق فهو الذي يضلله الله.

وقد ذكر ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، لم يؤمن من آل فرعون إلا هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَا تَمْرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]. والذي أراه غير ذلك إلا أن يكون مرفوعاً إلى الرسول ﷺ فهذا لا كلام فيه، أما نقل الطبري فربما يكون ضعيفاً. فإن كان الكلام عن عائلة فرعون فربما يكون الكلام صحيحاً، أما إذا كان من أتباع فرعون فلا يمكن أن يكون صحيحاً لأن أول من اسلم بعد المناظرة بين موسى وفرعون ودعوة السحرة، هم السحرة أتباع فرعون.

والسحرة كانت لهم مكانة عالية في اتباع فرعون وفي دولته كما تشهد جميع النصوص التي تحكي عن هذا العصر. وهذا هو ظاهر النصوص ولكن كيف نستطيع أن نجزم أنه لا يوجد مسلم سوى هؤلاء مع أن الذي نتكلم عنه كان يكتنم إيمانه، ألا يحتمل أن يكون في آل فرعون من يكتنم إيمانه غير هذا أو هؤلاء؟

غير أن هذا لم يحتمل التأمر على قتل موسى أو تقرير ذلك وقد كانت كلمة الحق أثنت فرعون عن قراره بقتل موسى فسلك مسلماً آخر كما سنرى بفضل كلمة هذا المؤمن ولذا لا يستصغر أحد عملاً في سبيل الله مهما كان صغيراً قد تكون له نتائج طيبة كبيرة.

يتبع مؤمن آل فرعون جميع الأساليب ويبدلي بجميع الحجج التي يحاول فيها اقناع قومه بالإيمان والدين الصحيح ونبذ ما هم عليه من العقائد الفاسدة.

علاقة المقطع بمحور السورة

لم تفارق السورة محورها في أي من أجزائها فإن مؤمن آل فرعون يأتي بجميع الحجج التي تدل على صحة دعوة موسى وصدقه ويبين لهم ذلك من الواقع الذي عاشته الأمم.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الداعية يجب أن يتحلى بالخوف على مجتمعه وأمنه وأن يكون منشغلاً بإصلاحهم وإنقاذهم من المصير الأسود الذي ينتظرهم إن بقوا على ضلالهم وكفرهم.

فإن مؤمن آل فرعون في جميع مراحل حديثه مع فرعون ومع أتباع فرعون الذين هم قومه يرى فيها جميعاً حرصه على إنقاذهم مما هم فيه من الفساد الذي يؤدي إلى تعاستهم في الدنيا والآخرة.

* كما أن الداعية يجب أن يختار الكلمات التي تخاطب عقول الناس وعواطفهم ويتجنب اللف والدوران حتى يتيه معه السامع. فنجد عبارة المؤمن صريحة في خوفه عليهم وفي الأخطار التي تهددهم وفي المصير الذي يسرون نحوه.

حجج المشركين الداخضة

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَنْبَغُ الْأَسْبَبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

بعدما بين مؤمن آل فرعون حجته في الآيات السابقة لم يبق للمشركين الا المغالطات فتبين هذه الآيات أن جدل هؤلاء عبارة عن مغالطات لأنهم لا يملكون دليلاً على صدق دعواهم في تكذيب الرسل وموسى عليه السلام بصورة خاصة. ولكن طغيان فرعون وتكبره أوحيا له أنه على الصواب وزينا له رأيه وعقيدته الضالة فما كان من المؤمن إلا أن يحذرهم سوء العاقبة وأن الحياة الدنيا رحلة قصيرة فلا يبدل العاقل الخلود بالحياة المؤقتة.

التفسير الاجمالي

وحينما يكون العقل والمنطق الإنساني مع قضية واضحة وحكمها ظاهر وحققتها لا تخفى على عاقل يكون الجدل حولها نوع من المغالطة والهروب من الإذعان للحق، فالذين جادلوا بقضية الإيمان وصلوا إلى القناعة التامة بصدق موسى عليه السلام ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ فأخذت المحاججة منحى لا يستمر به إلا المغالطون ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ .. فليس لهم دليل ولا حجة فإنهم بذلك يستحقون غضب الله ومقته ﴿ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .. لأن المؤمن الذي يملك الحجج الواضحة والدلائل القوية على ما يقول حينما يأتي جاهل فيجادله بنكران كل الدلائل الواضحة لا يسعه إلا أن ينصرف عن الجدل محملاً بأشد الكراهية والحق على هؤلاء الذين يعتمدون قوتهم ونفوذهم ومكانتهم

عند السلطان في التغلب على الحق الواضح.

وبعنادهم وتنكبهم الطريق فإن الله تعالى طبع على قلوبهم حيث لا تسمع الحق ولا تقبله، وأهم الموانع في قبول الحق هو التكبر الذي يدفع صاحبه إلى المغالطة وحقيقته دفاع عن مكانته الاجتماعية أو نفوذه السياسي.

هذه المكانة التي صنعت منه جباراً وكما قال ﷺ: (لا زال الرجل يأخذ في نفسه حتى يكتب مع الجبارين الطغاة) أو كما قال ﷺ^(١).

قلنا أن فرعون عدل عن قراره في قتل موسى بناءً على كلام المؤمن أو من أثره في نفسه فسلك مسلكاً جديداً في محاججة موسى عليه السلام، فقال لأعوانه ﴿يَهْمَنُ آتِنِ لِي صِرْحًا﴾ بناءً عالياً شديداً قد أصل به إلى ما يدل على صدق موسى ولكنه قرر إبتداءً ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ فهو لا يريد أن يصل إلى الحقيقة بأي شكل من أشكال البرهان حتى الذي اعتمده هو.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾.. فقد زينت له نفسه أعماله السيئة وحسن له منطقه الأفلج وقراره الأهوج وزين له اتباعه والشيطان ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. كل أعماله الحقيرة وتصرفاته الهوجاء التي تؤدي به إلى الهلاك وكيد السوء الذي سيحقيق به لأن جميع تبريراته ستؤول بالفشل إذ ليس لها قاعدة صحيحة ولا دليل صحيح. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ خسران.

جادل المشركون بكل ما أتاهم دينهم من حجج حتى بدوا عاجزين عن إقناع الآخرين ولا حتى إقناع أنفسهم فبدأ لجاجهم وتلكؤهم وعدم استقرارهم على سبيل واضح ومغالطتهم في رفض الحق الواضح.

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى ج ٩/ ص ٤٩٦٢، رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

علاقة المقطع بالمحور:

تتضح جلياً علاقة هذه الآيات بالمحور الذي هو الصراع العقلي بين الحق والباطل وأن الذين يجادلون في آيات الله ليردّوها حجتهم داحضة ففي هذه الآيات تظهر صورة من صور الجدل العقيم الذي يتبعه المشركون في دحض حجج المؤمنين

من الهداية في الآيات:

- * أن المغالطين يكونون ممقوتين من الله ومن الناس لأن الناس تريد أن تستفيد من الموقف حتى لو لم يؤمنوا به فحينها يتكلم هؤلاء الذين ليس لهم حجة وليس عندهم ما يدفعون به الحق يشعر جميع السامعين بالامتعاض والمقت.
- * كما أن الآيات تشير إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة وأمام الدين الحق. فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقبول الناس.

حجج أخرى للمؤمنين تستوجب التوبة والإيمان

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ وَيَنْقُومِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَعْلَرِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٤﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٥﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّ مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾

علاقة الآيات بما قبلها :

وأمام اصرار الطغاة وأتباعهم ونكوصهم عن الحق ومغالطتهم في الأدلة العقلية والوقائع في الآيات السابقة ما كان من الداعية المؤمن إلا أن يفوض أمره إلى الله ويعتذر أنه قدم ما استطاع من النصح والتحذير وعلى ذلك وقاه الله شرهم ومكرهم. وفي هذه الآيات أخذت حجج المؤمن منحى جديداً فيها بعض التذكير وبعض التهديد فهو يرد على فرعون الذي قال: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .. بقوله: ﴿ يَنْقُومُ أَنْبَعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾، فليس لفرعون سبيل رشاد حتى يهديكم إليه، وإنما هو سبيل الغي والفساد لأنه يدعوكم إلى عبادة نفسه وإذلالكم وتسخيركم لغاياته وشهواته وإنما سبيل الهدى والإستقامة أن تعلموا ان هذه الدنيا متاع زائل انتبهوا إلى أن هذه الدنيا ليست ملكاً وليس لأحد أن يخلد فيها وليس فنائها مسبب فقد يموت الشخص وليس فيه علة وقد يعيش طويلاً وهو يحمل كما هائلاً من العلل ولكنه يموت أيضاً فاعملوا الحياة لا فناء فيها وتهيؤوا العيش دائم تصنعوه بأيديكم، فإما أن تصنعوا حياة شقية شقاءً أبدياً أو سعيدة سعادة أبديّة

التفسير الإجمالي :

﴿ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ (٣٩) ..

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الفراغة كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولكنهم لم يتصوروها على حقيقتها، فقد يكونوا ورثوا هذا الاعتقاد من دين ولكنهم شوهوا صورته الحقيقية بأهوائهم.

فأثار الفراغة تدل على أنهم يؤمنون بالحياة بعد الموت فأخذ المؤمن يرسم لهم الصورة الصحيحة للحياة الآخرة وطريق الوصول إلى السعادة فيها مخالفاً الصورة التي في أذهانهم، ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤٠).

إذاً هذا هو الطريق القويم.. السليم إلى السعادة الحقيقية سعادة الدار الآخرة، السعادة الخالدة الأبدية وليس طريق الجبروت وتسخير الخلق للنزعات الشخصية والمآرب العاجلة، وهنا يتجلى الكرم الإلهي والعمو الرباني فمن عمل سيئة فلا يجزى إلا واحدة تناسبها ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ (النبا: ٢٦). لا تزيد ولا تنقص وهناك ميزان لا يخطئ ومن عمل حسنة خيراً مع أن الله أعانه عليها وحببها إليه وجعله منسجماً مع السنن الكونية مع هذا كله ومع أن الله خلق الأدوات التي يعمل بها الإنسان الخير والشر فإنه تعالى يجزي بالحسنة عشر أمثالها أو بغير حساب ولذا قيل (شقي من غلبت اعشاره). فهي الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم ذكر فساد رأيهم وسفاهة مسلكهم ﴿وَيَقْوِرَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ (٥١).. شتان بين الدعوتين والاتجاهين ونوعي المشاعر المؤمن يريد لقومه وللإنسانية الخير والصلاح وتجنب الأخطار، فيدعوهم إلى النجاة من نهاية هذا الطريق النجاة من أخطار هذا المسلك وأتم تدعوني إلى النار إلى ما يوصل إلى النار ثم يبين ما الذي يوصل إلى النجاة وما الذي يؤدي إلى النار ﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾.. وهذا هو المسلك الذي يوصل إلى النار.

فالكفر والجحود بالله والشرك به هو الطريق الموصل إلى النار، ثم أن هذا الكفر والشرك ليس لكم حجة تثبتون بها سلامة عقيدتكم ولا دليل يقنعكم أنتم فضلاً عن الآخرين بأن هذا الذي تشركونه مع الله في تدبير الكون أو في الضرر والنفع ثم يقول لهم إنني لا أجد ما يدفعني أو يقنعني بصواب شرككم ومن هذا الذي له صفات تؤهله ليتساوى مع الله.

فإنه سبحانه وتعالى عزيز لا يدرك ولا يتوصل إليه أحد ولا يستطيعه أحد مع قوته وعزته وإقناعه على المخلوقات غفار لذنوب عباده التائبين الذين يراجعون أنفسهم ويتحرون الصواب في عقيدتهم وفعالهم.

حقاً إن الذي تدعون إليه أن كان فرعون أو أي أحد أو أي شيء لا يستطيع إجابة دعوتكم

ولا رفع الضر عنكم ولا جلب الخير لكم ثم هل يستطيع دفع الضر عن نفسه أو يستطيع أن يخلد في هذه الدنيا فهو ميت فهل لميت استجابة دعاء من يدعو..؟
فهو عاجز أن ينقذ نفسه في الدنيا والآخرة أو يجلب لنفسه الخير أو يدفع عن نفسه العذاب في الآخرة ولا في الدنيا.

ثم أنكم تعلمون أننا جميعاً سنعود إلى الله جل وعلا ويحاسبنا عما اجترحنا وأن المتجاوزين الحدود المعقولة والمقبولة في تصرفاتهم وفي تصوراتهم هؤلاء هم أصحاب النار، والتعبير (بأصحاب النار) ورد في القرآن الكريم كثيراً وهو يدل على أن النار كأنها خلقت لهم فهم يملكونها وتملكهم ولا يستطيعون عنها فكاكاً ولا منها هروباً. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾..

فإذا كان مصيرنا إلى الله فليس لنا إلا أن نرضيه ونتبع رسله ونسير على النهج القويم الذي أراه لنا.

ثم جزم لهم أنهم سيتقابلون وأنهم سيجتمعون يوماً ويذكر بعضهم بعضاً ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾..
﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

كما أن الآيات تشير إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة وأمام الدين الحق. فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقبول الناس.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وإن دعوتي وجهدي وحججكم وخصومتكم كلها أردها إلى الله تعالى وهو يعلم حقيقة أمري وعنادكم فإنه ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾..

وقد أدى واجبه بالدعوة إلى الله وإلى دينه وشريعته ولا يحاسب عن النتائج ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكَ وَعَلَّهْمُ يَنْفُونَ﴾ [الأعراف/ ١٦٤].

وحينما أدى واجبه بالدعوة إلى دين الله وتفنيد حجج المشركين والانتصار لله ورسوله

حينما فعل ما أراد الله وما كلفه به ﴿ فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّكْرُوهًا ﴾ .. فإن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ويقيهم كل تدابير الأعداء التي تخفى عليهم ولا يخفى على الله منهم شيء. ثم أن الله تعالى أنزل بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا حيث عذبهم بالجراد والقمل والدم وعذبهم بالغرق وهذا كله في الدنيا وفي الآخرة عذاب الله أشد وأنكى.

وهذه صورة من صور دفاع الله عن آله ودعائه، ومن أساليب القرآن الكريم في البرهان رسم الصور الصادقة المشاهدة الملموسة عن الحقائق التي يذكرها الله سبحانه وتعالى في محاجة المشركين والطغاة.

ولا تبعد السورة عن محورها فإن الذي آمن يمثل جانب المؤمنين في المحاججة فتراه يتخلق بكل الأخلاق التي فرضها الله للمسلمين إن كان في الإدلاء بالحجة أو في حرصه على هداية قومه.

ففي إعادة الخلق يذكر الخلق الأول الذي هو إنشاء من العدم، وفي نصر المؤمنين بذكر أضعف الجنود من الناحية المادية كيف تنتصر على أعتى الجيوش وأشدها تمكينا ومن المفارقات أن جميع حروب المسلمين التي فتحوا بها الأرض وقوضوا الدول وأزالوا الطغاة وممالك الشرك، كان الجيش الإسلامي أقل من جيوش المشركين واليهود والنصارى وأحيانا يكون جيش المشركين أكثر من عشرة أضعاف جيش المسلمين.

وهذا حينما كان المسلمون يدافعون عن دين الله وشريعته وكلمته، أما حينما حاربوا من أجل مصالحهم الشخصية ومناصبهم وأمواهم ونسوا الله، فأنساهم أنفسهم.. فإن أقل الجيوش وأصغر الأمم غلبتهم، فحينما احتل اليهود فلسطين سنة ١٩٤٨ كانوا أقل من عشر المسلمين وأقل من عشر العرب الذين خاضوا الحرب، والصورة نفسها في ١٩٦٧.

علاقة الآيات بالمحور:

لم تفارق الآيات المحور في أي من حيثياتها فإنها أيضا تذكر إحتجاج مؤمن آل فرعون وطرح الدلائل على صحة رأيه ويذكر طرفاً من توجه المشركين وتفنيد حججهم في هذا التوجه

الهداية في الآيات:

- * لا تزال الآيات تعلمنا أدب الحوار وأسلوب الداعية الذي يجب أن يستخدمه الدعاة إلى الله تعالى، فهو يقتضي أن يذكرهم بالموت هذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد كافراً أو مسلم.
- * ثم ينبههم إلى أن من المنطق والمعقول أن تكون هناك حياة بعد الموت وأن الحياة الدنيا ليست آخر المطاف.
- * وأنه يجب عليهم أن يعرضوا رأي المؤمن على العقل والمنطق وعندئذ سيعلمون أنه يدعوهم إلى النجاة وأن المشركين لا تنفعهم أصنامهم ولا من يعبدون من حجر أو بشر لأنهم مثلهم قابلين للفناء ولا يمكن أن يحكموا ما لم يستطيعون تحقيقه لأنفسهم وهو النجاة أو الخلود.
- * وأن الحاكم الوحيد والفاعل في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو الله وحده لا شريك له.

ندم المشركين على كفرهم حينما رأوا ما حذرهم منه الرسل

﴿ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا وَحَاقَ بِتَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَوُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه:

في الآيات السابقة بين الله عز وجل كلام المؤمن ونصحه لقومه وحذرهم من العاقبة وأكد لهم أنهم سيعلمون صدق دعواه حينما يحشرون ثم فوض أمره إلى الله

وفي هذه الآيات بين تعالى إستجابة دعوة المؤمن ووقاه شر مكرهم وأن آل فرعون وأتباعه سينالهم العذاب؛ وهذا العذاب في الدنيا وفي القبر وبعد الحساب يوم القيامة.

التفسير الإجمالي

ويوم الحساب يتبين كل فريق حقيقة عقيدته وصواب مسلكه فيتبرأ الفرقاء من أتباعهم والأتباع من قادتهم

فما كان إلا أن يذكر الله بالقاعدة التي لا مناص منها وهي أن الله ينصر رسله وأتباعهم. ونجى الله مؤمن آل فرعون مما دبروا له لقتله وأنزل الله العذاب بآل فرعون، به وبأتباعه وهذا العذاب في ثلاث مراحل وثلاثة أساليب، ففي الدنيا عذبه بالجراد والقمل والدم والغرق وغيرها وفي القبر يعرضون على النار صباحاً مساءً ثم يعذبهم يوم القيامة إذ يخلدهم في النار وفي النار يتجادلون ويتخاصمون فيقول الضعفاء الأتباع الرعاع للذين كانوا يقودونهم ويأمرونهم بكل القباحات، فهؤلاء الضعفاء كانوا في الدنيا أدوات الطغاة ينفذون طغيانهم مغمضة أعينهم عن الحق لا يرون الحق إلا الذي يأمر به الطغاة ولا يتبهاوا إلا في الآخرة حيث ترفع عن أعينهم الغشاوة وعن قلوبهم الأغطية فيقولون لرؤسائهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، ننفذ أوامرهم فهل تفون بوعودكم حيث منيتمونا بالمصير السعيد، والآن لا نريد منكم إلا أن تتحملوا عنا جزءاً من العذاب الذي نعاني منه في النار

فيجيب الطغاة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ابْتِغَاءَ لِقَاءِ اللَّهِ فَدَحَاكُمْ فِيهَا﴾.. فلا أتباع ولا متبوعين وهذه الحالة جزء من العذاب وهو الندم واللوم والسخط على النفس كيف أطاعت هؤلاء؟ كيف باعوا آخرتهم بدنيا هؤلاء؟ ألم يكونوا حمقى بهذه الصفقة التي ليس لهم فيها إلا الخسران في الدنيا والآخرة.

ثم يتجه أهل النار جميعاً أتباعاً ومتبعون إلى حراس جهنم وحفاظها وهم جند الله في تنفيذ أمره ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَحْفَظْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ وهل لخزنة جهنم إرادة أو حول أمام حول

الله وإرادته وقوته؟ ثم إنهم يستحون من الله أن يطلبوا لهؤلاء الذين عصوا الله وحاربوا أوليائه تخفيف العذاب.

فيقولون لهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، ألم يرسل الله لكم من يعلمكم صواب السلوك وصحة العقيدة؟ ويأتوا لكم بكل الدلائل والبراهين التي يقبلها العقلاء ويسترشد بها الأسوياء؟ ولكن خالفتم فطرتكم والمنطق السليم واتبعتم أهواءكم وغرتكم زينة حياتكم الدنيا وظهوركم فيها وتقلبكم فيها فاعترفوا بكل هذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ.. فإذن سوف لن نطلب لكم أي تخفيف وإنما اطلبوه أتم بأنفسكم وإن كنا نعلم أن طلبكم لن ينفذ ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾..

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جميع العلماء يستدلون على عذاب القبر بهذه الآيات.

وهناك أحاديث كثيرة على عذاب القبر قال ابن كثير: وهذه الآية ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور^(١).

وقد أورد إشكال وهو أن هذه الآية مكية بلا خلاف وأحاديث عذاب القبر كلها عن حوادث في المدينة.

وفي تقديري لا يوجد أشكال حيث أن هذه الآية مكية فعلاً والاستدلال فيها لا غبار عليه، وكون الأحاديث التي رويت عن عائشة رضي الله عنها في المدينة لا تعارض بينها فربما لم يحتج الرسول ﷺ البرهان على عذاب القبر في مكة فلم يفسرها أو لم يذكر عذاب القبر هناك أو ربما ذكره ولكن لم يصل إلينا حديث يتكلم عن الاستدلال في مكة مع وجوده ونحن نعلم أن كثير من الأحاديث في مكة لم تصل إلينا إلا في العهد المدني ذلك لأن المسلمين لم يكونوا في مكة لتسمح لهم ظروفهم بتناقل الحديث.

(١) فتح الجواد الكريم ج ٤ / ص ٨٨

علاقة المقطع بالمحور:

ويستمر اسلوب النقاش والمحااجة وهنا يتولى الله عز وجل الدفاع عن أوليائه فيبين أنه عز وجل وقى المؤمن ما يدبر له من الأذى وأهلك خصومه وعذبهم في الدنيا والاخرة وفي القبر. ثم يستمر النقاش بين المشركين أنفسهم ويبقى الطابع الغالب في السورة هو الصراع الفكري بين الحق والباطل.

الهداية في الآيات:

- * إن الله ينجي الدعوة ويعصمهم من الزلل وأن من أنواع العذاب هو الندم على ما كان منهم في الدنيا حيث أنهم أطاعوا كبراءهم فتخلوا عنهم.
- * وعلى المؤمن أن ينظر إلى الأمور نظرة فاحصة فلا يبار في الدين ولا في الشريعة ولا يطيع أحداً إلا إذا كان ذلك الأحداً ملتزماً بحيثيات الشريعة وأن طاعته لأي إنسان يجب أن تقترن بها وافقه ما أمر القرآن الكريم والسنة والشريعة الإسلامية.
- * ولا يدفع الإنسان الرضا أو الغضب على طاعة أحد أو سخطه وإنما يدور مع الحق حيث دار وهناك قول: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

عهد من الله على نصر المؤمنين

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْقَلِيلِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ ﴾

علاقة آيات المقطع بما قبلها :

بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة نقاش المشركين فيما بينهم يطمئن الله أوليائه ورسله ويقرر حقيقة أن الدافع وراء كفر هؤلاء إن هو إلا كبر في صدورهم والحقيقة أنهم ينسون أو يتناسون حقيقتهم وأن هذا التكبر لا يليق بمن هو محاط بعدمين ولا يملك الوجود الاول كما لا يملك الفناء ووقته وسببه فإذن علام التكبر.

ولذلك بعد أن وقى الله مؤمن آل فرعون مما دبر له المشركون يقرر حقيقة طالما يؤكدها القرآن الكريم وهي أن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

التفسير الإجمالي :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ .. وقد قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. وفي آيات كثيرة يعد الله المؤمنين بالنصر.

ثم أنها الحقيقة التي لا جدال فيها أن الله ينصر أوليائه وينصر دعائه في الحياة الدنيا وهناك مسألة وهي أن الملاحظ والشاخص الآن غير ذلك فما هي الصورة التي تربط النصر بالمؤمن. وما هو الإيمان وكيف يقاتل المؤمنون وعن أي شيء يدافعون أو يقاتلون حتى ينصرهم الله. أولاً: الحقيقة أن المؤمنين الآن إما أن يكونوا مغلوبين على أمرهم فلا يقاتلون إلا في صف غير المؤمنين حيث أن المؤمنين الآن لا صف لهم ولا جيش لهم.

ثانياً: أن تحقق الإيمان في الجيش المقاتل لم يكن على الصورة التي يريدتها الله لنصر المؤمنين.

فيجب أن يكون دافعهم للقتال الإيمان وهدفهم تحقيق الإيمان أو تسهيل وصول الإيمان للآخرين ورفع راية الإيمان (وتكون كلمة الله هي العليا). فقد قال تعالى: ﴿ وَقَلِّبُوهُمْ حَقًّا لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ عِتَابًا ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والفتنة هي غلبة القيم والتقاليد الجاهلية على القيم الإيمانية أو الإسلامية حتى ليرى أن الكفر أولى من الإيمان أو الفعل الذي ينسب للكفر أولى بالإتباع من الفعل الذي ينسب للمؤمنين وللإيمان {أن تروا المعروف منكراً والمنكر معروفاً}.

فمنذ أفول الدولة الإسلامية (الخلافة) إلى اليوم لم يكن للمؤمنين جيش يقاتلون به المشركين كما لم تكن القيم الإيمانية هي الدافع ولا تحقيق الإيمان هو الهدف، فأغلب الجيوش في دول المسلمين تحكم بقيم وقواعد علمانية ويقاتلون عن تلك القيم المنحرفة.

وأوضح شيء الآن هو القتال من أجل تحقيق الديمقراطية فهل الديمقراطية بالشكل السائد في دولها تطابق الإسلام وهل الديمقراطية في أصل نشأتها هي إسلام أو يمكن أن تسمى نظام إسلامي..؟

ف نجد أن مفهوم الديمقراطية حتى عند المسلمين مشوه وهي في دولها ليست إسلامية بل هي حرب على الإسلام في جميع أحوالها وقيمها.

فالنصر متحقق ونصر الله للمؤمنين وللرسل وفق المنطق السليم والعقل المستقيم إضافة إلى أن الله جلت قدرته هو الذي خلق هذا المنطق وسير هذا العقل.

فمن الطبيعي أن من يرسل رسولاً بمهمة يخلق له الظروف التي تسهل مهمته أو تنجح مسعاها، والمؤمنون هم الذين تحملوا مهمة الرسل ودعوتهم وقاموا بعبئها.

فما داموا يؤدون المهمة كما أراد من يكلفهم بها فهم برعايته ونصره فإذا انصرفوا عن

الطريق المرسوم أو تصوروا غير العقيدة الصحيحة أو استهوتهم الرغبات والظواهر فقاتلوا من أجلها فليس لهم من الله نصر ولا عون.

فينصر الله الرسل والمؤمنين في الحياة الدنيا ويحفظ كرامتهم وعزتهم وكذا يوم يقوم الأشهاد وهو يوم القيامة يوم تجتمع الأمم وتحضر الملائكة والنبيون فيشهدون الموقف وتشهد الملائكة على الأمم التي كذبت وتشهد الرسل الذين بلغوا ما أمرهم الله به.

والانتصار للأنياء والمؤمنين إما أن يأخذ حقهم ممن ظلمهم أو ينصرهم في حياتهم وكما قلت إذا تحقق فيهم الإيمان وكان هدفهم من المقابلة إعلاء كلمة الله.

يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ وهو قولهم ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.. والظلم هو ترك الأولى والتخبط بالعقيدة والسلوك، فهؤلاء الذين تركوا الحق الأبلج وتخبطوا في ظلمات الكفر والجهل مبعدون من رحمة الله ومخلدون في النار التي هي أسوأ دار وأقبح مستقر.

ويعود الكلام عن بني إسرائيل وعن موسى، فإن الله تعالى أتى موسى الهدى وهو المنهج الصحيح الواضح الرشيد وهذا المنهج الذي أرسل الله به موسى إلى بني إسرائيل جعله في كتاب وهو التوراة ولم يجعله كلاماً مجرداً من عوامل الثبوت والإتباع ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾﴾.. وورث بنو إسرائيل الكتاب من بعد موسى ولكنهم لم يؤدوا حق هذا الموروث مع أنه ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾.. العقل السوي والمنطق السليم.

ثم يكون النداء للرسول ولأمته ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فإنه تعالى منجز ما وعدك فهو الثابت الواجب الصحيح ونصره قريب فكما نصر موسى على طاغيته ونصر غيره من الرسل فإنه ناصرك وما عليك إلا الصبر والثبات.

وفي تمام الآية يربط الله عز وجل النصر والسعادة والظهور على الأعداء بما كلف به عباده

من الواجبات ربطاً قد لا ينضبط بالمنطق المادي الإنساني فإن الله سبحانه جعل التسبيح وهو تنزيه الله عن كل ما يشعر بالنقص. والاستغفار من الذنوب وتنقية النفس من جميع عوامل الشرك وجميع دواعيه وصوره هو العامل الأول للنصر والسعادة والرفاه، فقد قال عز وجل: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَبَيِّنَاتٍ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهْرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وهذا نعود إلى القاعدة الأولى وهي ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.. فإن نصر المؤمنين يتحقق بتحقيق الإيثار الحق في النفس والهدف والوسيلة والإخلاص لله تعالى والعمل بسنته.

فإذن.. ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَسَجِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.. وهو أن ترتبط بالله في جميع وقتك وتحسب حسابه في جميع تصرفاتك ولا تركز على شيء سواه. فالعشي والإبكار هي أطراف اليوم.

وأمر الله رسوله بالاستغفار قيل أمر لأمته وقيل أن الله كلما قرب الرسول درجة أمره بأن يكون أهلاً لها، وكان رسول الله ﷺ يستغفر ربه كثيراً وذلك كلما ارتفع درجة في القرب زاد شعوره بتقصيره والرسول ﷺ غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيكون استغفاره ﷺ لتأسى به أمته ويعلم كل مسلم أنه أقل قرباً من الرسول ﷺ فيكون استغفاره أوجب وأكثر وهو مقدمة لكل دعاء.

وهناك مسألة توحىها الآية ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾.. وهي وجوب الاستغفار عند طلب أي نعمة لأنها السبيل إلى جلب النعم وهي الطريق الوحيد للنصر ولإجابة الدعاء، ففيها براءة الإنسان من كل ما يغضب الله وهي (الذنوب).

علاقة المقطع بالمحور:

وفي نهاية المحاججة العقلية التي يبذل المؤمنون فيها ما يعرفون من حجج وما يستطيعون من وسائل يقرر الله عز وجل نصر المؤمنين على مجادلهم وأن لهم السعادة في الدنيا والآخرة فلا تغيبهم مغالطة المجادلين وعنادهم

الهداية في الآيات:

جمعت هذه الآيات جوانب كثيرة من الهداية:

- * أن النصر أكيد للدعاة وللمؤمنين المجاهدين لإعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته.
- * وحدة الدين وأن الله أرسل جميع الرسل لتوحيده فلا تناقض بين الكتب التي نزلت على الرسل جميعاً ﴿وَمَا أُمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٣]. وهذا الخطاب لبني إسرائيل ليؤمنوا بشريعة محمد ﷺ ورسالته.
- * يجب على الداعية أن يتحلى بالصبر ولا يضجر ولا يسأم من الدعوة إذا أصابه أذى في سبيل الله حين يدعو إلى شريعته فإن الظفر مع الصبر.

أسباب تمسك المشركين بشركهم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَّارِيبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله :

في الآيات السابقة بين الله أن النصر حليف المؤمنين فما عليهم إلا الأخذ بالأسباب والصبر في الجهاد والدعوة والإستغفار، وفي هذه الآيات يبين الله عز وجل أن المجادلين من المشركين لا يدفعهم فكر ولا عقيدة سليمة وإنما الدافع الوحيد للجدل بهذه الصورة هو التكبر.

ثم يبين الله عز وجل سفاهة المتكبرين وخفة عقولهم فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان وهي في وظيفتها وفي المساحة التي تحتلها في الكون لم يكن الإنسان إلا جزءاً يسيراً جداً من هذا الكون، فعلام التكبر إذن؟!!

التفسير الإجمالي :

وإذا كان الموت حتماً وأن الساعة لا ريب فيها فما من عاقل إلا ويعمل لذلك اليوم ويتوجه إلى الله تعالى في غفران ذنوبه وقبول توبته

وإن الذين يتكبرون سيحشرون أذلاء ويدخلون جهنم صاغرين فالجزاء من جنس العمل.

وتبقى السورة مرتبطة بموضوعها ومحورها وهو الصراع العقلي بين الحق والباطل بين الإيمان والكفر.

تصدر السورة الحديث عن الجدل وفي وسط السورة والآن في قسمها الأخير.

ففي أول السورة بين لنا عز من قائل أن الذين يجادلون في آيات الله هم الكفار لأنهم يجادلون من أجل الجدل وليس من أجل الوصول إلى الحقيقة، فإن آيات الله واضحة ودلائله بينة فهم يجادلون متذرعين بمراكزهم الاجتماعية وطبقاتهم الاقتصادية والنفوذ السياسي ويجبرون الناس على تصديق كذبهم وتصويب باطلهم وتزيين خطئهم.

ثم يذكر الجدل الآخر دليله التردد والارتياب والطغيان وهو أيضاً دليل النفوس غير المستقرة والعقول غير المنضبطة وذكر الله تعالى هذا النوع من الجدل بأنه مصدر غضب وكرهية واشمئزاز من الله تعالى ومن المؤمنين لأن المغالطة تزعج كل ذي لب وتدعو لغضب كل من يحترم عقله.

فالله يغضب لأنه بنى المنطق السليم على أسس لم يستخدمها هؤلاء المجادلون والمؤمنون يغضبون ويمقتون هذا النوع من الجدل لأنه دليل عدم الوصول إلى الحقيقة ولا إرادة الصواب فلا طائل تحته.

ثم يعرج هنا على الجدل الثالثة ذاكراً سبب هذا الجدل فليس غايته الوصول إلى الحقيقة ولا معرفة الصواب وإنما سببه التكبر والنظرة الفوقية للناس فقالوا لنوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وفرعون قال أن له ملك مصر فكيف يؤمن لرجل رباه في قصره وقومه عبيد له.

وأهل مكة قالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، إذن لم ينظروا إلى كونه صواب أو خطأ ولا حق أو باطل وإنما قالوا أن حامله ليس بالمستوى الذي نقاد له أو بالمكانة التي نؤمن بقيادتها وتصدرها. كما أنهم قالوا كيف نجلس مع هؤلاء العبيد والضعفاء.

فالذين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.. فادعاء العظمة والتعالي من قبل الإنسان محض هراء، لأن كل ما في الكون وما في نفسه لا يدفع على التكبر، فالتكبر نقص في العقل وخطأ في التصور والاعتقاد وما تكبرهم هذا إلا خيال يتصورون أنهم يصلون إلى مراتب يسيطرون بها على خلق الله ويتحكمون بمصائرهم ولن يبلغوا هذه المراتب أبداً.

هذا التكبر يقتضي أن يستجير المؤمن بالله من مصدره ويلجأ إلى الله في دفع أذاه لأنه من أدوات الشيطان الذي يدفع أوليائه إلى العناد والابتعاد عن طريق الحق وطريق الصواب ويزين لهم أعمالهم القبيحة، فالله تعالى عالم به ويسمع ما يجادلون به والله عاصم أوليائه من أمثال هؤلاء.

أيها المجادلون ألا تعلمون أن الله خلق السماوات والأرض وما فيها، فليس مع قدرته قدرة ولا مع مشيئته مشيئة، فإعادة الخلق أهون من اختراعه وإبداعه.

هذا النظام الكوني الذي تسير عليه السماوات والأرض بما فيها من شمس ومجرات والتي لا يقدر قدرها وهي تسير وفق نظام دقيق لو خرجت عليه قيد أنملة لاحترق، فمن أنت أيها المتكبر ومن أنت أيها الناصر لقدرة الله على إعادة الخلق يوم القيامة ومحاسبتهم لما اجترحوا. ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وخلق الناس ابتداءً أكبر من إعادتهم بعد الموت. كما أن في السماوات والأرض أشياء وأحياء أكثر تعقيداً في خلقهم وفي وظائفهم من الإنسان. فالسماوات والأرض ككيان وما فيهن من سنن والأرض وما فيها من حيوان أو نبات، خلقهم أكبر من خلق الإنسان. وعند الحساب لن يستوي الأعمى والبصير الذي عرف الحق وسار عليه وآمن بخالق الكون وانسجم مع حركة الكون ونظامه بنظر ثاقب وعقل سليم ونفس واعية مطمئنة، فإن الله خلق له أدوات المعرفة ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ حتى يعلم الحق من الباطل فلا يستوي هو ومن عطل هذه الأدوات أو استخدمها على غير ما وضعت له وخلقته من أجله.

فالبصير أذاه بصره إلى الإيمان والأعمى أذاه عماء إلى السوء فلا يستويون ﴿قَالِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فنظر بسيط يعرف الإنسان أن هذه المساوات غير كائنة ولا واجبة قطعاً.

فحكّم عقلك تنجو من العقاب لأن ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَّآرِيْبٍ فِيهَا﴾ فلا تكن مع أكثر الذين لا يؤمنون مع أن الواقع وسير الحياة ونظام الكون كله يدل على ذلك فلو لم تكن هناك محاسبة وإحصاء للأعمال وعرضها في يوم القيامة لو لم تكن هذه لكان هناك ظلم في أصل

الخلقة وما شاء الله أن يفعل إلا الحق فلا يمكن أن يتساوى في المصير، فرعون وموسى ولا محمد ﷺ، وأمّية بن خلف وأبو جهل، محمد وموسى واتباعهم أرادوا الخير للناس وضحوا من أجله براحتهم وسعادتهم الدنيوية.

وفرعون وأمّية بن خلف وأبو جهل سخروا الخلق لشهواتهم وأطاعهم الشخصية فهل يكون مصيرهم بعد الموت واحد؟ لا يقول بهذا عاقل.

علاقة الآيات بالمحور:

لم تفارق السورة في أي من مقاطعها المحور لافي الإسلوب ولا في العرض ولا في الحقائق المعروضة وفي هذه الآيات أسلوب المحاجة واضح جدا ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾.

الهداية في الآيات:

* أن الصراع بين الحق والباطل يستغرق عمر الإنسانية جمعاء. كما أنه يستخدم جميع الوسائل العقلية والحسية ويصل أحيانا إلى المواجهة العسكرية.. وهنا تتكلم الآيات أن الجدل الذي أشارت إليه السورة في ابتدائها سببه الكبر والعناد وليس المحاجة الحقيقية والتسليم العقلي.

* ومن حيثيات النقاش الاعتراض على إعادة خلق الإنسان، أو بعثه بعد الموت والآية تشير إلى أن الله خلق أشياء كثيرة أعقد من الإنسان وأكبر منه، فليس من الصعب أن يخلق الله الإنسان ثم يفنيه ويبعثه مرة أخرى..

توجيه للمؤمنين لتوثيق رأيهم بالسنن الكونية

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

علاقة آيات المقطع بما سبقها :

ذكر الله في الآيات السابقة الدافع للجدل عند المشركين وأنه التكبر الذي ليسو أهلا له وفي هذه الآيات يوجه الله المؤمنين إلى الدعاء وأن هؤلاء الذين يتكبرون عن دعاء الله؛ وقرن الدعاء بالعبادة أو سماه العبادة، هؤلاء المتكبرون سيدخلهم الله في جهنم أذلاء حقراء ثم بيّن تعالى صفات الله وكيف نظم الكون هذا التنظيم الدقيق الذي يعجز عنه غيره ويعجز البشر عن إدراك الحكمة فيه أحيانا؛ وهذه كلها حجج للمؤمنين في دحض حجج المجادلين من الكفار.

التفسير الإجمالي

هذه الدلائل تؤكد الحقيقة الثابتة والتي يعتقدها كل عاقل سويّ منصف، ولذا فاني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله وعلى ذلك يبدو الذين يجادلون في آيات الله مغالطون بعيدون عن أي حقيقة علمية أو عقلية.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .. وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تبين

مكان الدعاء من العبادة وقد ورد في الأثر (الدعاء مخ العبادة). وكذا قوله ﷺ: (الدعاء هو العبادة)^(١)، وإذا نظرنا إلى تعريف العبادة: بأنها الطاعة بذل علمنا أن العبادة تتجلى في الدعاء في أجلى صورها.

فالدعاء طلب الأدنى من الأعلى، وأن تطلب حاجتك ممن تعلم أنه يقضيها هو منتهى الذل، فكيف إذا كان هذا الذي يقضيها لا يستطيعها أحد بدون إذنه وتوفيقه كما يعتقد الذي يدعو؟ فالطاعة بذل أو من غير مراجعة الأمر ولا التفكير في معارضته أو منطقية سؤاله وطلبه فهي هذا الدعاء.

ومن فضله عز وجل وكرمه قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.. حتى أن سيدنا عمر بن الخطاب ؓ قال: أنا لا أحمل هم الإجابة أكثر من هم الدعاء، فإذا وفقت للدعاء فالإجابة مقرونة به^(٢). ويروى عنه أنه كان يقول أدعو الله كثيراً وأتمنى أن لا تجاب دعوتي في الدنيا لأن الله يدخرها لي أجراً في الآخرة. وهذا هو قلب العارف بالله المستيقن به.

وقد ذكر العلماء أن للدعاء آداب يجب مراعاتها، منها الصدق وإخلاص القلب لله والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها أو تخصيص وقت للإجابة فإن هذا الاقتراح ليس من أدب الدعاء.

وكما ذكرنا أن الدعاء طلب الأدنى من الأعلى فكيف بهذا الأدنى أن يقترح على من هو أعلى منه صورة إجابة الدعاء؟

والدعاء دليل ارتباط القلب بالله والخضوع له وإفراده بالعبادة والتوجه والتعالي عن كل ما عدى الله أن يكون موطناً للطلب أو مصدراً لتلبية الدعوة فالله وحده موطن الدعاء ومصدر الإجابة.

(١) سنن أبي داود (١٤٨١)، سنن الترمذي (٢٩٦٩)، السنن الكبرى للنسائي (١١٤٦٤) وأما لفظ «الدعاء مخ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢) في ظلال القرآن ج ٥ / ص ٦٥٤.

وقد قرن الله قوله تعالى: ﴿أَدْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .. بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ﴾ .. فجعل الدعاء عبادة وعدم التوجه إلى الله دليل الكبر، والتكبر أولى درجات الكفر والعصيان وفي الحديث القدسي: (الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته ولا أبالي) وقد جعل الله التكبر جريمة يعاقب عليها يوم القيامة والعقوبة من جنس العمل، فالتكبر جزاؤه الذل والصغار ﴿سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ﴾ أذلاء وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ فَنَنُوا الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا لَوْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيْقِ﴾ [البروج: ١٠].

لأن أصحاب الأخدود فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالحريق فإذا الذين يتكبرون عن عبادتي ودعائي سينالهم ذل واحتقار يوم القيامة والله تعالى هو رب السماوات والأرض ورب الجنة والنار فهو المستحق الوحيد للعبادة والتوجه في الدعاء وقد ينالهم الذل في الحياة الدنيا. ثم يوجه الأنظار إلى سبب التوجه إلى الله في الدعاء والعبادة فيقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .. فهو الحقيق بالعبادة والتوجه في الدعاء لأنه الوحيد المتصرف بالكون وواضع نظام الليل والنهار والشمس والقمر والمتحكم بتسييرهما.

وهو عز وجل جعل هذا النظام الكوني في حركة الشمس والأرض وتكوين الليل والنهار، جعله ملائماً لحياة الإنسان وكأنه مكيف له ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٧٢] وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٧٣] [القصص: ٧٢-٧٣]. إذن.. طبيعة الليل والنهار لاستمرار حياة الإنسان وبقاء نوعه على الأرض إلى يوم القيامة.

فالليل للسكون (إذا سجي)، وللراحة والنهار لطلب العيش والنشاط الذي اكتسبه من سكونه في الليل فيرى ما يريد العمل به واستثماره وتحصيل مادة الحياة منه. ولا يوجد أفضل من هذا ولا يستطيع غير الله أن يهيئ هذا النظام للحياة، فمن حقيق بالشكر؟ ومن أحق بالعبادة

وأجدى بالطلب منه (الدعاء)؟

إضافة إلى ذلك فهو خالق كل شيء وموجده من عدم ووضعه في الصورة التي تصلح له ويصلح بها ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠].

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَى تُؤْفَكُونَ﴾، فالحاكم الوحيد في الكون هو الله الذي لا إله إلا هو فإلى أي جهة تتجهون بعبادتكُم وما هو الدافع لكم يصرفكم عن عبادة الله وكيف ستواجهونه يوم القيامة؟

ولا ينصرف عن عبادة الله وتوحيده إلا المعاندون الجاحدون المنتكرون لطبيعتهم وفطرتهم وإلا فكيف ينكر وجود الله أو وحدانيته أو إلهيته؟ وجميع الدلائل العقلية والطبيعية والحسية تؤيد أنه لا إله إلا هو.

ثم تساق حجة أخرى على أنه لا إله إلا هو وهي: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾.. هذا النظام الكوني الجميل الذي جعله الله بأبهى صورة ليلائم أجمل صورة خلق فيها الإنسان سيد هذه الأرض وخليفة الله فيها، فالأرض مستقرًا ومقامًا ومعاشًا نشاطًا، بدورانها حول نفسها ودورانها حول الشمس مما يسهل العيش فيها ويجعل الماء (البحار) في مكانه واليابسة في مكانها ولو تغير أي من هذه الأنظمة لاستحالت الحياة على الأرض!.

كما يقول العلماء (وقد نقل صاحب الظلال رحمه الله) تفاصيل هذه الكيفية والذي أحب الإشارة له هو ذكر جمال صورة الإنسان من بين المخلوقات مع جعل الأرض مستقرًا والسماء بناءً شديدًا غليظًا ومن عليها من الملائكة جعلهم الله أدوات لتحريك أجزاء هذا الكون الملامس للسماء أو القريب منها. ﴿ وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَدْرِي أَلَمَّ الْفُلُكُمُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمَا نَسَبَتِ السَّمَاءُ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَدْرِي السَّمَاءُ إِلَهَ سِوَا اللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٦١]. فإحسن صورة الإنسان وأجمل نظام للأرض والسماء وأطيب رزق. ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾.

وهذا الرزق الذي يعيش عليه الإنسان جزء منه يخرج من باطن الأرض وجزء منه ينزل

من السماء وجزء ثالث يتكون من اتحاد أجزاء من الأرض بأجزاء من السماء ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.. فسبحان خالق الكون العجيب وسبحان خالق الإنسان الأعجب وسبحان مربي هذا الكون وراعيه لم يخلقه عبثاً ولم يتركه بعد أن خلقه من غير رعاية.

نظام الليل والنهار والأرض والسماء والرزق وتحسين صورة الإنسان آية من آيات صنع الله، وكلها مباركة من الله، فعظمت بركته وتعالى جده وما أجل هذا التلاؤم في اللفظ والرصف في الكلمات، فهي جميلة في لفظها وجميلة في معناها وجميلة في ترتيبها.

فختم آية الفضائل التي تفضل الله بها على عباده بكلمة تبارك ما يدل على النماء والبركة إتماماً لجمالية الآيات وملائمة ما فيها من معان وألفاظ.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.. وكل شيء محاط بعدمين خلق من عدم ويعود إلى عدم في هذا الكون الدنيوي فلا يكون خالقها ومنظماها إلا واجب الوجود، فمن السفاهة والتخبط أن يتوجه أحد إلى غيره في الدعاء والركون والاستغاثة، فمن الحكمة أن يركن الإنسان إلى الله وينقي قلبه من أي نوع من أنواع الشرك ويتجه بكلية إليه ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْذِّكْرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فهو عز وجل الذي له الحمد في رعايته للكون وتربيته للإنسان ورعايته له. فأمرنا أن نحمد الله على أن أعاننا على حمل دعوته فتكون الدعوة بقلب مخلص حامد لله على هذه النعمة.

والله عز وجل لم يترك الإنسان يتخبط فكما جعل للكون نظاماً لا يمكنه الخروج عليه ولا ينبغي له ذلك فان هذا الكون محكوم بهذه السنن. والجزء الوحيد في هذا الكون الذي أعطاه جزء من الحرية في الاختيار هو الإنسان. ثم جعل له نظاماً لحياته منسجماً مع نظام الكون فإن خرج على ما وضعه الله له أغرق نفسه في ظلمات من الحيرة والريبة والتخبط ولا يمكن أن يحصل سعادته بما يصنع لنفسه من النظم المخالفة للنظام الإلهي الذي وضعه الله له.

والذي يحصل في هذا الكون في حياتنا الخاصة والعامة شاهد على حيرة الإنسان وتخبطه

وفقدانه أي نوع من أنواع السعادة إن كانت نفسية أو اجتماعية أو طبيعية ان لم يرتبط بالله.

فتماديه في مخالفة الله أدى به إلى مخالفة فطرته وطبيعته وأهدافه وسر وجوده. مما جعل حياته كحياة الحيوان في غابة، بل أن بعض تصرفاته يستنكف عنها الحيوان وكما قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهل بعد هذه البراهين والحجج والأدلة لأحد أن يعبد غير الله ولذا فإن الله أمر نبيه أن يقول لهم أنه يستحيل أن يعبد هذه الأحجار والجمادات، لأن الله هداه إلى العبادة الحق وأمكنه بالدليل بترك كل ما يعبد أهل الجاهلية.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالوا: يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك^(١).

ومن المعروف أن الرسول ﷺ لم يتوجه لغير الله بالعبادة قبل البعثة فمن الطبيعي أن يكون كذلك بعد البعثة. وحينما دعوه ليعبد آلهتهم ويعبدون إلهه ما هي إلا دعوى ليعالجوا بها كبرياءهم، لأنهم فقدوا ثقتهم بالأصنام وبكل ما يعبدون من دون الله بأول نداء لتركها. وجميع النصوص تشير إلى أنهم لم تعد ثقتهم بالأصنام والمعبودات كما هي وغالب حجتهم {كيف نترك ما كان يعبد آباؤنا}.. ولم يقولوا كيف نترك عبادة من اقتنعنا بعبادته.

حتى حينما أراد أبو طالب أن يسلم قال له أخوه أبو لهب وتترك دين عبد المطلب فأثار فيه الحمية والاعتزاز بدين الآباء لأنه ليس لديه دليل على صحة عقيدته إلا أنها عقيدة آبائه فلا يسعه تركها.

فهذه الأدلة ﴿لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي﴾ تدفعه لأن يدعوهم لترك معبوداتهم وليس أن يتركها هو وحده، فلا يرضى لقومه السفاهة، وليس هذا فقط وإنما ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّي﴾

(١) المحرر الوجيز - تفسير ابن عطية - مجلد ٧ ج ٢٤ / ص ٤٥٥

﴿الْعَلَوِيْنَ﴾ .. فإنه ﷺ أخبرهم أنه يوحد الله في عقيدته ويضبط سلوكه بما رسم له الله عز وجل منقاداً طائعاً عارفاً أن هذا هو الأسلم والأجدى والأكرم للإنسان السوي.

علاقة آيات الموضوع بالمحور:

وفي الآيات السابقة أورد الأدلة على وحدانية الله وتفرده بالإلهوية، ومن تمام حكمته أنه أورد صفات الله لا يشترك فيها المخلوق لا في الظاهر ولا في صورة من الصور كالنفع والضرر والملك والكرم والحلم.

وإنما أورد هذه الأدلة وذكر السنن التي ينفرد بها الله عز وجل مثل خلق الأرض والسماء والليل والنهار وخلق الإنسان من عدم وجعل نظام للكون يصلح لحياة الإنسان وهكذا فكان أن قال ﷺ: (إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني من البيئات من ربي)، هذه البيئات التي ليس لكم طاقة في ردها ولا تكذيبها.

وهذا يشبه ما قاله إبراهيم للنمرود ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْنِي، وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. لم يكذب إبراهيم في دعواه وحسب تصوره للموت والحياة وإنما جاء له بأمر لا يستطيع أن يدعي مثله. وهذه من أدب الحوار وقواعد المحاجة.

الهداية في الآيات:

* تشير الآيات إلى أن الدعاء هو العبادة والدعاء هو طلب الحاجة من الله تعالى وهو دليل التذلل والخضوع لله تعالى وأن الدعاء يجعل المسلم مرتبط بالله في كل وقته لأنه محتاج إلى الله حتى أداء الفرائض يدعو الإنسان ربه أن يعينه عليها وأن يهديه لأقومها ولأحسنها قبولاً أن في هيئتها أو في نوعها.

* كما أن الآيات تشير إلى أن الله تفضل على الإنسان بأن جعل السنن الكونية على هذا النحو من النهار وما يعمل به والليل وما يستفاد منه فهي جميعاً فضل من الله تعالى، حتى خلق

الجبال والأنهار والشمس والقمر وغيرها.

* لقد ربط الله تعالى الرزق بالسنن الكونية من ناحية التفضل فإنه تعالى بعد أن ذكر الليل والنهار والأرض والسماء وتفضله جل وعلا على الإنسان بأن جعلها على هذه الكيفية ذكر أنه رزق الإنسان الطيبات.

وهذه جميعاً تحتم على المسلم والإنسان ألا يعبد سوى الله وأن يوحد في ذاته وصفاته وأفعاله وأفضاله.

اعتزاز الرسول ﷺ بإيمانه وهو قدوة للمؤمنين

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأَمْرٌ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾ ﴾

علاقة الآيات بما سبقها :

في الآيات السابقة بين السنن الكونية التي لا يمكن أن يدعيها أحد من الطغاة أو المعبودين من قبل المشركين وعلى هذا فتكون هذه الآيات تبين إفراد الله عز وجل بالعبادة ونفي الشركاء فهو خالق الكون ومدبره وهو خالق الانسان من التراب وجعل له سنة للتناسل والتكاثر.

فلا يستحق العبادة غيره ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

التفسير الإجمالي

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ..

فالله عز وجل هو الذي أوجد الإنسان من عدم وقد خلقه من تراب، والتراب كما يقول العلماء أصل الأحياء جميعاً من نبات وحيوان.

فالنبات يصنع غذائه من التراب والماء والضوء فتتكون جميع أنواع الأغذية التي يقوم بها جسم الحيوان والإنسان. وكلما تقدم الأحياء في سلم التقويم كلما خف تعقيد صنع الغذاء.

فالنبات يصنع الغذاء الذي يتناوله الحيوان من التربة والماء والضوء فيتكون كربوهيدرات وأملاح وبروتين والإنسان يأخذ غذائه من الحيوان والنبات جاهزاً، فيأخذ لحم الحيوان وفاكهة النبات الذي تكون فيها مكونات الغذاء جاهزة وكاملة، فأما أن يكون المقصود خلق آدم من التراب ثم قامت عملية التناسل أو أن المقصود حتى هذه النطف تكونت من الدم والعظام وتكونت الأخيرة من التراب الذي تكلمنا عن المراحل التي مر بها الغذاء.

والأرجح هو خلق آدم من التراب ثم خلق من آدم حواء التي هي زوجه ثم بدأ التناسل.

فتكون الجنين من الحيوان المنوي الذكري بعد إتحاده مع البويضة الأنثوية ثم يتطور الجنين في رحم أمه تطوراً يختصر الأحياء جميعاً من أحادي الخلية إلى الخلق الكامل وهذه المراحل التي تكلم عنها القرآن الكريم لم تعرف إلا بعد القرآن بقرون.

ثم يكون طفلاً كاملاً فيخرج من رحم أمه ضعيفاً يعتمد على أمه في كل شيء ثم ينمو ويشد حتى يكون في أقوى مرحلة تقريباً بين الثلاثين والأربعين ثم يعود إلى الضعف.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الموت يكتنف جميع المراحل فقد يصيب الجنين فيسقط وقد يكتمل خلقه فيموت عند الولادة وقد يموت طفلاً أو شاباً أو شيخاً ﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَوِّقُ مِنْ قَبْلُ ﴾.

وأي عاقل ينظر إلى هذا التطور الحياتي ولا يرى له سبب إلا مشيئة الله وقدرته فلا الحياة لها علة واضحة ولا الموت له سبب منضبط فأبي عاقل يلاحظ هذه الحقائق التي تجري ونحن

محكومون بها إلا ويدعن إلى الحقيقة العظمى وهي أن هذا الكون بمجموعه وبأجزائه أفراداً محكوم بإله قادر قاهر لا يعترض عليه غيره ولا يدرك أحد حقيقة ما يجري إلا من أطلعه الله عليه، فالعاقل يقر بوجود هذه القوة ويقر بوحدانية الله سبحانه، وبالوهيته إضافة إلى ربوبيته. فالحاكم في الكون والمدير له والمسير له والذي وضع قوانينه وسن سننه هو الله سبحانه، وهو الذي يحيي من عدم ويعدم الحياة ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.. ولا يكلفه شيء في إيجاده ولا إعدامه حيث أن كلمته للشيء كن فيكون أي شيء أراد، صغيراً أو كبيراً عظيماً أو حقيراً. فهو المتفرد بالكون الفاعل الوحيد فيه ولا فعل لغيره إلا بإذنه وتوفيقه. وهذه الحقائق يجب ان تكون نصب عين المتحاورين.

علاقة المقطع بمحور السورة:

يقول الله سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

ألم يكن هذا تلقينا من الله عز وجل للرسول ﷺ جوابا للمجادلين أو حجة على مناقشين؟! فالآيات تشير إشارة واضحة إلى أن الرسول يناقش قوما يطلبون منه الإنصراف عما يعبد، فالصراع بين الصواب والخطأ والحق والباطل ظاهر جدا في هذا المقطع.

الهداية في الآيات:

توجيه الرسول ﷺ ليعلم الناس أن هذه السنن ومنها خلق الإنسان ومراحل تكوينه في رحم أمه والموت والحياة وعدم وجود ضابط لهما معروف وإنما هي جميعاً بأمر الله. إن هذه جميعاً تدعو للإيمان واليقين أن الله هو الفاعل الوحيد بالكون وإنه لا إله إلا هو.

وعيد للمشركين بمصيرهم في الآخرة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ
وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَعْلَى فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ
مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا
يُرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

علاقة آيات المقطع بما قبلها

بعد أن بين الله عزوجل هذه الحقائق وكيف خلق الله الانسان وتطوره في رحم امه ولم
يؤمن هؤلاء ولم يذعنوا للحق الواضح وبقوا في جدلهم العقيم جاءت هذه الآيات تبين لهم
مصيرهم وما أدى اليه نكرانهم للحق ﴿ إِذِ الْأَعْلَى فِي أَعْتَقِهِمْ ﴾

التفسير الإجمالي

وبعد أن رأيت الذين يغالطون ولا ينصاعون إلى برهان عقلي أو علمي فما عليك إلا أن
تصبر كما صبر الرسل قبلك وكما هو شأن جميع المصلحين.

وتبقى السورة بمحورها وحوله ويبقى الفرقاء كل يرد حجة الآخر كما تحكي السورة
فالمشركون يجادلون في آيات الله ويحتجون على الدلائل الواضحة والبيانات الملزمة، ولكنهم
مصروفون عن الحق الأبلج ومن العجيب أنهم لا يذعنون بالحق المبين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ ﴾ .. فيذهبون كل مذهب لبيتعدوا عن الحق، فهم
مغالطون فقد كذبوا رسل الله وكذبوا كتبه، فالكتاب هنا إما أن يكون جنس الكتاب فيعني
الكتب المنزلة من الله جميعاً أو كتاب الله القرآن الذي جمع كل ما جاءت به الكتب السابقة من

الهدى أو أنهم كذبوا حكم الله الذي قرره الكتب وكذا كذبوا ما جاءت به السنة النبوية.

وفي الآية تهديد لهم بقول الله عز وجل ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾.. فإن الله تعالى سيجمعهم يوم القيامة وسيحاسبهم عن هذا الكفر وهذا العناد والمغالطة، وقد ذكر الله عقوبتهم كأنها واقعة فعلاً ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١).. والغل هو الحلقة التي تجمع أيدي الأسير إلى عنقه وفيها سلسلة من حديد تسحبهم الملائكة على وجوههم في النار أو أنهم يسحبون هذه السلاسل المحمرة من نار جهنم لتعذيبهم فيها وقيل أنها تثقلهم في جهنم فكلما طفا بهم اللهب أعادتهم السلاسل إلى القعر:

وعلى المعنى الأول تسحبهم الملائكة على وجوههم في الحميم وهو صديد أهل النار أو الماء الذي بلغ غايته من الحرارة.

ثم تسخن بهم نار جهنم فهم وقودها كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. وتلأ فيهم من سجرت التنور ملأتها حطباً ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) [ق: ٣٠] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) وهذا هو نتيجة قوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾، فيخاطبهم خزنة جهنم أين ما كنتم تشركون مع الله أين أصنامكم أين أهتكم التي تشركونها مع الله في التوجه وطلب الحاجات. هل تستطيع أن تخرجكم من العذاب؟!

وهي صورة من التبكيت والاستهزاء فكأنهم ما كانوا يشركون مع الله، إذ يرون عظمة الله وعظمة ما يفعل فيتضاءلون إلى أدنى دركات الانحطاط والهوان.

ويكون جوابهم للملائكة يدل على التخبط والتردد إذ يقولون ضلوا عنا واختفوا ولا ندري مصيرهم، ثم يستنون: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾، وهذا الجواب يكون بإنكارهم الشرك أصلاً أو وصفهم لمعبوداتهم أنهم ليسوا بشيء يعتد به أو يركن إليه قالوا ﴿ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾، وبهذا يظهر ضلالهم الذي اكتسبوه بعنادهم وكفرهم ومغالطتهم وصدودهم عن الحق المبين وأثبتته الله لهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾..

وهي من قبيل ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ثم جاء تعليل القرآن الكريم لهذا الضلال ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ .. بعضيائكم وتبجحون بمخالفتكم شريعة الله ودينه وهكذا شأن الكافرين والعصاة، فحتى لو كان داخلهم يخرق وتميز من الغيظ والحنق على نفوسهم وعلى معاصيهم فإنهم يظهروا للناس أنهم سعداء فرحين. وهذا من قبيل تماديهم بالمعاصي والجحود وبدل عليه (بغير حق) ففرحكم لم يكن في مكانه ولا مناسب لأوضاعكم بمخالفتكم للحق والعقل والقيم الثابتة التي جاء بها رسل الله والدعاة.

ففرحكم هذا أو إظهار هذا الفرح والتبجح والتكبر على خلق الله والأشر والبطر على عباد الله أودى بكم إلى هذا المصير. وهو التبري من الآلهة واحتقارها واحتقار أنفسكم بإتباعها الغي، وعبادتها لما لا يستحق هذه العبادة ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥) ..

فنتيجة هذا العناد والكفر والإصرار عليه في الدنيا وعدم التفكير بالتوبة والرجوع إلى الحق وسلوك طريق المؤمنين ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .. فأى عاقل يستبدل باقية بفانية؟ وحياة قصيرة الأمد يفضلها على حياة خالدة باقية ليس لها انقطاع ولا لنعيمها زوال ولا لعذابها توقف.

ولكن أكثر الناس للحق كارهون وتدفعهم شهواتهم إلى مخالفة أحسن القيم وأوضح البراهين وأبين الدلائل.

﴿فَيْئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ .. وبئس كلمة ذم، وهل يلحق الذم شيئاً أولى من جهنم وهذا هو مقام الذين كبر على نفوسهم إتباع الرسول ﷺ والاصطفاف مع المؤمنين، لأن في المؤمنين فقراء وناس غمر ليس لهم في المجتمع الجاهلي أثر وخطر، فنتيجة هذا التكبر هو الاستقرار في الأم دار في جهنم وبئس المصير وتعس سكانه وخاب أولياؤه.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .. لقد وصى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالصبر مرتين في هذه السورة، مرة حينما ضرب له مثلاً في انتصار موسى على فرعون بعد وعده له ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .. فأنجز وعده ونصر موسى وقومه الضعفاء الغمر على فرعون أعتى الطغاة وجنوده الكثر الأشداء. فهي صورة من الصور التي تحكي علاقة الدعاة بأقوامهم ومصير الدعوة الحق.

فقال الله عز وجل لرسوله ﷺ: اصبر إن مصيرك كمصير موسى، إذ نصره الله ومصير من كذبك وكفر بدعوتك مصير فرعون وملأه، إذ أنهم ليسوا أقوى من فرعون ولست أضعف من موسى وقومه.

وفي هذا المقام أمر الله رسوله ﷺ بالصبر ثم فصل له عاقبة هذا النصر ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .. فهو الثابت الواجب الصحيح فلا يخلف الله وعده، فإن نالك يا أيها الداعية تعب أو نصب أو مشقة أو أي امتحان فإن العاقبة للدين الحق وللشريعة التي تكفل لأتباعها السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة النعيم المقيم الذي لا يقدر قدره.

﴿ فَكَيْمًا تُرِيئُكَ بَعْضَ الَّذِي يَعْلَمُ ﴾ .. من سوء العاقبة والقتل والذل كما كان يوم بدر وفتح مكة ونفوذك في جميع جزيرة العرب وظهور جنودك خارج الجزيرة في مؤتة وتبوك. وقد لاحظ هذا الرسول الكريم ﷺ وانتصر بنفسه في هذه المعارك التي قادها وأذل الشرك والمشركين ولم ينفعهم جدهم ولا تكبرهم، وأن هذه السورة مكية وهذه الوعود إذ كان المسلمون أشد ضعفاً وإما أن ينصر الله دعوتك بعد وفاتك كما هيأ الله لأبي بكر ﷺ خليفتك وصاحبك وأحب الناس إليك حيث أعاد الجزيرة العربية إلى الإسلام بعد أن حاول الأعراب نكث العهد والارتداد عن دين الله ثم خرج بدعوة الله إلى العراق والشام ولم يقض ﷺ حتى وصل جنوده عاصمة الدولة البيزنطية بالشرق (سوريا) وحتى سيطر جنود أبي بكر ﷺ دعاة الإسلام إلى حدود عاصمة الفرس وأخذ بعض أطراف دولتهم ﴿ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا لَنُرجِعُونَ ﴾ .. وقد أكد القرآن الكريم هذه الدعوة وهذا النصر في هذه الكلمات التي تحكي النصر في حياة الرسول ﷺ

وبعد موته بالنون في الجزأين من الآية.

فاطمئن أيها الرسول الحبيب فإما أن تنتصر وإما أن ينتصر جنودك حاملي دعوتك والله يرعاهم وإليه يرجعون في الحالتين فالنصر حليفهم ما داموا متمسكين بشريعة الله مقاتلين لإعلاء كلمة الله. وسيعود المشركون إلى جهنم وينصرك عليهم في الدنيا والآخرة.

وينتهي المقطع النقاش في هذه الحقيقة التي أشير إليها بأساليب مختلفة.

علاقة الآيات بالمحور

وتبقى السورة مع محورها وبيّن الله عزوجل عقم جدل المشركين فإنهم لا ينصاعون للحق ويبقى جدلهم لاقيمة له فيؤدي بهم إلى المصير المهين الذي يستحقونه لعدم انصياعهم للحق الأبلج.

فان الحجج التي يدلي بها المؤمنون مستقاة من القرآن الكريم والسنن الكونية وسيرة المصطفى ﷺ فلا بد أن تفحم المشركين لأن حججهم منبعثة من اهوائهم وشهواتهم.

الهداية في الآيات:

- * إن نهاية المجادلين عناداً ومغالطة وتكبراً مصيرهم إلى النار ثم أن الله تعالى سيحاججهم بواسطة ملائكته وأن المشركين يوم القيامة يتبرؤون من شركهم ومن الذين أشركوا.
- * وبراءتهم تدل على أنهم حينما عاينوا الحقيقة وعرفوا أن الله هو الواحد الفاعل في الكون نسوا جميع عقائدهم حتى خيل لهم أنهم لم يكونوا يشركون أصلاً، فكيف يشركون وهذه الحقيقة العظمى أمامهم.
- * ما أتفه ما أشركوا وكيف لعاقل أن يتصور أن هذه الأشياء أو هؤلاء الأشخاص لهم قيمة أمام هذه الحقيقة الكبرى العظيمة.

تطمين الرسول ﷺ ووعده بالانتصار له ولدعوته

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله

بعد أن بين الله مصير المشركين طمأن الله نبيه بأن النصر حليف دعوته وما عليه إلا الصبر.

ثم جاءت هذه الآيات تقول إنك لست وحدك وإنما هي كوكبة من رسل الله جاءت بها جئت به وأهلك الله الظلمة الذين لم يؤمنوا بالرسول وانتصر لرسله وللمؤمنين.

التفسير الاجمالي

وهؤلاء الذين يكذبون رسل الله ويديرون ظهورهم للحق ولا يجنون أن يهتدوا إلى الصواب ألم يروا كيف فعل الله بالأمم الضالة المكذبة فهل مصيرهم بإصرارهم على الكفر إلا كمصير أولئك الذين سبقوهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ..
فبعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على ما ناله من أذى أخبره أنه لم يكن الوحيد الذي ناله ما ناله، فقد أرسل الله قبلك رسلاً نالهم ما نالك من الأذى وهذه سنة الله في الرسل ودعاة الإصلاح.

فإن فساد المجتمعات يستفيد منه ذوي النفوذ والسطوة وقد يكونوا هم أنفسهم سبب الفساد بسلوكهم وتعاملهم مع الآخرين، فلذا يواجه المصلحون أشد أنواع الأذى والعذاب

من هؤلاء.

وأشار عز وجل أن بعض الرسل لم يذكرهم في القرآن الكريم ولم يخبر عنهم رسوله الكريم ﷺ.

ويبدو والله أعلم ان الله اختار مجموعة من الرسل وقص خبرهم على الرسول ﷺ وترك الآخرين لحكمة. فإن قصص الرسل مع مجتمعاتهم فيها عبرة ﴿ لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]. ولا تكون القصة عبرة إلا إذا كانت وصفاً لحالة إنسانية قابلة للتكرار.

فاختار الله تعالى هذه القصص التي تحكي صور مجتمعات إنسانية منحرفة أرسل لها الله الرسل لإصلاحها. وهذه المجتمعات التي قص الله أخبارها للرسول ﷺ تمثل جميع أنواع الانحرافات التي قد تقع في المجتمع الإنساني وهي أيضاً نموذجاً لكل ما يلاقي الرسول والدعاة من الفتنة والعنت والتكذيب ويحكي القرآن الكريم علاج الرسل لها وردود الفعل الذي تحدته الدعوة فيها وانتصار الحق في آخر المطاف. على أن القاسم المشترك فيها جميعاً هو فساد العقيدة.

فنظرة فاحصة لهذه القصص نجدها تمثل جميع أنواع الانحرافات في المجتمع الإنساني الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما يندرج تحتها وبسببها من أحوال وصور.

فالقرآن الكريم قص لنا هذه الانحرافات وعلاج الرسل لها ومجابهتهم من قبل المستفيدين من هذه الانحرافات.

فمثلاً قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومجتمعه الذي يعبد النجوم. وصالح عليه السلام وتنفيذ مراكز القوى والعصابات. وشعيب عليه السلام، والغش في التعامل المالي. وقارون وتمركز المال عنده وإفقار المجتمع. وموسى عليه السلام، والطغيان السياسي وتأليه الحكام لأنفسهم. وقصة لوط، والانحراف الجنسي وهكذا في جميع قصص القرآن الكريم.

ولذا فإن الله عز وجل ذكر ما فيه الكفاية لرسم صورة صادقة للمجتمع الإنساني وعلاج الخلل فيه مما يتكرر حدوثه في المجتمع عبر الزمن ومما يستفيد منه الدعاة إلى يوم القيامة وهذه السورة تحكي لنا حالة من المغالطات والنكوص والعناد غير المبرر للحق والخير والهدى.

وقد مرت بنا صور لهذا الجدل وهذه المغالطات وفي هذه الآيات صورة من صور المغالطات، فإن المعاندين حينما لا يجدون حجة على الرسول ولا يستطيعون رد بينات الله التي أعطاه إياها أو رافقه بها يلجؤون إلى طلب معجزات ليس لها مبرر ولا سبب.

كما طلبوا من نبينا ﷺ أن يكون له بيت من زخرف وأن يأتي ملك معه يصدقه وأن ينزل لهم كتاب في (قرطاس) وهم جميعاً يعلمون أنها مجرد المغالطة.

فيجيب الله عز وجل عن نبيه ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.. فلم يكن النبي هو الذي يختار المعجزة وإنما هي من الله أصلاً والله يعلم ماذا يريد المجتمع وماذا ينفع الدعاة وقد لا يعلم النبي حقيقة المعجزة كما خاف موسى من معجزته ولذا فإن معجزة الرسول محمد ﷺ القرآن الكريم وفيها قال ﷺ: (أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)^(١). ولو نظرنا إلى المجتمعات الإنسانية نجد المسلمين أضعاف أضعاف كل دين من الأديان الراهنة.

فإننا نجد في عصرنا دولاً ومجتمعات تسمى نصرانية ولكن كم منهم يتدين بالنصرانية حتى المنحرفة فنجد نسبة الذين يتدينون بالنصرانية فيمن يسمون نصارى نسبة ضئيلة جداً لا تكاد تكون ١٠٠٪ واحد من كل ألف منهم ويسمون نصارى تجوزاً والانتساب كأنه قومي أو عرقي^(٢).

(بينما نجد نسبة المتدينين من المسلمين في المسلمين أكثر من ٨٠٪ ثمانين في المائة ولا نجد مسلماً إلا وعنده مصحف في بيته ويعلم شيئاً عن الدين وما يحتاج له في حياته. وهذا مصداقاً

(١) متفق عليه. صحيح البخاري (٤٩٨١)، صحيح مسلم (٢٣٩).

(٢) في استبيان عمله أحد الطلاب في جامعة قطر والمجتمع القطري فكانت النسبة أكثر من ٩٠٪ لكني اعتبرت قطر أكثر البلدان الإسلامية في نسبة التدين.

لقوله ﷺ أو إجابة دعوته (أرجو أن أكون أكثرهم تابعا)^(١).

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .. فأنزل هذه المعجزات

لتقييم الحججة على الناس ويصدق رسوله.

فإن المعجزات تكون مخالفة للنواميس الكونية التي يسير الله بها أجزاء الكون فإذا خرقت على يد مدعي النبوة فإنها شهادة له بصدقه لأن هذه النواميس لا يستطيع البشر مخالفتها أو الخروج منها فيعلم الناس أن هذا الإنسان مرسل ممن خلق هذه السنن وإلا لما استطاع هو كبشر أن يخالفها.

فإذا أقيمت الحججة على البشر وبقي منهم معاندون فإن الله عز وجل يجمعهم يوم القيامة ويقضي بينهم بالحق ولا يجد المغالطون والمجادلون بالباطل حجة ويعلمون أنهم نالوا جزاءهم العادل ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُؤْبَانَا﴾ .. ويعلمون أن جدالهم وعنادهم لا ثبات له ولا بقاء أمام الحقائق التي أرسل الله بها الرسل.

والمراد بأمر الله: قضاؤه أو يوم القيامة، وأي من المعنيين يشير إلى إنجلاء الحق ووضوح الحججة الصحيحة وخسران المعاندين والمغالطين. الذين يحاولون دحض حججتك بجدل باطل وحجج كاذبة لا قيمة لها.

وقد عقب عز وجل ذكر فضله على الإنسان بتكليف السنن الكونية بما يلائم حياته أعقبها بذكر منته تبارك وتعالى بخلق ما يعينه على الحياة في الأرض من مأكّل وملبس وانتقال فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .. والانعام هي المواشي وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ما يؤكل ولا يركب ومنها ما يركب ولا يؤكل كالحمير والبغال ومنها ما يؤكل ويركب هي الإبل ويقول أهل اللغة لا يقال أنعام إلا إذا كان

(١) قال أحد المستشرقين إن من يحفظون القرآن في مصر أكثر ممن يحفظون الانجيل في جميع العالم وهذا في الأربعينات حينما كان حفاظ القرآن في مصر يعدون.

فيها إبل وأحياناً تطلق النعم على الإبل خاصة والإبل هذه المخلوقات العجيبة في شكلها وفي تحملها وفي سلوكها، فهي الوحيدة من الحيوانات التي تحمل وهي باركة وتقوم بحملها ولها قابلية العيش بدون ماء أكثر من أسبوع لأنها تحتزن الماء في جسمها.

ومن عجيب خلقها أنها لا تتسافد أمام الناس فلا يأتي الذكر أثناءه أمام الناس، فهي تستحي أكثر من كثير من البشر. ولبنها غذاء كامل. ولا يسعفنا الوقت ولا المقام في الحديث عن الإبل أكثر من هذه الكلمات.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَكَ تُحْمَلُونَ ﴾

﴿٨٠﴾ .. وقد ذكر الله عز وجل جانين من الانتفاع ثم عقب بالتعميم فقال ولكم فيها منافع ومن المعلوم أن هذه الأنعام ينتفع بلحمها وجلدها وشعرها وجميع هذه المنافع لا يستغني عنها الإنسان، والإبل خاصة كانت واسطة التنقل بين البلدان فالمسافات الطويلة لا تدرکها إلا الإبل، وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم أي في نفوسكم وقرنت بالفلك فإن في الفلك سراً أودعه الله بها من عجيب خلقه، فإن السفينة لو جمعت أجزائها على شكل كروي أو أي شكل آخر غير مجوف والقيت في البحر لرسبت في قاعه ولكن الله جعل قانون الأجسام الطافية وهو أن كل جسم يوضع في سائل يفقد من وزنه بقدر وزن حجمه من ذلك السائل، فألمه الله سبحانه الإنسان أن يبسط مادة السفينة إن كانت من معدن أو من خشب حتى يكون حجمها من الماء يزن أكثر من وزنها ووزن ما فيها من بضائع وملاحين ومن فيها فتطفو على ظهر الماء هذه الخاصية التي هدى الله الإنسان إليها فأصبحت جزء من حياته ربما لا ينتبه إلى هذا التعقيد في قوانين الطبيعة التي خلقها الله فيها.

وقد قرن الله الإبل بالسفن حتى إن العرب تسمي الإبل سفن الصحراء لأنها تتشابه في أنها التي تقطع المسافات البعيدة في البر كما السفن في البحر.

وأمام هذه الآيات وهذه الدلائل والبراهين هل ينكر وحدانية الله وتصرفه في الكون إلا جاهل مغالط. فعلام الجدل اذن وما الذي يبطل هذه الحجج وهذه البراهين.

فلو كان فيها أكثر من إله لما استقام أمرها وانسجم وأدت وظائفها كما ينبغي وكما هو حاصل.. فتبارك الله رب العالمين أحسن الخالقين.

علاقة المقطع بالمحور

بين الله في هذه الآيات ما أنعمه على الانسان من تسخير الأنعام له في استخدامها لراحته وأخذ غذائه منها وهي حقائق ثابتة لا ينكرها إلا جاهل ولذا قال تعالى في آخر الآيات ﴿ وَرَبِّكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ (٨١) فهو رداً لحجج المشركين وإعجازهم.

الهداية في الآيات:

- * إن الرسل تصدق عليهم كلمة الرسل بكل أبعادها فإنهم مبلغون عن الله ليس لهم أن يبلغوا أكثر ولا أقل مما أرسلوا به، حتى معجزاتهم ليس لهم دخل فيها وفي أغلب الأحيان لا يعرفون حقيقتها فإن موسى عليه السلام خاف من عصاه التي جعلها الله حية تسعى.
- * وأن الرسول ﷺ لم يستطع أن يخبر عن القرآن أو شيئاً منه إلا بأمر من الله وتقدير في الوقت والموضوع والكمية التي تنزل من القرآن الكريم فلا يتحكم الرسول في موضوع النازل من القرآن ولا كميته ولا وقته.
- * وهذا يدفعنا إلى أن نؤمن بأن لا إله إلا الله وأن محمد ﷺ رسول الله وكذا جميع الرسل الذين أخبر عنهم القرآن الكريم، وأن نؤمن أن هناك رسلاً لم يخبر عنهم الباري جل جلاله الرسول ﷺ بهم ولم يذكرهم في القرآن الكريم.

تأكيد على انتصار الدعوة وضرب الأمثال من الواقع والتاريخ

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

علاقة المقطع بما قبله

ففي آخر آيات المقطع السابق قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَتَىٰ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ وفي هذه الآيات يقول عز وجل إن هذه الدلائل وهذه الحقائق مثبتة في الكون فلو أنكم نظرتم لما حولكم نظرة عاقل لتيقنتم ان الله عز وجل هو المعبود الحق وهو القادر والفاعل الوحيد في الكون.

التفسير الاجمالي

يعود القرآن للتذكير والتهديد فإن من كانوا قبل العرب أصحاب حضارة وقوة وكثرة فلما جاءتهم الرسل كذبوهم فجاءهم بأس الله وعذابه وشدة عذابه وأن هذه الآثار تدعو العاقل للإيمان والتصديق بالرسل فإن الفراعنة كانت لهم قوة وسيطرة ونفوذ وآثارهم باقية إلى يومنا هذا ومدائن صالح ومدائن هود شاخصة، ألم تكن هذه كافية ليعتبر العاقل بما جاءت به الرسل.

والخطاب هنا للعرب حينما جاءهم الرسول ﷺ يلفت القرآن الكريم أنظارهم إلى هذه الآثار وهم يعرفونها بأسفارهم إلى الشام والأحاديث التي تأتيهم من مصر.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .. والسؤال استنكاري لأن جوابه معلوم لديهم ولكنهم لا يعتبرون. فإن هذه المدن تدل على قوة ساكنيها

لأن بعضها محفور في الصخر ومنشأ في الجبال وبنظام هندسي عجيب حتى في وصول الماء إليها.

لكنهم حينما كذبوا الرسل لم تمنعهم قوتهم ولا حصونهم من بأس الله فقد كانت عاقبتهم الهلاك والدمار وأصبحت بيوتهم خاوية لم تسكن بعدهم. ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ .. فقد كان العرب أقل الناس حضارة وآثاراً في الأرض وهذه آثارهم قبل الإسلام لم تكن ذات قيمة وخاصة في نجد والحجاز. ﴿فَمَا آغَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلم تنفعهم تجارتهم ولا كثرتهم ولا حصونهم وبيوتهم التي بنوها في داخل الجبال أو داخل الحصون.

والآية تكررت في السورة مرتين المرة الأولى بعد التهديد والتذكير بأن الله تعالى مهلكهم وأنه سوف يجمعهم يوم القيامة وفيها وصف ليوم القيامة في بعض أحواله وصفاته.

وهنا ذكرها الله بعد تعداد نعمه وآلائه وما سخره للإنسان من سنن كونية وأنعام لتسهيل حياته والعيش على الأرض وقد ذكر الله من السنن والأنعام ما لا يستطيعون جلبها أو تهيتها كما لا يمكن أن يخلقوا شيئاً ولا أن يخرقوا قانوناً من القوانين التي سخر الله بها الكون.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ ﴾ .. فقد رأوا أن ما جاءت به الرسل أقل مما عندهم من العلم وهكذا فعلماء الدنيا يخيل لهم أنهم يعرفون كل شيء من حيث أنهم لا يعرفون شيئاً ﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧]. وأن الله أودع كونه أسراراً لا يعلمها إلا من أطلعه الله عليها ولكن تكبرهم وإشهرهم يخيل لهم أن علوم الرسل ليست بمستوى علومهم فأخذهم الغرور وترفعوا على ما جاءت به الرسل فاستهزؤوا بالرسل وبما جاءوا به ولكن كيدهم كان في نحورهم وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون فكان وبالاً عليهم ولعنة، فلما أخذهم الله بذنوبهم ونالهم العذاب علموا أن الله حق وأن لا إله سواه ولكن هذا الإيمان أما أن يكون إيمان اضطراراً أو إيمان مشاهدة وبناء على ذلك لم ينفعهم إيمانهم لأن الله عز وجل وصف المتقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣].

وهذه سنة من سنن الله الذي حكم بها الكون إذ أن الإيمان الحق هو الإيمان الذي يختاره صاحبه وهو قادر على مخالفته فيكون فضله في تفضيل الإيمان على الكفر. ولذلك وفي الآخرة أو عندما يشاهد الانسان الحقائق لا ينفعه إيمانه لأنه كما قلنا إيمان اضطرار. وعليه فقد خسر الكافرون أنفسهم وخسروا عقيدتهم وخسروا مكانتهم التي كانوا يعتزون بها. وهكذا ينتهي الحوار في السورة ويظهر مصير الفرقاء.

علاقة المقطع بالمحور

وبعد ان انتهى الجدل والمحااجة وآمن من فتح الله قلبه لقول الحق وأصر من غلبته شقوته على الباطل الذي هو فيه وحافظ على مركزه الاجتماعي وتكبر على السير في صف المؤمنين بعد بيان هذا جميعا وبعد الصراع المرير وإدلاء كل بحجته بين الله عز وجل أن المشركين حينما يحشرون سيؤمنون بما جاءت به الرسل ولكن لا ينفعهم حينئذ إيمانهم.

الهداية في الآيات:

- * إن الله جعل طريق الإيمان الصحيح هو التفكير في الكون وتدبر آيات القرآن الكريم.
- * فمن صفات العقيدة الإسلامية أن الإنسان كلما تدبر في الآيات وتفكر في الكون زاد إيمانه وقرب يقينه وهذا من فضل الله على المسلمين
- * فإن الديانات بعد تحريفها والتي يعتقد بها أصحابها الآن حينما تفكر في حيثياتها تجدها لا يؤمن بها عاقل.

الفهرس

الصفحة	السورة
١	الروم
٢٥	لقمان
٤٧	السجدة
٦٣	الأحزاب
١٦٥	سبأ
٢٣٣	فاطر
٢٩٣	يس
٣٣٩	الصفات
٤٣٧	ص
٤٧٣	الزمر
٥٢٥	غافر



مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS

Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

